

قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

الشرق الأقصى الصين

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الرابع من المجلد الأول



تونس

٤



بيروت

فهرس الخرائط والأشكال

الصورة	الصفحة
خريطة الشرق الأقصى	١
١ - علبة للحل من اللك الأزرق	١٦٧
٢ - ستار كانج - شى المظلي باللك	١٦٩
٣ - تمثال من البرنز لـ جوان ين	١٧٤
٤ - القصر الصيفى فى پينج	١٨١
٥ - هيكل السماء فى پينج	١٨٢
٦ - صورة ملونة لثلاثة عشر إمبراطورا	١٩٠
٧ - صناعة الحرير	١٩٨
٨ - منظر طبيعى	٢٠٠
٩ - مزهية عاها نقش	٢١٥



الشرق الأقصى

الكتاب الثالث

الشرق الأقصى

الصين

يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان السمراء أحراراً في قرض الشعر ،
والناس أحراراً في تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحراراً في قول الحق ،
والوزراء أحراراً في إسداء النصيح ، والفقراء أحراراً في التذمر من
الضرائب ، والطلبة أحراراً في تعلم العلم جهرة ، والبمال أحراراً في مدح
مهارتهم وفي السعي إلى العمل ، والشعب حراً في أن يتحدث عن كل شيء ،
والشيوخ أحراراً في تخطئة كل شيء .

من خطبة ألقاها دوق چو بين يدي الملك لي - وانج

حوالي عام ٨٤٥ ق . م (١)

تاريخ مسلسل للحضارة الصينية(*)

قصة جونج - دُو	قبل الميلاد	قبل الميلاد	حكم أسطوريون
كنفوشيوس نائب	٤٩٨	٢٨٥٢ - ٢٢٠٥	فوشي
المشرف على الأشغال العامة في دوقية لو		٢٧٣٧ - ٢٦٩٧	شن نونج
كنفوشيوس وزير الجرائم	٤٩٧	٢٦٩٧ - ٢٥٩٧	هوانج دي
استقالة كنفوشيوس	٤٩٦	٢٣٥٦ - ٢٢٥٥	ياو
عهد تجوال كنفوشيوس	٤٩٦ - ٤٨٣	٢٢٥٥ - ٢٢٠٥	شون
الفيلسوف مو دي	٤٥١	٢٢٠٥ - ٢١٩٧	أسرة شياه
عهد الولايات المتنازعة	٤٠٣ - ٢٢١	١٨١٨ - ١٧٦٦	جيه جوا
الفيلسوف يتنج چو	٣٩٦	١٧٦٦ - ١١٢٣	أسرة تانج (وين)
الفيلسوف منشيوس	٣٧٢ - ٢٨٩	١٧٦٦ - ١٧٥٣	تانج
الفيلسوف جونج - دزه	٣٧٠ (وُلد)	١١٩٨ - ١١٩٤	وي - الإمبراطور الكافر
الشاعر تشو بنج	٣٥٠ (توفي)	١١٥٤ - ١١٢٣	چوسين ، مثال الحبث
الفيلسوف شون - دزه	٣٠٥ (وُلد)	١١٢٢ - ٢٥٥	وو - وانج
هان في (من كتاب المقالات)	٢٣٣ (توفي)	١١٢٣	ون وانج (مؤلف كتاب التغيرات
استيلاء شي هونج دي على الصين وتوحيد أجزائها	٢٣٠ - ٢٢٢	١١١٥ - ١٠٧٨	تشنج وانج
أسرة لنشين	٢٥٥ - ٢٠٦	١١١٥ - ١٠٧٩	چو جونج (مؤلف چو - لي ، أو شرائع چو)
شي هونج - دي	٢٢١ - ٢١١	٧٧٠ - ٢٥٥	عصر الإقطاع
« الإمبراطور الأول »		٦٨٣ - ٦٤٠	جوانج جونج رئيس وزراء تشي
٢٠٦ ق . م - ب . م أسرة هان		٦٠٤ - ٥١٧	لَو - دزه ؟
١٧٩ ق . م - ١٥٧ ق . م ون - دي		٥٥١ - ٤٧٨	كنفوشيوس
١٤٥ ق . م (توفي) المؤرخ زوماتشين		٥٠١	كونفوشيوس كبير المصلح
١٤٠ - ٨٧ ق . م وو - دي (الإمبراطور المصلح)			

(*) كل التواريخ التي قبل ٥٥١ ق . م تقريبية ، وكل التي قبل ١٨٠٠ ب . م غير موثوق بصحتها .

بعد الميلاد	
٩٠٧	أول دائرة معارف
	صينية عظيمة
١٠٦٩ - ١٠٧٦	حكم وانج آن - شي
	رئيس الوزراء الاشتراكي
١٠٤٠ - ١١٠٦	لي لونج - مين ، الرسام
١٠٤١	في شيج يصنع حروفا
	متنقلة
١١٠٠	جودوشي الرسام
١١٠١ - ١١٢٦	هواي دزونج الإمبراطور
	الفنان
١١٢٦	التتار ينهون بيان لانج ؛
	(كاي فنج) عاصمة
	هواي دزونج ؛ فقل
	العاصمة إلى لينان
	(هانج تشاو)
١١٢٧ - ١١٧٩	أسرة زونج الجنوبية
١١٣٠ - ١٢٠٠	جوشي الفيلسوف
١١٦١	أول ما عرف من
	استخدام البارود
	في الحروب
١١٦٢ - ١٢٢٧	چنكي زان
١٢١٢	چنكي زان يغزو الصين
١٢٦٠ - ١٣٦٨	أسرة يوان (مغولية)
١٢٦٩ - ١٢٩٥	كوبلاي خان
١٢٦٩	ماركو پولو ، يغادر
	البندقية في رحلته
	إلى الصين
١٢٩٥	ماركو پولو ، يعود إلى
	البندقية
١٣٦٨ - ١٦٤٤	أسرة منج
١٣٦٨ - ١٣٩٩	تاي دزو
١٤٠٣ - ١٤٢٥	تشنج درو (يونج لو)
١٥١٧	البرتغاليون في كانتون
١٥٧١	استيلاء الأسبان على
	جزائر الفلبين

بعد الميلاد	
٢٥ -	وانج مانج - الإمبراطور
	الاشتراكي
٦٧	دخول البوذية في الصين
حوالي ١٠٠	أول صانع معروف للورق
	في الصين
٢٠٠ - ٤٠٠	غزو التتار الصين
٢٢١ - ٢٦٤	عهد الممالك الثلاث
٢٢١ - ٦١٨	الأسر الصعري
٣٦٥ - ٤٢٧	الشاعر داو تشين
٣٦٤	النقاش كوكلي تشي
٤٩٠ - ٦٤٠	عصر النحت البوذي العظيم
٦١٨ - ٩٠٥	أسرة تانج
٦١٨ - ٦٢٧	جودزو
٦٢٧ - ٦٥٠	تاي درونج
٦٥١ - ٧١٦	الرسام لي سو - شن
٦٩٩ - ٧٥٩	الرسام وانج واي
والدحوالي ٧٠٠	الرسام وو داو - دزه
٧٠٥ - ٧٦٢	الشاعر لي يو
٧١٢ - ٧٧٠	الشاعر تو فو
٧١٣ - ٧٥٦	شوان دزونج (منج هوانج)
٧٥٥	فتنة أن لو - شان
٧٦٨ - ٨٢٤	هانج يو (كاتب المقالات)
٧٧٠	أقدم ما عرف من المطبوعات
	على القوالب (الكليشيهات)
٧٢٢ - ٨٤٦	الشاعر بوجيو - في
٨٦٨	أقدم كتاب مطبوع باق
	إلى الآن
٩٠٧ - ٩٦٠	خمس « أسر صغيرة »
٩٣٢ - ٩٥٣	طبع الكتب الصينية
	القديمة على القوالب
٩٥٠	ظهور أوراق النقد
	لأول مرة
٩٦٠ - ١١٢٧	أسرة سونج الشمالية
٩٦٠ - ٩٧٦	تاي دزو

بعد الميلاد

المتحدة تستولى على
جرائر الثلثين
١٨٩٨ مراسم كوانج شو
الإصلاحية
١٩٠٠ ثورة الملاكمين
(الكسر)
١٩٠٥ إلغاء نظام الامتحان
لطالبى المناصب الحكومية
١٩١١ الثورة الطية
١٩١٢ (يناير - مارس)
صون پات - صن
الرئيس المؤقت للجمهورية
الصينية
١٩١٢ - ١٩١٦ الرئيس يوان شى - كاي
اليابان تستولى على
كياو تشاو
١٩١٥ «المطالب الواحدة
والعشرون»
١٩٢٠ الهاي هوا (اللغة
الدارجة) التي تستعمل
في المدارس الصينية ،
ذروة «المد الحديد»
١٩٢٦ سيانج كاي تشك
وبردين ، يخضعان
تتالى الصين
١٩٢٢ الحركة المقاومة للشيوعية
١٩٣١ اليابانيون يحتلون
منشوريا

بعد الميلاد

١٥٧٣ - ١٦٢٠ شن دزونج (وان لى)
١٦٣٧ التجار الإنجليز في
كانتون
١٦٤٤ - ١٩١٢ أسرة تشنغ (المانشو)
١٦٦٢ - ١٧٢٢ كافج شى
١٧٣٦ - ١٧٩٦ تشين لرنج
١٧٩٥ تحريم تجارة الأفيون
للمرة الأولى
١٨٠٠ تحريم تجارة الأفيون
للمرة الثانية
١٨٢٣ - ١٩٠١ لى هنج - تشانج
السياسى
١٨٣٤ - ١٩٠٨ تزوشى (الإمبراطورة
الأرملة)
١٨٣٩ - ١٨٤٢ «حرب الأفيون»
الأولى
١٨٥٠ - ١٨٦٤ فتنه تاي - پنج
١٨٥٦ - ١٨٦٠ «حرب الأفيون»
الثانية
١٨٥٨ - ١٨٦٠ الروسيا تستولى على
أراضى صينية شمال
نهر عامور
١٨٦٠ فرنسا تستولى على الهند
الصينية
١٨٦٦ - ١٩٢٥ صون پات - صن
١٨٧٥ - ١٩٠٨ كوانج شو
١٨٩٤ الحرب الصينية اليابانية
١٨٩٨ ألمانيا تستولى على
كياو تشاو، والولايات

الباب الثالث والعشرون

عصر الفلاسفة

الفصل الأول

نشأة الفلسفة

١ — فجر الصينيين

لقد كانت دراسة بلاد الصين عملاً من الأعمال المجيدة التي تمت في عصر الاستنارة^(*) وقد قال فيهم ديدرو : « أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الآسيويين في قدم عهدهم ، وفي فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم وحسن سياستهم ، وفي تذوقهم للفلسفة ، بل إنهم في رأى بعض المؤلفين ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة »^(١) . وقال فلتير Voltaire : « لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر في القوانين ، أو العادات ، أو لغة ، أو في أزياء الأهليين ... وإن نظام هذه الإمبراطورية لمو في الحق خير ما شهده العالم من نظم »^(٢) . وهذا الإجلال الذي ينظر به علماء ذلك الوقت إلى بلاد الصين قد حققته دراسنا لتلك البلاد عن كشب ، والذين خبروا تلك البلاد وعرفوها حق المعرفة قد بلغ إعجابهم بها غاية . انظر إلى ما قاله الكونت كيسرانج Count Keyserling في خاتمة كتاب له يعد من أعز الكتب علماء وأعظمها نفعا وأبرعها تصويراً :

(*) يطلق الأوربيون هذا اللفظ (Enlightenment) على العصر الذي سادته النزعة الفلسفية الفرنسية في القرن الثامن عشر أيام فلتير ومعاصريه . (المترجم)

لقد أخرجت الصين القديمة أكل صورة من صور الإنسانية . وكانت فيها صورة مألوفة عادية . . . وأسأت أعلى ثقافة عامة عرفت في العالم كله . . . وإن عظمة الصين لتتملكنى وتؤثر في كل يوم أكثر من الذى قبله . . . وإن عطاء تلك البلاد لأرق ثقافة من عطاء بلادنا . . . وإن أولئك السادة (*) لهم طراز سام من البشر . . . وسموهم هذا هو الذى يأخذ بلبى . . . إن تحية الصينى المنقذ لتبلغ حد الكمال ! . . . وليس ثمة من يجادل في تفوق الصين في كل شأن من شئون الحياة . . . ولعل الرجل الصينى أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم» (٢)

والصينيون لا يهتمون كثيراً بإنكار هذه الأقوال ، وقد ظلوا حتى هذا القرن (ما عدا نقرأ قليلاً في الوقت الحاضر) مجمعين على أن أهل أوربا وأمريكا برابرة همج (٣) . وكان من عادة الصينيين قبل سنة ١٨٦٠ أن يترجموا لفظ « أجنبي » في وثائقهم الرسمية باللفظ المقابل لمعجى أو بربرى ، وكان لابد للبرابرة أن يشترطوا على الصينيين في معاهدة رسمية إصلاح هذه الترجمة (**) . والصينيون كمعظم شعوب الأرض « يرون أنهم أعظم الأمم مدنية وأرقهم طباعاً » (٧) . ولعلمهم محقون في زعمهم هذا رغم ما في بلادهم من فساد وفوضى من الفاحية السياسية ، ورغم تأخرهم في العلوم ، وكدحهم في المصانع ، ومدنهم الكريهة الرائحة ، وحقوقهم الملائى بالأقذار ، وفيضان أنهارهم ، وما ينتاب بلادهم من القحط ، ورغم جهودهم وقسوتهم وفقرم وخرافاتهم ، وقلة عنايتهم بتربية أبنائهم ، وحروبهم

(*) يفصد كبار الحكام الصينيين الذين أبعدوا عن وظائفهم في تشنج - داو .
 (**) بعث العالم الصينى الذى عاون الدكتور جيلز Dr. Giles في ترجمه بعض مختارات من كتاب « جواهر الأدب الصينى » Gems of Chinese Literature قصيدة وداع مشهورة فيها هذان البيتان الجميلان .

لقد أثار الأدب من عهد بعيد عقول أمة الأمم ؛
 واليوم امتد نفوذها ليهدى موظفاً بريريا

المدمرة ، ومذابجهم وهزأهم المذلة . ذلك أن من وراء هذا المظهر المظلم الذى يبدو الآن لعين الغريب عن بلادهم مدينة من أقدم المدن القائمة فى العالم وأغناها : فن ورائه تقاليد قديمة فى الشعر ، يرجع عهدا إلى عام ١٧٠٠ ق.م ، وسجل حافل بالفلسفة الواقعية المثالية العميقة غير المعجزة الدرك ، ومن ورائه براعة فى صناعة الخرف والنقش لا مثيل لها من نوعها ، وإتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لا يضارعهم فيه إلا اليابانيون ، وأخلاق قوية قوية لم نرها نظيراً عند شعوب العالم فى أى وقت من الأوقات ، ونظام اجتماعى ضم عدداً من الخلائق أكثر مما ضمه أى نظام آخر عرف فى التاريخ كله ودام أحقاباً لم يدمها غيره من النظم ، ظل قائماً حتى قضت عليه الثورة ويكاد يكون هو المثل الأعلى للنظم الحكومية التى يدعو إليها الفلاسفة ؛ ومجتمع كان راقياً متمديناً حين كانت بلاد اليونان مسكن البرابرة ؛ شهد قيام بابل وأشور ؛ وبلاد الفرس واليهود ، وأثينة ورومة والبندقية وأسبانيا ، ثم شهد سقوطها كلها ، وقد يبقى بعد أن تعود بلاد البلقان التى نسميها أوروبا إلى ما كانت عليه من جهالة وهمجية . ترى أى سر عجيب أبقى هذا النظام الحكومى تلك القرون الطوال ، وحرك هذه اليد الفنية للصناع ، وأوحى إلى نفوس أولئك القوم ذينك العمق والاتزان ؟

٢ — الدولة الوسطى الزاهرة

وصف البلاد الجغرافى — الجنس الصينى — ما قبل التاريخ

إذا عددنا روسيا بلاداً أسيوية — وقد كانت كذلك إلى أيام بطرس الأكبر — وقد تعود أسيوية مرة أخرى — لم تكن أوروبا إلا أنفاً مسنناً فى جسم آسية ، وامتداداً يشتغل بالصناعة من خلفه قارة زراعية كبيرة ، ومخالب أو نتوءات ممتدة من قارة جبارة مهولة . وتشرف الصين على تلك القارة المترامية الأطراف ، وهى لا تقل عن أوروبا فى اتساع رقعتها وتعداد عاصرها .

وقد كان يكتنفها في معظم مراحل تاريخها أكبر المحيطات وأعلى الجبال ،
وصحراء من أوسع صحارى العالم .

لذلك استتمعت بلاد الصين بعزلة كانت هى السبب فى حفظها النسبى من
السلامة والدوام ، والركود وعدم التغير ، وهو حظ كبير إذا قيس إلى حظ غيرها
من الأمم . ومن أجل هذا فإن الصينيين لم يسموا بلادهم — الصين ، بل سموها
تيان — هوا — « تحت السماء » أو زهاى — « بين البحار الأربعة » —
أو چونج — جوو « الدولة الوسطى » أو چونج — هوا — جوو « الدولة
الوسطى الزاهرة » أو الاسم الذى سماها به مرسوم الثورة چونج — هوا —
مين — جوو — « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة »^(٨) . والحق أن الأزهار
اليانعة كثيرة فيها ، كما أن فيها كل المناظر الطبيعية المختلفة التى يمكن أن تهبها
إياها الشمس الساطعة ، والسحب السابحة ، وشعاب الجبال الوعرة ، والأنهار
العظيمة ، والأغوار العميقة ، والشلالات الدافقة بين التلال العابسة . ويجرى فى
قسمها الجنوى الخصب نهر يانج — دزه^(*) الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل ،
وفى الشمال ينحدر الهوانج هو ، أو النهر الأصفر من سلاسل الجبال الغربية مخترقاً
سهولا من اللويس ، ويحمل معه الغرين ليصبه الآن فى خليج بتشلى ، وكان من
قبل يصبه فى البحر الأصفر ، ولعله سيعود فى الغد فيصبه فى هذا البحر مرة
أخرى . على ضفاف هذين النهرين وعلى ضفتى نهر الراى وغيره من الجارى
الواسعة ، بدأت الحضارة الصينية تنتزع الأرض من الوحوش والآجام ، وتصد
عنها الهمج المحيطين بها ، وتنظف الأرض من الحسك والعُلقى ، وتطهرها
من الحشرات المهلكة والرواسب الأكلة القارضة كأملاح البوناسا وغيرها ؛
وتجفف المناقع ، وتقاوم الجفاف والفيضان ، وما يطرأ على مجارى الأنهار

(*) هو الذى يسمى عادة ييج — نى ، ويلغ اتساعه عند شتتهى ثلاثة أميال كامله .

(المترجم)

من تحوّل يعود على البلاد وسكانها بالخراب والمهلك ، وتجري الماء في صبر وحذر من أولئك الأعداء الأوداء في آلاف القنوات ، ونقيم يوماً بعد يوم خلال القرون الطوال أكواخاً وبيوتاً ومعابد ومدارس وقرى ومدناً ودولاً . ألا ما أطول الآجال التي يكبد الناس خلالها ليشيدوا صرح الحضارة التي يدمسونها في سهولة وسرعة عجيبتين !

وليس في الناس من يعرف من أين جاء الصينيون ، أو إلى أي جنس ينتسبون ، أو متى بدأت حضارتهم في الزمن القديم . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن بقايا « إنسان بيكين » (*) توحى بأن القردة البشرية جد قديمة في بلاد الصين . وقد استنتج أندروز Andrews من بحوثه في تلك البلاد أن منغوليا كلن بعمرها من عشرين ألف سنة قبل الميلاد أجيال من الناس تشبه أدواتهم الأدوات « الأزيلية » التي كانت أوربا تستخدمها في العصر الحجري الأوسط ، وأن خلفاء هذه الأجيال انتشروا في سيبيريا والصين حينما جفت منغوليا الجنوبية وأجذبت واستحالت إلى صحراء جوبي الحالية : وتدل كشوف أندرسن Anderson وغيره في هونان ومنشوريا الجنوبية على أن ثقافة تنسب إلى العصر الحجري الحديث وجدت في تلك البلاد متأخرة بالنفي عام من مثلتها في عصر ما قبل التاريخ في مصر وسومر . ويشبه بعض ما وجد من الأدوات في الرواسب الباقية من العصر الحجري الحديث ، في شكله وتسنيته ، المدى الحديدية التي يستخدمها سكان الصين الشمالية في هذه الأيام لحصاد الذرة الصينية (***) ، وهذه الحقيقة على ضالة شأنها ترجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف عام متواصلة غير منقطعة ، وهو عهد ما أطوله ، وقل أن يوجد له في غير الصين نظير (١٥) .

(*) النطق الصحيح لهذا الاسم هو بيجينج وقد نستعمله أحياناً . (المترجم)

(**) المعروفة بالسرخس

على أن طول هذه العهود يجب ألا يفشى أبصارنا فنبالغ في تجانس هذه الثقافة أو تجانس الشعب الصيني نفسه : فقد يلوح أن بعض فنونهم وصناعاتهم الأولى جاءتهم من بلاد النهرين والتركستان . من ذلك أن حزف هونان المنتمى إلى العصر الحجري الحديث لا يكاد يفترق في شيء عن خزف أنو والسوس^(١١) . والجنس « المغولي » الحاضر مزيج معقد اختلطت فيه السلالة البدائية مراراً ونكراً بمئات السلالات الغازية أو المهاجرة من منغوليا وجنوبى روسيا (السكوديين ؟) ووسط آسية^(١٢) .

فالصين من هذه الناحية كالمند يجب أن نشبهها بأوروبا بأكملها لا بأمة واحدة من أممها ؛ فليست هى موطناً موحداً لأمة واحدة ، بل هى خليط من أجناس مختلفة الأصول متباينة اللغات غير متجانسة فى الأخلاق والفنون ؛ وكثيراً ما يعادى بعضها بعضاً فى العادات والمبادئ الخلقية والنظم الحكومية .

٣ — القرون العاربة المجرورة

قصة الخلق عند الصينيين — بداية الثقافة — الحمر وعصه. الأكل — الأناطرة الأفاضل — ملك كافر

تسمى الصين « جنة المؤرخين » ؛ ذلك أنها ظلت مئات وآلاف من السنين ذات مؤرخين رسميين يسجلون كل ما يقع فيها ، وكثيراً مما لا يقع : على أننا لا نثق بأقوالهم عن العهود السابقة لعام ٧٧٦ ق . م ، ولكننا إذا ما استمعنا إلى هذه الأقوال رأيناهم يمدوننا أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام ٣٠٠٠ ق . م ، ورأينا أكثرهم تقى وصلاً كما يصفون خالق العالم كما يفعل المطلعون على الغيب فى هذه الأيام . ومن أقوالهم فى هذا أن « يان كو » أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالى عام ٢٢٩٠٠٠ ق . م بعد أن ظل يكدح فى عمله هذا ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التى كان يخرجها فى أثناء عمله فكانت رياحاً

وسحبا، وأضى صوته رعداً، وصارت عروقه أنهاراً، واستحال لجه أرضاً،
وشعره نبتاً وشجراً، وعظمه معادن، وعرقه مطراً؛ أما الحشرات التي كانت
تعلق بجسمه فأصبحت آدميين^(١٣). وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما ننقض به
هذا العلم السكوني العجيب.

وتقول الأساطير الصينية إن الملوك الأولين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف
عام، وإنهم جاهدوا أشق جهاد ليجعلوا من قمل «بان كو» خلائق متحضرين.
وتقول لنا هذه الأساطير إن الناس «كانوا قبل هؤلاء الملوك السبايين كالوحوش
العنصرية يلبسون الجلود ويقتاتون باللحوم النيئة، ويعرفون أمهاتهم، ولكنهم
لا يعرفون آباءهم» — ولا يرى استرنبرج Strindberg أن هذا الوصف الأخير
مقتصور على الأقدمين أو على الصينيين. ثم جاء من بعد هؤلاء الإمبراطور فوشى
في عام ٢٨٥٢ ق. م بالتحديد، فعلم الناس بمعاونة زوجه المستديرة الزواج،
والموسيقى والكتابة والتصوير، وصيد السمك بالشباك، وتأنيس الحيوان،
وإطعام دود القز للحصول منه على الحرير. وأوصى وهو على فراش الموت أن
يخلفه سن نونج، فأدخل هذا الإمبراطور في البلاد الزراعة، وابتدع الخراف
الخشبي، وأقام الأسواق وأوجد التجارة، وأنشأ علم الطب بما عرفه من خواص
النبات العلاجية، هذا ما تقوله الأساطير التي تولى الأشخاص أكثر مما تولى
الافكار، وتغزو إلى عدد قليل من الأفراد نتائج كدح الأجيال الطوال. ثم حكم
إمبراطور محارب قوى يدعى هوانج — دى لم يطل عهده أكثر من مائة عام،
فجاء إلى الصين بالمنطيس والمجالات، ووظف المؤرخين الرسميين، وشاد أول
أبنية من الآجر في الصين، وأقام مرصداً لدراسة النجوم، وأصلح التقويم، وأعاد
توزيع الأرض على الأهالي. وحكم يوزو قرناً آخر، وبلغ من صلاح حكمه أن
كنفوشيوس، حين كتب عنه بعد زمانه بثلاثمائة وألف عام في عهد كان يبدو له
بلا ريب عهداً «حديثاً» فاسداً، أخذ يندب ما طرأ على الصين من ضعف

وانحلال . ويحدثنا الحكيم القديم — الذى لم يستطع رغم حكمته التورع عن « الكذبة الصالحة » بضيفها إلى القصة ليجعل لها مغزى خلقيا — يحدثنا هذا الحكيم القديم أن الناس أصبحوا أفاضل أتقياء بمجرد النظر إلى يَوْ ، وكان أول ما قدمه يَوْ من معونة للمصلحين أن وضع فى خارج باب قصره طبلاً يضربونه إذا أرادوا أن يدعوه لسماع شكواهم ، ولو حاك يكتبون عليه ما يشيرون به على الحكومة ، ويقول كتاب التاريخ الذائع الصيت :

« أما يَوْ الصالح فيقولون عنه إنه حكم چونج — جُو ومائة عام لأنه عاش مائة عام وعشرة وستة ؛ وكان رحماً خيراً كالسما ، حكماً بصيراً كالآلهة ، وكان ضيأؤه يبدو من بعيد كالسحابة اللامعة ، فإذا اقتربت منه كان كأنه الشمس اللساطعة . وكان غنياً فى غير زهو ، عظيماً فى غير ترف ، وكان يلبس قانسوة صفراء ، ومزراً قائم اللون ، ويركب عربة حمراء تجرها جياذ بيض . وكانت طنف أسقف بيته غير مشدبة ، وألواح غير مسحجة ، ودعائمه الخشبية غير ذات أطراف مزينة .

وكان أغلب ما يقتات به الحساء أيا كان ما يصنع منه ، لا يهتم باختيار الحبوب التى يصنع منها خبزها ، وكان يشرب حساء العدى من صفحة مصنوعة من الطين ، ويتناولها بملعقة من الخشب . ولم يكن يتحلى بالجواهر ، ولم تكن ثيابه مطرزة ، بل كانت بسيطة لا يختلف بعضها عن بعض . ولم يكن يعنى بغير المؤلف من الأشياء أو الغرب من الأحداث ، ولم يكن يقيم وزناً للأشياء النادرة الغريبة ، يستمع لأغاني الفزك ، عربته الرسمية خالية من أسباب الزينة ... يلبس فى الصيف رداء بسيطاً من الفطن ، ويلب جسمه فى الشتاء بجلود الظباء . ومع هذا كله فقد كان أغنى من حكم جويج — جُو ، طوال عهدها كله ، وأرجحهم عقلاً ، وأطولهم عمراً ، وأحهم إلى قلوب الشعب^(١٤) .

وكان شون آخضر هؤلاء « الملوك الخمسة » مثالا في البر البرنوي ، كما كان هو البطل الذي جاهد لحماية البلاد من فيضانات نهر هوانج — هو ، والذي أصلح التقويم ، وضبط الموازين والمقاييس ، وكسب محبة الأجيال التي جاءت بعده من تلاميذ المدارس بتقصير طول السوط الذي كانوا يربون به . وتقول الروابات الصينية إن شون في آخر أيامه رفع معه على العرش أقدر مساعديه ، وهو المهندس العظيم يو ، الذي تغلب على فيضان تسعة أنهار بشق تسعة جبال واحتفار تسع بحيرات ، ويقول الصينيون « لولا يو ، لكنا كلنا سمكا »^(١٥) . وتقص الأساطير المقدسة أن خمر الأرز عصر في أيامه وقدم للإمبراطور ، ولكن يوصبه على الأرض وقال متنبئا : « سيأتي اليوم الذي يخسر فيه أحد الناس بسبب هذا الشيء ملكا » ، ثم نفى من كشف هذا الشراب من البلاد وحرم على الناس شربه . فلما فعل هذا جعل الناس خمر الأرز شرابهم القومي ، فكان ذلك درساً علموه من جاء بعدهم من الخلائق .

وغير يو المبدأ الذي كان متبعاً من قبله في وراثته الملك وهو أن يعين الإمبراطور قبل وفاته من يخلفه على العرش ، فجعل الملك وراثياً في أسرته ، وأنشأ بذلك أسرة الشيتية (أي المتحضرة) ، فكان ذلك سبباً في أن يتعاقب على حكم الصين العباقره والبلهاء وذوو المواهب الوسطى . وقضى على هذه الأسرة إمبراطور ذو أطوار شاذة ، يدعى جية أراد أن يسلي نفسه هو وزوجته فأمر ثلاثة آلاف من الصيادين أن يموتو ميتة هنيئة بالقفز في بحيرة من التبيذ .

وليس لدينا ما يحقق لنا صدق ما ينقله إلينا المؤرخون الصينيون الأقدمون من أخبار هذه الأسرة . وكل ما نستطيع أن نقوله أن علماء الفلك في هذه الأيام قد حققوا تاريخ الكسوف الشمسي الذي ورد ذكره في السجلات القديمة فقالوا إنه قد حدث في عام ٢١٦٥ ق . م ، ولكن النفاة الذين يعتد بآرائهم لا يؤمنون بحساب أولئك الفلكيين^(١٦) . وقد وجدت على بعض المعظام التي كشفت في

هونان أسماء حكام تعزوم الروايات الصينية إلى الأسرة الثانية أو أسرة شانج ؛ ويحاول المؤرخون أن يعزوا بعض الأواني البرنزية الموغلة في القدم إلى أيام تلك الأسرة . أما فيما عدا هذا فمرجعنا الوحيد هو القصص الذي يحوى من الطرافة واللذة أكثر مما يحوى من الحقيقة . وتقول الروايات القديمة إن وو — يي أحد أباطرة أسرة شانج كان كافراً يتحدى الآلهة ويسب روح السماء ، ويلعب الشطرنج مع ذلك الروح ، ويأمر أحد أفراد حاشيته أن يحرك القطع بدل الروح ، فإذا أخطأ سخر منه . ثم أهدى إليه كيساً من الجلد وملاءة دما ، وأخذ يسلى نفسه بأن يصوب إليه سهامه . ويؤكد لنا المؤرخون — وفيهم من الفضيلة أكثر مما في التاريخ نفسه — إن وو — يي أصابته صاعقة فأهلكته .

وكان جوسين آخر ملوك هذه الأسرة ومخترع عصي الطعام حينئذ آتما إلى حد لا يكاد يصدق العقل ، فقضى بإثمه على أسرته . ويحكى عنه أنه قال : « لقد سمعت أن لقلب الإنسان سبع فتحات ، وأحب أن أثبت من صدق هذا القول في بي كان » — وزيره . وكانت تاكي زوجة جو مضرب المثل في الفجور والقسوة ، فكانت تعقد في بلاطها حفلات الرقص الخليع ، وكان الرجال والنساء يسرحون ويمرحون عارين في حدائقها . فلما غضب الناس من هذه الفعال عمدت إلى كم أفواههم باختراع ضروب جديدة من التعذيب ، فكانت ترغم المذمرين على أن يمسكوا بأيديهم معادن محمية في النار أو يمشوا على قضبان مطلية بالشحم ممتدة فوق حفرة مملوءة بالفحم المشتعل ، فإذا سقط الضحايا في الحفرة طربت الملكة حين تراه تشوى أجسادهم في النار^(١٧) .

وقضت على عهد جوسين مؤامرة دبرها الثوار في داخل البلاد ، وغارة من ولاية جو الغربية ، ورفع المنبرون على العرش أسرة جو ، ودام حكمها أطول من حكم أية أسرة مالكة أخرى في بلاد الصين . وكافأ الزعماء المنتصرون من أعانهم من القواد والكبراء بأن جعلوهم حكاما يكادون يكونون مستقايين في

الولايات السكينة التي قسمت إليها الدولة الجديدة . وعلى هذا النحو بدأ عهد الإقطاع الذي كان فيما بعد شديد الخطر على حكومة البلاد ، والذي كان رغم هذا باعثاً على النشاط الأدبي والفلسفي في بلاد الصين . وتزاورج القادمون الجدد والسكان الأولون وامتزجوا جميعاً ، وكان امتزاجهم هذا تمهيداً بيولوجياً لأولى حضارات الشرق الأقصى في الأزمنة التاريخية .

٤ — الحضارة الصينية الأولى

عصر الإقطاع في الصين — وزير فدير — الصال بين العادات والقوانين — الثقافة والقوضى — أغاني الحب في « كتاب الأغاني »

لم تكن الولايات الإقطاعية ، التي وهبت الصين بعدئذ ما استتمعت به من نظام سياسي قراة ألف عام ، من عمل الفاتحين ، بل نشأت من المجتمعات الزراعية التي قامت في الأيام البدائية بامتصاص أقوىاء الزراع ضـمـعـافهم ، أو باندماج الجماعات تحت رياسة زعيم واحد حتى يستطيعوا أن يدفعوا عن حقولهم من يغيرون عليها من الهمج المحيطين بهم . وبلغ عدد هذه الإمارات في وقت من الأوقات سبع عشرة ولاية تتكوّن كل منها في العادة من بلدة مسورة تحيط بها أرض زراعية ، ومن ضواح مسورة أصغر منها يتألف من مجموعها محيط دفاعي واحد^(١٨) . ثم أخذت هذه الولايات يندمج بعضها في بعض على مهل حتى نقص عددها إلى خمس وخمسين ولاية تشمل الإقليم الذي يعرف الآن بإقليم هونان وماجاوره من أقاليم شانسي ، وشنسي ، وشانتونج . وكان أهم هذه الولايات الخمس والخمسين ولاية تشي التي وضعت أساس الحكومة الصينية ، وولاية تشين التي أخضعت سائر الولايات لحكمها . وأنشأت منها إمبراطورية موحدة ، وخلعت على بلاد الصين اسمها المعروف به في جميع بلاد العالم إلا فيها هي نفسها .

وكان السياسي المبقرى الذي وضع لولاية تشي نظامها هو جوان چونج

مستشار الدوق هوان . وقد بدأ جوان حياته السياسية بمساعدة أخى هوان عليه في نزاعهما من أجل السيطرة على تشى ، وكاد يقتل هوان في إحدى الوقائع الحربية . ولكن هوان انتصر في آخر الأمر وأسر جوان وعينه رئيس وزراء دولته . وزاد جوان من قوة سيده باستبدال الأسلحة والأدوات الحديدية بنظائرها المصنوعة من البرنز ، واحتكار الحكومة للحديد والملح ، أو بالسيطرة عليهما ، ثم فرض الضرائب على النقود والسك والملح « لكي يساعد الفقراء ويكافئ الحكماء وذوى المواهب »^(١٩) . وأصبحت تشى في أيام وزارته الطويلة الأجل دولة حسنة النظام ذات عملة مستقرة ، ونظام إدارى محكم ، وثقافة زاهرة . وقد قال عنه كنفوشيوس — وهو الذى لم يكن يمتدح الساسة إلا بأوجز عبارة — « إن الناس لا يزالون حتى اليوم يستمتعون بالنعم التى أسبغها عليهم ، ولولا جوان جونغ لظللنا حتى اليوم ذوى شعر أشعث ، ولظلت ملابسنا تزرر جهة الشمال^(*) (٢٠) » وفي بلاط نبلاء الإقطاع نشأت طريقة التهجية التى امتاز بها الصينيون المهذبون ، كما نشأت فيها شيئاً فشيئاً تقاليد من الأخلاق والاحتفالات ومراسم التكریم بلغت من الدقة حداً يكفيها لأن تحمل محل الدين عند الطبقات العليا فى المجتمع . ثم وضعت أسس الشرائع وبدأ نزاع شديد بين حكم العادات التى نمت عند عامة الشعب وبين حكم القانون الذى وضعته الدولة . وأصدرت دوقيتا چنج وتشين (فى عامى ٥٣٥ ، ٥١٢ ق . م) كتباً فى القانون ملأت قلوب الفلاحين رعباً ، وتنبثوا بما سيحل بهما من عقاب سماوى شديد على هذه الجريمة الشنيعة . وحدث بالفعل أن دمرت النار عاصمة چنج بعد ذلك بقليل . وكان فى هذه الشرائع محاباة للطبقات العليا ، فقد أعفتها من كثير من الواجبات المفروضة على غيرها من الطبقات على شريطة أن يؤدب أفرادها أنفسهم . من ذلك أن القاتل منهم كان

(*) هذه هى الطريقة التى يريد بها كنفوشيوس أن يقول إنه لولا جوان لظلل الصينيون جميعاً ، فقد كان من عادات الجمع فى تلك الأيام أن يزرروا ملابسهم جهة الشمال^(٢١) .

يسمح له بأن ينتحر ، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل على النحو الذى أصبح فيما بعد عادة مألوفة بين طبقة السمو راى فى اليابان . واحتج عامة الشعب على هذه التفرقة ، وقلوا إن فى مقدورهم هم أيضاً أن يؤدبوا أنفسهم ، وتمنوا أن يقوم بينهم وطنى مخلص شبيه بهرمودىوس أو أرسنجيتون (*) يحررهم من ظلم القوانين . ثم تراضت الفتان آخر الأمر وانفتتا على حل سليم فضيقت دائرة القانون الوضعى حتى لم تعد تشمل إلا المسائل الكبرى أو المسائل القومية ، وظلت أحكام العرف والعادة هى الفيصل فيما دونها من الأمور . وإذا كانت الكثرة الغالبة من شئون البشر من المسائل الصغرى فقد ظل حكم العادة هو السائد بين كافة الطبقات . واستمر تنظيم الولايات يجرى فى مجراه ، وجمعت قواعد هذا النظام فى الجو — لى ، أو « دستور جو » وهو مجموعة من الشرائع تمزوها الروايات إلى جو جونج عم دوق جو الثانى وكبير وزرائه ، وهو بالطبع قول لا يقبله عقل لأن هذه الشرائع لا يمكن أن تكون من وضع رجل واحد .

والواقع أن الإنسان يلهخ فيها روح كنفوشيوس ومنشيس ، ولهذا فأكبر الظن أنها وضعت فى آخر أيام أسرة جو لا فى أيامها الأولى . وقد ظلت مدى ألفى عام تمثل فكرة الصينيين عن النظام الحكومى : وقوامه إمبراطور يحكم نيابة عن الخالق ، وأنه « ابن السماء » يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ؛ وأعيان ، بعضهم بحكم مولدهم وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم ، يصرفون أعمال الدولة ؛ وشعب يرى أن واجبه فلاح الأرض ، يعيش فى أسر أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ولكنه لا رأى له فى تصريف الشئون العامة ؛ ومجلس من ستة وزراء كل واحد منهم على ناحية من الدواخى الآتية وهى : حياة الإمبراطور وأعماله ، ورعاية الشعب وزواج أفراده المبكر ، والمراسيم والتنبؤات الدينية ، والاستعداد للحرب والسير فيها ، وتوزيع العدالة بين السكان وتنظيم

(*) Harmodius و Aristogiton وطنيان أثينيان عاشا حوالى ٥٢٥ ق . م . (المترجم)

الأشغال العامة ». ويكاد هذا القانون يكون قانوناً مثالياً ، وأكبر الظن أنه نبت في عقل فيلسوف أفلاطوني مجهول لم يتحمل أعباء الحكم ، لا من تجارب زعماء دنستهم السلطة الفعلية ويتعاملون مع خلائق حقيقيين .

ولما كان الشر المستطير قد يجد له مكاناً حتى في أكمل الدساتير ، فقد كان تاريخ الصين السياسى هو التاريخ المألوف الذى يتناوبه الفساد الطويل وفترات الإصلاح القصيرة . ذلك أن الثروة حين زادت أدت إلى الإسراف والترف فأفسدا الطبقة العليا ، كما غصّ بلاط الأباطرة وغصت فيما بعد لويانج عاصمة الدولة بالموسيقين والقتلة السفاحين والسراى والفلاسفة . وقلما كانت تمضى عشر سنين دون أن يهاجم فيها الدولة الجديدة البرابرة الجياع الذين لم ينقطعوا يوماً ما عن الضغط على حدودها^(٢٣) ، حتى أضحت الحرب أولاً ضرورة لا بد منها للدفاع ، ثم صارت بعد قليل حرب هجوم واعتداء ، وتدرجت من ألعاب يتسلى بها الأعيان إلى مسابقات فى التقتيل بين عامة الشعب ، يطاح فيها بعشرات الآلاف من الرؤوس ، فلم يمض إلا قرنان من الزمان أو أكثر مهمما بقليل حتى قتل من الملوك ستة وثلاثون^(٢٤) ، وعمت البلاد الموضى ، ويئس الحكماء من إصلاح الأمور . وظلت الحياة تتمتع فى طريقها متخطية هذه العقبات القديمة . فكان الفلاح يزرع ويحصد لنفسه فى أحيان قليلة وللنبلاء الإقطاعيين فى أكثر الأحيان ، لأنه هو وأرضه كانا ملكاً لهؤلاء النبلاء ، ولم يبدأ الفلاحون فى امتلاك الأرض إلا فى أواخر أيام هذه الأسرة . وكانت الدولة — وهى مجتمع مهلهل من النبلاء الإقطاعيين يعترفون بعض الاعتراف بسيادة واحد منهم — تجند العمال للأشغال العامة ، وتروى الحقول من قنوات كثيرة مبنية فى أنحاء البلاد ؛ وكان الموظفون العموميون يعملون الأهلين ررع الحقول وغرس الأشجار ، ويشرفون على صناعة الحرير بكافة أجزائها . وكان صيد السمك واستخراج الملح من باطن الأرض احتكاراً للحكومة فى كثير من الولايات^(٢٥) . وكانت للتجارة الداخلية

رائجة في المدن فنشأت من رواجها طبقة وسطى صغيرة العدد تستمتع بنعم لا تكاد تفتقر عن نعم الحياة الحديثة ، وكان أفرادها ينتعلون أحذية من الجلد ، ويرتدون ملابس من الحرير ، أو من نسيج آخر يعزلونه بأيديهم ، وينتقلون في عربات مختلفة الأنواع ، أو في قوارب تسير في الأنهار ، ويسكنون بيوتاً حسنة البناء ، ويستخدمون الكراسي والنضد ، ويتناولون طعامهم في صحاف وأواني من الخزف المنقوش^(٣) . وأكبر الظن أن مستوى حياتهم كان أرقى من مستوى حياة معاصريهم في بلاد اليونان أيام صولون Solon أو في روما أيام نوما Numa .

وسرت في الحياة الذهنية في الصين بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة في البلاد حيوية تنقض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ بها الناس ؛ فقد وضعت في هذا العهد المضطرب قواعد اللغة الصينية والأدب والفلسفة والفن . ونشأ من ائتلاف الحياة التي أصبحت آمنة بفضل التنظيم الاقتصادي والادخار مع الثقافة التي لم تكن قد وجدت بعد أوقيدت بالقيود والأحكام التي تفرضها عليها التقاليد والحكومة الإمبراطورية القوية السلطان ، نشأ من ائتلافهما ذلك الإطار الاجتماعي الذي احتوى أكثر العهود إبداعاً وإنشاء في تاريخ الصين الذهني . فكان في كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء وفي آلاف من المدن والقرى شعراء ينشدون القصائد ، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة ، وكتبة ينمقون على مهل حروف الكتابة الصينية وسوفسطائيون يعلمون الطلبة المجددين أساليب الجدل والمحاكمة الذهنية ، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لتقائص البشر وتدهور الدول .

وسندرس في الفصول التالية حال الفن واللغة في أكمل تطوراتهما وأخص خصائصهما ، ولكن الشعر والفلسفة من نتاج هذا العصر الذي نتحدث عنه بنوع خاص ، وهما يميلانه أكثر عصور الفكر الصيني ازدهاراً . وقد ضاع معظم ما كتب من الشعر قبل كنفوشيوس ، وأكثر ما بقي منه هو ما اختاره هذا

الفيلسوف من نماذج كلها جد وصرامة ، جمعت في الشئ — جنج ، أى « كمباب الأغاني » وقيلت في فترة تزيد على ألف عام تمتد من أيام الشعر القديم الذى قيل في أيام أسرة شايح إلى الشعر ذى الصيغة الحديثة الذى قيل في زمن معاصر لفيثاغورس . وتبلغ عدة هذه القصائد الباقية خمس قصائد وثلاثمائة قصيدة ، وكلها موجزة إيجازاً يجعلها مستعصية على الترجمة ، ذات تصوير إيحائى ، تتحدث عن الدين ومتاعب الحرب وهموم الحب .

وإلى القائى أمثلة من نواح الجنود للذين انتزعوا من بيوتهم في غير الأوقات المناسبة ؛ لياقئ بهم في محال المنايا لغير سبب تدركه عقولهم :

ألا ما أعظم حرية الإوز البرى وهو يطير في الفضاء
ثم يتمتع بالراحة فوق أغصان شجر اليو الملتف الكثيف !
أما نحن الدائم الكدح في خدمة الملك ،
فإننا لا نجد من الوقت ما نزرع فيه الذرة والأرز
ترى على أى شئ يعتمد أبائونا ؟
حدثني أيتها السماء النائية الزرقاء !
متى ينتهى هذا كله ؟ ..

وهل في الأشجار أوراق لم تصبح بعد أرجوانية ؟
وهل بقي في البلاد رجل لم ينتزع من بين ذراعى زوجته ؟
رحمة بنا نحن الجنود : —
ألسنا نحن أيضاً آدميين ؟ (٢٧)

وفي القصائد كثير من أغاني الحب المختلفة الفغم التى تضرب على أوتار القلوب ، وإن كان ذلك العصر يبدو لنا لفرط جهلنا عصر الممجية الصينية وبداية تاريخها . ونحن نستمع في إحدى هذه القصائد إلى صوت الشباب المتمرد إلى أبد الدهر

يهمس في آذاننا من خلال القرون البائدة ، التي كانت تبدو عهداً نموذجية
لكنفوشيوس ، وكأنما هي تقول أن لا شيء مماثل التمرد والعصيان في قدم العهد :

أتوسل إليك يا حبيبي
أن تغادر قريتي الصغيرة
وَألا تهشم أغصان صفصافى ؛
وليس ذلك لأن تهشيمها يحزننى
بل لأنى أخشى أن يثير تهشيمها غضب أبى .
والحب ينادىنى بمواطفه المقهورة : —
« إن أوامر الأب يجب أن تطاع »

أتوسل إليك يا حبيبي
ألا تتسلق جدار بيتى
أو تحطم أغصان توتى
وليس ذلك لأنى أخشى سقوطها
بل لأنى أخشى أن يثير سقوطها غضب أخى .
والحب ينادىنى بمواطفه المقهورة : —
« إن كلام الأخ يجب أن يطاع »

أتوسل إليك يا حبيبي ،
ألا تتسلل إلى الحديقة
ولا تحطم أشجار الصندل ؛
وليس هذا لأنى أعنى بهذه أو تلك
بل لأنى أرهب حديث المدينة ،
وإذا ما سار المحبون على هوام

فإذا يقول عنهم جيرانهم؟^(٢٨)
وثمة قصيدة أخرى هي أقرب هذه القصائد إلى الكمال ، أو أحسنها ترجمة ،
وهي تدل على أن العواطف البشرية قديمة موعلة في القدم :

جلال الصباح يعلو فوق هامتي
وتحيط بي الأزهار الشاحبة بيبضاء وأرجوانية وزرقاء وحماة ، أنا قلقة البال
وتحرك شيء بين الحشائش الذابلة
فظننت أن ما سمعته هو وقع أقدامه ،
وإذا جندب يصر ،

وتسلقت التل ساعة أن بزغ الهلال
فأبصرته مقبلا من الطريق الجنوبي
فاستراح واطرح عنه حملة^(٢٩)

٥ - الفلاسفة قبل كنفوسبوس

« كتاب التغيرات » - « اليانج والين » - عصر الاستنارة الصينية
ننجم شي سقراط الصين

يمتاز هذا العصر بفلسفته . وليس يعيب الجنس البشري أن تشوفه كان في
كل عصر من العصور يسبق حكمته ، وأن مثله العليا كانت تخطو بأسرع من
خطى مسلكه . وها هو ذا يو — دزه في عام ١٢٥٠ ق . م ينطق بتلك العبارة
القصيرة التي تعد من جوامع الكلم ، والتي طالما ردها الناس من قبله ،
ولكنها لم تبل جدتها بعد ؛ إذ لا يزال الناس في حاجة إلى من يذكرهم بأن كل
مجد مآله كرب وشقاء :

« من يطرح المجد ولا يعبأ به ينتج من الأحران »^(٣٠)

ألا ما أسعد الإنسان الذى لا تاريخ له ! وقد ظلت بلاد الصين من ذلك العهد القديم إلى يومنا هذا تخرج فلاسفة .

فكما أن الهند أرقى بلاد العالم فى الأديان ، وعلم ما وراء الطبيعة ، فكذلك الصين أرقاها فى الفلسفة الإنسانية غير الدينية ، إذ لا يكاد يوجد فى الأدب الصينى كله كتاب ذو شأن فى علم ما وراء الطبيعة غير تلك الوثيقة العجيبة التى يبدأ بها تاريخ التفكير الصينى المدون ، وهى الوثيقة المعروفة باسم إى — چنج ، أو « كتاب التغيرات » . وتقول الرواية المأثورة إن هذا الكتاب قد كتبه ون وأنج ، أحد مؤسسى أسرة چو فى سجنه ، وإن أبسط مبادئه مستمدة من فوشى الذى عاش قبله بزمان طويل . وهم يقولون لنا إن هذا الإمبراطور الأسطورى اخترع « الجوات » الثمانى أو الثنائىث الرمزية التى ترى علوم ما وراء الطبيعة عند الصينيين أنها تنطبق على قوانين الطبيعة وعناصرها . وهم يقولون إن كل واحد من هذه الثنائىث يتألف من ثلاثة خطوط بعضها متصل ويمثل عنصر الذكورة أو البانج وبعضها منقطع ويمثل عنصر الأنوثة أو الين

وكذلك يمثل البانج فى هذه الثنائىث الرمزية العنصر الإيجابى الفعّال ، المنتج ، السماوى عنصر الضوء والحرارة والحياة ؛ على حين أن الين يمثل العنصر السلبي المنفعل ، الأرضى ، عنصر الظلمة والبرودة والموت . وقد حلّد ون بانج ذكره ، وأتعب عقول آلاف الملايين من الصينيين بمضاعفة عدد الشرط فى الخطوط المتصلة والمتقطعة ، فرفع بذلك عدد تباديلها وتوافيقها إلى أربعة وستين كل منها يقابل قانوناً من قوانين الطبيعة ، ويحتوى على جميع العلوم والتاريخ . والحكمة جميعاً تكن فى هذه الأربع والستين شَيْئَيْنَجَة — أو الآراء الممثلة تمثيلاً رمزياً فى التثليثات السالفة الذكر . والحقائق كلها يمكن ردها إلى تعارض واتحاد العاملين الأساسيين فى الكون وهما عنصر الذكورة والأنوثة أى البانج والين . وكان

الصينيون يتخذون كتاب التغيرات كتاباً يدرسون فيه طرق التنبؤ بالغيب ،
ويعدّونه أعظم تراثهم الأدبي ، ويقولون إن كل من فهم ما فيه من توافق يدرك
جميع القوانين الطبيعية . وقد نشر كنفوشيوس هذا الكتاب بنفسه ، وجمّله بما
علق عليه من الحواشي ، وكان يفضلّه عن كل ما عداه من كتب الصينيين ،
ويتمنى أن يخلو لنفسه خمسين عاماً يقضيها في دراسته^(٣١) .

ولا يتفق هذا السّفر العجيب مع روح الفلسفة الصينية ، وهى الروح
الإيجابية العملية ، وإن كان يلائم غموض النفس الصينية . ونحن نجد فى الصين
فلاسفة فى أبعد الأزمان التى وصل إلينا تاريخها ، ولكن كل ما حفظه التاريخ
لم قبل أيام لو — دزّه ، لا يعدو أن يكون قطعة مبتورة من هنا وهناك ، أو مجرد
اسم من الأسماء ، وقد شهد القرنان السادس والخامس فى بلاد الصين ، كما شهدا
فى الهند وپارس وبلاد اليهود واليونان ، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية
والأدبية ، بدأت كما بدأت فى بلاد اليونان بعصر من « الاستنارة » العقلية .
ولقد سبق هذه الاستنارة عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير
ذات الأنساب العريقة مسلك الرقى ، وحفز أهل المدن إلى أن يطلبوا لأنفسهم
معلمين يتقنون أذهانهم بالفنون العقلية . وسرعان ما كشف معلمو الشعب ما فى
علوم الدين من إبهام وغموض ، وما فى الأداة الحكومية من نقص ، وعرفوا أن
المقاييس الأخلاقية مقاييس نسبية ، وشرعوا يبحثون عن المثل العليا والكمال
المطلق . وقد أعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولادة الأمور الذين
وجدوا أن قتلهم أسهل من محاجبتهم . وتقول إحدى الروايات الصينية إن
كنفوشيوس نفسه ، وهو وزير الجريمة فى مقاطعة لو ، حكم بالإعدام على موظف
صينى متمرد بحجة أنه « كان فى وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال ؛
وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة ، وأن تجعل العناد
صفة خليفة بالإكبار والإجلال ؛ وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة

ما يمكنها من الوقوف في وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس» (٣٢).
ويصدق زوما — تشين هذه القصة ، ولكن بعض المؤرخين الصينيين
يرفضونها (٣٣) ؛ ونحن نرجو ألا تكون صحيحة .

وأشهر هؤلاء المتمردين العقلين هو تنج شى الذى أعدمه دوق چنج في
شباب كنفوشىوس ، ويقول كتاب ليه — دزه : إن تنج هذا كان « يعلم
النظريات القائلة إن الحق والباطل أمران نسبيا ، ويؤيد هذه الآراء بحجج
لا آخر لها » (٣٤) . واتهمه أعداؤه بأنه لم يكن يستدرك أن يثبت اليوم رأيا
ويثبت عكسه في غد ، إذا ما نال على عمله هذا ما يرتضيه من الأجر ؛ وكان
يعرض خدماته على من لم قضايها في المحاكم ، ولا يرى ما يعوقه عن تقديمها لمن
يطلبها من الناس . . ويروى عنه أحد أعدائه من المؤرخين الصينيين هذه
القصة الطريفة :

غرق رجل موسر من الولاية التى كان يقيم فيها تنج في نهر واى ، وأخرج
رجل جثته من الماء ، وطلب إلى أسرة القتل مبلغا كبيرا من المال نظير إخراجها
من النهر . وذهبت أسرة القتل إلى تنج تستشير في الأمر ، فأجابها السوفسطائى
بقوله : « تريثوا فإن تؤدى المال المطلوب أسرة غير أسرتم » ، وعملت أسرة
القتل بهذه النصيحة . وقلق الرجل الذى كانت الجثة في حوزته فجاء هو أيضا
إلى تنج شى يستنصحه . فنصحه السوفسطائى بما نصح به أهل القتل إذ قال له :
« تريث ؛ فإنهم لن يحصلوا على الجثة إلا منك » (٣٥)

ووضع تنج شى قانونا للعقوبات تبين أنه أرق مما تطبقه حكومة چنج . ولما
خاف رئيس الوزراء ذرعا بالنشرات التى كان تنج يحمل فيها على سياسته حرم
إلصاقها في الأماكن العامة ، فما كان من تنج إلا أن عمد إلى توزيعها على
الناس بنفسه ، فلما حرم الوزير توزيع النشرات أخذ تنج يهربها إلى القراء
مخبوءة بين أشياء أخرى ، فلما أعيت الحكومة الحيل أمرت بقطع رأسه (٣٦) .

٦ — العلم القديم

لو — دزه — « للدو » — رجال الفكر في الحكومة — سجن
القوانين — مدينة فاضلة على غرار مدينة روسو وقانون أخلاق على غرار
القانون المسيحي — صورة الرجل الحكيم — التقاء لو — دزه وكشفوشوس

كان لو — دزه ، أعظم فلاسفة الصين قبل كشفوشوس ، أكثر حكمة من
تفج شيء ؛ فقد كان يعرف حكمة الصمت ، وما من شك في أنه عمر طويلاً وإن
لم نكن واثقين من أنه عاش حقاً ويحدثنا المؤرخ الصيني زوماتشين أن لو — دزه
عافت نفسه سفالة السياسيين ، ومل عمله في أمانة مكتبة چو الملكية ، فاعتزم أن
يفادر الصين ليجت له عن ملجأ بعيد منعزل في الريف . « فلما أن وصل إلى
حدود البلاد قال له الحارس ين شيء : إملك إذن تنشد العزلة ، وأنا أرجوك أن
تكتب لي كتاباً . فكتب له لو — دزه كتاباً من جزأين في الدو والدي يشتمل
على خمسة آلاف كلمة . ولما أن أتمه اختفى ولم يعلم أحد أين مات » (٣٧) .

لكن الروايات والأقاصيص ، التي لا تخفى عليها خافية ، تقول إنه عاش
سبعة وثمانين عاماً . ولم يبق لنا منه إلا اسمه وكتابه وقد لا يكون هذا أوداك له .
فأما لو — دزه ، فوصف معناه « المعلم القديم » وأما اسمه الحقيقي فهو ، كما
تقول الرواية ، لي — أي البرقوقة .

والكتاب الذي يعزى إليه مشكوك فيه شكاً أثار كثيراً من الجدل العلمي
حول أصله (*) ولكن الباحثين جميعاً متفقون على أن الدو — ده — چنج —
أي « كتاب الطريقة والفضيلة » — هو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الدوية التي

(*) روبري الأستاذ جيلز Gilles أنه كتاب مزور ألف بعد عام ٢٠٠ ب . م . وقد
اختلصه مؤلفه من هان في (٣٨) الناقد وكاتب المقالات . أما الدكتور ليج Dr Legge فبري أنه
تكرار الإشارة إلى لو (وتسميته لتوثان) في أقوال چوانج — دزه وأقوال زوماتشين يدل
على أن الصينيين ظلوا على الدوام يعتقدون صحة نسبة الدو — دي — چنج إلى مؤلفه .

يقول العلماء الصينيون إنها وجدت قبل لو — دزه بزمن طويل ، والتي كان لها من بعده أنصار من الطراز الأول ، والتي صارت فيما بعد ديناً تعنته أقلية كبيرة من الصينيين من أيامه إلى وقتنا هذا ، وجملة القول أن مؤلف الدو — ده — چنج مسألة ذات أهمية ثانوية ، وأما الآراء التي احتواها الكتاب فمن أبدع ما كتب في تاريخ الفكر الإنساني .

ومعنى لفظ الدو هو الطريقة : وهي أحياناً طريقة الطبيعة ، وأحياناً الطريقة الدّوية للحياة الحكيمة . أما المعنى الحرفي لهذا اللفظ فهو الطريق . وهو في الأصل طريقة للتفكير أو للامتناع عن التفكير ، وذلك لأن الدويين يرون أن التفكير أمر عارض سطحي لا خير فيه إلا للجدل والحاجة ، يضر الحياة أكثر مما ينفعها . أما « الطريقة » فيمكن الوصول إليها بنبذ العقل وجميع مشاغله ، وبالالتجاء إلى حياة العزلة والتقصّف والتأمل المادّي في الطبيعة . وليس العلم في رأي صاحب الكتاب فضيلة ، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم . وليس العلم هو الحكمة ، ذلك أنه لا شيء أبعد عن الرجل الحكيم من « صاحب العقل » . وشر أنواع الحكومات التي يمكن تصورها حكومة الفلاسفة ؛ ذلك أنهم يقحمون النظريات في كل نظام طبيعي ؛ وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب والإكثار من الآراء ، وفي ذلك يقول الكتاب :

إن المهرة لا يجادلون ؛ وأصحاب الجدل عطل من المهارة ... وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب .. والحكيم يبقوا الناس على الدوام بلا علم ولا شهوة ، وإذا وجد من لهم علم منعهم من الإقدام على العمل ... وإن الأقدمين الذين أظهروا براعتهم في العمل بما في الدول لم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس ، بل ليجهلواهم سذجاً جهلاء ... والصعوبة التي يراجها الحكام إنما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم ، ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته ينسكل

يها ويفسد شئونها ، أما الذى لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة^(٤٠) وإنما كان صاحب الفكر خطراً على الدولة لأنه لا يفكر إلا فى الأنظمة والقوانين ؛ فهو يرغب فى إقامة مجتمع على قواعد هندسية ، ولا يدرك أن أنظمته إنما تقضى على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية ، وما فى أجزائه من نشاط وقوة . أما الرجل البسيط الذى يعرف من تجاربه ما فى العمل الذى يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة ، وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقل من العالم خطراً على الأمة إذا تولى تدبير أمورهما ، لأنه لا يحتاج إلى من بدله على أن القانون شديد الخطر عليها ، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها^(٤١) . فهذا الرجل لا يضع للناس من الأنظمة إلا أقل قدر مستطاع ، وإذا تولى قيادة الأمة ابتعد بها عن جميع أقانين الخداع والتعميد ، وقادها نحو البساطة العادية التى تسير فيها الحياة سيراً حكيماً على النهج الطبيعى الحكيم الرتيب الخالى من التفكير ، وحتى الكتابة نفسها يهمل أمرها فى هذا النمط من الحكم لأنها أداة غير طبيعية تهدف إلى الشر . فإذا تحررت غرائز الناس الاقتصادية التلقائية التى تحركها شهوة الطعام والحب من القيود التى تفرضها الحكومات ، دفعت عجلة الحياة فى مسيرها الطبيعى الصحيح . وفى هذه الحال تقل المخترعات التى لاتنفذ إلا فى زيادة ثراء الأغنياء وقوة الأقوياء ؛ وتتمحى الكتب والقوانين والصناعات ولا تبقى إلا التجارة القروية .

« إن كثرة النواهي والمحرمات فى المملكة تزيد من فقر الأهلىن . وكلما زاد الأدوات التى تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطراباً ، وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الخلط والخذق زاد عدد ما يلجئون إليه من حيل غريبة وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثرت اللصوص وقطاع الطرق ؛ ولهذا قال أحد الحكماء : لن أفعل شيئاً ، فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم ، وسأولع بأن أبقى ساكناً فينصالح الناس من تلقاء أنفسهم ، ولن أشغل بالى بأمور الناس غيرى الناس من تلقاء أنفسهم ؛ ولن أظهر شيئاً من المطامع فيصل الناس من

تلقاء أنفسهم إلى ما كانوا عليه من سذاجة بدائية ...

وسأُنظم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث إذا وجد فيها أفراد للواحد منهم من الكفايات ما لعشرة رجال أو مائة رجل فلن يكون لهؤلاء الأفراد عمل ؛ وسأجعل الناس فيها ، وإن نظروا إلى الموت على أنه شيء محزن يؤسف له ، لا يخرجون منها (لينجوا بأنفسهم منه) ؛ ومع أن لهم سفنًا وعربات فإنهم لا يرون ما يدعو إلى ركوبها ؛ ومع أن لهم ثيابًا متفخخة وأسلحة حادة ، فإنهم لا يجدون ما يدعو إلى لبس الأولى أو استخدام الثانية ، وسأجعل الناس يعودون إلى استخدام الحبال المعقودة (*) .

وسيرون أن طعامهم (الخشن) وملابسهم (البسيطة) جميلة ، ومساكنهم (الحقيرة) أمكنة للراحة ، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة ، وإذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا نراها بأعيننا وتصل إلى آذاننا منها نفقة الدجاج ونباح الكلاب ، فإنني لن أجعل للناس وإن طال عمرهم صلة بها إلى يوم مماتهم» (٤٢) .

تُرى ما هي هذه الطبيعة التي يرغب لو — دزه ، في أن يتخذها مرشدًا له وهاديًا ؟ إن هذا المعلم القديم يفرق بين الطبيعة والحضارة تفريقًا محددًا واضح المعالم ، كما فعل روسو من بعده في عباراته الطنانة الرنانة التي يطلق عليها الناس اسم « التفكير الحديث » ؛ فالطبيعة في نظره هي النشاط التلقائي ، وانسياب الحوادث العادية المألوفة ، وهي النظام العظيم الذي تنبعه الفصول وتتبعه السماء ؛ وهي الدَّو أو الطريقة الممثلة المجسمة في كل مجرى وكل صخرة وكل نجم ؛ وهي قانون الأشياء العادل الذي لا يحفل بالأشخاص ، واسكنه مع ذلك قانون معقول يحب أن يخضع له قانون السلوك إذا أراد الناس أن يعيشوا في حكمة وسلام . وقانون الأشياء هذا هو الدَّو أو طريقة السكون كما أن قانون السلوك هو الدَّو أو طريقة الحياة . ويرى

(*) طريقة في نقل الأفكار سابقة على الكتابة . ولفظ أجمل هنا بعيد عن المعنى عن الأسلوب الوردى .

لَوْ — دزه ، أن الدّين في واقع الأمر دو واحد ، وأن الحياة في تناغمها الأساسى السليم ليست إلا جزءاً من تناغم الكون . وفي هذا الدّو الكونى تتوحد جميع قوانين الطبيعة وتكون مادة الحقائق كلها التى يقول بها اسبنوزا ؛ وفيه تجد كل الصور الطبيعية على اختلاف أنواعها مكانها الصحيح ، وتجتمع كل المظاهر التى تبدو للعين مختلفة متناقضة ، وهو الحقيقة المطلقة التى تتجمع فيها كل الخصائص والمعضلات لتتكون منها وحدة هيغل Hegel الشاملة ^(٤٣)»

ويقول لَوْ إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس فى الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هينئاً سعيداً . ثم حصل الناس «المعرفة» فمقدوا الحياة بالخطرات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة . فالماقل إذن من يتعد عن هذا التعقيد الحضرى وهذا الاتيه المفسد الموهن تيه القوانين والحضارة ، ويختفى بين أحضان الطبيعة ، بعيداً عن المدن والكتب ، والموظفين المترشين . والمصلحين المغترين . وسرّ الحكمة كلها وسر القناعة الهادئة ، وهى وحدها التى يجد فيها الإنسان السعادة الأبدية ، هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل ، وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الفرائز ، والشعور فى ثقة واطمئنان ، والجرى على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها فى تواضع .

ولمنا لا نجد فى الأدب كله فقرة أكثر انطباقاً على العقل والحكمة من الفقرة الآتية :

إن كل ما فى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامتة ، وهى توجد وایس فى حوزتها شيء ، تؤدى واجبها دون أن تكون لها مطالب ، وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ثم تراها تسكن وتتمد ، وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها

إلى أصله ، وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأدائها ما قدر لها أن تؤديه .
وعودتها هذه قانون أزلى ، ومعرفة هذا القانون هي الحكمة^(٤٤) .

والخمود الذى هو نوع من التعمط العسفى وامتناع عن التدخل فى سير الأشياء الطبيعية هو ما يمتاز به الحكيم فى جميع مناحى الحياة ، فإذا كانت الدولة مضطربة مختلة النظام فخير ما يفعلها ألا يحاول الإنسان إصلاح أمورها ، بل أن يجعل حياته نفسها أداء منظما لواجبه ، وإذا ما لاقى الإنسان مقاومة فأحكم السبل ألا يكافح أو يقاتل أو يحارب بل أن يتروى فى سكون ، وأن يكسب ما يريد أن يكسبه ، إذا كان لا بد من الكسب ، بالخضوع والصبر ؛ ذلك أن المرء يقال من النصر بالسكون أكثر مما يقال بالعمل ، وفى هذا يحدثنا لو — ذره حديثا لا يكاد يختلف فى لهجته عن حديث المسيح !

« إذا لم تقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك ... قابل الإساءة بالإحسان . أنا خير للأخيار ، وخير أيضاً لغير الأخيار ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) أخياراً ؛ وأنا مخلص للمخلصين ، ومخلص أيضاً لغير المخلصين ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) مخلصين . . . وأين الأشياء فى العالم تصدم أصلها وتتغلب عليها ... وليس فى العالم شيء ألين أو أضعف من الماء ، ولكن لا شيء أقوى من الماء فى مغالبة الأشياء الصلبة القوية^(٤٥) (*) .

وتبلغ هذه الآراء غايتها فى الصورة التى يتخيلها « لو » للرجل الحكيم . وقبل أن نرسم للقارىء هذه الصورة نقول إن من أخص خصائص المفكرين الصينيين أنهم لا يتحدثون عن القديسين ، بل يتحدثون عن الحكماء ، وأنهم

(*) ويضيف إلى ذلك فى شهادة طائشة . « إن الأثني تغلب الذكر على الدوام بسكونها »^(٤٦) .

لا يتحدثون عن الصلاح بقدر ما يتحدثون عن الحكمة . فليس الرجل المثالى فى نظر الصينيين هو التقي العابد ، بل هو صاحب العقل الفاضل الهادئ ، الذى يعيش عيشة البساطة والسكون وإن كان خليقاً بأن يشغل مكاناً سامياً فى العالم . ذلك أن السكون هو بداية الحكمة ، والحكيم لا يتكلم حتى على الدوّ والحكمة ، لأن الحكمة لا تنقل إلا بالقذوة والتجربة لا بالألفاظ ؛ والذى يعرف (الطريقة) لا يتحدث عنها ؛ والذى يتحدث عنها لا يعرفها ؛ والذى (يعرفها) يقلل فاه ويسد أبواب خياشيمه «^(٤٧) ، والحكيم شيمته التواضع ، لأن الإنسان متى بلغ الخمسين من عمره^(*) فقد آن له أن يدرك أن المعرفة شيء نسبي ، وأن الحكمة شيء ضعيف سهل العطب ؛ وإذا عرف الحكيم أكثر مما يعرف غيره من الناس حاول أن يخفى ما يعرفه « فهو يحاول أن يقلل من سنه ولألائه ويوائم بين سنه وقيام (غيره)^(٤٨) ؛ وهو يتفق مع السذج أكثر مما يتفق مع العلماء ، ولا يألم من غريزة المعارضة التى هى غريزة طبيعية فى الأحداث المبتدئين . وهو لا يعبأ بالثروة أو السلطان ، بل يُخضع شهواته إلى الحد الأدنى الذى يكاد يتفق مع العقيدة البوذية :

« ليس لشيء عندى قيمة ، وأشتهى أن يخضع قلبى خضوعاً تاماً ، وأن يفرغ حتى لا يبقى فيه شيء قط . . . يجب أن يبلغ الفراغ أقصى درجاته ، وأن يحاط السكون بقوة لا تمل . . . ومن كانت هذه صفاته لا يمكن أن يعامل بحفاء أو فى غير كلفة . وهو أكبر من أن يتأثر بالسكاسب أو الأذى والنبل أو الاضطرابات وهو أنبل إنسان تحت قبة السماء »^(٥٠) .

(*) يعتقد الصينيون أن الحكيم تنضج قواه حوالى الخمسين من عمره ، وأنه يعيش فى هدوء منطوياً على حكمته مائة عام كاملة (١٤٨) .

ولسنا نرى حاجة لبيان ما فى هذه الآراء من اتفاق مع آراء جان چاك روسو وحسبنا أن نقول إن الرجلين قد صُتّا فى قالب واحد مهما يكن بُعد ما بينهما من الزمن ، وإن فلسفتهما من نوع الفلسفة التى تظهر وتختفى ثم تعود إلى الظهور فى فترات دورية ؛ ذلك بأن الناس فى كل جيل يملّون ما فى حياة المدن من كفاح وقسوة وتعقيد وتسابق ، فيكتبون عن مباهج الحياة الريفية الريبة كتابة تستند إلى الخيال أكثر مما تستند إلى العلم بحقائق الأمور . وما من شك فى أن المرء لا بد له من خبرة سابقة طويلة بحياة المدن إذا شاء أن يكتب شعراً عن حياة الريف « والطبيعة » لفظ طيّع سهل على لسان كل باحث فى الأخلاق أو الدين ؛ وهو لا يوائم علم دارون ولا أخلاقية ننشأ أكثر مما يوائم فلسفة « لو — دزه » والمسيح المتعقلة الحلوة .

ذلك أن الإنسان إذا ما سار على سنن الطبيعة أدى به هذا إلى قتل أعدائه وأكل لحومهم لا إلى ممارسة الفلسفة ، وقلّ أن يكون ضيقاً ذليلاً ، وأقلّ من هذا أن يكون هادئاً ساكناً . بل إن فلح الأرض — وهو العمل الشاق المؤلم — لا يوائم قط ذلك الجنس من الناس الذى اعتاد الصيد والقتل ؛ ولهذا كانت الزراعة من الأعمال « غير الطبيعية » مثلاً فى هذا كمثل الصناعة سواء بسواء . على أن فى هذه الفلسفة رغم هذا كله شيئاً من السلوى وراحة البال . وأكبر ظننا أننا نحن أيضاً حين تبدأ ييران عواطفنا فى الخلود نرى فيها غير قليل من الحكمة ؛ ونرى فيها السلم المريح الذى ينبعث من الجبال غير المزدحمة ومن الحقول الرحبة . إن الحياة تتأرجح بين فلتير وروسو ، وبين كنفوشيوس ولو — دزه ، وبين سقراط والمسيح .

وإذا ما استقرت كل فكرة زمنياً ما فى عقولنا ، ودافعنا عنها دفاعاً ليس فيه شيء من البسالة أو من الحكمة ، مللنا نحن أيضاً تلك المعركة وتركنا إلى الشباب ما كان قد تجمّع لدينا من مُثل علينا تناقص عديدها . فإذا ما حدث هذا لجأنا إلى

الغابات مع چان چاك ومع لو — دزه وأمثالها ؛ وصادقنا الحيوان ؛ وتحدثنا ونحن أكبر رضا واطمئناناً من مكيفلى إلى عقول الزراع السذج ، وتركنا العالم ينضح بالشروع ، ولم نفكر قط فى إصلاحه . ولعلنا وقتئذ نحرق وراءنا كل كتاب فيه إلا كتاباً واحداً ، ولعلنا نجد خلاصة الحكمة كلها فى الدو — دى — چنج . وفى وسعنا أن نتصور ما كان لهذه الفلسفة فى نفس كنفوشيوس من أثر مؤلم محقق . فقد جاء هذا الفيلسوف فى سن الرابعة والثلاثين ، وهى السن التى لا يكتمل فيها نضوج الذهن ، إلى لويانج حاضرة چو ليستشير المعلم الكبير فى بعض أمور دقيقة ذات صلة بالتاريخ (*) ويقال إن لو — دزه أجابه إجابة فظة ضامضة قصيرة :

« إن الذين تسأل عنهم قد استحالوا هم وعظماهم تراباً ، ولم يبق إلا ألقاظهم ، وإذا ما حانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره وتولى القيادة ، أما قبل أن تحين هذه الساعة فإن العقبات تقام فى سبيل كل ما يحاوله . ولقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على إخفاء ثروته ، ويعمل عمل من لا يملك شيئاً من حطام الدنيا — وأن الرجل العظيم بسيط فى أخلاقه ومظهره رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال ، فتخلص من كبرياتك ومطامعك الكثيرة ، وتصنعك وآمالك المفرطة البعيدة . إن هذه كلها لا ترفع قط من أخلاقك . وهذا ما أشير به عليك » (٦١) .

ويقول المؤرخ الصينى الذى يروى هذه القصة إن كنفوشيوس أحس من فوره بسداد هذه النصيحة ، ولم يرف فى هذه الألفاظ ما يسىء إليه ، بل إنه رأى فيها عكس هذا ، وقال لتلاميذه بعد أن عاد من عند الفيلسوف المختصر :

« إبنى أعرف كيف يطير الطير ، ويسبح السمك ، ويمر الحيوآن ؛

(*) ويروى زومان تشين أعظم المؤرخين الصينيين هذه القصة ، ولكنها قد تكون حديث خرافة ، وإنا ليدعشنا حقاً أن نجد لو — دزه فى أكثر مدن الصين حركة فى السابعة والثمانين من عمره .

ولكن الذى يجرى على الأرض يمكن اقتناصه ، والذى يسبح فى الماء يمكن صيده ، والذى يطير فى الجو يمكن إصابته بالسهم . غير أن هناك شيئاً مهولاً — ولست أستطيع أن أقول كيف يركب الريح ويخترق بها السحاب ويعلو فى أجواز الفضاء . لقد قابلت اليوم لو — دزه ، ولست أستطيع أن أجده مثيلاً غير التنين »^(٦٢) . ثم خرج المعلم الجديد ليؤدى رسالته ، وليكون أعظم فلاسفة التاريخ أثراً .

الفصل الثاني

كنفوشيوس

١ — الحكيم يبحث عن دولته

مولده وشبابه — زواجه وطلاق زوجته — تلاميذه وطرائقه — مظهره وأخلاقه — السيدة والنمر — تعريف الحكومة الصالحة — كنفوشيوس في منصبه — سنو التحوال — سلوى الشيوخوخة

ولد كونج — فو — دزه أو كونج المعلم كما كان تلاميذ كونج — تشيو يسمنونه في عام ٥٥١ ق . م في مدينة تشو — فو إحدى البلاد التي كانت تكون وقتئذ مملكة لو، والتي تكون الآن ولاية شان تونج .

وتصف الأفاقيص الصينية، وهي التي لا تضارعها أفاقيص أخرى في خصب خيالها، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعي^(٦٣)، وكيف كانت الهولات التي تحرسها والأرواح الأناث تعطر لها الهواء وهي تلده في أحد الكهوف . وتقول تلك الأفاقيص إنه كان له ظهر تين، وشفتا نور، وفم في سعة البحر^(٦٤)، وإنه ولد من أسرة هي أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة إلى الآن لأنه (كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون) من نسل الإمبراطور العظيم هوانج — دي، وإن له أحفاداً كثيرين، وإن نسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا ولقد بلغ عدد من تناسل منهم منذ مائة عام أحد عشر ألفاً من الذكور، ولا تزال البلدة التي ولد فيها حتى هذا اليوم لا يعمرها إلى نسله — أو بعبارة أدق إلا نسل ابنه الوحيد؛ ومن نسله وزير المالية في الحكومة الصينية القائمة للآن في نانكينج^{(٦٥)(*)}.

(*) وتطلق أيضاً « نانجينج ». ويقصد بقوله إلى وقتنا هذا وقت أن كتب هذا الكتاب

وكان والد كوننج في السبعين من عمره حين ولد له ولده^(٦٦) ، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة . وكان كنفوشيوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة ليساعد على إعالة والدته ، ولعله قد تعود في طفولته تلك الرزانة التي هي من خصائص كبار السن ، والتي لازمتها في كل خطوة خطاها طوال حياته . لكنه مع هذا وجد متسماً من الوقت يحدق فيه الرماية والموسيقى ؛ وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع صوة إلى لحن مطرب ، فتأثر به تأثراً حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم ، وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبداً^(٦٧) . ولم يكن يتفق اتفاقاً تاماً مع نقشة في أن ثمة شيئاً من التناقض بين الفلسفة والزواج ، ذلك أنه تزوج في التاسعة عشرة من عمره ، ولكنه طلق زوجته وهو في الثالثة والعشرين ، ويوضح أنه لم يتزوج بعدها أبداً .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة وكانت المواد التي يشملها برنامجه ثلاثاً : التاريخ والشعر وآداب اللياقة . ومن أقواله : « إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميتها المراسم » (أى آداب الحفلات والمجاملات) « وتعطرها الموسيقى »^(٦٨) .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهيّاً لا يلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر لا يوثق به . وقد ترك إلى الفلاسفة مثلاً قل أن يعبثوا به — وهو ألا يهاجوا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم في دحض حججهم . ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشجذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية . ومن أقواله في هذا المعنى : « إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى في هذا ؟ فإنى لا أستطيع أن أفعل له شيئاً »^(٦٩) . « وإني لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص

على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه في صدره . وإذا ما عارضت
ركناً من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع مما عرسته عليه أن يعرف الثلاثة
الأركان الباقية فإنى لا أعيد عليه درسى «^(٧٠)» ، ولم يكن يشك في أن صنفين
اثنيين من الناس هما وحدهما اللذان يستطيعان أن يفيدا من تعاليمهما وأحكما
الحكماء وأغبي الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية
بأمانة وإخلاص دون أن نصلح دراستها من خلقه وعقله . « وليس من السهل
أن نجد إنساناً واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنساناً صالحاً »^(٧١) .
ولم يكن له في بادئ الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ ، ولكن سرعان
ما توارت الإشاعات بأن وراء شفتي الثور والقم الواسع كالبحر قلباً رقيقاً وعقلاً
يفيض بالعلم والحكمة ، فالتف الناس حوله حتى استطاع في آخر أيام حياته أن
يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغله اسرا كز
خطيرة في العالم .

وكان بعض الطلبة — وقد بلغ عددهم في وقت من الأوقات سبعين طالباً —
يعيشون معه كما يعيش الطلبة المهندسون مع مدرسيهم (الجورو) ؛ ونشأت
بين المدرس وتلاميذه صلات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ في بعض الأحيان
إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرض نفسه للخطر أو اسمه للهانة . وكان
رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه ، ولما مات هوى بكى عليه
حتى قرحت دموعه مآقيه . وسأله دوق جاى يوماً من الأيام أى تلاميذه أحبهم
إلى العلم فأجاب : « لقد كانت أحبهم إلى العلم ين هوى ، لقد كان يجب أن
يتعلم ... ولم أسمع بعد عن إنسان يحب أن يتعلم (كما كان يحب هوى) ... لم
يقدم لى هوى معونة ، ولم أقل قط شيئاً لم يبتهج له ... وكان إذا غضب كظم
غيطه ؛ وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه . وبما يؤسف له أنه كان قصير الأجل
فمات وليس له في هذا الوقت (نظير) »^(٧٢) . وكان الطلبة الكسالى يتعاشون

لقاءه فإذا لقيهم قسا عليهم ، وذلك لأنه لم يكن يتورع عن أن يعلم الكسول بضربة من عكازته وبطرده من حضرته دون أن تأخذه به رافة . ومن أقواله : « ما أشقى الرجل الذى يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله فى شيء . . . لا يتواضع فى شبابه التواضع الخلق بالأحداث ، ولا يفعل فى رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر — إن هذا الإنسان وباء » (٧٣) .

وما من شك فى أنه كان يبدو غريب المنظر وهو واقف فى حجرته أو فى الطريق العام ، يعلم مردياته التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة ، ولا يقل استعداداً وهو فى الطريق عن استعدادده وهو فى حجرته . وتمثله الصور التى رسمها له المصورون الصينيون فى آخر سنى حياته رجلاً ذا رأس أصلع لا تكاد تنمو عليه شعرة ، قد تجعد وتعدد لكثرة ما مر به من التجارب ، ووجه ينم عن الجد والرهبة ولا يشعر قط بما يصدر عن الرجل فى بعض الأحيان من فكاكة ، وما ينطوى عليه قلبه من رقة ، وإحساس بالجمال مرهف يذكر المرء بأنه أمام إنسان من الآدميين رغم ما يتصف به من كمال لا يكاد يطاق ، وقد وصفه فى أيام كهولته الأولى مدرس له كان ممن يعلمونه الموسيقى فقال :

« لقد تبينت فى چونج — نى كثيراً من دلائل الحكمة ، فهو أجبه واسع العين ، لا يكاد يمترق فى هذين الوصفين عن هوانج — دى . وهو طويل الذراعين ذو ظهر شبيه بظهر السلحفاة ، ويبلغ طول قامته تسع أقدام (صينية) وست بوصات . . . وإذا تكلم أثنى على الملوك الأقدمين ، وهو يسلك سبيل التواضع والمجاملة ؛ وما من موضوع إلا سمع به ، قوى الذاكرة لا ينسى ما يسمع ؛ ذو علم بالأشياء لا يكاد ينفد . ألسنا نجد فيه حكماً ناشئاً ؟ » (٧٤) .

وتعزو إليه الأقاصيص « تسعاً وأربعين صفة عجيبة من صفات الجسم يمتاز بها عن غيره من الناس » . ولما فرقت بعض الحوادث بينه وبين مردياته فى أثناء

تجواله ، عرفوا مكانه على الفور من قصة قصها عليهم أحد المسافرين ، قال إنه التقى برجل بشع الخلق « ذى منظر كئيب شبيه بمنظر الكلب الضال » . ولما أعيد هذا القول على مسامع كنفوشيوس ضحك منه كثيراً ولم يزد على أن قال : « عظيم ! عظيم ! »^(٧٥) .

وكان كنفوشيوس معلماً من الطراز القديم يعتقد أن التنأى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم . وكان شديد المراقبة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل ما فى وسعه للحد من قوة الغرائز الشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة . ويلوح أنه كان يتركى نفسه فى بعض الأحيان . ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوماً من الأيام قالة فيها بعض التواضع : « قد يوجد فى كفر من عشر أسر رجل فى مثل نبلى وإخلاص ، ولكنه إن يكون مولعاً بالعلم مثلى »^(٧٦) . وقال مرة أخرى : « قد أكون فى الأدب مساوياً لغيرى من الناس ، ولكن (خلق) الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد »^(٧٧) « لو وجد من الأمراء من يولبنى عملاً لقمتم فى اثنى عشر شهراً بأعمال جليلة ، ولبلغت (الحكومة) درجة السكال فى ثلاث سنين »^(٧٨) . على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إنه كان متواضعاً فى عظمته . ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب ؛ كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مفرر ، ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً أو أنانيا »^(٧٩) . وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشئ »^(٨٠) . وكان يدعى أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلمه من الإمبراطورين العظميين يُو وشون . وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولكنه لم يكن يقبل أن يتراضى على شئ مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما . وكم من مرة رفض منصباً رفيعاً عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة . وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول :

« است أبالى مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً ، وإنما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقاً بذلك المنصب الكبير . وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى ؛ ولكننى أعمل على أن أكون خليقاً بأن يعرفنى الناس »^(٨١) .

وكان من بين تلاميذه أبناء هانج هى ، أحد وزراء دوق لو ، وقد وصل كنفوشيوس عن طريقهم إلى بلاط ملوك چو فى لو — يانج ، ولكنه ظل بعيداً بعض البعد عن موظفى البلاط ، وآثر على الاقتراب منهم زيارة الحكيم لو — دزه وهو على فراش الموت كما سبق القول . فلما عاد إلى لو وجدها مضطربة ممرقة الأوصال بما قام فيها من نزاع وشقاق ، فانتقل منها إلى ولاية تشى المجاورة لها ومعه طائفة من تلاميذه مخترقين فى طريقهم إليها مسالك جبلية وعرة مهجورة . ولشد ما كانت دهشتهم حين أبصروا فى هذه القفار عجوزاً يبكي بجوار أحد القبور . فأرسل إليها كنفوشيوس تسه — لو ، يسألها عن سبب بكائها وحرنها ، فأجابه قائلة : « إن والد زوجى قد فتك به مرمى هذا المكان ، ثم ثنى النمر بزوجى ، وها هو ذا ولدى قد لاقى المصير نفسه » . ولما سألتها كنفوشيوس عن سبب إصرارها على الإقامة فى هذا المكان الخطر ، أجابه قائلة : « ليس فى هذا المكان حكومة ظالمة » . فالتفت كنفوشيوس إلى طلابه وقال لهم : « أى أبناءى اذكروا قولها هذا ؛ إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر »^(٨٢) .

وسئل كنفوشيوس بين يدى دوق تشى ، وسرّ الدوق من جوابه حين سأله عن ماهية الحكومة الصالحة : « توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً ، والوزير وزيراً ، والأب أباً والابن ابناً » ، وعرض عليه الدوق نظير تأييده إياه خراج مدينة لن — شيو ، ولكن كنفوشيوس رفض الهبة وأجابه بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذا الجزاء . وأراد الدوق أن يحتفظ به فى بلاطه وأن يجعله مستشاراً له ، ولكن جان ينج كبير وزرائه أقنعه بالعدول عن رأيه وقال له : « إن هؤلاء العلماء رجال غير عمليين لا يستطيع تقليدهم ؛ وهم متغطرسون مغرورون

بآرائهم ، لا يقتنعون بما يعطى لهم من مراکز متواضعة ... وللسيد كونج هذا من الخصائص ما يبلغ الألف عدداً ... ولو أردنا أن نلم بكل ما يعرفه عن مراسم الصعود والنزول لتطلب منا ذلك أجيالا طوالا^(٨٤) . ولم يشر هذا اللقاء ثمرة ما ، وعاد كنفوشيوس على أثره إلى لو وظل يعلم تلاميذه فيها خمسة عشر عاما أخرى قبل أن يستدعى ليتولى منصباً عاماً في الدولة .

وواقته الفرصة حين عيّن في أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة في مدينة چونج — دو . وتقول الرواية الصينية إن المدينة في أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان إذا سقط شيء في الطريق بقي حيث هو أو أعيد إلى صاحبه^(٨٥) . ولما رقا الدوق دنج دوق لو إلى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع في مسح أرض الدولة وأدخل إصلاحات جمّة في الشؤون الزراعية ، ويقال إنه لما رقي بمدنّد وزيراً للجرائم كان مجرد وجوده في هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة . وفي ذلك تقول السجلات الصينية : « لقد استتحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلأ برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح القفاف ودمانة الخلق شيمة النساء . وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى ، وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب^(٨٦) » .

إن في هذا الإطار من المبالغة ما يجعله موضع الشك ؛ وسواء كان خليقاً به أو لم يكن فإنه كان أرقى من أن يعمر طويلاً . وما من شك في أن المجرمين قد يأترون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به . ويقول المؤرخ الصيني : إن الولايات القريبة من « لو » دبّ فيها ديب الحسد وخشيت على نفسها من قوة « لو » الناهضة . ودبّر وزير ماكر من وزراء تشي مكيدة ليفوق بها بين دوق « لو » وكنفوشيوس ، فأشار على دوق تشي بأن يبعث إلى تنج بسرب من حسان « الفتيات المغنيات » وبمائة وعشرين جواذاً تفوق الفتيات جمالاً ..

وأسرت البنات والخليل قلب الدوق ففعل عن نصيحة كنفوشيوس (وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة) ، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة إهمالاً معيباً . وقال تزه — لو لكنفوشيوس : « أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل » . واستقال كنفوشيوس من منصبه وهو كاره ، وغادر لو ، وبدأ عهد تجوال وتشرد دام ثلاثة عشر عاماً . وقال فيما بعد « إنه لم يرقط إنساناً يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال »^(٨٧) . والحق أن من أغلاط الطبيعة التي لا تفتقر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً ما يأتیان منفصلين لا مجتمعين . وأصبح المعلم وعدد قليل من مريديه المخلصين مغضوباً عليهم في وطنهم ، فأخذوا ينتقلون من إقليم إلى إقليم ، يلقون في بعضها مجاملة وترحاباً ، ويتعرضون في بعضها الآخر لضروب من الحرمان والأذى . وهاجهم الرعاع صرتين ، وكادوا في يوم من الأيام يموتون جوعاً ، وبرتج بهم ألم الجوع حتى شرع تزه — لو نفسه يتدمر ويقول إن حاله لا تليق « بالإنسان الراقى » . وعرض دوق وي على كنفوشيوس أن يوليه رئاسة حكومته ، ولكن كنفوشيوس رفض هذا العرض ، لأنه لم تعجبه مبادئ الدوق^(٨٨) .

وبينا كانت هذه القصة الصغيرة في يوم من الأيام تجوس خلال تشي إذ التقت بشيخين عافت نفسيهما مفاصد ذلك العهد ، فاعتزلا الشئون العامة كما اعتزلها لو — دزه ، وآثرا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة الحياة العامة . وعرف أحد الشيخين كنفوشيوس ، ولام تزه — لو ، على سيره في ركابه ، وقال له : « إن الاضطراب يحتاج البلاد اجتياح السيل الجارف ، ومنذا الذي يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال ؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله ، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية ؟ »^(٨٩) وفكر كنفوشيوس في هذا اليوم طويلاً ولكنه لم يفقد رجاءه في أن تتيج له ولاية من الولايات فرصة يتزعم فيها حركة الإصلاح والسلام .

ولما بلغ كنفوشيوس التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش لو وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم، ويدعونه أن يعود إلى موطنه، وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معزلاً مكرماً، وكثيراً ما كان يتردد عليه زعماء لو يستنصحوه، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته في عزلة أدبية منصرفاً إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين. ولما سأل دوق شي تزه — لو عن أستاذه ولم يجبه هذا عن سؤاله، وبلغ ذلك الخبر مسامع كنفوشيوس، قال له: «لم لم تجبه بأنه ليس إلا رجلاً ينسبه حرصه على طالب العلم الطعام والشراب، وتنسيه لذة (طلبه) أحزانه، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه»^(٩٠) وكان يسلى نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله، ومن أقواله في ذلك الوقت: «لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكباً على العلم، وفي الثلاثين وقفت نابتاً لا أترعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضواً طيعاً لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل»^(٩١).

ومات كنفوشيوس في الثانية والسبعين من عمره، وسمعه بعضهم يوماً من الأيام يغنى في الصباح الباكر تلك الأغنية الحزينة:

سيدك الجبل الشاهق دكا،

وتتعطم الكتلة القوية،

ويذبل الرجل الحكيم كما يذبل النبات.

ولما أقبل عليه تلميذه تزه — كونه قال له: «لن يقوم في البلاد ملك

ذكى أريب ؛ وليس فى الإمبراطورية رجل يستطيع أن يتخذنى معلماً له . لقد
تصرم أجلى وحان يومى » (٩٣) .

ثم أوى إلى فراشه ومات بعد سبعة أيام من ذلك اليوم . وواراه تلاميذه
التراب باحتفال مهيب جدير بما تنطوى عليه قلوبهم . من حب له وإجلال ،
وأحاطوا قبره بأكواخ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين ليكونه كما يبكى الأبناء آباءهم .
وبعد أن مضت هذه المدة غادروا جميعاً أكواخهم إلا تزّه — كونج ، وكان
حبه لإياه يفوق جهم جميعاً ، فبقى بجوار قبر أستاذه ثلاث سنين أخرى واجماً
حزيناً تشعبه الهموم (٩٣) .

٢ — الكتب الخمسة

وترك كنفوشيوس وراءه خمسة مجلدات يلوح أنه كتبها أو أعدها للنشر
بيده هو نفسه ، ولذلك أصبحت تعرف فى الصين باسم « الخمسة الخمسة »
أو « كتب القانون الخمسة » . وكان أول ما كتبه منها هو اللى — جى أو سجل
المراسم ، لاعتقاده أن هذه القواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس الدقيقة
التي لا بد منها لتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعى والسلام .
ثم كتب بعدئذ ذيولاً وتعليقات على كتاب إوى — جى أو كتاب
التغيرات ، وكان يرى أن هذا الكتاب خير ما أهدته الصين إلى ذلك الميدان
القامض ميدان علم ما وراء الطبيعة الذى كان جد حريص على ألا يلبج بابه فى
فلسفته . ثم اختار ورتب الشى — جى أو كتاب الوئاسير ليشرح فيه كنه
الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة . وكتب بعد ذلك التمر — سىو
أو هويلات السريعة والخريف ، وقد سجل فيه تسجيلًا موجزاً خالياً من
التمثيق أهم ما وقع من الأحداث فى « لو » موطنه الأصيل . وكان خامس أعماله

الأدبية وأعظمها نفعا أنه أراد أن يوحى إلى تلاميذه أشرف العواطف وأنبل الصفات فجمع في السوفج أى كتاب التاريخ أهم وأرقى ما وجدته فى حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأفاصيص التى تسمو بها الأخلاق وتشرف الطبائع ، وذلك حين كانت الصين إمبراطورية موحدة إلى حد ما ، وحين كان زعمائها ، كما يظن كنفوشيوس ، أبطالا يعملون فى غير أنانية لتمدين الشعب ورفع مستواه .

ولم يكن وهو يعمل فى هذه الكتب يرى أن وظيفته هى وظيفة المؤرخ بل كان فيها معلما ومهذبا للشباب ، ومن أجل هذا اختار عن قصد من أحداث الماضى ما رآه ملهما لتلاميذه لا مؤسسا لهم .

فإذا ما عمدنا إلى هذه المجلدات لنستقى منها تاريخا علميا نزيها لبلاد الصين فإننا بهذا العمل نظم كنفوشيوس أشد الظلم . فقد أضاف إلى الحوادث الواقعية خطبا وقصصا من عنده ، صب فيها أكثر ما يستطيع من الخفض على الأخلاق السكرية والإعجاب بالحكمة . وإذا كان قد جعل ماضى بلاده مثلا أعلى بين ماضى الشعوب ، فإنه لم يفعل أكثر مما فعله نحن (*) بماضينا الذى لا يعدل ماضى للصين فى قدمه . وإذا كان رؤساء جمهوريتنا الأولون قد أخذوا حكاما وقديسين ، ولما يعض عليهم أكثر من قرن أو قرنين من الزمان ، فإنهم سيكونون بلا شك فى نظر المؤرخ الذى يتحدث عنهم بعد ألف عام من هذه الأيام مثالا عليا للفضيلة والكمال شأنهم فى هذا شأن يوشون .

ويضيف الصينيون إلى هذه المجموعات الخمسة أربع مجموعات أو « كتب » (كتب الفلاسفة) يتكون منها كلها « التسعة الكتب القديمة » . وأول هذه الكتب وأهمها جميعا كتاب لودير أو الوهاديت والمحاورات المعروف عند

قراء اللغة الإنجليزية باسم « مجموعة الشذرات » أى شذرات كنفوشيوس ، كما سماه « لج Legge » فى إحدى نزواته . وليست تلك الكتب مما خطه قلم المعلم الكبير ولكنها تسجل فى إيجاز ووضوح منقطعى النظير آراءه وأقواله كما يذكرها أتباعه . وقد جمعت كلها بعد بضع عشرات من السنين من وفاته ، ولعل الذين جمعوها هم مريدو مريدته^(٩٤) ، وهى أقل ما يرتاب فيه من آرائه الفلسفية . وأكثر ما فى الكتب الصينية القديمة طرافة وأعظمها تهذيباً ما جاء فى الفقرتين الرابعة والخامسة^(*) من الشو الثانى ، وهو المؤلف المعروف عند الصينيين باسم *الداستوه* أو *التعليم الأكبر* ويعزو *موشى* الفيلسوف والناشر الكنفوشى هاتين الفقرتين إلى كنفوشيوس نفسه كما يعزو باقى الرسالة إلى *دزنج* — تسان أحد أتباعه الصغار السن . أما كايا — كويه العالم الصينى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد فيعزوهما إلى *كونج جى* حفيد كنفوشيوس ؛ على حين أن علماء اليوم المتشككين يجمعون على أن مؤلفهما غير معروف^(٩٥) . والعلماء كلهم متفقون على أن حفيده هذا هو مؤلف كتاب *جونج يونج* أو *عقيدة الوسط* وهو الكتاب الفلسفى الثالث من كتب الصين . وآخر هذه الشؤات هو كتاب *مفيس* الذى سنتحدث عنه توأ . وهذا الكتاب هو خاتمة الآداب الصينية القديمة وإن لم يكن خاتمة العهد القديم للفكر الصينى . وسنرى فيما بعد أنه خرج على فلسفة كنفوشيوس ، التى تعدّ آية فى الجمود والحفاظ على القديم ، متمردون عليها وكفرة بها ذوو مشارب وآراء متعددة متباينة .

(*) وهما اللتان نقلناهما فيما بعد فى صفحتى ٥٤ ، ٥٥ من هذا الكتاب . (الترجم)

٣ — ر أدريه كنفوشيوس

هتامة في المنطق — الفلاسفة والصبيان — دستور للحجة

فلنجاول أن نكون منصفين في حكمنا على هذه العقيدة . ولنقر بأنها ستكون نظرتنا إلى الحياة حين يماز الواحد منا الخمسين من عمره ، ومبلغ علمنا أنها قد تكون أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل والحكمة من شعر شبابنا . وإذا كنا نحن ضالين وشباناً فإنها هي الفلسفة التي يجب أن نقرن بها فلسفتنا نحن ، لكي ينشأ مما لدينا من أنصاف الحقائق شيء يمكن فهمه وإدراكه .

ولا يظن القارىء أنه سيجد في لأدريه كنفوشيوس نظاماً فلسفياً — أى بناء منسقاً من علوم المنطق ، وما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة ، تسرى فيه كله فكرة واحدة شاملة (فتحيله أشبه بقصور نبوخذ ناصر (بختنصر) التي نقش اسمه على كل حجر من حجارتها) .

لقد كان كنفوشيوس يعلم أتباعه فن الاستدلال ، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس للمنطق ، بل بتسليط عقله القوي تسليطاً دائماً على آراء تلاميذه ؛ ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئاً عن المنطق ، ولكن كان في وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحاً دقيقاً .

وكان أول الدروس ، التي يلقيها عليهم المعلم ، الوضوح والأمانة في التفكير والتعبير ، وفي ذلك يقول : « كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوماً »^(٩٦) — وهو درس لا تذكره الفلسفة في جميع الأحوال . « فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه ؛ وإذا لم تعرفه فأقرّ بأنك لا تعرفه — وذلك في حد ذاته معرفة »^(٩٧) . وكان يرى أن غموض الأفكار ، وعدم الدقة في التعبير ، وعدم الإخلاص فيه ، من الكوارث الوطنية القومية . فإذا كان الأمير الذي ليس أميراً بحق والذي لا يستمتع بسلطان الإمارة لا يسميه الناس أميراً ، وإذا كان

الأب الذى لا يتصف بصفات الأبوة لا يسميه الناس أباً ، وإذا كان الابن العاق لا يسميه الناس ابناً ، إذا كان هذا كله فإن الناس قد يجدون فى « تزه — لو » ما يحفزهم إلى إصلاح تلك العيوب التى طالما غطتها الألفاظ . ولهذا فإنه لما قال لكنفوشيوس : « إن أمير ويه فى انتظارك لى تشترك معه فى حكم البلاد ، فما هو فى رأيك أول شيء ينبغى عمله ؟ أجابه كنفوشيوس جواباً دهش له الأمير والتلميذ : « إن الذى لا بد منه أن تصحح الأسماء »^(٩٨) .

ولما كانت النزعة المسيطرة على كنفوشيوس هى تطبيق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة ، ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السالوية . صحيح أن ذكر « السماء » والصلاة^(٩٩) كان يرد على لسانه أحياناً ، وأنه كان ينصح أتباعه ألا يقلعوا عن الطقوس والمراسم التقليدية فى عبادة الأسلاف والقرابين القومية^(١٠٠) ، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال فى أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرّاح آرائه المحدثين يجمعون على أن يضمّوه إلى طائفة اللا أدريين^(١٠١) . فلما أن سأله تزه — كونج ، مثلاً : « هل لدى الأموات علم بشيء أو هل هم بغير علم ؟ » أبى أن يجيب جواباً صريحاً^(١٠٢) . ولما سأله كى — لو ، عن « خدمة الأرواح » (أرواح الموتى) أجابه « إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم ؟ » . وسأله كى — لو : « هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت ؟ » فأجابه : « إذا كنت لا تعرف الحياة ، فكيف يقضى لك أن تعرف شيئاً عن الموت »^(١٠٣) . ولما سأله فارشي عن « ماهية الحكمة » قال له : « إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس ، وبعديت كل اللبعد عن الكائنات الروحية مع احترامك لإياها أمكن أن تسمى هذه حكمة »^(١٠٤) .

ويقول لنا تلاميذه إن « الموضوعات التى لم يكن المعلم يخوض فيها هى الأشياء

الغريبة غير المألوفة ، وأعمال القوة ، والاضطراب ، والكائنات الروحية»^(١٠٥) وكان هذا التواضع الفلسفى يلقى بالهم ، وما من شك فى أنهم كانوا يتمنون أن يحل لهم معلمهم مشاكل السموات ويطلعهم على أسرارها . ويقص علينا صاحب كتاب — لباتره وهو مغتبط قصة غلمان الشوارع الذين أخذوا يسخرون من كنفوشيوس حين أقر لهم بمعجزه عن هذا السؤال السهل وهو : « هل الشمس أقرب إلى الأرض فى الصباح حين تبدو أكبر ما تكون ، أو فى منتصف النهار حين تشتد حرارتها ؟ »^(١٠٦) . وكل ما كان كنفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعها من وحدة ، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وانسجام بين قواعد السلوك الحسن واطراد النظم الطبيعية :

وقال مرة لأحد المقربين إليه : « أظنك يا تزه تعتقد أنى من أولئك الذين يحفظون أشياء كثيرة ويستبقونها فى ذاكرتهم ؟ » فأجابه تزه — كونج بقوله : « نعم أظن ذلك ولكنى قد أكون مخطئاً فى ظنى ! » فرد عليه الفيلسوف قائلاً « لا ، إنى أبحث عن الوحدة ، الوحدة الشاملة »^(١٠٧) وذلك بلاريب هو جوهر الفلسفة .

وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى فى ماهية الصواب والخطأ . ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة وإنما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاق قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم . والفقرتان الآتيتان المنقولتان عن كتاب التعليم المذكور تعبران أن أصدق تعبير وأعظم عن المنهج الفلسفى الكنفوشى .

« إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية

قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهديب نفوسهم ؛ ولما أرادوا أن يهدبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم ؛ ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء .

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذب نفوسهم ، ولما تهذب نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ؛ ولما صلح حكم ولاياتهم أفضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة^(١٠٨) .

تلك هي مادة الفلسفة الكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفي وسع الإنسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعاني التي هي « جوهر الفلسفة وقوامها » وأكمل مرشد للحياة الإنسانية . ويقول كنفوشيوس : « إن العالم في حرب لأن الدول التي يتألف منها فاسدة الحكم ؛ والسبب في فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعي الطبيعي الذي مهيئة الأسرة . والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعي الطبيعي ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقيموا نفوسهم ؛ وهم يعجزون عن أن يقيموا نفوسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم أي أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ؛ وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين في تفكيرهم ، لا يقدرون الحقائق قدرها ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها ؛ وهم لا يخلصون في تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع

يبحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء : فليسع الناس إلى المعارف المزهة عن الهوى يخلصوا في تفكيرهم ؛ وليخلصوا في تفكيرهم تنطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ؛ وتنطهر قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ؛ وتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ؛ وليس الذى تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التى تحت على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذى يصلحها هو ، ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة ؛ ولتنظم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقدوة الصالحة ، يتبهاً للبلاد من تلقاء نفسه نظام اجتماعى يتيسر معه قيام حكم صالح .
ولتحافظ الدولة على الهدوء فى أرضها والعدالة فى جميع أرجائها ، يسد السلام العالم بأجمعه ويسعد جميع من فيه — تلك نصيحة تدعو إلى الكمال المطلق وتنسى أن الإنسان حيوان مفترس ؛ ولكنها كالمسيحية تحدد لنا هدفاً نسعى لندركه ، وسلاماً نرقاه لنصل به إلى هذا الهدف . وما من شك فى أن فى هذه النصوص قواعد فلسفية ذهبية .

٤ — طريقة الرجل الأعلى

سورة أخرى من صور الحكيم — عناصر الأخلاق — القاعدة الذهبية

وإذن فالحكمة تبدأ فى البيت ، وأساس المجتمع هو القرد المنظم فى الأسرة المنتظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته فى أن الرشق الذاتى أساس الرشق الاجتماعى ؛ ولما سأله تزه — لو « ما الذى يكون الرجل الأعلى ؟ » أجابه بقوله « أن يتقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام »^(١٠٩) ، ونحن نراه فى مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالى كما يراه هو جزءاً جزءاً — والرجل المثالى فى اعتقاده هو الذى تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منهما الحكيم . والإنسان الكامل الأسمى فى رأى كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ومنتشة والمسيح يرى الكمال كل الكمال فى كل واحدة منها بمفردها ؛

وتلك هي الذكاء والشجاعة وحب الخير . وفي ذلك يقول : « الرجل الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر ... وهو واسع الفكر غير متشيع إلى فئة ... وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شيء غير صحيح » (١١٠)

ولكنه ليس رجلاً ذكياً وحسب ، وليس طالب علم ومحجاً للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء ؛ « فإذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفاً ، وإذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة ؛ أما إذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب ، وامتزجت هذه بتلك ، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة » (١١١) . فالذكاء هو الذهن الذي يضع قدميه على الأرض .

وقوام الأخلاق الصالحة هو الإخلاص ، « وليس الإخلاص الكامل وخده هو الذي يميز الرجل الأعلى » (١١٢) « إنه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذٍ وفق ما عمل » (١١٣) « ولدينا في فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى . ذلك أن الراعي إذا لم يصب مركز الهدف رجع إلى نفسه ليجتهد فيها عن سبب عجزه » (١١٤) .

« إن الذي يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما في نفسه ؛ أما الرجل المنحط فيبحث عما في غيره ... والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه ... ألا يعرفه الناس » ، ولكنه مع ذلك « يكره أن يفكر في ألا يذكر اسمه بعد موته » (١١٥) ؛ وهو متواضع في حديثه ولكنه متفوق في أعماله ... قل أن يتكلم ، فإذا تكلم لم يشك قط في أنه سيصيب هدفه ... والشئ الوحيد الذي لا يداني فيه الرجل الأعلى هو عمله الذي لا يستطيع غيره من الناس أن يراه » (١١٦) . وهو معتدل في قوله وفعله « والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط » (١١٧) في كل شيء ؛ ذلك أن « الأشياء التي يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها ؛ وإذا لم يكن

ما يحب وما يكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته إلى طبيعة الأشياء التي تعرض له» (١١٨) (*) «والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقاً عاماً؛ ويكون سلوكه بحيث تتخذ جميع الأجيال قانوناً عاماً، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ» (١٢٠) (**). وهو يستمسك أشد الاستمسك بالقاعدة الذهبية التي نص عليها هنا صراحة قبل هليل بأربعة قرون وقبل المسيح بخمسة: «فقد سأل جونج — جوج المعلم عن الفضيلة الكاملة فكان جوابه... الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعل بك» (١٢٢). وهذا المبدأ يتكرر مراراً وهو دائماً يتكرر في صيغة النفي، وقد ذكر مرة في كلمة واحدة. ذلك أن تزده — جونج سأله مرة: أليس ثمة كلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته؟ فأجابه المعلم: أليست هذه الكلمة هي المبادلة؟» (١٢٣)، ولكنه لم يكن يرغب فيما يرغب فيه لودزه وهو أن يقابل الشر بالخير، فلما أن سأله أحد تلاميذه: «ما قولك في المبدأ القائل بأن الإساءة يجب أن تجزى بالإحسان؟» أجاب بجدية لم يألها تلاميذه منه: «وبأي شيء إذن تجزى الإحسان؟ لتكن العدالة جزاء الإساءة، وليكن الإحسان جزاء الإحسان» (١٢٤).

وكان يرى أن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى هي العطف الفياض على الناس جميعاً. والرجل الأعلى لا يفضيه أن يسمو غيره من الناس، فإذا رأى أفاضل الناس فكر في أن يكون مثلهم؛ وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقهى حقيقة أمره» (١٢٤). ذلك أنه قلما توجد أخطاء لا نشترك

(*) . قارن هذا بما يقوله اسبنوزا: «إن عوامل خارجة عنا تدفعنا إلى طرق كثيرة مختلفة، فنترج ونضطرب اضطراب الأمواج تدفعها الرياح المختلفة المهاب، ولا نعرف مصيرنا أو عاقبة أمرنا» (١١٩).

(**) . قارن هذا بقانون الأخلاق «القاطع الإلزامي» الذي يقول به كانت وهو «لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التي تسير عليها في أعمالك قانوناً عاماً شاملاً» (١٢١).

فيها مع جيراننا . وهو لا يبالي أن يفترى عليه الناس أو يسلقوه بالسنة خداد^(١٢٤) ،
مجامل بشوش . لجميع الناس ، ولكنه لا يكيل المدح جزافا^(١٢٥) ؛ لا يحقر من هم
أقل منه ، ولا يسعى لكسب رضا من هم أعلى منه^(١٢٦) ، وهو جاد في سلوكه
وتصرفاته ، لأن الناس لا يوقرون من لا يلتزم الوقار في تصرفاته معهم ؛ متريث
في أقواله ، حازم في سلوكه ، يصدر في أعماله عن قلبه ؛ غير متمعجل بلسانه
ولا مولع بالإجابات البارة السكاته ؛ وهو جاد لأن لديه عملا يحرص على
أدائه — وهذا هو سر مهابته غير المسكتة^(١٢٧) ؛ وهو بشوش لطيف حتى مع
أقرب الناس إليه وألصقهم به ، ولكنه يصون نفسه عن التبذل مع الناس
جميعا حتى مع ابنه^(١٢٨) . ويجمع كنفوشيوس صفات رَجُلِه الأعلى الكثير الشبه
« برجل أرسطو ذى العقل الكبير » في هذه العبارة .

« يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يقلبها في فكره .
فأما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح ... ؛ وأما من حيث
وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشا ظريفا ؛ وأما من حيث سلوكه فهو
يحرص على أن يكون وقورا ؛ وفي حديثه يحرص على أن يكون مخلصا ؛ وفي
تصرف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته ، وأن يبعث الاحترام
فيمن معه ؛ وفي الأمور التي يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ؛
وإذا غضب فكر فيما قد يجرحه عليه غضبه من الصعاب ؛ وإذا لاحته
المكاسب فكر في العدالة والاستقامة^(١٢٩) .

٥ — سياسة كنفوشيوس

سيادة الشعب — الحكم بالقدوة — عدم تركيز الثروة —
الموسيقى والألاق — الاشتراكية والثورة

ويعتقد كنفوشيوس أن هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يعيدوا بناء

الأسرة وأن ينقذوا الدولة . فالجتماع يقوم على إطاعة الأبناء آباءهم ؛ والزوجة زوجها ؛ فإذا ذهبت هذه الطاعة حلت محلها الفوضى^(١٣٠) .

وليس ثمة ما هو أسمى من قانون الطاعة هذا إلا شيء واحد وهو القانون الأخلاقي .

« في وسع (الابن) وهو في خدمة أبويه أن يجادلها بلطف ؛ فإذا رأى أنها لا يميلان إلى اتباع (نصيحته) زاد احترامه لها ، من غير أن يتخلى عن (قصده) ؛ فإذا أمر الوالد ابنه أمراً خطأ وجب عليه أن يقاومه ، وعلى الوزير أن يقاوم أمر سيده الأعلى في مثل هذه الحال »^(١٣١) . وفي هذا القول يضع كنفوشيوس مبدأ من مبادئ منشيس التي تقرر حق الناس المقدس في الثورة . على أن كنفوشيوس لم يكن بالرجل الثورى النزعة ؛ ولعله ما كان يظن أن من ترفعهم الثورة لم يخلقوا من طينة غير طينة من تطيح بهم . ولكنه رغم هذه الميول كان جريئاً فيما كتبه في كتاب الأوغانى : « قبل أن تفقد ملوك أسرة (شانج) (قلوب) الشعب كانوا أحباء الله . فليكن فيما حل بيت شانج نذير لكم ؛ إن الأمر العظيم لا يسهل دائماً الاحتفاظ به »^(١٣٢) . والشعب هو المصدر الفعلى الحقيقى للسلطة السياسية ، ذلك أن كل حكومة لا تحتفظ بثقة الشعب تسقط لا محالة عاجلاً كان ذلك أو آجلاً .

« وسأل تزه — كونج ، عن الحكم فقال له المعلم : « (لا بد للحكومة) من أن تحقق أموراً ثلاثة ، أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام ، وكفايتهم من العتاد الحربى ، ومن الثقة بمحكماهم » . فقال تزه — كونج : « فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأى هذه الثلاثة يجب أن تتخلى عنه أولاً ؟ » فأجاب المعلم : « العتاد الحربى » . وسأله تزه — كونج مرة أخرى ، وإذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما يجب أن تتخلى عنه ؟ » .

فأحباب العلم : « فلتنتخل عن الطعام ؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوماً على البشر ، أما إذا لم يكن للناس ثقة (بحكامهم) فلا بقاء (للدولة) » .

ويرى كنفوشيوس أن المبدأ الأول الذى يقوم عليه الحكم هو نفس المبدأ الأول الذى تقوم عليه الأخلاق — ألا وهو الإخلاص . ولهذا كانت أداة الحكم الأولى هى القدوة الصالحة ؛ ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون المثل الأعلى فى السلوك الحسن ، حتى يحذو الناس حذوه ، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه .

وسأل كى كانج كنفوشيوس عن الحكومة قائلاً : « ما قولك فى قتل من لا مبدأ لهم ولا ضمير لخير أصحاب المبادئ والضامير ؟ » فأجابه كنفوشيوس : « وما حاجتك يا سيدى إلى القتل فى قيامك بأعباء الحكم ؟ لتكن نيتك الصريحة البينة فعل الخير يكن الناس اختياراً . إن العلاقة القائمة بين الأعلى والأدنى لشبيهة بالعلاقة بين الريح والكلا ، فالكلأ يميل إذا هبت عليه الريح ... وما أشبه الذى ينهج فى حكمه نهج الفضيلة بالنجم القطبي الذى لا يتحول عن مكانه والذى تطوف النجوم كلها حوله ... »

وسأل كى كانج كيف يحمل الناس على أن يجئوا (حاكمهم) ، وأن يخلصوا له ، وأن يلتزموا جانب الفضيلة ؟ فأجابه المعلم : « فليراسهم فى وقار — يحترموه ، وليكن عطوفاً عليهم رحيماً بهم يخلصوا له . وليقدم الصالحين ويعلم العاجزين — يحرصوا على أن يكونوا فضلاء » . (١٣٤) .

وإذا كانت القدوة الحسنة أولى وسائل الحكم ، فإن حسن الاختيار للمناصب وسيلته الثانية : « استعمل الصالحين المستقيمين ، وانبذ المعوجين ، وبهذه الطريقة يستقيم المعوج » (١٣٥) .

وتقول عقيدة الوسط : « إن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على

(استعمال من يصلح له من الناس) وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاء الناس إلا أن تكون أخلاق (الحاكم) نفسه سالحة » (١٣٦).

وأى شيء لا تستطيع الوزارة المؤلفة من الرجال الأعلى أن تعمله في جيل واحد لتطهير الدولة والارتقاء بالشعب إلى مستوى عال من الحضارة ؟ (١٣٧) — إن أول ما يحرصون عليه ألا تكون لهم قدر المستطاع علاقات خارجية ، وأن يعملوا على أن يكتفوا بغلاتهم عن غلات غيرهم ، حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هذه الغلات ، ثم يقللوا من ترف بطانة الملوك ويعملوا على توزيع الثروة في أوسع نطاق لأن « تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب ، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته » (١٣٨) ، ثم يخففوا العقاب وينشروا التعليم العام لأن « التعليم إذا انتشر انعدمت الفروق بين الطبقات » (١٣٩) ويشير كنفوشوس بالأ تدرس الموضوعات العليا لقوى المواهب الوسطى ، أما الموسيقى فيجب أن تعلم للناس أجمعين .

ومن أقواله في هذا : « إذا اتقن الإنسان الموسيقى ، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها تطهر قلبه وصار قلباً طبيعياً ، سليماً ، رقيقاً ، عامراً بالإخلاص والوفاء ، يغمره السرور والبهجة ... وخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات ... أن توجه العناية إلى الموسيقى التي تعترف في البلاد (*) ... والأخلاق الطيبة والموسيقى يجب ألا يهملها الإنسان ... فالخير شديد الصلة بالموسيقى والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام .

وعلى الحكومة أن تعنى أيضاً بفرس الأخلاق الطيبة ، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة معها (**). وآداب اللياقة هي التي تكون على الأقل

(*) قال دانييل أوكنل : « دعوني أكتب أغاني الأمة ، ولست أبالي بعد ذلك من يسر شرائعها » .

(**) قارن هذا بقول المرحوم شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا (المترجم)

المظهر الخارجى لأخلاق الأمة وإن لم يدرك الناس هذا^(١٤١) ، وهى تضى على الحكيم لطف الرجل المهذب ؛ وما من شك فى أن المرء ابن عاداته . أما من الوجهة السياسية « فأداب اللياقة حواجز تقوم بين الناس وبين الانغماس فى لفساد » ، و « من ظن أن الحواجز القديمة لا نفع فيها فهذهما حلت به الكوارث الناشئة من طغيان المياه الجارفة »^(١٤٢) .

ويكاد الإنسان يسمع هذا القول الصارم الذى نطق به المعلم الغاضب يتردد هذه الأيام فى جنبات « بهو الآداب القديمة » التى نقشت ألفاظها على حجارته ، والتى دنستها أضرار الثورة وحقرتها .

ومع هذا فقد كان لكنفوشيوس أيضاً أحلامه ومثله العليا فى الحكومات والدول . فقد كان يعطف فى بعض الأحيان على الذين إذا اقتنعوا بأن الأسرة الحاكمة فقدت « الأمر الأعلى » أى « أمر السماء » قوضوا أركان نظام من نظم الحكم لكى يقيموا على أنقاضه نظاماً خيراً منه . وقد اعتنق فى آخر الأمر المبادئ الاشتراكية وأطلق فيها خياله العنان !

« إذا ساد المبدأ الأعظم (مبدأ التماثل الأعظم) أصبح العالم كله جمهورية واحدة ؛ واختار الناس لحكمهم ذوى المواهب والفضائل والكفايات^(*) ؛ وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة ، ويعملون على نشر لواء السلم الشاملة . وسينشذ لا يرى الناس أن آباءهم من ولدوهم دون غيرهم ، أو أن أبناءهم هم من ولدوا لهم ، بل تراهم يهينون سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم ، ويهينون العمل للكحول ، ووسائل النماء للصغار ، ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء ، واليتامى وعديمى الأبناء ، ومن أقعدهم المرض عن العمل . هنالك يكون لكل إنسان حقه ، وهنالك تصان شخصية المرأة فلا يعتدى عليها .

(*) ما أشبه هذا بما يدعو إليه بعض الكتاب فى هذا الجيل - أمثال ه . ج . ولز - من إنشاء حكومة عالمية (المترجم)

وينتج الناس الثروة ، لأنهم يكرهون أن تبدد وتضيع في الأرض ، ولكنهم يكرهون أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس ، وهم يعملون لأنهم يكرهون البطالة ، ولكنهم لا يهدفون في عملهم إلى منفعتهم الشخصية .
وبهذه الطريقة يقضى على الأنانية والمآرب الذاتية ، فلا تجد سبيلا إلى الظهور ، ولا يرى أثر للصوص والنشالين واخلونة المارقين ، فتبقى الأبواب الخارجية مفتحة غير مغلقة . هذا هو الوضع الذي أسميه التماثل الأعظم ^(١٤٣) (*) .

٣ — أثر كنفوشيوس في الأمة الصينية

العلماء الكنفوشيون — انتصارهم على القانونيين — عيوب
الفلسفة الكنفوشية — جدة مبادئ كنفوشيوس

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولكنه كان نجاحاً كاملاً . لقد كان يضرب في فلسفته على نفعة سياسية عملية حببتها إلى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لإصراره على تحقيقها .

وإذا كان رجال الأدب في كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدياء فحسب ، فإن أدياء القرون التي أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد استمسك بمبادئه ، واتخذوها سبيلا إلى السلطان وتسلم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة في الإمبراطورية بأجمعها وانتشرت المدارس في أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة كنفوشيوس التي تلقاها الأساتذة عن تلاميذ العلم الأكبر ، ونمناها منسّيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام . وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية في الصين ، فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التي تدهورت فيها البلاد من

(*) ترى هل فيها وضحه الفلاسفة المحدثون مثل عليا للحكومات أرق من هذا المثل (المترجم)

الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان المصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعى فى العصور المظلمة التى تلت سقوط رومة .

وكانت فى البلاد طائفة أخرى هى طائفة « القانونيين » استطاعت أن تنافض وقتاً ما آراء كنفوشيوس فى عالم السياسة ، وأن تدير الدولة حسب مبادئها فى بعض الأحيان .

ومن أقوالهم فى الرد على كنفوشيوس أن نظام الحكم على المثل الذى يضر به الحاكمون ، وعلى الصلاح الذى تنطوى عليه قلوب الحكوميين ، يعرض الدولة لأشد الأخطار ، إذ ليس فى التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التى تسترشد فى أعمالها بهذه المبادئ المثالية . وهم يقولون إن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الأحكام ، وإن الناس يجب أن يرغبوا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين . ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغاً يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فإنهم لا يصيبون الرخاء إلا تحت حكم جماعة من الأشراف ؛ وحتى التجار أنفسهم ، وإن أثروا ، لا يدل ثراؤهم على أنهم متفوتون فى ذكائهم ، فهم يسهون وراء مصالحهم الخاصة ، وكثيراً ما يتعارض سعيهم هذا مع مصالح الدولة .

ويقول بعض القانونيين إنه قد يكون من الخير للدولة أن تجعل رموس الأموال ملكاً عاماً للمجتمع ، وأن تحتكر هى التجارة ، وأن تمنع التلاعب بالأثمان وتركيز الثروة فى أيدي عدد قليل من الأفراد^(١٤٤) .

هذه آراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت إلى الظهور مرة بعد مرة فى تاريخ الحكومة الصينية .

ولكن فلسفة كنفوشيوس كُتب لها النصر آخر الأمر . وسنرى فيما بعد كيف سعى شى هوانج — دى ، صاحب الحول والطول ، معاون رئيس وزراء من

طائفة القانونيين ، للتضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجوداً وقتئذ من الكتابات الكنفوشية . ولكن تبين مرة أخرى أن قوة البيان أعظم من قوة السنان .

ولم يكن لعداء « الإمبراطور الأول » من نتيجة إلا أن يجعل الكتب التي أراد أن يعدمها كتباً مقدسة قيمة ، وأن يستشهد الناس في سبيل المحافظة عليها . حتى إذا انقضى عهد تشي هوانج — دى ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش إمبراطور أحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعين العلماء الكنفوشيين في مناصب الدولة ، وثبت حكم أسرة هان ، وقوى دعائمه ، بأن أدخل آراء كنفوشيوس وأساليبه الحكيمه في برامج تعاليم الشبان الصينيين وفي الحكومة . وقربت القرابين تكريماً لكنفوشيوس ، وأمر الإمبراطور أن تنقش نصوص الكتب القديمة على الحجارة ، وأصبحت الكنفوشية دين الدولة الرسمي . وناهض الكنفوشية في بعض الأحيان نفوذ الدوية ، كما طغى عليها أحياناً أخرى سلطان البوذية ، حتى إذا كان عهد أسرة تانج أعادتها إلى مكاتها السابقة وأعات من شأنها .

ولما جلس على العرش تاي دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكنفوشيوس . في كل مدينة وقرية في جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأن يقرب له فيها القوايين العلماء والموظفون . وفي عهد أسرة دزونج نشأت مدرسة قوية للكنفوشية الجديدة أضافت شروحات وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر وما أضافته إليها من شروح مختلفة في بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت في اليابان نهضة فلسفية قوية . وظلت مبادئ كنفوشيوس من مبدأ قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو — أى ما يقرب من ألفي عام — تسيطر على العقاية الصينية وتصوغها في قالبها .

والفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين ؛ ذلك أن كتابات معلمها الأكبر ظلت جيلا بعد جيل النصوص المقررة في مدارس الدولة الصينية ، يكاد كل صبي يتخرج في تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب ، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التي يمتاز بها الحكيم القديم في قلوب الصينيين ، وسرت في دمائهم ، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقا في التفكير لا نظير لها في غير تاريخهم أو في غير بلادهم ، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلاسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متألفة ، وأن تبعث في نفوس أبنائها إعجابا شديدا بالعلم والحكمة ، وأن تنشر في بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمسكتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التي اجتاحت بلادها ، وأن تشكل هي الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها . ولسنا نجد في غير المسيحية والبوذية^(*) ما نجد في الكنفوشية من جهود جبارة لتحويل ما جبلت عليه الطبيعة البشرية من غلظة ووحشية إلى تأدب ورفقة .

ولسنا نجد في هذه الأنام — كما لم يجد الأقدمون في الأيام الخالية — دواء يوصف للذين يقاسون الآخرين من جراء الاضطراب الناشئ من التربية التي تعنى بالعقل وتهمل كل ما عداها ، ومن انحطاط مستوى القانون الأخلاقي وتدهوره ، ومن ضعف الأخلاق الفردية والقومية ، لسنا نجد دواء لهذا كله خيرا من تلقين الشباب مبادئ الفلسفة الكنفوشية^(**) .

لكن تلك الفلسفة لا تستطيع وحدها أن تكون غذاء كاملا للروح . لقد كانت فلسفة تصلح لأمة تكافح للخروج من غمرات القوضى والضعف إلى النظام والقوة . ولكنها غل ثقل يقيد البلد الذي ترغبه المناسبات الدولية على أن ينمو ويتطور .

(*) لقد كان حقاً على المؤلف أن يضم إليهما الإسلام ، وقد كان له من الأثر في طباع العرب أعظم مما كان للكنفوشية والمسيحية والبوذية من أثر في الأمم التي انتشرت بينها .
(المترجم)

(***) أو مبادئ الإسلام .
(المترجم)

ذلك أن قواعد الأدب واللياقة التي شكلت أخلاق الصينيين ونظامهم الاجتماعي أنضحت قوة جارفة تسير كل حركة حيوية في طريق مرسوم لا تتحول عنه ، وكانت الفلسفة الكنفوشية تصطبغ بصبغة جامدة متزمته ، وتقف في سبيل الدوافع الطبيعية القوية المحركة للجنس البشرى ، وسمت فضائلها حتى بلغت حد العقم ؛ ولم يكن فيها قط مجال للهو والمجازفة كما لم يكن فيها إلا القليل من الصداقة والحب ، وقد أعانت على تحقير النساء وإذلالهن^(١٤٥) ، كما أعان ما فيها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية وجعلها أمة متحفظة لا يضارع عداؤها للرقى إلا حبها للسلام .

وليس من حقنا أن نعزو هذا كله إلى كنفوشيوس ، وأن نوجه إليه اللوم من أجله ، إذ ليس في مقدور إنسان أيا كان شأنه أن يسيطر على تفكير عشرين قرناً من الزمان ، بل كل ما يحق لنا أن نطلبه إلى المفكر أن يضيء لنا بطريقة ما ، وبفضل تفكيره طوال حياته ، سبيل الفهم الصحيح . وقل أن نجد في العالم من انمطع بهذا الواجب كما اضطلع به كنفوشيوس . وإذا ما قرأنا تعاليمه ، وتبيننا ما يجب أن نمحوه من فلسفته بسبب تقدم المعارف في العالم وتبدل أحواله ، وعرفنا قيمة ما يسديه إلينا من هداية في عالمنا الحاضر نفسه ، إذا ما فعلنا هذا نسينا من غورنا ما يشوب فلسفته من تهاة تارة ومن كمال لا تطيقه الطبيعة البشرية تارة أخرى ، واشتركنا مع كونج چى حفيده الصالح التقي في هذا التسبيح الأعلى الذي كان بداية تأليه كنفوشيوس .

لقد نقل چو ينج — في عقائد يوشون كأنهما كانا من آباءه ، ونشر نظم وَن وَو واتخذهما مثلين يحذيهما وينسج على منوالهما . وكان في صفاته الروحية قديساً أو ملاكاً يتناغم مع السماء . ولكنه لم ينس قط أنه مخلوق من طين وماء . وهو يشبه السماء والأرض في أنه كان عماداً لكل شيء وعائلاً لكل شيء ، يحجب نوره كل شيء ، وتغطى ظلاله كل شيء . وهو أشبه بالفصول الأربعة في تتابعها وانتظام سيرها ، وأشبه بالشمس والقمر في تتابع ضائهما ...

فهو في شموله واتساع آفاقه كالسما ، وفي عمق تفكيره ونشاطه كالمهوية
السحيقة والعين الجائشة الفوارة ، إذا رآه الناس وقروه وعظموه ، وإذا تكلم
صدقوه ، وإذا فعل أعجبوا بفعله وأحبوه .

ولهذا ذاع صيته في « الملكة الوسطى » وانتشر بين القبائل الهمجية ،
فحيثما وصلت السفائن والمركبات ، وحيثما نفذت قوة الإنسان ، وفي كل مكان
امتد على سطح الأرض وأظلمت السماء وأضاءته الشمس وأناره القمر ، وفي كل
بقعة مسها الصقيع وطلها الندى — يحله ويمحيه كل من سرى فيه دم الحياة وترددت
في صدره أنفاسها ، حبا صادقا لا تكلف فيه ولا رياء ؛ ولهذا قيل عنه إنه : « هو
والسما صنوان » (١٤٦) .

الفصل الثالث

اشتراكيون وفوضويون

لقد كانت المائتا عام التي أعقبت عصر كنفوشيوس أعوام جدل شديد وردّة عنيفة ، ذلك أنه لما كشف العلماء عن لذة الفلسفة وبهجتها قام رجال من أمثال هُودزهِ ؛ وجونج سون لويانج بتلاعبون بالمنطق ويخترعون القضايا المنطقية المتناقضة التي لا تقبل في تبانيها ودقتها عن قضايا زينون^(١٤٧) . واحتشد الفلاسفة من جميع أنحاء البلاد في مدينة لويانج ، كما كانوا يحشدون في نفس هذا القرن في مدينتي بنارس وأثينة ، وكانوا يستمتعون في عاصمة الصين بحرية القول والتفكير التي جعلت أثينة وقتئذٍ العاصمة الفكرية لبلاد البحر المتوسط . وغصت عاصمة البلاد بالفلاسفة المسمين تزونج — هنج — كيا أي « فلاسفة الجدل » ، الذين جاءوا من كافة أنحاء البلاد ليعلموا الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم فن إقناع أي إنسان بأي شيء أرادوا إقناعه به^(١٤٨) . فجاء إلى لويانج منثيس الذي خلف كنفوشيوس في منصبه ، كما جاء إليها جونج — دزه أعظم أتباع لو — دزه ، وشون — دزه القائل بأن الإنسان شرير بطبعه ، ومودي نبي الحب العالمي .

١ — مودي العبرى

منطق قديم — مسيحي — وداعية سلام

قال منثيس عدو مودي «لقد كان يحب الناس جميعاً ، وكان يود لو يستطيع أن يبلي جسمه كله من قمة رأسه إلى أخمص قدمه إذا كان في هذا خير لبني الإنسان^(١٤٩) ؛ وقد نشأ مودي في بلدة لو التي نشأ فيها كنفوشيوس ، وذاعت شهرته بعد وفاة الحكيم الأكبر بزمن قليل . وكان يعيب على كنفوشيوس أن تفكيره

خيالى غير عملى ، وأراد أن يستبدل بهذا التفكير دعوة الناس جميعاً لأن يحب بعضهم بعضاً . وكلن من أوائل المناطقة الصينيين ومن شر المجادلين المحاجين فى الصين ؛ وقد عرّف القضية المنطقية تعريفاً غاية فى البساطة فقال :

هذه هى التى أسميها قواعد الاستدلال الثلاث :

أين يجد الإنسان الأساس ؟ ابحث عنه فى دراسة تجارب أحكم الرجال الأقدمين .

كيف يلم الإنسان به إلماً عاماً ؟ اخص عما فى تجارب الناس العقلية من حقائق واقعية .

كيف تطبقها ؟ ضعها فى قانون وسياسة حكومية ، وانظر هل تؤدى إلى خير الدولة ورفاهية الشعب أو لا تؤدى إليهما^(١٥٠) .

وعلى هذا الأساس جد مودى فى البرهنة على أن الأشباح والأرواح حقائق واقعية ، لأن كثيرين من الناس قد شاهدوها ، وكان من أشد المعارضين لآراء كنفوشيوس المجردة غير الجسمة عن الله ، وكان من القائلين بشخصية الله . وكان يظن كما يظن بسكال أن الدين رهان مريح فى كلتا الحالتين : فإذا كان آباؤنا الذين تقرب لهم القرايين يستمعون إلينا فقد عقدنا بهذه القرايين صفقة رابحة ، وإذا كانوا أمواتاً لا حياة لهم ولا يشعرون بما تقرب إليهم فإن القرايين تتيح لنا فرصة الاجتماع بأهلينا وجيرتنا ، لنستمتع جميعاً بما نقدمه للموتى من طعام وشراب^(١٥١) .

وبهذه الطريقة عينها يثبت مودى أن الحب الشامل هو الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية ؛ فإذا ما عم الحب العالم أوجد فيه بلا ريب الدولة الفاضلة والسعادة الشاملة التى بها « يجب الناس كلهم بعضهم بعضاً ، ولا يفترس أقرباؤهم ضعفاءهم ، ولا تنهب كثرتهم قلتهم ، ولا يزدري أغنياؤهم فقراءهم ، ولا يسهف عظماءهم صغارهم ، ولا يخذع الباكرون منهم السذج »^(١٥٢) . والأناية فى رأيه مصدر كل شر

سواء كان هذا الشر رغبة الطفل في التملك أو رغبة الإمبراطوريات في الفتح والاستعمار . ويعجب مودى كيف يُدين الناس أجمعون من يسرق خنزيراً ويماقبونه أشد العقاب ، أما الذى يغزو مملكة ويغتصبها من أهلها ، فإنه يمد فى أعين أمته بطلا من الأبطال ومشلا أعلى للأجيال المقبلة^(١٥٣) . ثم ينتقل مودى من هذه المبادئ السلمية إلى توجيه أشد النقد إلى قيام الدولة حتى لتكاد عقيدته السياسية تقترب كل القرب من الفوضى ، وحتى أزججت هذه العقيدة ولاية الأمور فى عصره^(١٥٤) . ويؤكد لنا كتاب سيرته أن مهندس الدولة فى مملكة چو همّ بغزو دولة سونج ليحرب فى هذا الغزو سلماً جديداً من سلام الحصار اخترعه فى ذلك الوقت ؛ فما كان من مودى إلا أن أخذ يعظه ويشرح له عقيدة الحب والسلم العالمين حتى أقنعه بالعدول عن رأيه ، وحتى قال له المهندس : « لقد كنت قبل أن ألقاك معتماً ففتح بلاد سونج ، ولكنى بعد أن ألقىتك لا أحب أن تكون لى ولو سلمت إلى من غير مقارمة ومن غير أن يكون ثمة سبب حق عادل يحمانى على فتحها » . فأجابه مودى بقوله : « إذا كان الأمر كذلك فكأنى قد أعطيتك الآن دوله سونج . فاستمسك بهذه الخطة العادلة أعطك ملك العالم كله »^(١٥٥) .

وكان العلماء من أتباع كنفوشيوس والساسة أتباع لويينج يسخرون من هذه الأفكار السلمية ؛ ولكن مودى رغم هذه السخرية كان له أتباع ، وظلت آراؤه مدى قرنين كاملين عقيدة تدين بها شيعة تدعو إلى السلام ، وقام اثنان من صريديه وهما سونج بنج ، وجونج سون لونج بحملة قوية لنزع السلاح ، وجاهدا فى سبيل هذه الدعوة حق الجهاد^(١٥٦) . وعارض هان — أعظم النقاد فى عصره هذه الحركة ، وكان ينظر إليها نظرة فى وسعنا أن نسميها نظرة نيتشية ، وكانت حجته فى معارضته أن الحرب ستظل هى الحكم بين الأمم حتى تنبت للناس بالفعل أجنحة الحب العام .

ولما أصدر شى هوانج — دى أمره الشهير « بإحراق الكتب » ألقىت

فى النار جميع الآداب المودىة كما ألقىت فىها جميع الكتب الكنفوشىة ؛
وقضى هذا الحرق على الدين الجدىد وإن لم يقضى على عقيدة المعلم الأكبر
وكتابه .

٢ — يانج — جو ، أنانى

جىرى أبىقورى — الدفاع عن الشر

وكانت عقيدة أخرى ، تختلف عن العقيدة السابقة كل الاختلاف ، قد
أخذت تنتشر وتشتد الدعوة إليها بين الصينيين ، فقد قام رجل يدعى يانج —
جولا نعرف عنه شيئاً إلا ما قاله عنه شانتو^(١٥٩) ، وجهر بهذه الدعوة المتناقضة ،
وهى أن الحياة ملأى بالآلام وأن اللذة هدفها الأعلى ، وكان ينكر وجود الله ،
كما ينكر البعث ، ويقول إن الخلائق ليست إلا دُمى لا حول لها ولا طول ،
تحركها القوى الطبيعية العمياء التى أوجدتها ، والتى وهبتها أسلافها دون أن
يكون لها فى ذلك خيار ، ورسمت لها أخلاقها ، فلا تستطيع أن تتحول عنها
أو أن تبدلها غيرها^(١٦٠) .

فأما الحكيم العاقل فىرضى بما قسم له دون أن يشكو أو يئزم ، ولكنه
لا يفتربشئ من سخافات كنفوشىوس ومودى ، وما يقولانه عن الفضيلة
الفطرية والحب العالمى ، والسمعة الطيبة . ومن أقواله أن المبادئ الخلقية شرك
ينصبه الماكرون للسذج البسطاء ، وأن الحب العالمى وهم يتوهمه الأطفال الذين
لا يعرفون كنه البغضاء العالمية التى هى سنّة الحياة ، وأن حسن الأحداثنة العوبة
لا يستطيع الحقى الذين ضحوا من أجلها أن يستمتعوا بعد وفاتهم بها ، وأن الأخيار
يحاسون فى الحياة ما يقاسيه الأشرار ، بل إنه لىبدو أن الأشرار أكثر استمتاعاً
بالحياة من الأخيار^(١٦١) ، وأن أحكم الحكماء الأقدمين ليسوا هم رجال الأخلاق
والحاكمن كما يقول كنفوشىوس بل هم عبدة الشهوات ، الذين كان من حظهم

إن استبقوا المشتريين والفلاسفة ، فاستمتعوا بكل لذة دفعتهم إليها غرائزهم . نعم
إن الأشرار قد يخلفون وراءهم سمعة غير طيبة ، ولكن ذلك الأمر لا يطاق عظامهم .
ثم يدعونا يانج — چو إلى أن نفكر في مصير الأخيار والأشرار ، فيقول (*) :
إن الناس كلهم مجمعون على أن شون ، ويو ، وچو — جويج ، وكنفوشيوس
كانوا خير الناس وأحقهم بالإعجاب ، وأن چياه ، وچو ، شرهم جميعا .

ولكن شون قد اضطر إلى حرث الأرض في جنوب نهر هو ، وإلى وضع
آنية الفخار بجوار بحيرة لاي ، ولم يكن في وسعه أن يستريح من عناء العمل
لحظة قصيرة ، بل إنه لم يكن يستطيع أن يجد شيئاً من الطعام الشهي والملابس
المدفنة ، ولم يكن في قلب أبويه شيء من الحب له ، كما لم يكن يجد من إخوته
وأخواته شيئاً من العطف عليه . . . فلما نزل له « ياو » آخر الأمر عن الملك ،
كان قد تقدمت به السن ، وانحطت قواه العقلية ؛ وظهر أن ابنه شانج جو
إنسان ناقص العقل عديم الكفاية ؛ فلم يجد بداً من أن ينزل عن الملك إلى يو .
ومات بعدئذ ميتة محزنة . ولم يكن بين البشر كلهم إنسان قضى حياته كلها
بائساً منفصلاً ، كما قضى هو حياته . . .

« وكان يو قد صرف كل جهوده في فلاح الأرض ، ووُلد له طفل ولكنه لم
يستطع أن يربيه ؛ فكان يمر على باب داره ولا يدخلها ، وانحنى جسمه وانضمرو
وغلظ جلد يديه وقدميه وتحجر . فلما أن نزل له شون آخر الأمر عن العرش
عاش في بيت وطيء حقير ، وإن كان يابس ميدعة وقلنسوة ظريفتين . ثم مات
ميتة محزنة ، ولم يكن بين آدميين كلهم من عاش معيشة نكدية حزينة
كما عاش يو (*) . . .

« وكان كنفوشيوس يفهم أساليب الملوك والحكام الأقدمين ، ويستجيب

(*) في وسع القارئ أن يعرف شيئاً عن شون ، ويو بالاطلاع على ص ١٧ من هذا
الكتاب وعن چياه وو (سن) بالاطلاع على صفحتي ١٧ ، ١٨ .

إلى دعوات أسراء عصره . ثم قطعت الشجرة التي يستظل بها في سونج ، وأزيلت آثار أقدامه من ويه ، وجل به الضنك في شانج وجو ، وحوصر في شان ، وتشى ؛ ... وأذله يانج هو وأهانه ، ومات ميتة محزنة ، ولم يكن بين بني الإنسان كلهم من عاش عيشة مضطربة صاحبة كما عاش كنفوشيوس .

« ولم يستمتع هؤلاء الحكماء الأربعة بالسرور يوما واحداً من أيام حياتهم ، وذاعت شهرتهم بعد موتهم ذيوغاً سوف يدوم عشرات الآلاف من الأجيال ، ولكن هذه الشهرة هي الشيء الذي لا يختاره قط من يعنى بالحقائق ويهتم بها . هل يحتفلون بذكراهم ؟ هذا ما لا يعرفونه . وهل يكافئونهم على أعمالهم ؟ — وهذا أيضاً لا يعرفونه وليست شهرتهم خيراً لهم مما هي لجذع شجرة أو مدرة . أما (جياه) فقد ورث ثروة طائلة تجمعت مبدى قرون طويلة ؛ ونال شرف الجلوس على العرش الملكي ؛ وأوتى من الحكمة ما يكفيه لأن يتحدى كل من هم دونه مقاماً ؛ ومن القوة ما يكفي لأن يزغزع به أركان العالم كله . وكان يستمتع بكل ما تستطيع العين والأذن أن تستمتعا به من ضروب اللذات ؛ ولم يحجم قط عن فعل كل ما سولت له نفسه أن يفعله . ومات ميتة هنيئة ؛ ولم يكن بين الآدميين كلهم من عاش عيشة مترفة فاسدة كما عاش هو وورث جو (شين) ثروة طائلة تجمعت في مدى قرون طويلة ، ونال شرف الجلوس على العرش الملكي ؛ وكان له من القوة ما يستطيع به أن يفعل كل ما يريد ؛ ... وأباح لنفسه في قصوره فعل كل ما يشتهي ، وأطلق لشهواته العنان خلال الليالى الطوال ؛ ولم يكدر صفو سعادته قط بالتفكير في آداب اللياقة أو العدالة ، حتى قضى نحبهم كالبهج ما يقضى الناس نحبهم . ولم يكن في الآدميين كلهم من كانت حياته داعرة فاجرة كما كانت حياة جو .

« وقد استمتع هذان الرجلان السافلان في حياتهما بما شاءا من اللذات وأطلقا لشهواتهما العنان ، واشتهرا بعد وفاتهما بأنهما كانا من أشد الناس حقاً

واستبداداً ، ولكنهما استمتعا باللذة وهي حقيقة لا تستطيع أن تهبطا حسن
الأحدوث . فإذا لامهم الناس فإنهم لا يعرفون ، وإذا أنفوا عليهم ظلوا بهذا
الثناء جاهلين ، وسمعتهم (السيئة) لا تهبط أكثر مما تهبط جذع شجرة
أو مدرة^(١٦٢) .

ألا ما أعظم الفرق بين هذه الفلسفة وبين فلسفة كنفوشيوس ! وهنا أيضاً
نظن أن الزمان وهو رجعي كالرجعيين من الآدميين قد أبقى لنا آراء أجل
المفكرين الصينيين وأعظمهم ، ثم عدا على الباقيين كلهم تقريباً فطوأم في غمرة
الأرواح المنسية . ولعل الزمان محق في فعله هذا ، ذلك أن الإنسانية نفسها
ما كانت لتعمر طويلاً لو كان فيها كثيرون ممن يفكرون كما يفكر يان چو .
وكل ما نستطيع أن نرد به عليه هو أن المجتمع لا يمكن أن يقوم إذا لم يتعاون
الفرد مع زملائه . أخذاً وعطاءً ؛ وإذا لم يتحملهم ويصبر على أذامهم ، ويتقيد بما
في المجتمع من قيود أخلاقية ، وأن الفرد الكامل العقل لا يمكن أن يوجد في غير
مجتمع ؛ وأن حياتنا نفسها إنما تعتمد على ما فيها من قيود . ومن المؤرخين من
يرى في انتشار هذه الفلسفة الأنانية ، بعض الأسباب التي أدت إلى ما أصاب
المجتمع الصيني من انحلال في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد^(١٦٣) . فلا عجب
والحالة هذه أن يرفع منشييس ، جنسن (Dr. Johnson) زمانه عقيرته بالاحتجاج
الشديد وبالشهير بأبيقورية ينج چو وبمثالية مودی فيقول :

« إن أقوال ينج چو ومودی تملأ العالم ؛ وإذا سمعت الناس يتحدثون
وجدتهم قد اعتنقوا آراء هذا أو آراء ذاك . فأما المبدأ الذي يدعو إليه ينج فهو
هذا : « كل إنسان وشأنه » — وهو مبدأ لا يعترف بمطالب الملك . أما مبدأ
مؤ فهو هذا : « أحب الناس جميعاً بقدر واحد » — وهو مبدأ لا يعترف بما
يحق للأب من حب خاص . ومن لا يعترف بحق الملك ولا بحق الأب فهو في
منزلة الحيوان الأعجم . فإذا لم يوضع لمبادئها حد ، وإذا لم تسد مبادئ

كنفوشيوس، فإنهما سيخدعان الناس بحديثهما المقلوب، ويسدان في وجوههم طريق الخير والصالح .

« ولقد أزعجتني تلك الأشياء وأرمرضت قلبي ، فوقفت أدافع عن عقائد الحكماء والأقدمين ، وأعارض بينج ومو ، وأطارد أقوالها المنحطة ، حتى يتوارى هؤلاء المتحدثون الفاسدون فلا يجرءوا على الظهور . ولن يغير الحكماء من أقوالهم هذه إذا ما عادوا إلى الظهور » (١٦٤) .

٣ - منشيس ، مستشار الأمراء

أم نموذجية - فيلسوف بين الملوك - هل الناس أخبار
بالسليقة - الضريبة الفردية - منشيس والشيوعيون -
باعث الكسب - حق الناس في أن يثوروا

لقد شاءت الأقدار أن يكون منشيس أنبه الفلاسفة الصينيين ذكراً بعد كنفوشيوس ؛ وما أحفل تاريخ الصين بالفلاسفة .

وكان منشيس من سلالة أسرة مانج العريقة ، وكان اسمه في بادئ الأمر مانج كو ، ثم صدر مرسوم إمبراطوري بتغييره إلى مانج - دزه أى مانج المعلم أو الفيلسوف . وقد بدل علماء أوربا الذين مرنوا على الأسماء اللاتينية هذا الاسم إلى منشيس كما بدلوا كونج - فو - دزه إلى كنفوشيوس .

ويكاد غلمنا بأمر منشيس يبلغ من الدقة علماً به هو نفسه ، ذلك بأن المؤرخين الصينيين قد خلدوا ذكرها وجعلوها نموذجاً للأهمات بما قصوه عنها من القصص الكثيرة الممتعة . فهم يقولون إنها بدلت مسكنها ثلاث مرات من أجله ؛ بدلته أول مرة لأنهما كانا يسكنان بجوار مقبرة فبدأ الصبي يسلك مسلك دافنى الأموات ؛ وبدلته في المرة الثانية لأنهما كانا يسكنان بجوار مذبج ، ولذلك بدأ الغلام يجيد محاكاة أصوات الحيوانات المذبوحة ؛ ثم بدلته في المرة الثالثة

لأنهما كانا يسكنان بجوار سوق فشرع الصبي يسلك مسلك التجار ؛ ثم وجدت آخر الأمر داراً بقرب مدرسة فرضيت بها .

وكانت إذا أهمل الغلام دروسه تقطع خيط الموم ، فإذا سأله عن سبب هذا الإنلاف أجابت بأنها إنما تفعل ما يفعله هو نفسه بإهماله وعدم مشاركته على الدرس والتحصيل . وبذلك أصبح الصبي طالباً مجتهداً ؛ ثم تزوج وقاوم في نفسه الميل إلى تطليق زوجته ، وافتتح مدرسة لتعليم الفلاسفة جمع فيها حوله طائفة من الطلاب ذاع صيتهم في الآفاق ؛ وبعث إليه الأمراء من كافة الأنحاء يدعونه ليناقشوه في نظرياته عن الحكم . ولم يشأ في أول الأمر أن يترك أمه المسنة ، ولكنها أفنعتهم بالذهاب بخطبة حبيبته إلى جميع رجال الصين ، ولعل واحداً منهم هو الذي وضع هذه الخطبة :

« ليس من حق المرأة أن تفصل في أمر بنفسها ، وذلك لأنها تخضع لقاعدة الطاعات الثلاث : فإذا كانت شابة وجب عليها أن تطيع أبويها ، وإذا تزوجت كان عليها أن تطيع زوجها ، وإذا تزلمت وجب عليها أن تطيع ولدها . وأنت رجل كامل الرجولة ، وأما الآن عجوز ، فافعل ما توحيه إليك عقيدتك بأنه حق . واجب عليك أن تفعله ، وسأفعل أنا ما يوجبه عليّ القانون الذي أأتمر بأمره . فلم إذن تشغل نفسك بي ؟ » (١٦٥) .

وأجاب منشيس ما طلب إليه لأن الالهة على التعليم جزء من الالهة على الحكم ، ترتبط كلتاهما أشد الارتباط بالأخرى . وكان منشيس كفتير يفضل الملكية المطلقة على الديمقراطية ، وحيثه في هذا أن الديمقراطية تتطلب تعاليم جميع الشعب كله إذا أريد نجاح الحكم ، أما النظام الملكي المطلق فكل ما يطلب فيه أن يثق الفيلسوف رجلاً واحداً — هو الملك — ويعلمه الحكمة لكي ينشئ الدولة الكاملة .

ومن أقواله في هذا المعنى : « أصلح ما في عقل الأمير من خطأ ، فإنك إن قومت الأمير استقرت شئون الدولة »^(١٦٦) . وسافر أولاً إلى تشي وحاول أن يقوم أميرها شوان ، ورضى أن يكون له فيها منصب نفري ، ولكنه رفض مرتب هذا المنصب . وسرعان ما وجد أن الأمير لا يعنى بالفلسفة ، فغادر تلك الإمارة إلى إمارة تانج الصغيرة ، ووجد في حاكمها تلميذاً مخلصاً وإن يكن تلميذاً عاجزاً ضعيفاً . فعاد مرة أخرى إلى تشي ، وأثبت أنه قد زاد حكمة وفهماً لحقائق الأمور بأن قبل منصباً ذا مرتب كبير عرضه عليه الأمير شوان . ولما توفيت أمه في هذه السنين الرعدة دفنها باحتفال عظيم وُجّه اللوم من أجله إلى تلاميذه ، ولكنه برر لهم هذا العمل بقوله إن كل ما يرمى إليه هو أن يظهر إخلاصه ووفاءه له الدته .

وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تورط شوان في حرب للفتح والتملك ، وساء ما أشار به عليه منشيس من دعوة إلى السلام ، رأى أنها جاءت في غير أوانها فأقاله من منصبه وسمع منشيس أن أميرسونج يريد أن يحكم حكم الفلاسفة فسافر إلى عاصمته ولكنه وجد أن ما سمعه كان مبالغاً فيه كثيراً ، وأن الأمراء الذين تردد عليهم كانت لهم أعذار كثيرة يبررون بها عدم استقامتهم واتباعهم النصيح . فقد قال واحد منهم : « إن لدى ناحية من نواحي الضعف ، وهى أنى أحب البطولة والبسالة » . وقال آخر : « إن لدى ناحية من نواحي الضعف وهى أنى أحب الثروة »^(١٦٧) .

واضطرب منشيس آخر الأمر إلى أن يمتزل الحياة العامة ، وقضى أيام شيخوخته وضعفه في تعليم الطلاب وتأليف كتاب وصف فيه أحاديثه مع ملوك زمانه . وليس في وسعنا أن نقول إلى أى حد يمكن مقارنة هذه الأحاديث بأحاديث وولتر سثدج لاندر Walter Savage Lander^(*) ؛ ولسنا واثقين من أن هذا

(*) أديب إنجليزي عاش بين سنتي (١٧٧٥ — ١٨٦٤) . (المترجم)

الكتاب من تأليف منشيس نفسه ، أو من تأليف تلاميذه ، أو أنه هو وتلاميذه قد اشتركوا في وضعه ، أو أنه مدسوس عليه وعليهم^(١٦٨) . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن كتاب منشيس من أعظم الكتب الفلسفية الصينية القديمة وأجلها قدراً .

وعقيدته عقيدة دنيوية خالصة لا تقلّ في هذا عن عقيدة كنفوشيوس ، ولا يكاد يوجد فيها شيء عن المنطق أو فلسفة المعرفة أو ما وراء الطبيعة . لقد ترك الكنفوشيون هذا إلى اتباع لو—دزه ، ووجهوا همهم إلى البحوث الأخلاقية والسياسية . وكان الذى يهم منشيس هو أن يرسم طريقة للحياة الصالحة وتولى خيار الناس مقاليد الحكم . وكان مبدؤه الأساسى أن الناس أخيار بطبيعتهم^(١٦٩) ، وأن ليس منشأ المشاكل الاجتماعية طبيعة الناس بل منشؤها فساد الحكومات ؛ ومن ثم يجب أن يصبح الفلاسفة ملوكاً ، أو أن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة . انظر إلى ما يقوله في هذا المعنى :

والآن ، إذا أردتم جلالكم أن ننشئوا حكومة أعمالها صالحة ، فإن هذا سيبعث في جميع موظفي مملككم الرغبة في أن يكونوا في بلاط جلالكم ، وفي جميع الزراع الرغبة في أن يفلحوا أرض جلالكم ، وفي جميع التجار الرغبة في أن يخزنوا بضائعهم في أسواق جلالكم ، وفي جميع الرحالة الأغراب الرغبة في أن يسافروا في طرق جلالكم ، وفي جميع من يشعرون في أنحاء مملككم بأن ظلموا قد وقع عليهم من حكاهم الرغبة في أن يأتوا ويشكوا إلى جلالكم . وإذا ما اعترفوا أن يفعلوا هذا فمذا الذى يستطيع أن يقف في سبيلهم ؟ .

فقال الملك : « إننى غبي وليس فى وسعى أن أرقى إلى هذا الحد »^(١٧٠) .

والحاكم الصالح فى رأيه لا يشن الحرب على البلاد الخارجية بل يشنها على العدو المشترك — وهو الفقر ، لأن الفقر والجهل هما منشأ الجرائم واضطراب النظام ، وعقاب الناس على ما يرتكبونه من الجرائم لأنهم لا تتاح لهم فرص

لعمل شرك دنىء ينصب للإيقاع بالناس^(١٧١) . وواجب الحكومة أن توفر أسباب الرفاهية لرعاياها ، ولهذا ينبغي لها أن تضع الخطط الاقتصادية الكفيلة بتحقيق هذه الغاية^(١٧٢) . فعليها أن تفرض أكثر الضرائب على الأرض نفسها لا على ما تغله أو ما يقام عليها من المنشآت^(١٧٣) ، وعليها أن تلغى كل العوائد الجبركية وأن تجعل التعليم عاماً وإيجابياً ، لأن هذا أصلح أساس لنشر الحضارة وتقدمها ؛ « والقوانين الطبية لا تعادل كسب الناس بالتعليم الطيب »^(١٧٤) . « وليس الذى يفرق بين الإنسان والحيوان الأعجم بالشئ الكثير ، ولكن معظم الناس يطرحونه وراء ظهورهم ، ولا يحتفظ به إلا عظماء الرجال »^(١٧٥) . وفى وسعنا أن ندرك قدم المشاكل السياسية التى تواجه عصرنا المستقير ، رموقنا منها ، وما نضعه لها من الحلول ، إذا عرفنا أن منشيس قد نبذه الأمراء المتطرفون ، وسخر منه الاشتراكيون والشيوعيون فى عصره لحافظته واستمسكه بالتقديم . ولما قال شوشنج جزار الجنوب الهمجى ينادى بإنشاء دكتاتورية الصعاليك ، ويطالب بأن يكون الصناع على رأس الدولة ، « وأن يكون الفعلة هم الحكام » لما قام يدعو إلى هذا ، واعتنق دعوته كثيرون من « المتعلمين » ، كما اعتنق المتعلمون هذه الدعوة نفسها فى أيامنا الحاضرة ، وانضروا تحت لوائه ، رفض منشيس هذه الفكرة بازدراء ، وقال « إن الحكومة يجب أن يتولاها المتعلمون »^(١٧٦) . ولكنه ندد أيضاً بالعكرة القائلة إن الكسب يجب أن يكون هو الباعث على العمل فى المجتمع الإنسانى ، وعاب على سونج كائج قوله إن الملوك يجب اكتسابهم لقضية السلام بإقناعهم — فى لغة هذه الأيام — بأن الحرب عمل غير مريح . وفى هذا يقول :

« إن غرضك شريف ، ولكن منطقك غير سليم . ذلك بأنك إذا اتخذت الكسب أساساً لحجتك واستطعت أن تقنع بها ملوك تشين وتشى ، وأعجب هؤلاء الملوك بفكرة الكسب فأمرُوا بوقف حركات جيوشهم ، فإن كل المتصلين

بهؤلاء الجيوش سيفرحون بوقف (القتال) ، وسيجدون أعظم السرور في (السعي وراء الكسب) . فنرى الوزراء يخدمون الملك جرياً وراء الكسب الذي حجب إليهم ، والأبناء يخدمون آباءهم ، والإخوة الصغار يخدمون الكبار من إخوتهم ، لهذا السبب عينه ، ونتيجة هذا أن الملك والوزراء ، والأب والابن ، والأخ الأكبر والأصغر ينسون كلهم بواجب الخير والصلاح ، ويوجهون أعمالهم كلها نحو الكسب المحبب إليهم العزيز عليهم . ولم يوجد قط (مجتمع) كهذا إلا كان مآله الخراب « (١٧٧) » .

وكان يعترف بحق الشعوب في الثورة وينادى بهذا المبدأ في حضرة الملوك . وكان يندد بالحرب ويراهما جريمة ، ولشد ما صدم عقائد الأبطال في أيامه حين كتب يقول : « من الناس من يقول إنى بارع في تنظيم الجند ، وإنى ماهر في إدارة المعارك . وأولئك هم كبار المجرمين » (١٧٨) .

وقال في موضع آخر : « ليس ثمة حرب عادلة » (١٧٩) . وكان يندد بترف حاشية الملوك ، ويوجه أشد اللوم للملك الذي يطعم كلابه وخنازيره ويترك الناس يموتون جوعاً (١٨٠) . ولما قال أحد الملوك إنه لا يستطيع منع الجماعة أجابه منشيس بأنه ينبغي له أن يعتزل الملك (١٨١) . وكان يقول لتلاميذه : « إن الناس أهم عنصر (من عناصر الأمة) ؛ ... وإن الملك أقل هذه العناصر شأنًا » (١٨٢) . وإن من حق الناس أن يخلعوا حكامهم ، بل إن من حقهم أن يقتلوهم في بعض الأحيان .

« وسأل الملك شوان عن الوزراء العظام ... فأجابه منشيس : « إذا كان الملك يرتكب أغلاطاً شنيعة وجب عليهم أن يعارضوه ، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرة بعد مرة ، وجب عليهم أن يخلعوه ... » .

ثم واصل منشيس حديثه قائلاً : « إذا فرض أن القاضي الأكبر الذي يحكم في الجرائم قد عجز عن السيطرة على الموظفين (الخاصين له) فماذا تفعل به ؟ » .

فأجابه الملك بقوله : « أفصله من منصبه » . ثم قال له منشيس : « وإذا لم يكن في داخل حدود (مملكته) الأربعة حكومة صالحة فماذا تفعل ؟ » فتلفت الملك يمناً ويسرة وأخذ يتحدث عن أمور أخرى...

وسأله الملك شوان : « وهل من أجل ذلك أمر تانج بنفى جياها وضرب ملك « و » حاكم چو (سن) ؟ فأجاب منشيس : « هكذا تقول السجلات » وسأله الملك : « وهل يحق للوزير أن يقتل ملكه ؟ » فأجابه منشيس : « إن الذي يخرج على ما أودع فيه من (طبيعة خيرة) يسمى لصاً ؛ والذي يخرج على قواعد الاستقامة يسمى وغداً ؛ وليس كل من اللص والغد في عرفنا إلا شخصاً لا قيمة له ؛ ولقد سمعت بتقطيع أوصال الشخص خو ؛ ولكني لم أسمع بقتل ملك » (١٨٣).

تلك عقيدة ما أجراها ، ولقد كانت عاملاً كبيراً في تقرير المبدأ الذي يقره ملوك الصين وأهلها ، وهو أن الحاكم الذي يستثير عداوة الشعب يفقد « حقه الإلهي » في الحكم ، ومن حق الشعب أن يخلعه . فلا عجب والحالة هذه إذا غضب هونج وو ، مؤسس أسرة منج . حين قرأ هذا الحديث الذي دار بين منشيس والملك شوان ، وأمر أن يمحي اسم منشيس من مكانه في هيكل كنفوشيوس ، وكانت لوحة تذكارية قد وضعت له في هذا المبدد بأمر ملكي في عام ١٠٨٤ ، ولكن اللوحة أعيدت إلى مكانها ولما يمض عام واحد على إزالتها ، وظل منشيس من ذلك الوقت إلى ثورة عام ١٩١١ يعد بطلاً من أبطال الصين وثاني اثنين ذاع صيتهما في جميع عهود تاريخها ، وكان لهما أعظم الأثر في فلسفتها الصحيحة . وإليه وإلى چوشى (*) يرجع الفضل في احتفاظ كنفوشيوس بزعامته الفكرية في الصين أكثر من ألفي عام .

(*) انظر بحث الفلسفة في الفصل الأول من الباب الخامس عشر .

٤ — شون — دزه ، واقعى

النفس البشرية أماراة بالسوء - ضرورة القوانين

كان فى فلسفة منشيس كثير من نقط الضعف ، وكان يسر معاصريه أن يشهروا بهذه النقط بأعظم ما يستطيعون من قوة . أحق أن الناس أخيار بطبيعتهم وأنهم لا يتحدرون إلى الشر إلا إذا فسدت النظم التى يعيشون فى كنفها ؟ أم الصحيح أن الطبيعة البشرية هى السبب فى شرور المجتمع ؟ لقد كان هذان الرأيان المتعارضان مثاراً لجدل عنيف ظل قائماً آلاف السنين بين المصلحين والمحافظين . فهل تستطيع التربية أن تنقص الجرائم ، وتزيد المصائب ، وتأخذ بيد الناس إلى المثل العليا ، وتمكنهم من إقامة الدولة الفاضلة المثالية ؟ وهل يصلح الفلاسفة لحكم الدول أو أن فلسفتهم لا تؤدى إلا إلى زيادة ما يحاولون علاجه من فوضى واضطراب ؟

وكان أشد الناس نقداً لمنشيس وأصعبهم مراساً أحد الموظفين العموميين ، ويلوح أنه توفى فى عام ٢٣٥ ق . م وهو فى سن السبعين . ذلك هوشون — دزه الذى سبقت الإشارة إليه فى هذا الباب وكما كان منشيس يعتقد أن الناس جميعهم أخيار بطبيعتهم ، كان شون — دزه يرى أنهم جميعاً أشرار بفطرتهم ، وحتى شون ويو كانوا متوحشين حين ولدا^(١٨٤) . وقد وصلت إلينا قطعة من كتابات شون — دزه يبدو فيها أشبه الناس بالفيلسوف الإنجليزى هبز Hobbes إذ يقول :

« النفس البشرية أماراة بالسوء ، وما تعمله من خير متكلف مصطنع^(*) .
فهى قد غرس فيها من ساعة مولدها حب الكسب ؛ إذ كانت أفعال الإنسان

(*) أى أن ما فى الإنسان من غير غير أصيل فيه بل أكسبته إياه تربيته والنظر إلى يعيش فى كنفها .

إنما تقوم على هذا الحب فإن هذا يؤدي إلى انتشار المنازعات والسرقات . وليس إنكار الذات والاستسلام للغير من (طبيعة) الإنسان ، بل إن من طبيعته التحاسد والتباغض ، ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع طباعهم فإنهم لا يصدر عنهم إلا العنف والأذى ، ولا نرى فيهم إخلاصاً أو وفاء .

ومن طبيعة الإنسان أيضاً إشباع الأذن والعين ، وهذا يؤدي إلى حب الأصوات العذبة والمناظر الجميلة . ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع هذه وتلك ، كان لا بد أن توجد الدعارة وسوء النظام ، وأن تنعدم الاستقامة والاحتشام ومظاهرها المختلفة المنسقة . ومن هذا يتضح أن السير وفق الطبيعة البشرية وإطاعة أحاسيسها ، يؤديان حتماً إلى الخصاص واللصوصية ، وإلى مخالفة الواجبات التي تتفق مع الوضع الذي وجد فيه كل إنسان ، وإلى الخلط بين كل المراتب والمميزات حتى تعم المحمية . ولهذا كان لا بد من قيام سلطان المعلمين وسلطان الشرائع ، والاهتداء بقواعد الاستقامة والاحتشام التي ينشأ عنها إنكار الذات ، والخضوع للغير ، ومراعاة قواعد السلوك المنظمة ، مما يؤدي إلى قيام الدولة ، ذات الحكومة الصالحة .. وقد أدرك الملوك الأقدمون الحكماء ما طبعت عليه النفس البشرية من شر ، فوضعوا قواعد الاستقامة والآداب ، وسنوا النظم والقوانين ليقوموا بطباع الناس ومشاعرهم ويصلحوهم .. حتى يسلكوا جميعاً سبيل الحكم الصالح الذي يتفق مع العقل» (١٨٥) .

ووصل شون — جزه في بحوثه إلى ما وصل إليه ترجنيف وهو أن الطبيعة ليست معبداً يغم الصالحين ، بل هي مصنع يجتمع فيه الصالح والطالح ؛ وهي تقدم المادة الفل ، التي يعمل فيها الذكاء فيصوغها ويشكلها . وكان يظن أن أولئك الناس الأشرار بطبعهم ، إذا دربوا على الخير ، قد يصلحون ، بل إن في سماعهم إذا أريد لهم ذلك أن يكونوا قديسين (١٨٦)

ولما كان شون — دزه شاعراً وحكياً مما فقد نظم فلسفة فرانسس بيكن
في هذا الشعر الركيك :

إنكم تمجدون الطبيعة وتفكرون فيها ،
فلم لا تسخرونها وتنظمونها ؟
إنكم تطعمون الطبيعة وتسبحون بحمدها ،
فلم لا تسيطرون على أساليبها وتستخدمونها ؟
إنكم تنظرون إلى الفصول نظرة الإجلال وتنتظرونها ،
فلم لا تستجيبون إليها ببذل النشاط في أوانه ؟
إنكم تعتمدون على الأشياء الخارجة عنكم وتعجبون بها ،
فلم لا تكشفون عن كفاياتكم ؟
وتوجهونها الوجهة العالجة ؟ (١٨٧) .

٥ — جونج — دزه ، مثالي

الرجوع إلى الطبيعة — المجتمع اللاحكوى — طريقة الفايعة —
حدود الذهن — تطور الإنسان — مُشكّل الأرداد — أثر
الفلسفة الصينية في أوربا

على أن « الرجوع إلى الطبيعة » لم يكن من السهل أن يقاوم بهذه الطريقة ؛
بل قام في ذلك العصر من يدعو إليه كما قام من يدعو إليه في كل العصور . ومن
المصادقات التي يمكننا أن نسميها مصادقات طبيعية أن كان الداعي إلى هذا الرجوع
أبلغ كتاب عصره وأفصحهم لساناً . لقد كان جونج — دزه مولعاً بالطبيعة يرى
أنها سيدته التي تتحنن به على الدوام مهما كان بغيه أو كانت سنه ، ومن أجل
هذا فاضت فلسفته بأحاسيس روسو الشعرية مضافاً إليها مُلحٌ فاعير المجهائية .
ومنذا الذي يستطيع أن يتصور أن منشيس ينسى نفسه بحيث يصف أحد الناس

بأن له : « جذرة ^(١٨٨) كإبريق من الفخار » ^(١٨٨) ، وقصارى القول أن جونغ أديب وفيلسوف معاً .

ولد هذا الفيلسوف في ولاية سونج ، وتقلد وقتاً ما منصباً صغيراً في مدينة خيآن . وزار قصور الملوك التي زارها منشيس ، ولكن كلا الرجلين لا يذكر فيما بقى لنا من كتاباته اسم الآخر . ولعل كليهما كان يجب صاحبه كما يحب المعاصرون بعضهم بعضاً . ويروى عنه أنه رفض منصباً كبيراً مرتين ، ولما عرض عليه دوق — وبه رئاسة الوزارة رد على رسول الملك رداً مقتضباً يدل على ما يترأى للكاتب من أخلام فقال : « اذهب من هنا لساعتك ولا تدنس بوجودك ، نلير لى أ. أسلى نفسى وأمتعها في حفرة قدرة من أن أخضع للقواعد في بلاط ملك من الملوك » ^(١٨٩) .

وبينا كان يصطاد السمك في يوم من الايام إذ أقبل عليه رجلان من كبار الموظفين يحملان إليه رسالة من ملك خو يقول فيها : أريد أن أحلك عبـ جميع ملكى » ، فأجابه جونغ ، كما يقول هو نفسه ، دون أن يرفع نظره عن صيده .

« لقد سمعت أن في خو صدقة سلحفاة كأنها روح من الأرواح ، وقد ماتت سلحفاتها منذ ثلاثة آلاف عام ، وأن الملك يحتفظ بهذه الصدقة في معبد أسلافة ، وأنه يضعها في سلة مغطاة بالقماش . فهل كان خيراً للسلحفاة أن تموت وتترك صدقتها تعظم على هذا النحو ؟ أو هل كان خيراً لها أن تظل حية تجر ذيلها من خلفها في الوحل ؟ » فأجاب الموظفان الكبيران : « لقد كان خيراً لها أن تعيش وتجري ذيلها من خلفها في الوحل » ؛ فقال لهما جونغ : « اذهبا في سبيلكما ، وسأظل أجز ذيلي ورأى في الوحل » ^(١٩٠) .

(*) الجذرة تضمنم الغدة الدرقية وهذا اللفظ من الألفاظ التي أقرها مجمع اللغة العربية .
(المترجم)

وكان احترامه للحكومات يعدل سلفه الروحي بو — دزه ، فكان يسره أن يشير إلى عدد ما يتصف به الملوك والحكام من صفات الصوص^(١٩١) . ويقول إنه إذا أدى الإهمال بأحد الفلاسفة الحقيقيين ، إلى أن يرى نفسه يتولى شئون إحدى الدول ، فإن الخطة المثلى التي يجب عليه أن يسلكها هي ألا يفعل شيئاً ، وأن يترك الناس أحراراً يضعون ما يشاءون من نظم حكمهم الذاتي . « لقد سمعت عن ترك العالم وشأنه ، والكف عن التدخل في أمره ، ولم أسمع عن حكم العالم »^(١٩٢) ولم يكن ثمة حكومات في العصر الذهبي الذي سبق عهد أقدم الملوك . ولم يكن يو وشون خليقين بما حبتهما الصين وحباهما كنفوشيوس من تشريف وتعظيم ، بل كانا خليقين بأن يتبها بالقضاء على ما كانت الإنسانية تستمتع به من سعادة بدائية قبل إقامة نظم الحكم في العالم : « لقد كان الناس في عهد الفضيلة الكاملة يعيشون مجتمعين كما يعيش الطير والحيوان ، ولا يفترقون عنهما في شيء ، تتألف منهم ومن جميع المخلوقات أسرة واحدة . وأناى لهم أن يعرفوا فيما بينهم ما يميز العظماء فيهم من غير العظماء ؟ »^(١٩٣) . ويرى جونج أن من واجب الرجل العاقل أن يولى الادبار حين يشاهد اولى معالم الحكومة ، وأن يعيش أبعد ما يستطيع عن الفلاسفة والملوك ، ينشد السلام والسكون في الغابات (وذلك موضوع جد آلاف من المصورين الصينيين في رسمه) وأن يترك كيانه كله يتبع الدو المقدس — قانون حياة الطبيعة ومجراها الذى لا تدركه العقول — من غير أن يعوقه عن ذلك تفكير أو تدبير ، لا يتكلم إلا قليلاً لأن الكلام يضل بقدر ما يهدى ، ولأن الدو — طريقة الطبيعة وجوهرها — لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ أو صياغته في أفكار ، بل كل ما فى الأمر أنه يمكن للشعور به فى الدم . وهو يرفض أن يستعين بالآلات ويؤثر عليها الطرق القديمة المجهدة التى كان يجرى عليها بسطاء الرجال ، وذلك لأن الآلات تؤدى إلى التعقيد والفتنة وعدم المساواة بين الناس ؛ وليس فى مقدور أى إنسان

أن يمشى بين الآلات ويستمتع بالسلام^(١٩٤). وهو يأبى أن يكون له ملك خاص ولا يجد للذهب نفعاً له في حياته ؛ ويفعل ما فعله تيمُنْ (*) الأثيني فيترك الذهب مخبوءاً في جوف التلال والآلئ في أعماق البحار . والذي يمتاز به من غيره أنه يفهم أن الأشياء جميعها تخص خزانة واحدة ، وأن الموت والحياة يجب أن ينظر إليهما نظرة واحدة « (١٩٥) (***) » ، — على أنهما نعمتان من أنعام الطبيعة المتناسقة ، أو موجتان في بحر واحد .

وكان الأساس الذي يقوم عليه تفكير جونج عين الأساس الذي يقوم عليه تفكير لو — دزه شبه الأسطوري . وكان تفكير لو — دزه هذا يبدو لجونج أعمق كثيراً من تفكير كنفوشيوس ، وكان في جوهره النظرة الصوفية لوحدة الكون غير الشخصية الشبيهة شياً عجيباً بنظرة بوذا وأتباع أپانيشاد ، حتى ليكاد المرء يعتقد أن فلسفة ما وراء الطبيعة الهندية قد تسربت إلى الصين قبل أربعمائة عام من ظهور البوذية فيها حسباً بسجله المؤرخون . نعم إن جونج فيلسوف لا أدري ، جبرى ، من القائلين بالتحتمية ومن اللتشائمين ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون قديساً متشككاً ، ورجلاً أسكرته الدرية ؛ وهو يعبر عن تشككه هذا تعبيراً يميزه من غيره من أمثاله في القصة الآتية :

قال شبه الظل يوماً ما للظل (+) « إنك تارة تتحرك وتارة تثبت في مكانك ، تارة تجلس وتارة تقوم ، فلم هذا التذبذب في القصد وعدم الاستقرار فيه ؟ » فأحابه الظل ، بقوله : « إن شيئاً أعتمد عليه هو الذى يجعلنى أفعَل ما أفعله ،

(١٩٤) شخصية معروفة من شخصيات شيكسبير في إحدى مسرحياته المسماة بهذا الاسم .
اقرأ وصف هذه الشخصية في كتابنا « قصص من شيكسبير » . (المترجم)

(١٩٥) ما أشبه هذا بقول حكيم المرة :

وشبيه صوت النمل إذا سار بصوت البشير في اكل نادر (المترجم)

(+) شبه الظل في الخسوف موجزة النصف المضاء بين الظل وبين الضوء . ولعل جونج يقصد بالظل في قصته جنم الإنسان الذى يستنطق العقل المستنير بعض الاستنارة . (المترجم)

ولكن هذا الشيء نفسه يعتمد على شيء آخر يضطره إلى أن يفعل هو الآخر ما يفعله ... وأنى لى أن أعرف لم أفعل هذا الشيء ولا أفعل ذلك ؟ ... إن الجسم إذا بلى بلى للعقل معه ؛ ألا ينبغي لنا أن نقول إن هذه حال يرثها لها كثيراً ؟ ... إن ما يحدث في الأشياء كلها من تغير — وجود ثم عدم — يسير (بلا انقطاع) ؛ ولكننا لا نعرف منذ الذى يُسير هذه الحركة في طريقها على الدوام : وأنى لنا أن نعرف متى يبدأ الواحد منا ؟ وأنى لنا أن نعرف متى ينتهى ؟ إن كل ما فى وسعنا أن نتظر هذه البداية . والنهاية ، لا أكثر من هذا ولا أقل » (١٩٦) .

ويظن جونج أن هذه المشاكل إنما تنشأ من قصور تفكيرنا أكثر مما تنشأ من طبيعة الأشياء نفسها . فلا عجب والحالة هذه أن تنتهى الجهود التى تبذلها عقولنا الحبيسة لفهم العالم الأكبر الذى تكون هى جزئيات صغيرة منه ، لا عجب أن تنتهى هذه الجهود بالتناقضات والقوانين المتعارضة . ولقد كانت هذه المحاولة التى ترمى إلى تفسير الكل باصطلاحات الجزء إسرافاً فى التناول والاعتداد بالنفس ، لا نبجيزها إلا لما فيها من تسلية وفكاهة ؛ لأن الفكاهة ، كالفلسفة ، هى النظر إلى الكل بمصطلحات الجزء ، وكلاهما لا يمكن وجوده بغير الآخر .

ويقول جونج — دزه إن العقل لا يفيد فى فهم الأشياء الغائية أو أى شيء حميق كنمو الطفل مثلاً . « وليس الجدل إلا دليلاً على عدم وضوح الرؤيا » ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الدوّ « فعليه أن يكتب علمه أشد الكبت » (١٩٧) إن من واجبتنا أن ننسى نظرياتنا ونشعر بالحقائق ؛ وليس التعليم بتأفج لنا فى هذا الفهم ، وأهم شيء فى هذا أن نلتقى بأنفسنا فى غمرات الطبيعة .

وما هو الدوّ الذى يراه الصوفى المحظوظ النادر الوجود ؟ إنه شيء لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ ؛ وكل ما نستطيع أن نصفه به فى عبارات ضعيفة ملائى

بالمتناقضات هو قولنا إنه وحدة الأشياء كلها وانسيابها الهادئ من نشأتها إلى كلها ، والقانون الذى يسيطر على هذا الانسياب .

« ولقد كان موجوداً ثابتاً منذ الأزل قبل أن توجد السماء والأرض »^(١٩٨)

وفي هذه الوحدة العالمية تتلاشى كل المتناقضات ، وتزول كل الفروق ، وتتلاقى كل الأشياء المتعارضة ؛ وليس فيه ولا فى نظره إلى الأشياء طيب أو خبيث ، ولا أبيض أو أسود ، ولا جميل أو قبيح^(*) ، ولا عظيم أو حقير . وإذا عرف الإنسان أن العالم صغير كحبة الخردل ، وأن طرف الشعرة لا يقل فى الارتفاع عن قمة الجبل ، أمكن أن يقال عنه إنه يعرف النسبة بين الأشياء^(٢٠٠) . وفى هذا الكل المبهم الغامض لا يدوم شكل من الأشكال ، وليس فيه صورة فذة لا تنتقل إلى صورة أخرى فى دورة التطور التى تسير على مهل :

« إن بذور (الأشياء) دقيقة ولا حصر لها . وهى تسكون على سطح الماء نسيجاً غشائياً . فإذا وصلت إلى حيث تلتقى الأرض والمياه اجتمعت وكونت (الحزاز الذى يكون) كساء الضفادع والحيوانات الصوفية . فإذا دبّت فيها الحياة على التلال والمرتفعات صارت هى الطلح ؛ فإذا غذاها السماء أخرجت نبات عشب الغراب . ومن جذور عشب الغراب ينشأ الدود . ومن أوراقه ينشأ الفراش ثم يستحيل الفراش حشرة — وتعيش تحت موقد . ثم تتخذ الحشرة صورة اليرقة ، وبعد ألف عام تصبح اليرقة طائرًا . . . ثم تتجدد الينجشى مع خيزرانة فينشأ من اتحادها الخنج — تنج ؛ ومنه ينشأ النمر ، ومن النمر ينشأ الحصان ، ومن الحصان ينشأ الإنسان . فالإنسان جزء من آلة (التطور) العظيمة ، التى تخرج منها جميع الأشياء ، والتى تدخل فيها بعد موتها »^(٢٠١) .

لا ننكر أن هذه الأقوال ليس فيها من الوضوح ما فى نظرية دارون

(*) « كانت شى — شيه امرأة جميلة ، ولكن لما انعكست ملامحها فى الماء فرت بها الأسماء خائفة »^(١٩٩) .

ولكنها أيًا ما كان غوضها نظرية تطور .

« وفي هذم الدورة اللانهائية قد يستحيل الإنسان إلى صور أخرى غير صورته ؛ ذلك أن صورته الحالية ليست إلا مرحلة عابرة من مراحل الانتقال ، وقد لا تكون في سجل الخلود حقيقة إلا في ظاهر أمرها — أو جزءا من الفوارق الخداعة التي تُفَسِّى بها مايا جميع الكائنات ^(٢٠١) .

« رأيت أنا جونج — دزه مرة في منامى أنى فراشة ترفرف بجناحيها في هذا المكان وذلك ، أنى فراشة حقًا من جميع الوجوه . ولم أكن أدرك شيئًا أكثر من تتبعى لخياالاتى التى تشعرنى بأنى فراشة . أما ذاتيتى الإنسانية فلم أكن أدركها . قط . ثم استيقظت على حين غفلة وهأنذا منطرح على الأرض رجلا كما كنت ، ولست أعرف الآن هل كنت في ذلك الوقت رجلا يحلم بأنه فراشة ، أو أننى الآن فراشة تحلم بأنها رجل ^(٢٠٢) » .

وليس الموت في رأيه إلا تغييراً في الصورة ، وقد يكون تغييراً من حال إلى حال أحسن منها ؛ أو أنه كما قال إلسن Ibsen فيما بعد العوائق الذى يصهرنا مرة أخرى في أتون التغير والتطور :

« مرض تزه — لاي حتى أصبح طريح الفراش يلفظ آخر أنفاسه ، ووقف من حوله . زوجته وأبنائه ييكون ، وذهب لى يسأل عنه فلما أقبل عليهم قال لهم : « اسكتوا وتنحوا عن الطريق ! ولا تقلقوه . في حركة تبدله » ... ثم اتكأ على الباب وتحدث إلى (الرجل المحتضر) . فقال له تزه — لاي : « إن صلة الإنسان بالين واليانج أقوى من صلته بأبويه . فإذا كانا يتمتعان موتى وأعصى أنا أمرها ، فإنى أعد حينئذ عاقاً شرساً . هنالك « كتلة (الطبيعة) العظمى » التى تجعلنى أحل هذا الجسم ، وأكافح في هذه الحياة ، وتهد قواى في سن الشيخوخة ، ثم أستريح بالموت . وإذن فذلك الذى يعنى بمولدى هو الذى يعنى بوفاتى . فها هو ذا صاهر يصيب المعادن . فإذا كان المعدن الذى يتأرجح

أثناء صبه يناديه: « يجب أن أكون مويه (سيفاً قديماً مشهوراً) فإن الصاهر العظيم يعد هذا المعدن معدناً خبيثاً بلا ريب . وذلك أيضاً شأن الإنسان ، فإذا ما أصر على أن يكون إنساناً ولا شيء غير إنسان ، لأنه في يوم من الأيام قد تشكل في صورة الإنسان ، إذا فعل هذا فإن من ييده تصوير الأشياء وتشكيلها سيعده بلا ريب مخلوقاً خبيثاً . وإذن فلننظر إلى السماء والأرض نظرتنا إلى مصهر عظيم ، ولننظر إلى مبدل الأشياء نظرتنا إلى صاهر عظيم ؛ فهل لانكون في مكاننا الحق أينما ذهبنا ؟ إن السكون هو نومنا والهدوء هو يقظتنا » (٢٠٣) .

ولما تصرم أجل جونج نفسه أعد أتباعه له جنازة نفخة ، ولكنه نهام عن ذلك وقال لهم : « أليس موكب لجنازتي معداً إذا كانت السماء والأرض تابوتى وغطائى ، والشمس والقمر والنجوم شعائرى ، والخلائق كلها تشيعنى إلى قبرى ؟ » ولما عارض أتباعه في هذا ، وقالوا إنه إن لم يدفن أكلت طيور الهواء الجارحة لحمه ، رد عليهم جونج بقوله : « سأكون فوق الأرض طعاماً للحجداً ، وسأكون تحتها طعاماً لصراصير الطين والنمل ؛ فلم تحرمون بعضها طعامها لتقدموه للبعض الآخر ؟ » (٢٠٤)

وإذا كنا قد أطيننا في الكلام على فلاسفة الصين الأقدمين فإن بعض السبب في هذا يرجع إلى أن مشكلات الحياة الإنسانية المعقدة العسيرة الحل ومصائرهما تستغرق تفكير العقل الباحث ، وأن بعضه الآخر يرجع إلى أن علم فلاسفة الصين الأقدمين هو أئمن تراث خلفته تلك البلاد للعالم . ومن الدلائل القوية على قدر هذه الفلسفة أن لبينتز Leibntiz صاحب العقل العالمى الواسع ، قام من زمن بعيد (في عام ١٦٩٧) ، بعد أن درس الفلسفة الصينية ، ينادى بضرورة تطعيم فلسفة الشرق والغرب ككليهما بالأخرى ، وعبر عن رأيه هذا بالفاظ ستظل محتفظة بقيمتها في كل عصر ولكل جيل :

« إن الأحوال السائدة بيننا وما استشرى في الأرض من فساد طويل

العهد تكاد كلها تحملنى على الاعتقاد بأن الواجب أن يرسل إلينا مبشرون صينيون ليعلمونا أساليب الأديان القومية وأهدافها... ذلك بأنى أعتقد أنه لو عين رجل حكيم قاضيا... ليحكم أى الشعوب أفضل أخلاقا من سواها، لما تردد فى الحكم للصين بالأسبقية فى هذا المضمار»^(٢٠٥). وقد طلب لينتنز إلى بطرس الأكبر أن ينشئ طريقاً برياً للصين، ودعا إلى إنشاء جمعيات فى مسكو وبرلين «لارتياح الصين وتبادل المدينتين الصينية والأوربية»^(٢٠٦). وفى عام ١٧٢١ بذل كرسيتيان ولف Christian Wolff^(*) مجهوداً آخر فى هذه السبيل، وذلك بما ألقاه من محاضرات فى جامعة هال Halle «عن فلسفة الصينيين العلمية»، واهتمه ولاية الأمور بالإلحاد وفصلوه من منصبه؛ فلما أن جلس فردرك الأكبر على عرش بروسيا دعاه إليها ورد إليه اعتباره^(٢٠٧).

رجاء عصر الاستنارة فى فرنسا فعنى بالفلسفة الصينية، كما عنى بتنسيق الحدائق الفرنسية على نمط الحدائق الصينية، وتزيين المنازل بالنقوش والأدوات الصينية. ويلوح أن الفلاسفة الاقتصاديين الطبيعيين (الفزيوقراطيين) قد تأثروا بآراء لو — دزه، وجونج — دزه فى نظرية «التخلى» Laissez faire وترك الأمور تجري فى مجراها، وهى النظرية الاقتصادية التى يقولون بها ويدعون إليها^(٢٠٨). واتقد كان روسو يتحدث فى بعض الأحيان كما يتحدث المعلم القديم^(**) وإنا لتبين صلة وثيقة بينه وبين لو — دزه وجونج، ولو أن كنفوشوس.

(*) فيلسوف وعالم رياضى ألماني (١٦٧٩ - ١٧٥٤).

(**) مثال ذلك «أن الترف والفجور والإسترفاق كانت على الدوام سوط المذاب الذى يصب على الجهود الطموحة التى بذلناها لافخرج من الجهل السعيد الذى وضعتنا فيه الحكمة الأزلية». ويرى الأستاذ إلهرت تومس Elbert Thomas (عضو مجلس الشيوخ الأمريكى الآن) الذى نقل هذه العبارة من كتاب «أحاديث عن تقدم العلوم والفنون» (Discourses on the Progress of Sciences and Arts) أن لفظ «الحكمة الأزلية» خير ترجمة «للحكمة الأزلية» التى وردت على لسان لو — دزه^(٢٠٩).

ومفثيس قد وهبا ملكة الفكاكه لكانت الصلة وثيقة بينهما وبين فلتير . وفي هذا يقول فلتير نفسه : « لقد قرأت كتب كنفوشيوس بعناية ، واقتبست فقرات منها ، ولم أجد بها إلا أنقى المبادئ الخلقية التي لا تشوبها أقل شائبة من الشعوذة »^(٢١٠) . وقد كتب جيته في عام ١٧٧٠ يقول إنه اعتزم أن يقرأ كتب الصين الفلسفية القديمة ، ولما دوت مدافع نصف العالم في ليزج Leipzig بعد ثلاثة وأربعين عاماً من ذلك الوقت لم يلتفت إليها الحكيم الشيخ لأنه كان منهمكاً في دراسة الآداب الصينية^(٢١١) .

ولعل هذه المقدمة القصيرة غير العميقة تحفز القارئ إلى متابعة دراسة الفلاسفة الصينيين أنفسهم كما درسهم جيته وفتير وتولستوى .

الباب الرابع والعشرون

عصر الشعراء

الفصل الأول

بسمرك الصين

عهد الدول المتنازعة - انتحار تشو بينج - ثي هونج - دي يوحد الصين -
السور الكبير - «إحراق الكتب» - إخماق ثي هونج - دي

أكبر الظن أن كنفوشيوس مات بائساً، لأن الفلاسفة يحبون توحيد البلاد، ولأن الأمة التي حاول أن يوحدّها تحت حكم أسرة قوية ظلت سادّة في الفوضى والفساد والانقسام. ولما أن ظهر هذا الموحد العظيم في آخر الأمر واستطاع بعبقريته الحربية والإدارية أن يؤلف من دويلات الصين دولة واحدة أمر بأن يحرق كل ما كان باقياً من كتب كنفوشيوس.

وفي وسعنا أن نحكم على الجوّ الذي كان يسود «عهد الدول المتنازعة» من قصة تشو بينج، وهو رجل بدأ نجمه يلمع في سماء الشعر، حتى سما إلى مركز عظيم في وظائف الدولة، ثم ألغى نفسه وقد طرد من منصبه على حين غفلة، فاعتزل الحياة العامة ولجأ إلى الريف، وأخذ يفكر في الحياة والموت إلى جانب غدير هادى، وسأل متنبّها من المتنبّين:

«هل ينبغي لى أن أواصل السير في طريق الحق والوفاء، أو أسير في ركاب جيل فاسد ضال؟ هل أعمل في الحقول بالفأس والجرف أو أسعى للرقى في حاشية عظيم من العظماء؟ هل أعرض نفسي للخطر بما أنطى به من صريح اللفظ أو أتذلل بالنعم الزائف للأثرياء والعظماء؟ وهل أظل قانعاً راضياً بنشر الفضيلة

أو أمارس فن مصانفة النساء كي أنال النجاح ؟ هل أكون نقي السريرة ، طاهر اليد صالحاً مستقيماً ، أو أكون معسول الكلام ، مذبذباً ، متزلفاً ، نهائزاً للفرص ؟ »^(١).

وتخلص الرجل من هذه المشكلة العويصة بالانتحار غرقاً (حوال ٣٥٠ قبل الميلاد) . ولا يزال الصينيون حتى يومنا هذا يحبون ذكره في كل عام ، ويحتفلون بهذه الذكرى في يوم عيد القارب الكبير وهو اليوم الذي ظلوا يبحثون فيه عن جثته في كل مجرى من المجارى المائية .

وكان الرجل الذي وحد الصين من أصل وضع هو أدنا الأصول التي استطاع المؤرخون الصينيون أن يفتخروا بها . فهم يقولون لنا إن شي هونج — دى كان ابناً غير شرعى للملكة تشين (إحدى الولايات الغربية) من الوزير النبيل « لو » ، وهو الوزير الذي اعتاد أن يعلق فوق باب داره ألف قطعة من الذهب جائزة لمن يستطيع أن يصلح كلمة واحدة من كتاباته^(٢) (ولم يرث ابنه عنه هذا الذوق الأدبي الممتاز) .

ويقول زوماتشين إن شي اضطرب والده إلى الانتحار واضطهد والدته ، وجلس على كرسي الإمارة وهو في الثانية عشرة من عمره . ولما أن بلغ الخامسة والعشرين بدأ يفتح البلاد ويضم الدويلات التي كانت الصين منقسمة إليها من زمن بعيد ؛ فاستولى على دولة هان في عام ٢٣٠ ق . م ، وعلى جو في عام ٢٢٨ وعلى وبه في عام ٢٢٥ ، وعلى تشو في عام ٢٢٣ ، وعلى ين في عام ٢٢٢ ؛ واستولى أخيراً على دولة تشي المهمة في عام ٢٢١ ؛ وبهذا خضعت الصين لحكم رجل واحد لأول مرة منذ قرون طوال ، أو لعل ذلك كان لأول مرة في التاريخ كله . ولقب الفاتح نفسه باسم شي هونج — دى ، ثم وجه همه إلى وضع دستور ثابت دُعي للإمبراطوريته الجديدة .

أما أوصاف هذا الرجل الذي يعدّه المؤرخون الصينيون عدوهم الألد ،

فكل ما خلقوه لنا منها هو قولهم إنه كان « رجلا كبير الأنف ، واسع العينين »
 ذا صدر كصدر الطائر الجارح ، وصوت شبيه بصوت ابن آوى ، لا يفعل الخير ،
 له قلب كقلب النمر أو الذئب »^(٣) . وكان قوى الشكيمة عنيداً لا يحول عن
 رأيه ، ولا يعترف بالألوهية إلا لنفسه ، اجتمعت فيه عقائد نقشة وبسمرك ، وعقد
 العزم على أن يوحد بلاده بالدم والحديد . ولما وحد بلاد الصين وجلس على
 عرشها كان أول عمل قام به أن^٤ حى بلاده من الهمج البرابرة المجاورين لحدودها
 الشمالية ، وذلك بأن أنم الأسوار التي كانت مقامة من قبل عند حدودها ،
 وصلها كلها بعضها ببعض . وقد وجد في أعدائه المقيمين في داخل البلاد مورداً
 سهلاً يستمد منه حاجته من العمال لتشيد هذا البناء العظيم الذي يعد رمزاً لمجد
 الصين ودليلاً على عظيم صبرها . ويبلغ طول السور العظيم ألف وخمسمائة ميل ،
 وتتخلله في عدة أماكن منه أبواب ضخمة على النمط الأشورى ، وهو أضخم بناء
 أقامه الإنسان في جميع عصور التاريخ ، ويقول عنه فلتير : « إن أهمرام مصر إذا
 نيسن إليه لم تكن إلا كتلاً حجرية من عبث الصبيان لانفع فيها »^(٥) . وقد
 احتاج تشييده إلى عشرين ألفاً وإلى عدد لا يحصى من الخلق ؛ ويقول الصينيون
 إنه « أهلك جيلاً من الناس ، وأتخذ كثيراً من الأجيال » . على أنه لم يصد الهمج
 عن الصين كما يتبين لنا ذلك فيما بعد ، ولكنه عطل هجومهم عليها وقلل من
 حدته . وحال بين الهون وبين إغارتهم على أرض الصين زمناً ما ، فاتجهوا
 غرباً إلى أوروبا ، ثم اجتاحت بلاد إيطاليا ، وسقطت رومة في أيديهم لأن الصين
 أقامت سورها العظيم .

ثم ترك شي هوج — دى ، وهو مغتبط مسرور ، شؤون الحرب ووجه
 عنايته ، كما وجهها نابليون من بعده ، إلى شؤون الإدارة ، ووضع القواعد العامة
 التي قامت عليها الدولة الصينية في المستقبل . وعمل بمشورة لى — سيو ، المشتري
 الكبير ورئيس وزرائه ، فاعتزم ألا يقيم المجتمع الصينى على العادات المألوفة وعلى

الاستقلال المحلى للولايات ، بل اعترزم أن يقيمه على قواعد القانون الصريح وعلى الحكومة المركزية القوية . ولذلك قضى على قوة أمراء الإقطاع ، واستبدل بهم طائفة من كبار الموظفين تعينهم الوزارة القومية فى مناصبهم ، وأقام فى كل مركز من المراكز حامية عسكرية مستقلة عن الحاكم المدينى ، وسن للبلاد قوانين وأنظمة موحدة ، وبسط الاحتفالات الرسمية ، وسك عملة للدولة ، وجزاً معظم الضياع الإقطاعية ، ومهد السبيل لرخاء الصين بإنشاء الملكيات الزراعية ، ولوحدتها القوية بإنشاء الطرق الكبيرة الممتدة من هين — يانج عاصمة ملكه إلى جميع أطراف إمبراطوريته . وجعل العاصمة بما أقامه فيها من القصور الكثيرة ، وأقنع أغنى أسر الدولة وأقواها سلطاناً البالغ عددها ١٢٠٠٠ أسرة بأن تعيش فى هذه العاصمة تحت إشرافه ورقابته . وكان يسير فى البلاد متخفياً ومن غير حرس ، يتفقد أحوالها ويتعرف ما فيها من خلل وفساد وسوء نظام ، ثم يصدر الأوامر الصريحة لإصلاح هذه العيوب ، وقد شجع العلم وقاوم الأدب^(٥) .

ذلك أن رجال الأدب من شعراء ، ونقده ، وفلاسفة بوجه عام ، وطلاب الفلسفة الكنفوشية بنوع خاص ، كانوا أعدى أعدائه . فقد كانوا يتبرمون بسيطرته القوية الشاملة ، وكانوا يرون أن إنشاء حكومة مركزية عليها سيقضى لا محالة على تباين أساليب التفكير والحياة وحريةهما .

وقد كان هذا التباين وتلك الحرية مصدر الانتعاش الأدبى طوال عهد الحروب والانقسامات أيام أسرة چو . فلما أقبل هؤلاء العلماء على شى هونج — دى يحتجون عليه لإغفاله الاحتفالات القديمة رد عليهم رداً جافاً وأمرهم ألا يتدخلوا فيما لا يعنهم^(٦) . وجاء وفد من كبار العلماء الرسميين يعرضون عليه أنهم قد أجمعوا رأيهم على أن يطلبوا إليه إعادة النظام الإقطاعى بتوزيع الضياع على أقاربه ؛ وأضافوا إلى ذلك قولهم : « لم يحدث قط فيما وصل إلى علمنا أن إنساناً لم يرسم خطوات أسلافه الأقدمين فى أمر من الأمور ودام عمله طويلاً »^(٧) . فرد عليهم

لى سىور رئيس الوزراء ، وكان وقتئذ يعمل على إصلاح الحروف الهجائية الصينية ويضعها فى الصورة التى تكاد تحتفظ بها إلى يومنا هذا ، رد عليهم بخطبة تاريخية لاترفع من شأن الآداب الصينية قال :

« إن الملوك الخمسة لم يفعل كل منهم ما فعله الآخر ، وإن الأسر المالكة الثلاث لم تحذ إحداها حذو الأخرى ؛ ... ذلك أن الأيام قد تبدلت . والآن قد قتم جلاتكم لأول مرة بعمل جليل ، وأسستم مجدداً سيدوم مدى عشرة آلاف جيل . لكن الحكام الأغبياء عاجزون عن فهم هذا العمل ... لقد كانت الصين فى الأيام الخالية مضطربة منقسمة على نفسها ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يوحدها ؛ ومن أجل هذا ساد الفناء جميعاً وقويت شوكتهم ؛ وهؤلاء النبلاء جميعاً تدور أحاديثهم كلها حول الأيام الخطية ليعيبوا هذه الأيام ... وهم يشجعون الناس على اختراع التهم الباطلة ، فإذا ترك لهم الجبل على الغارب ؛ فسينحط مقام الملك فى أعين الطبقات العليا ، وستنتشر الأحزاب والفرق بين الطبقات السفلى . ولهذا اقترح أن تحرق التواريخ الرسمية جميعها عدا «مذكرات تشين ، وأن يرغم الذين يحاولون إخفاء الشئ — مبنج ، والشو — مبنج^(*) ومحاورات المدارس المائة على أن يأتوا بها إلى ولاية الأمور لإحراقها^(٨) » .

وأعجب الإمبراطور إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وأصدر الأمر بتنفيذ هذا الطلب ، وجيء بكتب المؤرخين من كل مكان وألقيت فى النار حتى يرفع عبء الماضى عن كاهل الحاضر ؛ وحتى يبدأ تاريخ الصين من عهد شى هونج — دى . ويلوح أن الكتب العلمية ومؤلفات منشيس قد نجت من النيران ، وأن كثيراً من الكتب المحرمة قد احتفظ بها فى دار الكتب الإمبراطورية حيث يستطيع الرجوع إليها الطلاب الذين يجيز لهم الإمبراطور هذا الاطلاع^(٩) . وإذا كانت

الكتب فى تلك الأيام تكتب على شرائح من الخيزران يشد بعضها إلى بعض بمشابك متحركة ، وإذ كان المجلد الواحد لهذا السبب كبير الحجم ثقيل الوزن ، فإن العلماء الذين حاولوا إخفاء هذه الكتب قد لاقوا عناء كبيراً ، وكشف أمر بعضهم ، وتقول الروايات إن كثيرين منهم أرسلوا للعمل فى بناء السور الكبير ، وإن أربعمائة وستين منهم أعدموا^(١٠) . ولكن بعض الأدباء حفظوا مؤلفات كنفوشيوس كلها عن ظهر قلب ، ولقنوها لحفاظ مثلهم ، فلما أن توفى الإمبراطور عادت هذه الكتب من فورها إلى الظهور والانتشار ، وإت كان كثير من الأغلاط قد تسرب فى أكبر الظن إلى نصوصها . وكل ما كان لهذا التحريم من أثر خالد أن خلع على الآداب المحرمة هالة من القداسة ، وأن جعل شى هونج — دى مبغضاً إلى المؤرخين الصينيين ، وظل الناس أجيالاً طوالا يعبرون عن عقيدتهم فيه بتدنيس قبره^(١١) .

وكان من أثر القضاء على الأسر القوية وعلى حرية الكتابة والخطابة أن أمسى شى فى شيوخته لا نصير له ولا معين . وحاول أعداؤه عدة مزار أن يقتلوه ، ولكنه كان يكشف أمرهم فى الوقت المناسب ويقتل بيده من يحاولون قتله . وكان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه ، ولا يسمح لأحد أن يعرف فى أية حجرة من حجرات قصوره الكثيرة ينام ليله^(١٢) . وقد حاول كما حاول الإسكندر من بعده أن يقوى أسرته بما يذيعه فى الناس من أنه إله ، ولكنه أخفق فى غرضه هذا كما أخفق الإسكندر لأنه لم يستطع أن يقنع الناس بما بينه وبين الآلهة من شبه . وأصدر أمراً بأن يطلق عليه خلفاؤه « الإمبراطور الأول » وأن يضعوا هم لأسمائهم أرقاماً متسلسلة من بعده تنتهى بالإمبراطور المتسم لعشرة آلاف من نسله ، ولكن أسرته قضى عليها بموت ولده . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين الذين كانوا ييغضونه فإنه صار فى شيوخته يؤمن بالخرافات ، وينفق الأموال الطائلة فى البحث عن إكسير الخلود . ولما

مات جيء بجسمه سرا إلى عاصمة ملكه ، وقد نقلته إليها قافلة تحمل السمك
النن حتى تخفى بذلك رائحته الكريهة ، ويقال إن بضعة آلاف من الفتيات
قد دفن معه ليؤنسفه في قبره ، وإن خلفه أراد أن يظهر اغتباطه بموته فنثر الأموال
على قبره ، وأنفق الكثير منها في تزيينه ، فنقشت على سقفه أبراج النجوم ،
وصورت على أرضه خريطة للإمبراطورية بالزئبق فوق أرضية من البرنز ،
وأقيمت في القبة آلات تقتل من نفسها كل من يعتدى على حرمة القبر ،
وأشعلت فيه شموع ضخمة لكي تضيء أعمال الإمبراطور الميت وأعمال ملكاته
إلى أمد غير محدود . أما العمال الذي حملوا التابوت إلى القبر فقد دفنوا فيه أحياء
مع حملهم خشية أن يكشفوا للناس عن الطريق السرى المؤدى إلى المدفن^(١٤)

الفصل الثاني

تجارب في الاشتراكية

الفوضى والفقر — أسرة هان — إصلاحات وودي — ضريبة الدخل —
مشروعات وائج مانج الاقتصادية — القضاء عليها — غزو التتار

وأعقب موته عهد من الفوضى والاضطراب كما تعقب الفوضى والاضطراب موت الطغاة جميعهم تقريباً في أحقاب التاريخ كلها . ذلك أن ليس في وسع إنسان أيا كان أن يجمع السلطة كلها في يده ويحسن التصرف فيها . وثار الشعب على ابنه وقتله بعد أن قتل هو لي سيو بقليل ، وقضى على أسرة تشين ، ولما يمض على وفاة مؤسسها أكثر من خمس سنين . وأقام الأمراء المتنافسون ممالك متنافسة متعادية وساد الاضطراب من جديد . ودامت هذه الحال حتى اغتصب العرش زعيم عسكري مغامر مرتزق يدعى جو — دزو ، وأسس أسرة هان التي ظلت تحكم البلاد أربعائة عام كاملة ، تخلتها فترات أنزلت فيها عن العرش ، وتبدلت فيها العاصمة مرة واحدة (*) . وأعاد ون — دي (١٧٩ — ٥٧ ق . م) إلى الشعب حرية القول والكتابة ، وألغى الرسوم الذي حرم به شي هونج — دي انتقاد الحكومة ، وجرى على سياسة السلم ، وابتدع المادة الصينية للأثورة عادة هزيمية قائد جيش العدو بتقديم الهدايا إليه (١٥) .

وكان وو — دي أعظم الأباطرة من أسرة هان ؛ وقد حكم البلاد زهاء نصف قرن (١٤٠ — ٨٧ ق . م) وصد البرابرة المغيرين ، وبسط حكم الصين على

(*) كانت عاصمة أسرة « هان الغربية » مدينة لويانج ، وهي مدينة هونان في الحالية وقد دام حكمها من ٢٠٦ ق . م إلى ٢٤ ب . م . أما أسرة « هان الشرقية » فقد حكمت من ٢٤ إلى ٢٢١ ب . م ، وكانت عاصمتها مدينة تشانجيان وهي مدينة سيان في الحالية . ولا يزال الصينيون إلى اليوم يسمون أنفسهم « أبناء هان » .

كوريا ومنشوريا وأنام ، الهند الصينية والتركستان ، وشملت الصين — لأول مرة في التاريخ جميع الأقاليم الشاسعة التي تعودنا أن نقرنها باسمها . وأخذ وو — دى يقوم بتجارب في الاشتراكية ، لجعل موارد الثروة الطبيعية ملكا للأمة ، وذلك لجميع الأفراد « أن يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار ، ليجنوا من ورائها الأموال الباطلة ، ويخضعوا لهم الطبقات الدنيا »^(١٦) . واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد وعصر الخمر وبيعها . وأراد وو — دى — كما يقول معاصره زوما تشين — أن يقضى على سلطان الوسطاء والمضاربين « الذين يشترون البضائع نسيئة ، ويعتدون القروض ، والذين يشترون ليكدسوا ما يشترونه في المدن ، والذين يخزنون كل أنواع السلع » ، فأنشأ نظاما قوميا للنقل والتبادل تشرف عليه الدولة ، وسعى للسيطرة على التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار الفجائي . فكان عمال الدولة هم الذين يتولون شئون نقل البضائع وتوصيلها إلى أصحابها في جميع أنحاء البلاد . وكانت الدولة نفسها تخزن ما زاد من السلع على حاجة الأهليين ، وتبيعها إذا أخذت أثمانها في الارتفاع فوق ما يجب ؛ كما كانت تشتريها إذا انخفضت الأسعار ، وبهذه الطريقة كان « أغنياء التجار وأصحاب المتاجر الكبيرة يعمون من أن يحنوا الأرباح الطائلة ... وكانت الأسعار تنظم وتتوازن في جميع أنحاء الإمبراطورية »^(١٧) . وكان دخل الأفراد كله يسجل في سجلات حكومية وتؤدي عنه ضريبة مقدارها خمسة في المائة . وكان الأمير يسك النقود المصنوعة من الفضة مخلوطة بالقصدير لتكثر في أيدى الناس فيسهل عليهم شراء البضائع واستهلاكها . وشرع يقيم المنشآت العامة العظيمة ليجذب بذلك عملا للملايين الناس الذين عجزت الصناعات الخاصة عن استيعابهم ، فأنشئت الجسور على أنهار الصين وحفرت قنوات لاحتصر لها لربط الأنهار بعضها ببعض وإرواء الحقول^(١٨) (*)

(*) ويقول جرانث في هذا : « لقد كان هذا انقلابا كاملا . ولو كان للإمبراطور أعوان من طرازه لاستطاع أن ينتفع بهذا ويخلق من الصين دولة ذات مجتمع من طراز جديد ... ولكن الإمبراطور لم يكن يرى إلا الضرورات الماسة العاجلة ، ويحيل إليها أنه لم يكن =

وازدهر النظام الجديد وأفلح إلى حين ، وراجت التجارة ، وكثرت البضائع وتنوعت ، وارتبطت الصين مع الأمم المجاورة لها ومع أمم الشرق الأدنى البعيدة عنها^(٢٠) . وكثر سكان عاصمتها لو — يانج وزادت ثروتها وامتلات خزائن الدولة بالأموال ، وانتشر طلاب العلم في كل مكان ، وكثر الشعراء ، وبدأ الخرف الصيني بتخذ منظرًا جهيلًا جذابًا . وجمع في المكتبة الإمبراطورية ٣١٣٣ مجلدًا في الأدب الصيني القديم ، و ٢٧٠٥ في الفلسفة ، و ١٣٨٨ في الشعر ، و ٢٥٦٨ في الرياضيات ، و ٨٦٨ في الطب ، و ٧٩٠ في فنون الحرب^(٢١) . ولم يكن أحد يعين في مناصب الدولة إلا إذا اجتاز امتحانًا تضعه لهذا الغرض ، وكانت هذه الامتحانات عامة يتقدم إليها كل من شاء . والحق أن الصين لم يمر بها عهد من الرخاء كالذي مر في تلك الأيام .

ولكن طائفة من الكوارث الطبيعية مضافًا إليها خبث بني الإنسان قضت على هذه التجربة الجريئة . فقد تعاقبت على البلاد سنون من الفيضان والجذب ارتفعت على أثرها أسعار السلع ارتفاعاً لم تقو الحكومة على وقفه . وتضايق الناس من غلو أثمان الطعام والكساء فصاحوا يطالبون بالعودة إلى الأيام الحلوة الماضية ، التي أضحت في اعتقادهم خير الأيام وأكثرها رخاء ، وأشاروا بأن يغلى مخترع النظام الجديد في الماء وهو حي ، ونادى رجال الأعمال بأن سيطرة الدولة قضت على الابتكار الفردي السليم وعلى التنافس الحر ، وأبوا أن يؤدوا ما يلزم لهذه التجارب من الضرائب الباهظة التي كانت الحكومة تفرضها عليهم^(١٢) . ودخلت النساء بلاط الإمبراطور وبسطن نفوذهن السري على كبار

= يمكن إلا في استخدام الوسائل المختلفة المرتجلة يوماً بعد يوم — ثم يتركها إذا ما حصل منها على ما يبتغيه ؛ ولدت له قديمة بالية . وكان يضحى برجاله الجدد إذا ما تراءى له أنهم بلغوا من النجاح حداً يكسبهم من السلطان ما يخشى منه على نفسه . ومن أجل هذا فإن قلق الطاغية وقصر نظر المشتريين أضاعا على الصين فرصة ثمينة قلما تكرر لتجعل من بلادها دولة موحدة مندمجة منظمة « (١٩)

للموظفين ، وأصبحن عنصراً هاماً في موجة من الفساد انتشرت في طول البلاد وعرضها بعد وفاة الإمبراطور^(٢٣). وأخذ المزيقون يقلدون العملة الجديدة ونجحوا في تقليدها إلى حد اضطر الحكومة إلى سحبها من أيدي الناس ، وعادت الخطة القديمة خطة استغلال الضعفاء ، يسيطر عليها ويسيرها نظام جديد ، ومضى قرن من الزمان نسيت فيه إصلاحات وودي أو أضحت مسبة له وعاراً .

وجلس على عرش الصين مصلح آخر في بداية التايخ للسيجي بعد أربعة وثمانين عاماً من موت وودي ، وكان في بادئ الأمر وصياً على العرش ثم أصبح فيما بعد إمبراطوراً . وكان هذا الإمبراطور وانج مانج من أرقى طراز وصل إليه الرجل الصيني الكامل المذهب ؛ وكان على غناء يعيش عيشة معتدلة بل عيشة مقتصدة ، ويوزع دخله على أقاربه وعلى الفقراء من أهل البلاد^(*). وقد قضى جل وقته يكافح لإعادة النظام إلى أحول البلاد الاقتصادية والسياسية ، ولكنه مع ذلك وجد فسحة من الوقت لا لمناصرة الأدب والعلم فحسب بل للاشتغال بهما بنفسه حتى أصبح من أكل الناس ثقافة وتهذيباً ؛ ولما جلس على سرير الملك لم يحط نفسه بما يحيط به الملوك أنفسهم من الساسة ، بل جمع حوله رجالاً من الأدباء والفلاسفة ، وإلى هؤلاء الرجال يعزو أعداؤه أسباب إخفاقه ، وإلىهم يعزو أصدقاؤه أسباب نجاحه .

وروع وانج مانج في بداية حكمه انتشار الرق في ضياع الصين الكبيرة ، فلم يكن منه إلا أن ألغى الرق وألغى الضياع بتأميم الأرض الزراعية ، قسمها قطعاً متساوية ووزعها على الزراع ، ثم حرم بيع الأرض وشراءها لينع بذلك عودة الأملأك الواسعة إلى ما كانت عليه من قبل^(٢٤). واحتفظ باحتكار الدولة للملح والحديد ، وأضاف إلى ذلك امتلاكها للمناجم وإشرافها على تجارة الخمر .

(*) إلا إذا صدقت الإشاعة التي انتشرت عقب وفاة الإمبراطور الفلام في السنة الخامسة بعد الميلاد ، وهي أن أسرة وانج مانج قد سمته (٢٤) .

وحاول كما حاول وودى أن يحمى الزراع والمستهلكين من جشع التجار بتعديده
أثمان السلع . فكانت الدولة تشتري ما زاد على الحاجة من الحاصلات الزراعية
وتبيعها إذا عزت وغلائمها وكانت الحكومة تقدم القروض بفائدة منخفضة
لكل مشروع إنتاجي^(٣٦) .

لكن وانج لم يفكر في خطته إلا من الناحية الاقتصادية ونسى طبائع
الآدميين . فكان يعمل الساعات الطوال بالليل والنهار ليبتركر الخطط التي تزيد
ثروة الأمة وأسباب سعادتها ، ولكنه أحزنه وأضرَم قلبه أن وجد الاضطراب
الاجتماعي ينتشر في البلاد في أثناء حكمه . فقد ظلت الكوارث الطبيعية
كالفيلضان والجذب تعطل مشروعاته الاقتصادية ، واجتمعت كل الطوائف التي
قضت هذه المشروعات على مطاعمها وأخذت تكيد له وتعمل لإسقاطه . فثار نفع
الفتن في البلاد وصلت سيفها الشعب في الظاهر ، ولكن أكبر الظن أن القائمين
بها كانوا يتلقون الأموال من مصادر عليا . وبينما كان وانج يكافح فيقم أغفار
هذه الفتن ، وقد ساء كفر الشعب بفضله وجوده بعمته ، إذ أخذت الشعوب
الخاضعة لسلطان الصين تشق عصا الطاعة ، كما أخذ برايرة الشيونج — نو
يحتاحون الولايات الشمالية ، فأضعف ذلك كله من هبة الإمبراطور

وتزعمت أسرة ليو الفنية ثورة عامة اندلع لهيها في البلاد ، واستولت على
شانج — آن ، وقتلت وانج مانج ، وألفت جميع إصلاحاته ، وعاد كل شيء إلى
ما كان عليه من قبل .

وجلس على العرش في أواخر أيام أسرة هان جماعة من الأباطرة الضعاف
خلف بعضهم بعضا ، وانتهى بهم عهد هذه الأسرة ؛ وأعقب ذلك عهد من
الفوضى حكمت في أثناءه أسر خاملة الذكر ، انقسمت البلاد في أيامها إلى
دويلات متعددة . وتدفق التثار على البلاد ولم يصدم عنها السور الكبير ،
واستولوا على مساحات واسعة من أجزائها الشمالية ، وكانت غارات هؤلاء التثار

سبباً في اضطراب حياة الصين والقضاء على حضارتها النامية ، كما كانت غارات الهون الذين يمتنون إلى التتار بأواصر القرابة العنصرية سبباً في اضطراب نظام الإمبراطورية الرومانية وإلقاء أوربا في غمار الفوضى التي عمت أرجاءها نحو مائة عام كاملة . وفي وسعنا أن ندرك ما يمتاز به الصينيون من صلابة عنصرية ، ومن قوة في الأخلاق والثقافة ، إذا عرفنا أن هذا الاضطراب كان أقصر أجلاً وأقل عمقاً من الاضطراب الذي قضى على الدولة الرومانية . فلما أن انقضى عهد من الحروب والفوضى والامتزاج العنصرى بين المغيرين والأهلين ، أفاقت الحضارة الصينية من سباتها ، وانبعثت انتعاشاً رائعاً يهر الأنظار .

ولعل دم التتار الجديد قد بعث القوة في أمة كانت قد أدركتها الشيخوخة . وقبل الصينيون الغزاة الفاتحين بينهم وتزوجوا منهم ، وحضروهم ، وارتقواهم وإياهم إلى أسى ما بلغوه من المجد في تاريخهم الطويل .

الفصل الثالث

مجد تانج

الأسرة المالكة الجديدة - خطة تاي دزونج في تقليل الجرائم - عصر رخاء -
« الإمبراطور النابه » رواية يانج - حوى - في - ثورة آن لو - شان

تعزى نهضة الصين الكبرى (*) في العصر الذي سنتحدث عنه في هذا الفصل إلى أسباب ثلاثة : وهى امتزاج هذين الشعبين ، والقوة الروحية التى انبعثت من دخول البوذية فيها ، وعبقرية إمبراطور من أعظم أباطرتها وهو تاي دزونج الذى حكمها من عام ٦٢٧ إلى عام ٦٥٠ بعد الميلاد . جلس هذا الإمبراطور على عرش الصين وهو فى الحادية والعشرين من عمره بعد أن نزل عنه أبوه جو دوزو الثانى الذى أقام أسرة تانج قبل ذلك الوقت بتسع سنين . وقد بدأ حكمه بداية غير مبشرة بخير ، وذلك بقتل إخوته الذين كانوا يهددونه باغتصاب عرشه ، ثم أظهر كفايته العسكرية برد غارات القبائل الهمجية إلى مواطنها الأصلية ، وإخضاع الأقاليم المجاورة التى خرجت على حكم الصين بعد سقوط أسرة هان . ثم عافت نفسه الحرب فجاءه وعاد إلى شانجيان عاصمة ملكه وخصص جهوده كلها للأعمال السلمية ، فقرأ مؤلفات كنفوشيوس مرة بعد مرة ، وأمر بنشرها فى شكل بديع رائع ، وقال فى هذا : « إنك إذا استعفت بمرآة من السبها ففقد تستطيع أن تعدل وضع قلنسوتك على رأسك ؛ وإذا اتخذت الماضى مرآة لك فقد تستطيع أن تتنبأ بقيام الإمبراطوريات وسقوطها » . ورفض كل أسباب الترف وأخرج من قصره الثلاثة الآلاف من السيدات اللاتى جىء بهن لتسليته .

(*) انظر كتاب السير و . فلندر پيترى The Revolutions of Civilisation
« دورات الحضارة » طبعة لندن .

ولما أشار عليه وزراؤه بوضع القوانين الصارمة لقمع الجرائم قال لهم :
« إنى إذا أنقصت نفقات المعيشة ، وخففت أعباء الضرائب ، ولم أستعن إلا
بالأمناء من الموظفين حتى يحصل الناس على كفايتهم من الكساء ، كان أثر
هذه الأعمال فى منع السرقات أعظم من أثر أقسى أنواع العقاب » (٢٧) .

وزار الإمبراطور يوما سجون شانجيان فرأى فيها مائتين وتسعين سجيناً
حكم عليهم بالإعدام . فلم يكن منه إلا أن أرسلهم ليحرقوا الأرض واكتفى منهم
بأن يعدوه بشرفهم أن يعودوا إلى سجنهم . وكان أن عادوا جميعاً ، وبلغ من
سرور تاي دزونج أن أمر بالإفراج عنهم كلهم ، وسنّ من ذلك الوقت قانوناً
يقضى ألا يصادق أى إمبراطور على حكم بالإعدام إلا بعد أن يصوم ثلاثة أيام .
وجعل عاصمة ملكه حتى أقبل عليها السياح من الهند ومن أوروبا ، وجاء إلى
الصين عدد كبير من الرهبان البوذيين الهنود ، وكان البوذيون الصينيون أمثال
يوان جوانج يسافرون بكامل حريتهم إلى بلاد الهند ليأخذوا دين الصين
الجديد عن مصادره الأصلية . وجاء المبشرون إلى شانجيان ليبشروا بالزردشتية
والنسطورية المسيحية ، وكان الإمبراطور يرحب بهم كما كان يرحب بهم
أكبر ، ويبسط عليهم حمايته ، ويطلق لهم كامل حريتهم ؛ ويعنى معايدهم من
الضرائب ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تعاني آلام الفاقة والجهالة
والمنازعات الدينية . أما هو نفسه فقد بقى كمنفوشيا بسيطاً بعيداً عن التحيز
والتحكم فى عقول رعاياه ، وقد قال عنه مؤرخ نابه إنه لما مات حزن الناس عليه
حزناً لم يقف عند حد ، وبلغ من حزن المبعوثين الأجانب أنفسهم أن كانوا
يشغفون أجسامهم بالجراح بالمدى والحزاب ، وينثرون دماءهم التى أراقوها
بأنفسهم طائمين على نعش الإمبراطور المتوفى » (٢٨) .

لقد مهد هذا الإمبراطور السبيل إلى أعظم عصور الصين خلقاً وإبداعاً ،
فقد نعمت فى عهده خمسين عاماً من السلام النسبى واستقرار الحكم ، فشرعت

تصدر ما زاد على حاجتها من الأرز والذرة والحرير والنوابل ، وتنفق مكاسبها في ضروب من الترف لم يسبق لها مثيل . ففصت بحيرتها بقوارب التنزه المنقوشة الزاهية الألوان ؛ واكتظت أنهارها وقنواتها بالسفن التجارية ، وكانت المراكب تخرج من موانئها تمر عبر عباب البحار إلى الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي . ولم تعرف الصين قبل ذلك العهد مثل هذه الثروة الطائلة ؛ ولم تستمتع قط بما كانت تستمتع به وقتئذ من الطعام الوفير ، والمساكن المريحة ، والملابس الجميلة^(٣٩) . وبينما كان الحرير يباع في أوروبا بما يعادل وزنه ذهباً^(٤٠) ، كان هو الكساء المألوف لنصف سكان المدن الصينية الكبرى ، وكانت الملابس المتخذة من القراء في القرن الثامن في شانجيان أكثر منها في نيويورك في القرن العشرين . وكان في إحدى القرى القريبة من العاصمة مصانع للحرير تستخدم مائة ألف عامل^(٤١) . وصاح لي بو في إحدى الولايم : « ما أعظم هذا الكرم ، وما أكثر هذا الإسراف في المال ! أقداح من البشم الأحمر ، وأطعمة شهية نادرة على موائد مرسعة بالجواهر الخضراء ؟ »^(٤٢) وكانت التماثيل تنحت من الباقوت ، وأجسام الأثرياء من الموتى تدفن على فرش من اللاؤلؤ^(٤٣) .

وكأنما أروع هذا الجنس العظيم بالجمال فجأة ، وأخذ يكرم بكل ما في وسعه من كان قادراً على خلق هذا الجمال . ومن أقوال أحد النقاد الصينيين في هذا : « ذلك عصر كان فيه كل رجل بحق شاعراً »^(٤٤) . ورفع الأباطرة الشعراء والمصورين إلى أعلى المناصب . وبروي « سير جون مانفيل »^(*) Sir John Manville أن أحداً من الناس لم يكن يجرؤ على أن يخاطب الإمبراطور إلا « إن كان شاعراً مطرباً يغنى وينطق بالفكاهات »^(٤٥) . وأمر أباطرة المانشو في القرن الثامن عشر الميلادي أن يوضع سجل يحوى ماقاله شعراء تانج ، فكانت

(*) ذلك اسم مصطنع لطبيب فرنسي كتب في القرن الرابع عشر كتاباً في الأسفار مظهرها خيالي ، ولا تخلو بعضها من فائدة ، ولكنها كلها فتاة رائعة .

النتيجة أن وصل هذا السجل إلى ثلاثين مجلداً تحتوى ٤٨,٩٠٠ قصيدة قالها ٢,٣٠٠ شاعر، كانت هي التي أبقي عليها الدهر من هذه القصائد ومن أسماء أولئك الشعراء . وزاد ما في دار الكتب الإمبراطورية حتى بلغ ٥٤,٠٠٠ مجلد؛ وفي هذا يقول مردك Murdock : « ولا جدال في أن الصين كانت في ذلك الوقت أرقى البلاد حضارة ، فقد كانت وقتئذ أعظم الإمبراطوريات قوة ، وأكثرها استنارة ، وأعظمها رقياً ، وأحسنها حكماً على ظهر الأرض »^(٣٦) ، « وقد شهد ذلك العصر أرقى ما شهده العالم من الثقافات^(*) » .

وكان زينة هذا العصر كله منتج هوانج — أى « الإمبراطور الغابه » — الذى حكم الصين نحو أربعين عاماً تخللتها فترات قصيرة كان فيها بعيداً عن العرش (٧١٣ — ٧٥٦ ب . م) . وكان هذا الإمبراطور رجلاً اجتمعت فيه كثير من المتناقضات البشرية ؛ فقد كان يقرض الشعر ويشن الحرب على البلاد الغائية ، ومن أعماله أنه فرض الجزية على تركيا وفارس وسمرقند ، وأبقى حكم الإعدام ، وأصلح إدارة السجون والمحاكم ، ولم يرحم من لا يبادر بأداء الضرائب ، وكان يتحمل راصياً مسروراً عنت الشعراء والامنانين والعلماء ؛ وأنشأ كلية لتعليم الموسيقى في حديقة له تسمى « حديقة شجرة الكهوى » ، وقد بدأ حكمه متقشفاً متزمتاً ، أغلق مصانع الحرير وحرم على نساء القصر التحلى بالجواهر أو الملابس المطرزة ، ثم اختتمه أبيقوريا يستمتع بكل فن وبكل وسيلة من وسائل الترف ، ونهى آخر الأمر بعرشه لينعم بيسمات يانج جوى — فى — . وكان حين النقي بها فى سن الستين ، أما هى فكانت فى السابعة والعشرين . وكانت قد قضت عشرين سنين محظية لانه الثامن عشر . وكانت بدينة ذات شعر

(*) من أقوال آرثر ويل (٣٧) . راجع دائرة المعارف للبريتانية للظمة الرابعة عشرة الفصل الثامن عشر ص ٣٦١ تحت عنوان (أيام أسرة تانج) « لقد كانت الصين بلا جدال أعظم دول العالم وأكثرها حضارة » .

مستعمار، ولكن الإمبراطور أحبها لأنها كانت عبيدة، ذات أطوار شاذة متفطرسة وحقّة، وتقبلت منه إعجابه بها بقبول حسن، وعرفته بخمس أسر من أقاربها، وسمحت له بأن يعين أبناء هذه الأسر في وظائف مجزية سهلة في بلاطه. وكان منج يسمى هذه السيدة «الطاهرة العظيمة»، وقد أخذ عنها فن الاستمتاع بضروب الترف والملاذ، وانصرف ابن السماء عن الدولة وشئونها وعهد بالسلطة الحكومية كلها إلى يانج جو — چونج أخى السيدة الطاهرة، وهو رجل فاسد عاجز؛ وبينما كانت نذر الخراب والدمار تحيط به من فوقه ومن أسفل منه، كان هو يواصل ليله بنهاره متمككا في ضروب اللهو والفساد.

وكان في بلاط مانج رجل تشارى يسمى آن لو — شان يعشق هو الآخر يانج جوى — فى، وقد كسب هذا الرجل ثقة الإمبراطور فرفعه إلى منصب الحاكم لإحدى الولايات الشمالية، وأمره على زهرة جيوش الإمبراطورية. ولم يلبث آن — لو — شان أن أعلن نفسه إمبراطوراً على البلاد وزحف بجيوشه على شانجان. وتداعت حصون المدينة وكانت قد طال إهمالها، وفر منج من عاصمة ملكه.

وتمرد الجنود الذين كانوا يحرسونه في فراره، وقتلوا يانج جو — چونج وجميع أفراد الأسر الخمس، واحتفظوا يانج جوى — فى من بين يدى الملك وقتلوا أمام عينيه. ونزل الإمبراطور عن عرشه بعد أن أذلته الشيخوخة والمزمنة، وعانت حجاجه أن لو شان الهمجية في المدينة فسادا، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ولم تفرق بين كبير وصغير^(٢٨). ويقال إن ستة وثلاثين مليوناً من الأنفس قد قضى عليهم في هذه الفتنة العماء^(٢٩). ولكن الفتنة أخفقت آخر الأمر في الوصول

(٢٨) وفي ذلك يقول آرثر ويلي Arthur Waley : « لما هزم التار منج هوانج ونهبوا

شانجان بدت هذه الأحداث كأنما اجتاحت التترك فرساي في عهد لويس الرابع عشر » (٢٨).

إلى أغراضها ، وقتل آن لو — شان بيد ابنه نفسه ، وقتل هذا الابن بيد أحد القواد ، ثم قتل هذا القائد ابن له . وظلت نار الفتنة مشتعلة حتى أكلت وقودها وخمدت جذوتها في عام ٦٧٢ ، وعاد منج هوانج محطاً كسير القلب إلى عاصمته الخربة . ومات فيها بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . وفي هذه الفترة من المأسى والحادثات الروائية العجيبة ازدهر الشعر الصيني ازدهاراً لم يكن له نظير من قبل .

الفصل الرابع

الملاك المنسوق

قصة لى پو - شبابه وبسالته وحبه - على القارب الإمبراطورى - لإنجيل الكرم - الحرب - تجوال لى پو - السجن - « الشمر الحالد »

استقبل منج هوانج ذات يوم من أيام مجده ، رسلا من كوريا يحملون إليه رسائل خطيرة مكتوبة بلهجة لم يستطع أحد من وزرائه أن يفهمها . فصاح الإمبراطور غاضبا : « ما هذا ؟ ألا يوجد بين هذا العدد الجم من الحكام والعلماء والقوادرجل واحد ينجبنا من هذه الورطة ؟ قسا إن لم أجد بعد ثلاثة أيام من يستطيع أن يحل رموز هذه الرسالة لأقصيكم جميعا عن أعمالكم ! » .

وقضى الوزراء يوما كاملا يشاورون ويتشاورون ، وهم يخشون أن تطيح منهم مناصبهم ورءوسهم . ثم تقدم الوزير هو چى - جانج إلى العرش وقال : « هل تأذن لأحد رعاياك أن يعلن لجلالتك أن فى بيته شاعرا جليل الشأن يدعى لى متبحرا فى أكثر من علم واحد ؟ مره أن يقرأ هذه الرسالة إذ ليس ثمة شىء يعجز عنه » . وأمر الإمبراطور أن يستدعى لى للشول بين يديه من فوره . ولكن لى أبى أن يحضر بحجة أنه غير جدير بالاضطلاع بالواجب الذى طلب إليه أن يضطلع به ، لأن الحكام قد رفضوا مقاله حينما تقدم لآخر امتحان عقد لطالبي الالتحاق بالوظائف العامة . واسترضاه الإمبراطور بأن منحه لقب دكتور من الدرجة الأولى ، وخلع عليه حلة هذا اللقب . فجاء لى ووجد الذين امتحنوه بين الوزراء ، وأرضعهم على أن يخلعوا له نعليه ، ثم ترجم الوثيقة ، وقد جاء فيها أن كوريا تعتزم خوض غمار الحرب لاستعادة حريتها . ولما قرأ لى هذه الرسالة أملى عليها ردا مهوعا ، ينم عن علم غزير ، وقعه الإمبراطور من فوره ، وكاد

يصدق ما أسره إليه « هو » وهو أن لى ملاك طرد من السماء لأنه ارتكب فيها ذنباً عظيماً^(١٠)^(١١). وأرسل الكوريون يعتذرون ، وأدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وأرسل الإمبراطور بعض هذه الجزية إلى لى فوهب بعضها إلى صاحب الحانة لأنه كان يحب الخمر .

وكانت أم لى قد رأت فى منامها ليلة مولد الشاعر الكوكب الأبيض الكبير الذى يسميه الصينيون ثاى — پوچنج ويسميه أهل الغرب فينوس^(١٢). ولهذا سمي الطفل لى أى البرقوقة ولقب ثاى — پو أى النجم الأبيض . ولما بلغ العاشرة من عمره كان قد أتقن كتب كنفوشيوس ، كما كان فى مقدوره أن ينظم الشعر الخالد . وفى الثانية عشرة خرج إلى الجبال ليعيش فيها عيشة الفلاسفة ، وأقام فيها سنين طويلاً ، حسنت فى خلالها صحته ، وعظمت قوته ، وتدرّب على القتال بالسيف ، ثم أعلن إلى العالم مقدّرتَه وكفائته فقال : إبنى وإن لم يبلغ طول قامتى سبع أقدام (صينية) فإن لى من القوة ما أستطيع به ملاقات عشرة آلاف رجل^(١٣) . (وعشرة آلاف لفظ يعبر به الصينيون عن الكثرة) ثم أخذ يضرب فى الأرض يتلقى أقاصيص الحب من أفواه الكثيرين ، وقد غنى أغنية « لفتاة من وو » قال فيها :

نبذ الكروم

وأقدّاح الذهب

وفتاة حسناء من وو —

فى سن الخامسة عشرة ، تقبل على ظهر مهر ،

ذات حاجبين قد خطا بقلم أزرق —

وحداثين من النسيج القرنلى المشجر —

(•) وتلك قصة لطيفة لعلها من وضع لى — پو .

(••) ويسميه العرب « الزهرة » .

لا تنصح عما في نفسها —
ولكنها تغنى أغاني ساحرة .
وقد أخذت تطعم الطعام على المائدة ،
المرصعة بأصداق السلاحف .
ثم سكرت في حجرى .
أى طفلى الحبيبة ! ما أحلى العناق .
خلف الستائر المطرزة بأزهار السوسن^(٤٢) !
ثم تزوج الشاعر ، ولكن مكاسبه كانت ضئيلة ، ففادرت زوجته بيته
وأخذت معها أبناءه . ترى هل هذه الأسطر التى يبت فيها شوقه موجهة إليها ،
أو إلى حبيبة أخرى لم يطل عهد الوداد بينهما ؟ —
أيتها الحساء ، لقد كنت وأنت عندى أملاً البيت زهراً .
أما الآن أيتها الحساء ، وقد رحلت — فلم يبق فيه إلا فراش خال .
لقد طوى عن الفراش الغطاء المزركش ؛ ولست بقادر على النوم .
وقد مضت على فراقك ثلاث سنين ؛ ولا يزال يعاودنى شذى المطر
الذى خلقتة ورائك .
إن عطرك يملأ الجو من حولى وسيدوم أبد الدهر ؛
ولكن أين أنت الآن يا حبيبى ؟
إنى أتحسر — والأوراق الصفراء تسقط عن الفصن ،
أذرف الدمع — ويتلأل^{٤٣} رضاب الندى الأبيض على الكلال^{٤٣} .
الأخضر .

وأخذ يسلى نفسه باحتساء الخمر ، حتى أصبح أحد « الستة المتعطلين فى أيكه
الخيزران » ، الذين يأخذون الحياة سهلة فى غير محلة ، ويكسبون أقواتهم المزعزعة
بأغانيهم وقصائدهم . وسمع لى الناس يثنون الثناء الجم على نبيذ نيو جونج فسافر

من فوره إلى تلك المدينة ، وكانت تبعد عن بلده ثلثائة ميل^(٤٤) .

والتقى في تجواله بدوفو الذى صار فيما بعد منافسه على تاج الصين الشعرى ، وتبادل هو وإياه القصائد الغنائية ، وصارا يضربان فى البلاد معا كالأخوين ، وينامان تحت غطاء واحد ، حتى فرقت الشهرة بينهما . وأحبهما الناس جميعاً لأنهما كانا كالقديسين لا يؤذيان أحداً ويتحدثان إلى الملوك وإلى السوق بنفس الأنفة والمودة اللتين يتحدثان بهما إلى الفقراء المساكين . ودخلا آخر الأمر مدينة شانجيان وأحب « هو » الوزير الطروب شعر لى حبا حمله على أن يبيع ما عنده من الحلى الذهبية لىبتاع له الشراب ، ويصفه دوفو بقوله :

أما لى يو فقدم له ملء إبريق ،

يكتب لك مائة قصيدة

وهو يغفو فى حانة .

فى أحد شوارع مدينة شانجيان ؛

وحتى إذا ناداه مولاه ،

فإنه لا يطاءً بقدمه القارب الإمبراطورى .

بل يقول : « معذرة يا صاحب الجلالة .

أنا إله الخمر » .

لقد كانت أيامه هذه أيام طرب ومرح ؛ يعزه الإمبراطور ، ويفخره بالهدايا جزاء ما كان يتغنى به من مديح يانج جوى — فى الظاهرة . وأقام منج مرة مأدبة ملكية يوم عيد القانونيا^(*) فى فسطاط الصبار ، وأرسل فى طلب لى يولينشد الشعر فى مديح حبيبته . وجاء لى ، ولكنه كان ثملاً لا يستطيع قرض الشعر . فالتقى خدام القصر ماء بارداً على وجهه الوسيم ، وسرعان ما انطلق الشاعر

(*) نبات يسمى أيضاً عود الصليب . (المترجم)

بغنى ويصف ما بين الفاونيا وحببية يأنج من تنافس فقال :

في أنوابها جلال الغمام السابح ،
وفي وجهها سنا الزهرة الفاضرة .
أيها الطيف السماوى يا من لا يكون إلا فى الملا
فوق قلة جبل الجواهر
أو فى قصر البلور المسحور حين يرتفع القمر فى السماء !
على أننى أشهد هاهنا فى روضة الأرض —
حيث يهب نسيم الربيع العليل على الأنسوار ،
وتتألأ نقاط الندى الكبيرة ...
لقد هُزم حنين الحب الذى لا آخر له
والذى حملته إلى القلب أجحة الربيع ^(٤٥) .

ترى منذ الذى لا يسره أن يكون هو الذى تغنى فيه هذه الأغنية ! لكن
الملكة أدخل فى روعها أن للشاعر قد عرض بها فى أغنيته تعريضاً خفياً ،
فأخذت من هذه اللحظة تدس له عند الملك وتبعث الريبة فى قلبه . وما زالت به
يفتله بين الذروة والغارب حتى أهدى لى — بوكيسا به نقود وصرفه . فأخذ
الشاعر يهيم فى الطرقات مرة أخرى يسلى نفسه باحتساء الخمر ، « وانضم إلى الثمانية
الخالدين أصحاب الكأس » ، الذين كان همهم على لسان الناس فى شانجان .
وكان يرى رأى ليولنج القائل إنه يحسن بالإنسان أن يسير وفى محبته على الدوام
خادمان يحمل أحدهما خمراً ويحمل الآخر مجرفاً يستعين به على دفنه حيث
يحرص بقاء « لأن شئون الناس » كما يقول ليو « ليست إلا طحالب فى نهر » ^(٤٦) .
وكانما أراد شعراء الصين أن يكفروا عن تزميت الفلاسفة الصينية ، فأطلقوا أنفسهم
العنان . وفى ذلك يقول لى بو : « لقد أفرغنا مائة إبريق من الخمر لنفصل بها

أرواحنا ونظهرها من الأحزان التي لازمتنا طوال حياتنا»^(٧) . وهو يترنم
ببنت الحان ترنم عمر الخيام :

إن المجرى الدافق يصب ماءه في البحر ولا يعود قط .
ألا ترى فوق هذا البرج الشامخ
شبحاً أبيض الشعر يكاد يذوب قلبه حسرة أمام صرآته البراقة ؟
لقد كانت هذه الندائر في الصباح شبيهة بالحرير الأسود ،
فلما أقبل المساء إذا هي كلها في بياض الثلج .
هيا بنا ، ما دام ذلك في مقدورنا ، نتذوق الملائذ القديمة ،
ولا نترك إريق الخمر الذهبي
يقف بمفرده في ضياء القمر ...
إني لا أبني سوى نشوة الخمر الطويلة ،
ولا أحب أن أحرق قط من هذه النشوة ...
هيا بنا أنا وأنتما نبتاع الخمر اليوم !
لم تقولان إنكما لا تملكان ثمنها ؟
فجوادى المرقط بالأزهار الجميلة ،
ومعطى المصنوع من الفراء والذي يساوى ألف قطعة من الذهب
سأخرج عن هذين وأمر غلامى
أن يبتاع بهما الخمر اللذيذة
ولأنس معكما يا صاحبي
أحزان عشرة آلاف من الأعمار^(٨) !

ترى ما هي هذه الأحزان ؟ أمى آلام من محب ازدري حبه ؟ لا نظن هذا
لأن شعراء الصين لا يكتفون من الشكوى من آلام الحب ، وإن كان

يملاً قلوبهم كما يملأ قلوبنا . وإنما الذى أذاقنى حرارة المآسى البشرية هو الحرب والنفى ، وهو أن لو شال والاستيلاء على عاصمة البلاد ، وفراز الإمبراطور وموت يابج ، وعودة منتج هوانج إلى قصوره المهجورة . وهو يقول فى حسرة : « ليس للحرب نهاية ! » ثم يأسو للنساء اللاتى قدمن أزواجهن ضحايا لإله الحرب فيقول :

هاهو ذا شهر ديسمبر ؛ وهاهى ذى فتاة يورثشاو الحزينة !
لقد امتنع عليها الغناء ، وعز الأبتسام ، وحاجباها أشعثان ،
وهى تقف بلباب ، تنتظر عابرى السبيل ،
وتذكر ذلك الذى اختطف سيقه وسار لحماية الحدود ،
ذلك الذى قاسى أشد الآلام فى البرد القارس وراء السور العظيم ،
ذلك الذى جندل فى ساحة الوغى ولن يعود أبداً ،

* * *

فى مشيتها الذهبية الثمراء التى تحتفظ فيها بالذكريات ،
قد بقى لها سهمان «راشان برىشتين بيباوين ،
بين نسج المنكبوت وما تجمع من الغبار خلال السنين الطوال .
تلك أحلام الحب الجوفاء التى لا تستطيع العين أن تنظر إليها لما تسببه
للقلب من أحزان .

ثم تخرج السهمين وتمرحهما وتذرو رمادها فى الرياح .
إن فى وسع الإنسان أن يقيم سداً يعترض به مجرى النهر الأصفر ،
ولكن منذ الذى يخفف أحزان القلب إذا تساقط الثلج ،
وهبت ريح الشمال ؟^(١٩)

وفى وسعنا الآن أن نتخيله ينتقل من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية على

الصورة التي وصفه بها دزو تشويج — جى : « على ظهرك حقيبة نملأى بالكتب ، تطوف ألف ميل أو أكثر ، وفي بكك خنجر وفي جيبيك طائفة من القصائد »^(٥٠) . وقد حبته رفقته القديمة للطبيعة في هذا التجوال الطويل بمزاء وسلوى وراحة تجل عن الوصف ؛ وفي وسعنا أن نرى من خلال أشعاره أرض بلاده ذات الأزهار ، ونشعر أن حضارة المدن قد أخذ عبثها الباهظ ينقل على الروح الصينية :

لَمْ أَعِشْ بَيْنَ الْجِبَالِ الْخَضِرَاءِ ؟
إِنِّي أَضْحَكُ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ وَلَا أَجِيبُ عَنْهُ ، إِنَّ رُوحِي سَاكِنُهُ صَافِيَةٌ ؛
إِنَّهَا تَسْكُنُ سَمَاءَ أُخْرَى وَأَرْضًا لَيْسَتْ مَلَكًا لِلْإِنْسَانِ -
إِنَّ أَشْجَارَ الْخُوحِ مِنْ دَهْرَةٍ وَلِلْمَاءِ يَنْسَابُ مِنْ تَحْتِهَا^(٥١) .

ثم انظر إلى هذه الأبيات :

أَبْصَرْتُ ضِيَاءَ الْقَمَرِ أَمَامَ مَخْدَعِي -
نَفَلْتُهُ الصَّقِيعَ عَلَى الْأَرْضِ .

ورفعت رأسي ونظرت إلى القمر الساطع فوق الجبل ،
وطأطأت رأسي وفكرت في موطنى البعيد^(٥٢) .

ولمّا تقدمت به السن وابتيض شعره امتلأ قلبه حناناً للأماكن التي قضى فيها أيام شبابه . وكَم من مرة ، وهو يحيا في العاصمة حياة اصطناعية ، حن قلبه للحياة البسيطة الطبيعية التي كان يحياها في مسقط رأسه وبين أهله :

فِي أَرْضِ وَوِ أَوْرَاقِ التَّوتِ خَضِرَاءِ ،

نَامَ دُودُ الْحَرِيرِ مَرَّاتٍ ثَلَاثًا .

وَأَرْضُ لَوْهِ الشَّرْقِيَّةِ حَيْثُ تَقِيمُ أُسْرَتِي ،

لَا أَعْرِفُ مِنْ يَزْرَعُ فِيهَا حَقُولَنَا .

وليس في وسعي أن أعود لأقوم فيها بأعمال الربيع .

ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً ، بل أسير على ضفة النهر
إن ريح الجنوب إذا هب أطارت روحى المشوقة إلى وطنى .
وحملتها معها إلى حانئنا المعهودة .

وهناك أرى شجرة خوخ على الجانب الشرقى من البيت ،
بأوراقها وأغصانها الكثيفة تتموج فى الضباب الأزرق ..
منها هى الشجرة التى غرستها قبل أن أفارق الدار منذ سنوات ثلاث .
لقد نمت شجرة الخوخ الآن وطالت حتى بلغت سقف الحانة ،
فى أثناء تجوالى الطويل إلى غير أوبة .

أى بنيتى الجميلة يا بنج — يانج ، إنى أراك واقفة .

بحوار شجرة الخوخ ، تفتزعين منها غصنا مزهرا ،
تقطعين الأزهار ، ولسكنى لست معك —

ودموع عينيك تفيض كأنها مجرى ماء !

وأنت يا ولدى الصغير يوسشين لقد نموت حتى بلغت كتفى أختك

وصرت تخرج معها تحت شجرة الخوخ ؛

ولكن منذ الذى يربت على ظهرك هناك ؟

إنى حين أفكر فى هذه الأمور تمخوننى حواسى

ويقطع الألم الشديد فى كل يوم نياط قلبى .

وهأنذا أقطع قطعة من الحرير الأبيض واكتب عليها هذه الرسالة

وأبعث بها إليك مصحوبة بحبى تجتاز الطريق الطويل إلى أعلى النهر^(٥٣)

وكانت السنون الأخيرة من عمره سنى بؤس وشقاء ، لأنه لم ينزل قط من

عليائه ليجمع المال ، ولم يجد فى أيام القوضى والفتن ملكا يحنو عليه ويردعه

غائلة الجوع والحرمان . ولما عرض عليه لى — لىج أمير يونج أن ينضم إلى حاشيته

قبل هذا راضياً مسروراً ؛ ولكن لى — لنج خرج على خليفة منج هوانج ، فلما
قلت أظفار فتنته ألقى لى بو نفسه بين جدران السجن محكوما عليه بالموت لأنه
خان دولته .

ثم توسط له جوو دزيى القائد الذى أخذ ثروة آن لوشان ، وطلب أن
تفتدى حياة لى بو بنزوله هو عن رتبته ولقبه . تخفف الإمبراطور عنه الحكم
واستبدل به النفى مدى الحياة . ثم صدر عفوعام بعد ذلك بقليل ، وعاد الشاعر
يتعثر إلى مسقط رأسه . ومريض وتوفى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ؛ وتقول
الأقاصيص ، التى يعز عليها أن تموت نفس قل أن يوجد مثلها بين النفوس ميتة .
عادية ، إنه غرق فى أحد الأنهار ، بينما كان يحاول وهو ثمل جزلان أن يعانق .
صورة القمر .

وديان شعره الرقيق الجميل المؤلف من ثلاثين مجلداً لا يترك مجالاً للشك فى
أنه حامل لواء شعراء الصين بلا منازع . وقد وصفه ناقد صينى بأنه « قمة تاي .
الشاخنة المشرفة على مئات الجبال والتلال ؛ والشمس التى إذا طلعت خبا وميض
ملايين من نجوم السماء » (٥٤) .

لقد مات منج هوانج ، وماتت يانج وعفا ذكرهما ولكن لى بولا يزال يغنى !
لقد بنيت سفينتى من خشب الأفاويه وصنع سكانها من خشب .
المولان .

وجلس العازفون عند طرفها ويدهم الناي من الغاب المحلى بالجواهر .
والمزمار المرصع بالذهب .

ألا ما أعظم سرورى إذا كان إلى جانبي دن النمر اللذيذة وغيد .
حسان يفتين

ونحن نطفو فوق ظهر الماء تدفعنا الأمواج ذات اليمين وذات الشمال !

إذن لكنت أسعد من جنى الهواء الذى ركب على ظهر غرنيته الأصفر ،
حرأ كعريس البحر الذى تعقب الدوارس (*) دون غرض يبتغيه ،
إني الآن أهز الجبال الخمسة بضربات من وحى قلى .
هأنذا قد فرغت من قصيدتى . فأنا أضحك وسرورى أوسع من البحر .
أيها الشعر الخالد ! إن أحيان شوبنج (**) لشبيهة في روعتها بالشمس والقمر ،
أما قصور ملوك جو وأبراجهم فقد عفت آثارها من فوق التلال (٥٥)

(•) المرلان ضرب من الخشب الثمين وهريس البحر مخلوق خرافى له جسم رجل وذيل
سمك والنورس طائر مائى . (المترجم)
(••) انظر ص ٩٦

الفصل الخامس

من خصائص الشعر الصيني

النظم الطليق - « التصوير » - كل قصيدة صورة
وكل صورة قصيدة . . - العاطفية - كمال الشكل

ليس في وسعنا أن نحكم على الشعر الصيني بدراسة شعرى وحده ، فإذا أراد الإنسان إن يُحس به (وهذا خير من الحكم عليه) وجب عليه أن يسلم نفسه في غير استعجال للكثيرين من الشعراء الصينيين وأساليبهم الشعرية الفذة . ولا جدال في أن بعض الصفات الدقيقة التي يتصف بها هذا الشعر تخفيها عنا ترجمته ؛ فنحن لا نرى في هذه الترجمة الرموز الصينية الجميلة ؛ التي يتكون كل منها من مقطع واحد ولكنه يعبر مع ذلك عن فكرة معقدة ولا نرى السطور تجري من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار ، ولا ندرك الوزن والقافية اللذين يتشبان بقوة بالقواعد والسوابق القديمة ؛ ولا نستمع إلى النغمات — وما فيها من خفض ورفع — التي يترنم بها الشعر الصيني . وجملة القول أن نصف ما في شعر الشرق الأقصى من جمال فنى يضيع حين يقرؤه من يجب أن نسميه « أجنبيا » عنه . إن خير القصائد الصينية في لغتها الأصلية لصورة مصقولة ثمينة لا تقل في صقلها وعظيم فنها عن المزميرية المنقوشة النادرة الجميلة ؛ ولكنه بالنسبة إلينا لا يكون إلا نتقا من القريض الخلداع « الطليق » من الوزن أو الشعر « التصويرى » قد أدركه بعض الإدراك ونقله نقلا ضعيفا عقل جاد ولكنه عقل غريب عنه لا يمت إليه بصلة .

إن أهم ما نراه في هذا الشعر هو إيجازه ؛ فنميل إلى الظن بأن هذه القصائد تافهة ، وإذا ما قرأناها شعرنا بأنها قد لا نجد فيها ما في شعر ملتن وهومر من

عظمة تارة وملالة تارة أخرى . ولكن الصينيين يعتقدون أن الشعر كله يجب أن يكون قصيراً ؛ وأن القصيدة والطول لفظان متناقضان ، لأن الشعر في نظرهم نشوة وقتية بنت ساعتها تموت إذا طالت ومدت حتى صارت ملحمة ، وأن رسالة الشاعر أن يرى الصورة ويرسمها بضربة ويسجل الفلسفة في بضعة سطور وأن مثله الأعلى أن يجمع المعاني الكثيرة في أنغام قليلة . وإذا كانت الصور من جوهر الشعر ، وكانت الكتابة الصينية في جوهرها كتابة تصويرية ، كانت لغة الصين المكتوبة لغة شعرية بطبيعتها تنقاد للكتابة التصويرية ، وتنفرد من المعنويات المجردة التي لا يمكن التحدث عنها كما يتحدث عن المراثيات . وإذا كانت المعنويات تكثر كلما ارتقت الحضارة ، فقد أضحت اللغة الصينية في صورتها المكتوبة ، أشبه بشفرة سرية ذات إيماء دقيق . وكذلك كان الشعر الصيني ، بالطريقة نفسها ، وقد يكون للسبب عينه ، يجمع بين الإيماء والتركيز ، ويهدف بما يرسم من الصور إلى الكشف عن شيء خفي عميق . فهو لا يجادل ولا يناقش ، بل يوحى ويوعز ، ويترك أكثر مما يقول ؛ وليس في وسع أحد غير الشرقي أن يستجيب لما يوعز به ويملاً الفراغ الذي يتركه . وفي هذا المعنى يقول الصينيون : « كان الأقدمون يرون أن أحسن الشعر ما كان معناه أبعد من لفظه ، وما اضطر قارئه أن يستخلص معناه لنفسه »^{(٥٦)(٥٧)} . فالشعر الصيني كالأخلاق الصينية والفن الصيني ذو جمال رائع لا حده له تخفيه بساطة هادئة مستكنة ، فهو لا يعتمد إلى الاستعارة والمجاز والتشبيه بل يعتمد على إظهار ما يريد أن يتحدث عنه ، ويشير من طرف خفي إلى ما يتضمنه ، ويتصل به ، وهو يتجنب المبالغات والانفعالات ويأجأ إلى العقل الناضج بما فيه من إيجاز في القول وما يتقيد به من قيود . ولما تراه في صور روائية هائلة ، ولكن في مقدوره أن يعبر عن الشاعر القوية بأسلوبه الهادئ الرصين :

(*) انظر وصف مكولي للشعر في مقاله عن ملتن . (المترجم)

الناس يقضون حياتهم متفرقين كالعجوم تتحرك وتلكنها لا تلتقي أبداً .
أما هذه العين فما أسعدها ، إذ ترى مصباحاً واحداً يبعث الضوء لى ولك !
ألا ما أقصر أيام الشباب !

وإن لمنا لتدل الآن على أن حياتنا قد آذنت بالزوال .
بل إن نصف من نعرفهم قد انتقلوا الآن إلى عالم الأرواح .
ألا ما أشد وقع هذا على نفسى -

وقد يعترينا الملل فى بعض الأحيان مما فى هذه القصائد من التكلف العاطفى ،
وما تحويه من تحسر وتمن باطل بأن تقف محطة الزمان دورتها حتى يبقى الرجال
فتياناً وتحفظ الدول بشبابها أبداً الدهر . وتمن ندرك من هذا الشعر أن حضارة
الصين كانت قد شاخت وانقضت عهد شبابها فى أيام منج هوانج ، وأن الشعراء فى
هذا العهد — كالغنائين فى الشرق بوجه عام — قد أولعوا بتكرار الموضوعات
التليدة ، وأنهم كانوا يستخرون قدرتهم الفنية للاحتفاظ بالصيغ سليمة مبرأة من
العيوب . ولكننا رغم هذا كله لا نجد لهذا الشعر مثيلاً فى غير بلاد الصين ،
ولا نرى ما يضارعه فى جمال التعبير وما فيه من رقة فى العواطف رغم اعتدالها ،
ومن بساطة واقتصاد فى التعبير عن أعماق الأفكار - ويقال لنا إن للشعر الذى
كتب فى عهد أباطرة تانج أثراً عظيماً فى تعليم كل شاب صينى ، وإن الإنسان
لا يجد صينياً مفكراً لا يحفظ الكثير من ذلك الشعر عن ظهر قلب . فإذا صح
هذا كان فى تاريخ لى يو ودوفو بعض ما يجيب به حين نسال لم يكاد كل صينى
متعلم يكون فناناً وفيلسوفاً ؟

الفصل السادس

دوفو

«دواتشين - پو - چوى - قصائد لشقاء الملايا - دوفو
توك پو - رؤى الحرب - أيام الرخاء - الإبلاق - الموت

لى پو عند الصينيين شبيه بكيتس عند الإنجليز ، ولكن للصين غنزه من
«الفنن» ، لا يكاد يقلّ حجمهم لهم عن حجم لى پو ، ففهم دواتشين الشاعر الرواقى
«البسيط الذى اعتزل منصباً حكومياً» ، لأنه على حدّ قوله لم يعد فى وسعه «أن يحنى
فقرات ظهره نظير خمسة أربطال من الأرز فى كل يوم» أى أن يتتبع مرتبه
بكرامته . واعتزل دواتشين الحياة العامة كما اعتزلها كثيرون من رجال الدولة
اشتمزاً من حياة الوظيفة ذات البزعة التجارية ، وذهب ليعيش فى الغابات يذشد
فيها «طول السنين وعمق الخمر» ، ويجد فى مجارى الصين وجبالها من السلى
والبهجة ما صوره رساموها على الحرير فيما بعد :

أقطف الأخوان تحت السياج الشرقى ،

ثم أسرح الطرف طويلاً فى تلال الصيف البعيدة

وأملأ صدرى من هواء الجبال اللقى عند مطلع الفجر ،

وأرى الطيور تعود مثنى مثنى .

إن فى هذه الأشياء لمعانى عميقة ،

لكننا إذا شئنا التعبير عنها خائفنا الألفاظ فجاءة . . .

ألاما أسخف أن يعضى المرء حياته كأوراق الشجر الساقطة للطمورة

فى تراب الطرقات !

ولقد قضيت ثلاث عشرة سنة من حياتى على هذا النحو . . .

وعشت زمناً طويلاً حبيساً في قفص ؛

وهأنذا قد عدت

إذ لا بد للإنسان أن يعود

ليحيى حياته الطبيعية^(٥٧)

أما بو — جوى فقد سلك مسلكاً آخر ، إذ اختار المنصب الرسمى والحياة فى العاضمة . وصار يرقى فى المناصب العامة حتى أمسى حاكم مدينة هانج تشاو العظيمة ورئيس مجلس الحرب . لكنه رغم متاعب الحياة العامة عاش حتى بلغ الثانية والسبعين من العمر ، وأنشأ أربعة آلاف قصيدة ، وعب ملاذ الطبيعة فى فترات نقي فيها من بلده^(٥٨) . وعرف السر الذى يستطيع به أن يجمع بين الوحدة والاختلاط بالجمهير ، وبين الراحة والحياة النشطة . ولم يكن كثير الأصدقاء لأنه كما يقول عن نفسه كان رجلاً وسطاً غير ممتاز فى « الخط ، والتصوير ، والشطرنج ، وبيسر ، وهى الوسائل التى تؤدى إلى اجتماع الرجال وإلى الضجة السارة »^(٥٩) . وكان مولعاً بالتحدث إلى عامة الناس ، ويروى عنه أنه كان يقرأ قصائده لعجوز قروية ، فإذا عجزت عن فهم سىء منها بسطه لها . ومن ثم أصبح أقرب الشعراء الصينيين إلى قلوب الجماهير ، وكان شعره ينقش فى كل مكان على جدران المدارس والمعابد وقرات السفن . ويروى أن فتاة من المغنيات قالت لربان سفينة كانت تطربه « ليس لك أن تظن أنى راقصة عادية ؛ وحسبك أن تعرف أن فى مقدورى أن أسمعك قصيدة الأستاذ بو : الغلظة الأبدية »^(٦٠) (*)

وآخر من نذكره من أولئك الشعراء هو دوفو الشاعر الحبوب العميق الذى يقول فيه ارر ويلي Arthur Waley : « من عادة الذين يكتبون فى الأدب

(٥) من أشهر الروايات الصينية الكبيرة التى يروى بها الكتاب الصينيون غرام منج هوانج بيانج جوى فى موتها فى أثناء الثورة وشقاء منج بعد عودته إلى العرش . وليست القصيدة حالة إلى الحد الذى توصف به ، وهى أطول من أن تنقب لها هذه الصفحات .

الصيني من الإنجليز أن يقولوا إن لى تاى — بو أشعر شعراء الصين ؛ أما الصينيون أنفسهم فيقولون إن دوفو هو حامل لواء الشعراء الصينى «^(٦١) ونحن نسمع به لأول مرة فى شانجيان حيث أقبل ليؤدى امتحاناً ليتقلد إذا نجح فيه منصباً حكومياً ، ولكنه لم ينجح . على أن ذلك لم يفت فى عضده ، رغم أنه أخفق فى مادة الشعر ؛ وأعلن للجمهور أن قصائده علاج ناجع لحي الملاريا ، ويبدو أنه جرب هذا العلاج بنفسه^(٦٢) . وقرأ بنج هوانج بمض أشعاره ووضع له هو نفسه امتحاناً آخر ، وأنجحه فيه وعينه أمين أسرار القائد تسوًا . وشجع هذا العمل دوفو وأساءه وقتاً ما زوجته وأبناءه فى قريتهم النائية ، فأقام فى العاصمة وتبادل هو ولى بو الأغاني . وأخذ يتردد على الحانات ويؤدى ثمن خمره شعراً . وقد كتب عن لى بو يقول :

أحب مولاي كما يحب الأخ الأصغر أخاه الأكبر ،

ففى الخريف وفى نشوة الخمر ننام تحت غطاء واحد ، وفى النهار نسير معاً يداً بيد .

فعل هذا فى أيام كان منبج ليانج يحب جوى ' فى ' فأخذ دو يتغنى بهذا الحب كما يتغنى غيره من الشعراء ؛ فلما شبت نار الثورة وأغرقت الأحقاد والمطامع بلاد الصين فى بحر من الدماء حول شعره إلى موضوعات حزينة ، وأخذ يصور الناحية الإنسانية من الحرب :

فى الليلة الماضية صدر أمر حكومى

بتجنيد الفتيان الذين بلغوا الثامنة عشرة .

وأمرنا أن يعاونوا على الدفاع عن العاصمة

أيتها الأم ! وأيتها الأبناء ! لا تبكوا هذا البكاء !

إن هذه الدموع التى تذرفونها تضر بكم .

وحين تقف الدموع عن الجريان تبرز العظام

ووقتئذ لا ترحمكم الأرض ولا السماء .
رهل تعرفون أن في شانتونج مائتي مقاطعة قد استجالت صحارى مجربة ،
وأن آلافاً من القرى والمزارع قد غطاها الحسك والشوك ؟
وأن الرجال يذبحون ذبح الكلاب ، والنساء يسقن كما يساق الدجاج ..
ولو أنني كنت أعرف ما هو نخباً للأولاد من سوء المصير
لفضلت أن يكون أطفالي كلهم بنات ...
ذلك أن الأولاد لا يولدون إلا ليدفنوا تحت العشب الطويل .
ولا تزال عظام من قضت عليهم الحرب في الماضي البعيد مدفونة بجوار
البحر الأزرق تراها وأنت مار .

فهي بيضاء رهيبة تراها العين فوق الرمال ،
هنالك تجتمع أشباح الصغار وأشباح الكبار لتصيح جماعات ،
وإذا هطل المطر وأقبل الخريف وهبت المريح الباردة ،
علت أصواتهم حتى علمتني كيف تقتل المرء الأحران ...

إن الطيور تتناغى في أحلامها وهي تحلق فوق الماء
والبراغة تشع بضياءها في غسق الليل .
فلم يقتل الإنسان أخاه الإنسان ليعيش ؟
إني أتحسر خلال الليل في غير طائل^(٦٤)

وقضى الشاعر عامين خلال عهد الثورة يظوف بأنحاء الصين تقاسمه إملاقه
زوجته وأبنائه ، وقد بلغ من فقره أنه كان يستجدي الناس الخبز ، ومن ذلته أنه
خررا كما يدعو بالخير للرجل الذي آوى أسرته وأطعمها حيناً من الزمان^(٦٥) .
لهم أنجاه من بؤسه القائد الرحيم ين وو فعينه أميناً لسره ، وغفر له أهواءه وأطواره

الشاذة ، وأسكنه كوخاً على ضفة « مجرى غاسل الأزهار » ، ولم يطلب إليه أكثر من أن يقرض الشعر (*) . وعاش الرجل حينئذ سعيداً طروباً يتغنى بالأمطار والأزهار والقمر والجبال :

وماذا تجدى العبارة أو المقطوعة الشعرية الجميلة ؟

إن أمانى جبالا وغابات كثيفة سوداء فاحمة .

وإن نفسى لتحدثنى بأن أبيع تحفى وكتبى

وأعب من الطبيعة وهى صافية عند منبعها ...

فإذا قدمت على مكان بهذا الجمال

مشيت رويداً ، وتمنيت أن يفرق الجمال روحى

أحب أن ألمس ريش الطير .

وأنفخ فيه بقوة حتى أكشف عما تحته من الزغب .

وأحب أن أعد إبر النبات أيضاً ،

بل أحب أن أعد لقاءه الذهبى ،

ألا ما أحلى الجلوس على الكلا ،

ولست بحاجة إلى الخمر حين أجلس عليه ، لأن الأزهار تسكرنى ...

أحب الأشجار القديمة حبا يسرى فى عظامى ، وأحب أمواج البحر

التي فى زرقة اليشب (٦٥) .

وأحبه القائد الطيب القلب حبا أفسد على الشاعر راحته ، لأنه رفعه إلى

منصب عال فى الدولة ، إذ جعله رقيباً فى شانجان ، ثم مات القائد فجأة ، وثار

الحرب حول الشاعر ، فأسمى وحيداً لا سدد له إلا عبقريته ، وسرعان ما ألقى نفسه

(*) (ويصور رسم صينى شهير « الشاعر دوفو فى الكوخ المغمى » . وتوجد هذه الصورة فى متحف الفن بنيويورك .

فقيراً معدماً ، وأخذ أطفاله وقد أذهب عقلهم الجوع يسخرون منه لقلة حيلته ، وكان في آخر أيامه شيخاً مهدماً بئساً وحيداً ، « يؤذى العين منظره » ، وأطاحت الريح بسقف كوخه ، وسرق الأطفال قش فراشه ، وهو ينظر إليهم ولا يستطيع لضعفه أن يقاومهم^(٦٧) ، وشر من هذا كله أنه فقد لذة الخمر ، ولم يعد في وسعه أن يحل مشاكل الحياة كما يحلها لي بو .

ثم لجأ آخر الأمر إلى الدين ووجد سلواه في البوذية ، وعاجلته الشيخوخة ولما يتجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، فحج إلى جبل هون المقدس ليزور فيه معبدًا ذائع الصيت ، وهناك عثر عليه حاكم من الحكام قرأ شعره ، فأواه إلى منزله وأقام ولية تكريماً له ، صفت فيها صحاف الشواء وكؤوس الخمر . ولم يكن ووفو قد رأى ذلك من عدة سنين فأكل أكل الجياع . ثم طلب إليه مضيفه أن ينشد الشعر ويفنى ، فحاول أن يجيبه إلى ما طلب ، ولكنه خارت قواه وسقط على الأرض ومات في اليوم الثاني^(٦٨) .

الفصل السابع

النثر

وفرة الآداب الصينية - الروايات العرامية - التاريخ
زوماتشين - المقالات - هان يو على عظام بوذا

ليس شعراء تأنج إلا فئة من شعراء الصين ، وليس الشعر إلا جزءاً من الأدب الصيني ، وإنه ليصعب علينا أن ندرك حقيقة تماكان في هذا العصر من وفرة في الأدب ومن سعة انتشاره بين كافة طبقات الشعب . وكان عدم وجود قانون للملكية الأدبية عاملاً من العوامل التي ساعدت على رخص أثمان المطبوعات ، ولذلك كان من الأمور العادية ، قبل دخول الأفكار الغربية في البلاد ، أن يجد الإنسان مجموعات جديدة مجلدة من عشرين كتاباً تباع الواحدة منها بريال أمريكي ، وأن يرى موسوعات مؤلفة من عشرين مجلداً تباع جديدة بأربعة ريالات ، وأن تباع جميع روائع الأدب الصيني القديم كلها بريالين^(٦٩) . وأصعب مما سبق أن نقدر نحن قيمة هذا الأدب ، وذلك لأن الصينيين يضعون الشكل والأسلوب فوق المادة حين يحكمون على كتاب ما ، وليس في وسع أية ترجمة مهما بلغت أن تظهر جمال الشكل أو روعة الأسلوب .

ليس من حقنا أن نلوم الصينيين حين يقولون إن آدابهم أرفى من أية آداب أخرى عدا الآداب اليونانية ، ولعلمهم حين يستثنون آداب اليونان إنما يفعلون هذا من قبيل المجاملات المأثورة عن الشرقيين .

والصينيون لا يعدّون القصص فرعاً من فروع الأدب ، وهم في هذا يختلفون عن الغربيين حيث يرفع القصص من شأن المؤلفين ويذيع أسماءهم في سرعة وسهولة . ولذلك فإننا قد نجد له ذكراً في بلاد الصين قبل أن يدخلها النول^(٧٠)

بل إن أدباء الصين لا يزالون إلى هذا اليوم يعدون خير الروايات القصصية مجرد تسلية شعبية غير خليقة بأن تذكر في تاريخ الآداب الصينية . لكن سكان المدن الصينية السذج لا يزالون بهذه الفروق ، ويتركون أغاني بو — جوى ولى بو في غير تخرج ، وبفضلون عليها الروايات الغرامية التي لا حصر لها ، والتي يكتبها مؤلفون يخفون عن القراء أسماءهم ، وينشرونها باللهجات الشعبية التي تكتب بها المسرحيات . وهى تصور للصينيين في وضوح ما فى ما ضيهم من أحداث روائية رائعة ؛ ذلك أن جميع الروايات الصينية الشهيرة ، إلا القليل النادر منها ، روايات تاريخية ، وقل أن يوجد فيها ما هو واقعى البزعة ، وأقل منه ما يحاول فيه مؤلفوه ذلك القرب من التحليل النفسانى أو الاجتماعى الذى يرقى « ياخوة كرمزوف » The Brothers Karmazov و « الجبل المسحور » The Magic Mountain و « الحرب والسلام » War and Peace و « البائسون » Les Miserables إلى مستوى الأدب الرفيع .

ومن أقدم الروايات الصينية رواية شوى هو جوان أو « قصة حواشى الماء » التى ألفها رهط من الكتاب فى القرن الرابع (*).

ومن أكبر هذه الروايات حجاً رواية « هونج لومى » أو حلم الغرفة الحمراء (حوالى ١٦٥٠ م) وهى رواية فى أربعة وعشرين مجلداً ؛ ومن أحسنها كلها رواية لياو هلى ميبى أو قصص عجيبة (حوالى ١٦٦٠ م) وهى التى يجلبها الصينيون لجمال أسلوبها وأناقة عبارتها . وأشهرها كلها رواية سان جورجى بان إى أو « رواية الممالك الثلاث » وهى رواية منمقة الأسلوب فى ألف صفحة ومائتين كتبها لو جوان — چونج (١٢٦٠ — ١٢٤١) فى وصف الحرب

(*) لقد ترجمت مسز بيرل بك Mrs. Pearl Buck هذه الرواية ترجمة جيدة وممتها « كل الناس إخوة » All Men are Brothers وطبعت فى نيويورك سنة ١٩٣٣ .

والدسائس التي أعقبت سقوط أسرة هان^(*)، وكلها شبيهة بالروايات الطويلة التصويرية التي كانت منتشرة في أوروبا في القرن الثامن عشر. وكثيراً ما تجمع هذه الروايات (إذ جاز لنا في مثل هذه الموضوعات أن ننقل إلى القارئ ما يتحدث به الناس عنها) بين تصوير الأخلاق الفكه اللطيف الذي تراه في رواية تم جهوز Tom Jones وبين القصص الشائق الذي تراه في هل بيمرس Gil Blas. وهي أصليح ما تكون لأن يقرأها الشيوخ الطاعنون في السن ليقطعوا بها أوقات فراغهم .

والتاريخ أجل الأدب شأنًا في الصين ، وهو كذلك أحبها إلى الصينيين ، وليس ثمة أمة ظهر فيها من المؤرخين عدد يوازي من ظهر منهم في الصين ، وما من شك في أنه ليس بين الأمم جميعها أمة كتبت في التاريخ بقدر ما كتبت الأمة الصينية . ذلك أن أقدم قصور الملوك كان لها كتابها الرسميون ، يسجلون أعمال الملوك وأحداث الأيام ؛ ولقد دام منصب مؤرخ البلاط إلى أيامنا هذه ، وأوجد في الصين قدراً من الأدب التاريخي لا نرى له مثيلاً في طوله ولا في ملله في جميع بلاد العالم . وحسبنا أن نضرب بعض الأمثلة ليدرك القارئ طول هذه التواريخ . فمنها أربعة وعشرون كتاباً في « تواريخ الأسر » وهو تاريخ رسمي نشر في عام ١٧٤٧ في ٢١٩ مجلداً ضخماً^(٧١) . وأخذت كتابة التواريخ تخطو خطى سريعة في الصين مبتدئة بالسو — منج أو « كتاب التاريخ » الذي هذبه كنفوشيوس أحسن تهذيب ، وبالرزو — هوانه وهو شرح لكتاب المعلم الكبير وإحياء له كتب بعد مائة عام من ذلك الوقت ، وموليات كتب الغاب التي وجدت في قبر أحد ملوك ويه ، حتى أخرج في القرن الثاني قبل ميلاد

(*) وترجمها ش . ه . برووت تيلر C. H. Brewitt-Taylor في جزأين وطبع

في شنغهاي سنة ١٩٢٥ .

المسيح أعظم كتب التاريخ الصينية على الإطلاق ، وهو كتاب السجل التاريخي الذي جمعه زوما تشين وبذل في جمعه جهوداً جبارة .

ذلك أنه لما خلف زوما أباه في منصب منجم البلاط بدأ عمله بإصلاح التقويم ، ثم وجه جهوده للعمل الذي بدأه أبوه وهو رواية تاريخ الصين من عهد الأسرة الأولى الأسطورية إلى العصر الذي كان يعيش فيه . ولم يكن زوما مولعاً بجمال الأسلوب ، بل كل ما كان يهدف إليه أن يجعل سجله هذا كاملاً . وقد قسم كتابه هذا خمسة أقسام هي : (١) حوليات الأباطرة ، (٣) الجداول التاريخية (٣) ثمانية فصول في المراسم والموسيقى ، وموازين النغات ، والتقويم ، والتنجيم ، والقرايين الإمبراطورية ؛ والمجاري المائية ، والاقتصاد السياسي (٤) حوليات أسراء الإقطاع ، (٥) تراجم عظماء الرجال . ويبلغ طول العهد الذي تؤرخ له هذه الكتب كلها نحو ثلاثة آلاف عام ، وقد سجلت في ٥٢٦,٠٠٠ متر صيني نقشت بقلم مدبب على ألواح من الغاب في صبر طويل (٧٢) . ولما فرغ زوماتشين من وضع كتابه هذا الذي قضى فيه حياته كلها أرسله إلى الإمبراطور وإلى العالم ولم يصف إليه إلا هذه المقدمة المتواضعة :

« لقد وهنت الآن قوة خادمك الجسمية ، وضعف بصره وأظلمت عيناه ، ولم يبق من أسنانه إلا العدد القليل ، وضعفت ذاكرته حتى أصبح ينسى حوادث الساعة حين تدبر عنه ، ذلك أن قواه كلها قد استنفدها لإخراج هذا الكتاب . وهو لهذا يرجو أن تصفح جلالتك عن محاولته الجريئة التي تشفع لها نيته الخالصة ، وأن تتفضل في لحظات الفراغ بإلقاء نظرة قدسية على هذا الكتاب حتى تعرف من أسباب قيام الأسر السابقة وسقوطها سر نجاح هذه الساعة وإخفاها ، فإذا ما استخدمت هذه المعرفة لخير الإمبراطورية ، فإن خادمك يكون قد حقق غرضه بمطعمه في الحياة ، وإن ثوت عظامه في الينابيع الصفراء » (٧٣) .

ولسنا نجد في صفحات كتاب زوما نشين شيئا من تألق تين Tsine ، ولا
ثرثرة ساحرة أو قصصاً طريفة مكتوبة بأسلوب هيرودوت ، ولا تعاقباً للعلة
والمعلول كما نجدهما في توكيديد Thucydides ، ولا نظرة واسعة الآفاق في لغة
موسيقية كما نجد في جيبن Gibbon . ذلك أن التاريخ قلما يرتفع في الصين من
صناعة إلى فن .

وقد ظل المؤرخون الصينيون من أيام زوما نشين إلى أيام سيمه زوما جوانج
الذى حاول بعد أحد عشر قرناً أن يكتب مرة أخرى تاريخاً عاماً للصين ، يقول
ظل هؤلاء المؤرخون يكدهون ليدونوا في صدق وإخلاص حوادث أسرة
حاكمة أو ملك من أسرة . وكثيراً ما أضعوا في هذا العمل كل ما كان لهم
من مال ، بل إهم أضعوا فيه أحياناً حياتهم نفسها ؛ وكانوا ينفقون جهودهم
كلها في سبيل الحقيقة لا يبيعون عنها بديلاً ، ولم يدخروا شيئاً من هذه الجهود
ينفقونه في جمال الأسلوب ، ولعلمهم كانوا في عملهم هذا على حق ، ولعل التاريخ
ينبغي أن يكون علماً لا فناً ، ولربما كانت حوادث الماضي بعترتها الغموض إذا
وصلت إلينا في زينة جيبن أو في مواعظ كارليل .

ولم تخل بلادنا نحن (*) أيضاً من مؤرخين ثقال ، وفي وسعنا أن ننافس أية
أمة من الأمم في عدد المجلدات التي خصصت لتسجيل — وجمع — أنفء الأشياء .
أما المقالة الصينية فهي أجمل من التاريخ الصيني وأعظم منه بهجة . ذلك أن
الفن فيها غير محرم والفصاحة مطلقه العنان . وأوسع كتاب المقالات شهرة هان يو
العظيم الذي يقدر الصينيون كتبه أعظم تقدير ، ويجلونها إجلالاً بلغ من قدره
أنهم يطلبون إلى من يقرأها أن يغسل يديه بماء الورد قبل أن يمسه .

وكان هان يو وضيع الموالد ولكنه وصل إلى أرقى المراتب في خدمة الدولة ،
ولم يغضب عليه الإمبراطور إلا لأنه احتج احتجاجاً شديداً صريحاً على تسامحه

مع البوذية وما حباها من امتيازات . ذلك أن هان كان يعتقد أن الدين الجديد إن هو إلا خرفة هندية ، وقد آلمه أشد الألم ، وهو الكنفوشى الصميم ، أن يرضى الإمبراطور عن هذا الحلم الموهن الذى أسكر أهل بلاده . ومن أجل هذا رفع مذكرة إلى الإمبراطور (٨٠٣ ق . م) تقتبس منها هذه السطور لتقديم للقارئ مثلاً من النثر الصينى ، وإن كانت الترجمة الأمانة قد هوشته :

لقد سمع خادمكم أن أوامر صدرت إلى جماعة الكهنة بأن يسيروا إلى فنج — شيانج ليتسلموا عظام من عظام بوذا ؛ وأن جلالتم ستشرفون من برج عال على دخوله فى القصر الإمبراطورى ؛ وأن أوامر أخرى أرسلت إلى الهياكل المختلفة تقضى بأن يحتفل بهذا الأثر الاحتفال الذى يليق به . وقد يكون خادمكم أبله ضعيف العقل ، ولكنه يدرك أن جلالتم لاتفعلون هذا لتنالوا منه نفعاً ، بل تفعلونه مسaire منكم لرغبة الشعب فى أن يحتفل بهذا الجون الباطل فى عاصمة البلاد ، فى الوقت الذى بلغ فيه الرخاء غايته ، وامتلاأت جميع القلوب بهجة وانشراحاً . وإلا فكيف تجيز لكم سامى حكمتكم أن تؤمنوا كما يؤمن عامة الشعب بهذه العقائد السخيفة ؟ وعامة الشعب يا مولاي بطيئو الإدراك يسهل التفرير بهم ، فإذا رأوا جلالتم تركعون خاشعين أمام قدمى بوذا صاحوا من فورهم : ها هو ذا ابن السماء مصدر الحكمة قوى الإيمان ببوذا ؛ فهل يحق لنا نحن عامة شعبه أن نضن عليه بأجسامنا .

« ثم يعقب هذا سفع النواصى وحرق الأصابع ؛ وتجمع الناس من كل صوب يمزقون ملابسهم ، وينثرون أموالهم ، ويقضون وقتهم كله من الصباح إلى المساء يحذون حذو جلالتم . ونتيجة هذا أن تملك الشعب كله ، صفاره وكباره ، هذه الحماسة نفسها فيهمل الناس ما يجب عليهم أن يفعلوه فى حياتهم . وتراهم يحجون إلى الهياكل زرافات ، يقطعون أيديهم ويشوهون أجسامهم ، ليقدّموها قرباناً إلى الإله ، إلا إذا حرمتهم عليهم جلالتم هذا العمل . وبهذا يقضى على

عادتنا وتقاليدنا ، وبصبح مضغفة في أفواه الناس وهدفاً لسخرتهم على ظهر الأرض .

«ولهذا فإن خادمكم ، وقد تجل بالعار من أفعال الرقباء (*)» ، يضرع إلى جلالكم أن تتركوا هذه العظام طعمه للنار والماء ، حتى يبحث هذا الشر من منابته فلا يعود أبداً ، وحتى يعرف الشعب أن حكمة جلالكم أعلى من حكمة عامة الناس . وإذا كان للرب بوذا من القوة ما يستطيع به أن يثار لنفسه من هذه الإهانة بالكوارث يصيبها على رأس من كان سبباً فيها ، فليصب جام غضبه على شخص خادمكم ، وهو في هذه اللحظة يشهد السماء على أنه لن يحيد عن عقيدته (٧٤) » .

وبعد فإذا ما قام النزاع بين التخريف والفلسفة فأكبر الظن أن النصر سيكون حليف التخريف ، ذلك بأن العالم قد أوتي من العقل ما يجعله يفضل السعادة على الحكمة ، ومن أجل ذلك نفى هان إلى قرية في هوانج — توج حيث كان الناس لا يزالون همجاً سذجاً . ولم يشك من هذا النفي ، بل شرع يهذب الناس ويحمل من نفسه خير قدوة يقتدون بها عملاً بتعاليم كنفوشيوس . وقد بلغ من مجاحه في عمله هذا أن صورته لا تزال يكتب عليها في هذه الأيام تلك الأسطورة « لقد كان ينشر الطهر حينما مر » (٧٥) . ثم استدعى آخر الأمر إلى عاصمة البلاد ، وأدى للدولة خدمات جليلة ، ومات معززاً مكرماً أعظم الإعزاز والتكريم . وقد نصبت له لوحة تذكارية في هيكل كنفوشيوس — وهو المكان الذي يحتفظ به عادة لأتباع المعلم العظيم أو لكبار مشراحه — ؛ وذلك لأنه دافع عن العقائد الكنفوشية دفاعاً لم يبال فيه بما يتعرض له من الأخطار ، وقاوم عقيدة كانت من قبل صالحة نبيلة ولكنها أصبحت الآن منحطة فاسدة .

(*) إذا أراد القارئ أن يعرف ما هي أعمال الرقباء فليرجع إلى الفصل السادس من الباب السادس والعشرين من هذا الكتاب . ويفهم من قول هان يو هذا أن أحداً منهم لم يخرج قط على رصاء الإمبراطور تشو ونج عن انتشار البوذية في الصين .

الفصل الثامن

المسرح

منزلته الوضيعة في الصين - منشؤه - المسرحية - النظارة - الممثلون - الموسقى
ليس من السهل أن نقسم المسرحيات الصينية أقساما جامعة مانعة ، لأن
الصينيين لا يقرون أن التمثيل أدب أو فن ، وليس للتمثيل في الصين منزلة تتناسب
مع ما يتمتع به من انتشار واسع بين طبقات الشعب ، وشأنه في هذا شأن كثير
من مقومات الحياة . من أجل ذلك لانكاد نسمع بأسماء كتاب المسرحيات ،
والمثلون ينظر إليهم على أنهم من طبقة منحطة ولو أنفقوا حياتهم كلها في إعداد
أنفسهم لهذا العمل والنبوغ فيه ، ولو بلغوا فيه أعظم ما يبلغه الإنسان من الشهرة
وما من شك في أن شيئا من هذا كان من نصيب الممثلين في جميع الحضارات
وبخاصة في العصور الوسطى ، حين كان التمثيل يكافح للخروج من دائرة التمثيل
الديني الصامت المضحك الذي نشأ منه وتفرع عنه .

وكان هذا بعينه منشأ المسرح الصيني ، فلقد كانت الطقوس الدينية في عهد
أسرة جو تشمل أنواعا من الرقص المصحوب بالخاصر . ويقال إن هذا الرقص
قد حرم فيما بعد لأنه أصبح مدعاة للفساد الخلقى . ولعل هذا التحريم الذي فصل
الرقص عن المراسم الدينية هو الذي نشأ منه التمثيل غير الديني ^(٧٦) . وشجع منج
هوانج قيام هذا النوع المستقل من التمثيل كما شجع كثير من الفنون الأخرى ، وذلك
بأن جمع حوله طائفة من الممثلين والممثلات أطلق عليهم اسم : « فتيان حديقة
الكهوى » . غير أن المسرح لم يصبح نظاما قوميا معترفا به إلا في عهد كو بلاى
خان . ذلك أنه لما اختير كونج دوفو — وهو من سلالة كنفوشيوس — في عام
١٠٣١ ليكون مبعوثا صينيا إلى البلاط المغولى استقبل فيه باحتفال عظيم شمل فيما

شمل تمثيل إحدى المسرحيات . بيد أن الماخن فى هذه المسرحية كان يمثل كنفوشىوس ومن أجل هذا خرج كونج دو — فو غاضباً ؛ لكنه لما عاد إلى الصين هو وغيره من الرحالة الذين طافوا بلاد المغول ، تحدثوا إلى أبناء وطنهم عن ضرب من التمثيل أرقى كثيراً من كل ما عرفته بلادهم منه . ولما أن فتح المغول الصين أدخلوا فيها القصة المقروءة والمسرحية ، ولا تزال أرقى المسرحيات الصينية فى هذه الأيام هى المسرحيات التى كتبت فى أثناء حكم المغول (٧٧) .

وتقدم فن التمثيل على مهل ، لأنه لم يلق معونة من رجال الدولة ولا من رجال الدين . وكان معظم العاملين فيه ممثلين جوالين ، يقيمون طواراً فى حقول خال من الزرع ، ويمثلون ما يشاءون أمام النظارة القرويين الواقفين فى العراء . وكان الحكام الصينيون يستخدمون الممثلين أحياناً لإقامة حفلات تمثيلية خاصة فى أثناء المآدات ، كما كانت النقابات أحياناً تمثل بعض المسرحيات . وزاد عدد دور التمثيل فى أثناء القرن التاسع عشر الميلادى ، ولكنها رغم هذه الزيادة لم يكن منها فى مدينة نانكنج الكبيرة أكثر من دارين (٧٦) ؛ وكانت المسرحية الصينية مزيجاً من التاريخ والشعر والموسيقى ، وكانت حبكتها عادة تدور حول حادثة تاريخية روائية ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تمثل مشاهد من مسرحيات مختلفة فى ليلة واحدة ؛ ولم يكن لزمان التمثيل حد محدود . فتارة يكون قصيراً وتارة يدوم عدة أيام ، لكنه فى أكثر الأحيان كان يمتد نحو ست ساعات أو سبع . وهو الزمن الذى تستغرقه أحسن المسرحيات الأمريكية فى هذه الأيام .

وكان يتخلل المسرحيات كثير من التفاخر والخطب الرنانة ، وكثير من العنف فى الأقوال والأعمال ، ولكن واضع المسرحية كان يبذل غاية جهده ليجعل خاتمها انتصاراً للفضيلة على الرذيلة ؛ ومن أجل ذلك أصبحت المسرحية الصينية أداة للتعليم والإصلاح الأخلاقى ، تعلم الشعب شيئاً من تاريخه ، وتفرس

فى نفوس أفرادہ الفضائل الكنفوشية — وأھما كلها بر الأبناء بالآباء
وكانت تعمل لذلك باطراد ودأب أفسدا علیها غایتها .

وقلما كان المسرح یزین بالمناظر أو الأثاث ، ولم یكن له مخرج للممثلین ،
فكان هؤلاء جمیعاً سواء منهم أصحاب الأدوار و غیر أصحابها ، یجلسون على المسرح
طوال وقت التمثیل ، ویقفون إذا ما جاء دورهم ؛ وكان یحدث فی بعض الأحيان
أن یقدم الخدم الشای لهم وهم جالسون ؛ وكان غیرهم من الخدم یطوفون بین
النظارة بیعونهم الدخان والشای والمرطبات ، ویقدمون لهم القطائل لیسحوا بها
وجوھهم فی لیلای الصیف ؛ وكانوا یشربون ویأكلون ویتحدثون حتی تستلفت
أنظارهم قطعة من التمثیل جمیلة أو عالیة الصوت ؛ وكثیراً ما كان الممثلون یضطرون
إلى الصراخ بأعلى أصواتهم لكي یسمعهم النظارة ، وكانوا فی أغلب الأحيان
یلبسون أقنعة على وجوھهم حتی یسهل على النظارة فھم أدوارهم .

ولما حرم تشین لونج على النساء أن یتھرون على المسرح كان الرجال یمثلون
أدوار النساء ، وقد مثلوها تمثیلاً بلغ من إتقانه أن النساء حین سمح لهن فی آیامنا
ھذه بالظھور على المسرح من جدید كان لا بد لهن أن یعملن حاہدات على تقلید
مقلدھن حتی یضمن النجاح . وكان لا بد لممثلین أن یتقنوا الرقص والألعاب
البهلوانية ، لأن أدوارهم كثیراً ما كانت تتطلب مھم المھارة فی تحریك أعضائهم ،
ولأن كل حركة من حركات التمثیل كانت تؤدى طبقاً لقواعد من الرشاقة معیمة
منسجمة مع النغمات الموسیقیة التي تعزف فی خلال التمثیل ؛ وكانت حركات
الیدین تستخدم رمزاً لكثیر من الأعمال ، كما كانت تصحب الكثیر من
الأقوال ، وكان لا بد أن تكون ھذه الحركات دقیقة متقنة مع العرف والتقالید
القديمة ؛ وكان فن تحریك الیدین والجسم عند بعض كبار الممثلین أشباه
ما ی لانیج — فانیج یؤلف نصف ما فی المسرحیة من شعر .

وقصارى القول أن التمثیلیة لم تكن كلها رواية مسرحیة ، ولم تكن كلها

مسرحية غنائية ، ولم تكن في أكثر أدوارها مرقصة ، بل كانت منبجاً من هذا كله تكاد تشبه في صفاتها مسرحيات العصور الوسطى في أوروبا ، ولكنها كاملة في نوعها كمال الموسيقى البليستريفائية Palestrina أو الزجاج المصبوغ^(٣٩) .

وقلما كانت الموسيقى فنا قائماً بذاته عند الصينيين بل كانت تابعة للدين والمسرح ، وكانت الرواية التاريخية تعزى منشأها كما كانت تعزى منشأ كثير غيرها من الفنون إلى الإمبراطور الأسطوري فوشى . وقد احتوى إلى — جى أو « كتاب المراسم » الذى يرجع عهده إلى ما قبل كنفوشىوس عدة رسائل في الموسيقى وأسماء عدة رسائل فيها ، كما احتوى الدزو — جوان الذى كتب بعد عائة عام من أيام كنفوشىوس وصفاً بليغاً للموسيقى التى كانت تصحب غناء قصائد يه . وما أن حل عهد كويج فو — دزه حتى كان الشلم الموسيقى الصينى قد ثبت وتقادم عهده ، وحتى كانت البدع التى أخذت تتسرب إليه تقض مضاجع الهادئين المحافظين ، وحتى أخذ هذا الحكيم يضحج بالشكوى من الأنعام الداعرة الشهوانية التى بدأت في أيامه تحل محل أنعام الماضى المتفقة في رأيه مع الفضائل وكرم الأخلاق^(٤٠) .

ثم شرع النفوذ اليونانى البكترى والنفوذ المغولى يتسربان إلى الموسيقى الصينية حتى تركا آثارهما في السلم الموسيقى الصينى المعروف ببساطته .

وقد عرف الصينيون تقسيم البعد السكلى في الموسيقى إلى اتنى عشر نصفاً من أنصاف النغمات ؛ ولكنهم كانوا يؤثرون كتابة موسيقاهم في سلم خماسى يطابق على وجه التقريب نغماتنا F.G.A.D.C وكانوا يطلقون على هذه النغمات الكاملة أسماء « الإمبراطور » و « رئيس الوزراء » و « الرعية » و « شئون الدولة » و « صورة السكون » . وكانوا يفهمون التوافق في الألحان ، ولكنهم قلما كانوا يعنون به إلا إذا أرادوا ضبط آلاتهم الموسيقية . وكانت هذه الآلات تشمل من آلات النفخ الفاي والبوق والمزمار والصفارة ، ومن الآلات الوترية^١

الكان الأوسط والمزهر وغيرها ، ومن آلات الدق الدفوف والطبول والأجراس والصنوج . وكانت لهم ألواح موسيقية من الشب والعقيق^(٨١) . وكانت الفغات التي تنبعث من هذه الآلات عجيبة مزعجة لأذن المستمع الغربى ، كما تبدو ، فى ظننا ، أحسن الأغاني الغربية عجيبة مزعجة للمستمع الصينى . ولكن هذه الفغات هى التي أثرت فى نفس كنفوشيوس فامتنع عن أكل اللحم ، وأصبح رجلاً نباتياً ، وهى التي جعلت كثيراً من مستمعيها يفرون من منازعات الحياة واختلاف الأفكار والإرادات ، وهو الفرار الذى لا يكون إلا نتيجة الاستسلام إلى الموسيقى الشجية .

ومن أقوال هان يوفى هذا : « لقد علم الحكماء الإنسان الموسيقى لكي يقشعوا ما فى نفسه من حزن وغم »^(٨٢) وكانوا يؤمنون بقول نثشه : « لولا الموسيقى لكانت الحياة عبثاً لا خير فيه » .

الباب الخامس والعشرون

عصر الفنانين

الفضل الأول

النهضة في عهد أسرة سونج

١ - استراكية وانج آنه - شى

أسرة سونج - رئيس وزراء متطرف - طريقته في
علاج التمثل - تنظيم الصناعة - قوانين الأحور
والأثمنان - تأمين التجارة - مشروعات الدولة للتأمين
من التمثل والفقر والشيخوخة - المناصب العامة بالامتحان
هرمية وانج آن - شى

لم تنق أسرة تانج من هزيمتها على يد آن لو - شان وثورته . فقد عجز
الاباطرة الذين خلفوا منتج هوانج عن إعادة سلطان الإمبراطور إلى سابق عهده
في أجزاء الإمبراطورية المختلفة ، ثم انقضى عهد تلك الأسرة بعد مائة عام من وهن
الشيخوخة ، وجاءت بعدها خمس أسر لم يطل عهدها مجتمعة أكثر من ثلاث
وخمسين سنة ، ولكنها بلا استثناء بلغت من الضعف ما بلغت من قصر الأجل .
وكانت البلاد في حاجة إلى يد قوية قاسية لتعيد إليها النظام شأن الدول كلها في
مثل هذه الأحوال . وهذا ما حدث فعلا ، فقد خرج جنبدى مقدم من غمار هذه
الفوضى وأسس أسرة سونج واستولى على العرش وتسمى باسم تاي - دزو ،
وأعاد الحكومة إلى ما كانت عليه من البيروقراطية في أيام كنفوشيوس ، كما أعاد
طريقة تقلد المناصب الحكومية بالامتحانات العامة ، وحاول أن يحل مشاكل
استغلال الفقراء بوضع نظام للإشراف على حياة الأمة الاقتصادية لا يكاد يختلف

عن النظام الاشتراكي في شيء ، ومستعينا في هذا الحل بمستشار إمبراطوري خاص يشرف على هذه الشؤون .

وبعد وانج آن — شى (١٠٢١ — ١٠٨٦) من الشخصيات الفذة التي تبعث الحياة والروح في تاريخ الصين الطويل ؛ وقد خلد التاريخ ذكره رغم هذا الطول ، وإن شخصيته تبدو لنا ناصعة فذة رغم ما بين بلادنا وبلاده من تناء . ذلك أن من مساوئ هذا التناى أن يجعل انفصالنا الطويل عن مسرح الحوادث الأجنبية يطمس معالم الاختلاف في الأماكن وفي أحوال الناس ، ويخفى ما بين الشخصيات الشديدة الاختلاف من فروق ، ويخلع عليها كلها غشاوة من وحدة المظهر والصفات تجعلها كلها كامدة كليلة . لكن وانج شذ عن هذه القاعدة ، فقد كان حتى في رأى أعدائه — وإن كثرتهم في حد ذاتها لدليل على جلال شأنه — رجلا يختلف عن سائر الرجال ، وهب حياته لإقامة نظام صالح لحكم البلاد ، وعمل مخلصاً لرفاهية شعبه ، غير مهبال بما يصيبه في سبيل هذا العمل من نصب أو أذى ، لا يدخر في ذلك جهداً ، ولا يترك لنفسه من الوقت ما يعنى فيه بشخصه أو بلبسه ، ولا يقل عن كبار العلماء في أيامه علماً وبراعة في الأسلوب ، يحارب في شجاعة جنونية الطائفة الجامدة المتحفظة الغنية صاحبة السلطان القوى في أيامه . وتشاء المصادفات أن يكون الشخص العظيم الوحيد الذى يشبهه في تاريخ بلاده هو سمييه وانج مانج الذى عاش قبله بنحو ألف عام — أى أن مجرى التاريخ صاحب المضطرب قد سار ألف عام كاملة منذ الوقت الذى أجريت فيه أول تجربة بارزة لتحقيق المبادئ الاشتراكية .

وما كاد وانج آن — شى يتولى أكبر منصب في مقدور الإمبراطور أن يولييه إياه ، حتى وضع ذلك البدأ العام وهو أن الحكومة يجب أن تكون مسئولة عن رفاهية جميع سكان البلاد . ومن أقواله في هذا : « يجب أن تسيطر الدولة على جميع شؤون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها بنفسها ، وأن يكون الهدف

الذى ترمى إليه من وراء ذلك غوث الطبقات العاملة ، وأن تحول بينها وبين أن يذلها الأغنياء ويطحنوها طحن الرخى »^(١) . وقد بدأ عمله بإلغاء نظام للسخرة الذى ظلت الحكومة الصينية تفرضه على الصينيين من أقدم العهود ، فكانت تأخذ الناس بمقتضاه من الحقول حين تكون أعمال الزرع أو الحصاد فى أشد الحاجة إليهم ؛ ومع هذا فإنه أقام أعمالاً هندسية عظيمة لوقاية البلاد من غوائل الفيضان ...

ومن أعماله أنه أنقذ الزراع من المرابين الذين كانوا يستعبدونهم ، وأقرضهم أموالاً بفوائد كانت تعد وقتئذ قليلة ليستعينوا بها على زرع أراضيهم ، وأمدّ الفلاحين بالبذور من غير ثمن ، ومنجهم من الأموال ما يعينهم على بناء مساكنهم على شريطة أن يردوا هذه الأموال إلى الدولة من غلات أراضيهم . وأنشأ لجاناً فى كل مركز من المراكز لتحديد أجور العمال وأثمان ضرورات الحياة . وأندأتم التجارة فكانت الحكومة تبتاع محصول كل إقليم من أقاليم البلاد ، وتخزن بعضه فى الإقليم ذاته اتقاء للطوارئ المحلية ، ثم تنقل ما بقى منه ليباع فى مستودعات أقامتها الدولة فى سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم إنه وضع نظاماً لميزانية الدولة ، فعين لجنة للميزانية تعرض عليه مقترحاتها وما تقدره من النفقات لكل مصلحة حكومية ، وكانت الحكومة تتمسك بهذه التقديرات فى إدارة أعمال الدولة ، فاقترضت بذلك كثيراً مما كان يقسب قبل من الأموال إلى الجيوب الواسعة الخلفية التى تعترض طريق كل درهم حكوى . يضاف إلى هذا كله أنه خصص معاشات للشيوخ والمعتلين والفقراء ، وأصلح أساليب التعليم والامتحانات العامة ، وابتكر ضرباً من الاختبارات ليعرف بها مقدار ما يعلمه الطلاب من الحقائق لا من الألفاظ ، ويستبدل بعناية الناس بالأسلوب الأدبى عنايتهم بتطبيق مبادئ كنفوشيوس على الواجبات العامة والأعمال اليومية . وقلل من اهتمام الممين بالشكليات وبالحفظ عن ظهر قلب ، وقد أتى على البلاد حين من الدهر

ألقى فيه « التلاميذ أنفسهم » ، كما يقول أحد المؤرخين الصينيين ، « في مدارس القرى بكتب البلاغة وأخذوا يدرسون الكتب المبسطة في التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسى » (٢) .

ترى لم أخفقت هذه التجربة النبيلة ؟ لعل من الأسباب الأولى لإخفاقها أن فيها عناصر عملية أكثر منها مثالية . وأولى هذه العناصر أنه وإن كان معظم الضرائب يجبي من الأغنياء — وذلك يتفق مع المبادئ الاشتراكية التى كان يسير عليها وانج آن — شى — ، فإن الدولة كانت تحصل على جزء من المال الذى كانت تحتاج إليه لمواجهة نفقاتها الكثيرة المتنوعة باستيلائها على حزم من محاصيل كل حقل من الحقول ، وسرعان ما انضم الفقراء إلى الأغنياء فى الشكوى من قبح الضرائب ، لأن الناس فى جميع الأوقات أكثر استعداداً للمطالبة بإلقاء الأعمال على كاهل الحكومة منهم لأداء ما يلزمها من الأموال للقيام بها .

يضاف إلى هذا أن وانج آن — شى أنقص الجيش العامل لأنه يستنزف جزءاً كبيراً من موارد البلاد ، ولكنه استعاض عنه بإصدار قانون عام يفرض على كل أسرة فيها من الذكور أكثر من فرد واحد أن تقدم من أبنائها جندياً فى وقت الحرب . وأهدى الرجل إلى كثير من الأسر خيلاً وعلفها لها ، ولكنه اشترط عليها أن تعنى بالخليل العناية الواجبة ، وأن تقدمها إلى الحكومة إذا احتاجت إليها فى الأعمال العسكرية . فلما أن تبين الناس أن الغزوات والثورات أخذت تزيد من مطالب الحكومة العسكرية فقدَ وانج آن — شى فى أسرع وقت مكانة بين الشعب وحبه إياه . وفوق هذا كله فإنه قد وجد من العسير عليه أن يعثر على الرجال الإشراف الأمناء ليعهد إليهم بالأعمال التى شرع فى تنفيذها ، وما لبث الفساد أن استشرى فى جميع نواحي الإدارة البيروقراطية الضخمة ، ووجدت الصين نفسها — كما وجدت نفسها أم أخرى كثيرة من

بعد — سرغمة على أن تختار بين اثنتين ككلاهما شر من الأخرى ، فإما الاتهاب
الفردى وإما الفساد الحكومى .

وقام المحافظون بزعماء أخى وأنج نفسه والمؤوخ زوما كوانج ينددون بهذه
التجربة الحكومية ويظهرون فسادها ؛ ويقولون إن الفساد والعجز المتأصلين فى
الطبيعة البشرية يجعلان إشراف الحكومة على الصناعات مستحيلا ، وإن خير
النظم الحكومية هو النظام الذى يدع الأمور تجرى فى مجراها ، والذى يعتمد على
الدوافع الاقتصادية الطبيعية التى تحمل الناس على إنتاج السلع وأداء الخدمات .
واستخدم الأغنياء الذين آذاهم ما فرض على أموالهم من ضرائب باهظة واحتكار
الحكومة للتجارة ، استخدم هؤلاء ما لهم من ثروة وقوة فى العمل على الخط من
شأن الذلم التى وضعها وأنج آن — شى ومقاومة تنفيذها ، والقضاء عليها . وزاد
ضغط هذه المعارضة المنظمة أحسن تنظيم على الإمبراطور . وحدث أن تعاقبت
على البلاد عدة سنين من الجذب وفيضان الأنهار ، اختتمت بظهور مذهب فى
السماء ، فلم ير ابن السماء نفسه بدأ من إقصاء وأنج عن منصبه ، وإلغاء القوانين
التي أثار غضب الشعب ، ورفع أعداء وأنج إلى مفاصل الحكم ، وعادت
الأمور مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل (٣) .

٢ — إحياء العلوم

ازدياد عدد العلماء — الورق والخبر فى الصين — خطوات فى
سبيل اختراع الطباعة — أقدم كتاب معروف — العملة الورقية —
الحروف المتنقلة — مجموعات الرسائل ، ومعاجم اللغة والموسوعات

لقد كانت حياة الشعب الصينى فى هذه الأثناء تجرى فى مجراها العادى
خلال جميع ضروب التجارب والذلم الإدارية ، لا تضطرب ولا تؤثر فيها
الحادثات التى كانت لبعدها لا تصل إلى مسامعه ، إلا بعد أن تمر وتنقضى بزمان
طويل . لقد زال حكم آل سونج فى شمالى البلاد ولكنه عاد من جديد فى جنوبها

وانتقلت العاصمة من بيان ليانج (وهى الآن كايبنج) إلى لين — آن (هانج تشاو الآن) .

وبدت مظاهر العز والنعمة في العاصمة الجديدة كما كانت في العاصمة القديمة ، وأقبل التجار من كل فج 'يبتاعوا منتجات الصناعة الصينية والفن الصينى . وضرب الإمبراطور هوى دزونج نفسه (١١٠١ - ٢٥) لشعبه أروع الأمثال في بيان — ليانج بأن كان فناناً قبل أن يكون حاكماً ، فكان في الوقت الذى يهاجم فيه البرابرة عاصمة مملكته يشغل برسم الصور الفنية . وقد أنشأ مجمعا للفن بعث النشاط في الفنون بما كان يعرض فيه من روائعها وما يقدقه على الفنانين من جوائز جعلت الفنون أكبر مفاخر أسرة سونج وأجدرها بتخليد ذكرها في سجلات الحضارة الإنسانية .

وقد حوت المتاحف وقتئذ مجموعات موحية من النقوش الفنية على البرنز وأحجار اليشب ومن الصور الزيتية والمخطوطات ؛ وأنشئت في البلاد دور الكتب التى بقى بعضها بعد أن زالت أمجاد الحروب ، وكانت كلتا العاصمتين الشمالية والجنوبية كعبة يحج إليها العلماء والفنانون .

وفي أيام هذه الأسرة دخلت الطباعة البلاد فأحدثت في حياة الصين الأدبية ثورة كاملة وإن لم يدرك الناس مداها وقتئذ ، وكان هذا الفن قد نما شيئاً فشيئاً في خلال القرون الطوال حتى بلغ أوجه في أيام تلك الأسرة ، فأتى مرحلتيه الكبيرتين إذ صنعت الألواح المحفورة لتطبع عليها صفحات كاملة ، وصُغت الحروف المنككة المفردة ، من المعادن المجموعة في قوالب . وكان هذا الاختراع الصينى الخالص^(٤) أعظم اختراع في تاريخ الجنس البشرى بعد الكتابة .

وكانت الخطوة الأولى في هذا الاختراع العظيم هى كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل منها على الحرير أو الغاب الذين قنع بهما الصينيون . ذلك أن الحرير غالى الثمن والغاب ثقيل ، وقد احتاج مودى و برائه إلى ثلاث

عربات نقل يحمل عليها معه الكتب المدونة على شرائح الغاب التي كانت أئمن ما يملك من متاع الدنيا .

وكان شي هوانج — دى يضطر إلى مراجعة مائة وعشرين رطلا من الوثائق الحكومية في كل يوم^(٥) . فلما كان عام ١٠٥ ب . م أبلغ رجل يدعى تساو لى لون الإمبراطور أنه اخترع مادة للكتابة عليها أقل من الغاب ثمناً وأخف منه وزناً مصنوعة من لحاء الشجر والقنب الهندي والخرق وشباك السمك . وعين الإمبراطور تساو لى لون هذا في منصب كبير ، ومنحه لقباً رفيعاً ، ولكنه تورط مع الإمبراطورة في بعض الدسائس ، وافتضح أمره « فذهب إلى منزله ، واغتسل ومشط شعره ، ولبس أحسن ثيابه ، وتجرع السم »^(٦) . وسرعان ما انتشرت الصناعة الجديدة انتشاراً واسع النطاق ؛ وشاهد ذلك أن أقدم ما لدينا من الورق هو ما وجده سير أورل اشتين Sir Aurel Stein في طائف من السور الكبير ، وهو مجموعة من الوثائق الرسمية دوت فيها حوادث وقعت فيما بين عامي ٢١، ١٣٧ بعد الميلاد ، وأكبر الغلن أنها كانت معاصرة لآخر الحوادث التي دوت عليها . ولهذا فإن عهدا يرجع إلى حوالي عام ١٥٠ م أى بعد خمسين عاماً لا أكثر من الوقت الذي أبلغ فيه تساو لى لون الإمبراطور نبأ اختراعه^(٧) . وكان هذا الورق القديم يصنع من الخرق البالية دون غيرها من المواد ، فهو من هذه الناحية شبيه بما يصنع في هذه الأيام من ورق يحتاج فيه إلى طول البقاء . واستطاع الصينيون أن يرتقوا بصناعة الورق إلى أعلى درجة وذلك باستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجلاتين مخلوطة بمجينة نشوة ليقووا بها الألياف ، ويجعلوا الورق سريع الاتصاف للحبر . ولما أن أخذ العرب عن الصينيين هذه الصناعة في القرن الثامن الميلادي ، ثم أخذتها أوروبا عن العرب في القرن الثالث عشر ، كانت قد بلغت غاية الكمال .

وكان اختراع الحبر أيضاً في بلاد الشرق . نعم إن المصريين قد صنعوا الورق

والخبر في العهد الذي نستطيع أن نسميه أقدم العهود ، ولكن الصين هي التي أخذت عنها أوربا طريقة خلط الخبر بسنّاج المصاييح . ولقد كان « الخبر الهندي » صيني الأصل . وكذلك كان الخبر الأحمر المصنوع من كبريتور الزئبق شائع الاستعمال في الصين من أيام أسرة هان . فلما ظهر الخبر الأسود في القرن الرابع الميلادي أصبح استعمال الخبر الأحمر ميزة خاصة بالأباطرة . وكان اختراع الخبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة ، لأنه كان أصح المواد للاستعمال في القوالب الخشبية ، ويمتاز بأن الكتابة به لا تكاد تمحى مطلقاً فلقد وجدت أكداس من الورق في آسية الوسطى ظلت تحت الماء حتى عطفت ولكن ما عليها من الكتابة ظل واضحاً تستطاع قراءته^(٩) .

وكان استخدام الأختام في مهر الأوراق هو البداية غير المقصودة التي نشأت عنها الطباعة . ولا يزال اللفظ الصيني الذي يطلق على الطباعة هو نفسه الذي يطلق على الخاتم . وكانت الأختام الصينية تطبع في بادئ الأمر على الطين كما كانت تطبع عليه في بلاد الشرق الأدنى ، ثم أخذوا في القرن الخامس الميلادي يُنَدِّونها بالخبر . وفي هذه الأثناء كانت أمهات الكتب الصينية القديمة تحفر على الحجر في القرن الثاني بعد الميلاد . وسرعان ما نشأت بعدئذ عادة استخراج صور من هذه النقوش المحفورة بعد طلائها بالخبر . وفي القرن السادس نجد الدّوّيين يستعملون أختاماً من الخشب لطبع الرق السحرية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت أخذ البشرون للبوذيين يحرقون التجارب بقصد استخراج عدة نسخ مطبوعة باستخدام أختام وألواح وورق نضاح وطباعة على المنسوجات ، وقد أخذوا هذا النوع الأخير عن الهنود . وأقدم ما وصل إلينا من الطباعة على لوح محفور ألف ألف رقية سحرية طبعت في اليابان حوالى عام ٧٧٠ م مكتوبة باللغة السنسكريتية وبحروف صينية ، فهي بذلك مثل طيب لتفاعل الحضارات في بلاد آسية . وطبعت أشياء أخرى كثيرة من القوالب (الكليشيات) في أيام أسرة تانج ، ولكن يلوح

أنها قد تلفت أو فقدت في أثناء الفوضى والقلال التي أعقبت عهد منج هوانج^(١٠).
وحدث في عام ١٩٠٧ أن استطاع سير أورل اشتين أن يقنع السكينة الدويين في بلاد التركستان بأن يسمحوا له بفحص « كهوف الألف بوذا » التي في تون — هوانج . فلما تم له ذلك عثر في حجرة منها — يلوح أنها قد سد مدخلها حوالى عام ١٠٣٥ ولم تفتح بعدئذ إلا في عام ١٩٠٠ — على ١١٣٠ إضمامة من الأوراق تستمل كل منها على نحو اثني عشر ملفاً مخطوطاً أو أكثر من اثني عشر ، تتكون منها كلها مكتبة من خمسة عشر ألف كتاب ، مكتوب على الورق ، قد حفظت بعناية فبقيت في حالة جيدة كأنها لم تكتب إلا قبل العثور عليها بيوم واحد . وهذه المخطوطات هي التي عثر من بينها على أقدم كتاب مطبوع في العالم — كتاب « الحكم الماسية » — وهو ملف يختم بالعبارة الآنية « طبعه في (اليوم المقابل لليوم) الحادى عشر من شهر مايو سنة ٨٦٨ وانج — چيه ، ليوزع بغير ثمن تخليداً لذكرى والديه وإجلالهما » . ووجدت بين هذه المخطوطات ثلاثة كتب أخرى مطبوعة ، يدل واحد منها على تطور جديد في شكل الكتب . ذلك أنه لم يكن ملفاً ككتاب « الحكم الماسية » . كان كتاباً صغيراً مطوياً هو أول ما عرف من هذا النوع من الكتب التي لا يحصى عديدها .

وقد كان الباعث الأول على اختراع الطباعة في بلاد الصين باعثاً دينياً ، كما كانت الحالة في أوروبا في العصور الوسطى المتأخرة ، وكما هي الحال بين بعض الشعوب البدائية في الوقت الحاضر . ذلك أن الأديان في ذلك الزمن القديم كانت تسعى لنشر عقائدها من طريق العين ومن طريق الأذن معاً ، ولجعل صلواتها ورقاها وأفاصيصها في متناول كل إنسان . وتكاد أوراق اللعب تعادل هذه المطبوعات الدينية في قدم العهد — فقد ظهرت هذه الأوراق في الصين في عام ٩٦٩ أو قبل ذلك العام بقليل ، ثم انتقلت من الصين إلى أوروبا في أواخر القرن الرابع عشر^(١٢) .

وقد طبعت الكتب الأولى على قوالب خشبية ، وأول ما وصل إلينا من نبأ عن هذا العمل ما ورد في رسالة صينية كتبت حوالى ٨٧٠ م فقد جاء فيها : « حدث وأنا في سشوان أن فخصت في حانوت وراق ككتاباً مدرسياً مطبوعاً عن أصل خشبي »^(١٣) . ولوح أن فن الطباعة كان قد تقدم تقدماً كبيراً في الوقت الذي عثر فيه على هذا الخطاب . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا التقدم حدث أولاً في الولايات الغربية مثل سشوان والتركتان ، وهى الولايات التى دفعها في تيار المدنية المبشرون البوذيون الذين جاءوا من الهند والذين كانت لهم من عهد بعيد ثقافة خاصة مستقلة عن ثقافة العواصم الشرقية . ثم دخلت طريقة الطبع بالقوالب إلى الولايات الشرقية في أوائل القرن العاشر حين أقنع فينج - دو أحد رؤساء الوزارات الإمبراطور أن يخصص بعض المال لطبع أمهات الكتب الصينية القديمة . وتطلب القيام بهذا العمل عشرين عاماً ، وكان مقدار ما طبع منها مائة وثلاثين مجلداً ، وذلك لأن المطبوع لم يكن مقصوراً على نصوص هذه الكتب بل شمل أيضاً أشهر شروحاتها . ولما أن تم طبع هذه الكتب انتشرت في البلاد انتشاراً واسعاً كان سبباً في إحياء المعارف القديمة وتقوية دعائم العقائد الكنفوشية في عهد الملوك من أسرة سونج .

وكان صنع الأوراق النقدية من أقدم ما أخرجته الطباعة بالقوالب . وقد ظهرت هذه الأوراق أولاً في سشوان في القرن العاشر الميلادى ثم أصبحت عملاً هاماً من أعمال الحكومة الصينية ؛ ولم يكدهمضى على اختراعها قرن من الزمان حتى أدت إلى تجارب في التضخم المالى ، واتبعت بلاد الفرس في عام ١٢٩٤ م هذه الطريقة الجديدة من طرق خلق الثروة . وقد وصف ماركو پولو في عام ١٢٩٧ في دهشة بالغة ما يظهره الصينيون من تقدير لهذه اللقصاصات من الورق . أما أوروبا فلم تعرف للنقود الورقية إلا في عام ١٦٥٦ حين أصدرت أولى عملتها منها^(١٤) .

كذلك كانت حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من اختراع الصينيين ،
ولسكن عدم وجود حروف هجائية محددة محصورة من جهة ، ووجود نحو ٤٠٠٠٠
من العلامات في اللغة الصينية المكتوبة من جهة أخرى ، جعل استعمال هذا
الاختراع ترفاً يتعذر الانتفاع به في بلاد الشرق الأقصى . وقد صنع بي شنج
حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من الخرف في عام ١٠٤١ م ، ولكن هذا
الاختراع لم ينتفع به إلا قليلا . وفي عام ١٤٠٣ صنع أهل كوريا أول ما عرف
في التاريخ من حروف الطباعة المعدنية ؛ وكانت طريقة صنعها أن تحفر الحروف
أولا على الخشب الصلب ، ثم تصنع لهذه النماذج قوالب من عجينة الخزف تجفف
في الأفران ، ثم تصب فيها الحروف المعدنية بعدئذ . وسرعان ما استخدم تاي
دزويج أعظم أباطرة كوريا هذا الاختراع لتستعين به الحكومة في أعمالها ،
وللاحتفاظ بالحضارة القائمة . ومن أقوال هذا الملك المستنير : « من شاء أن
يحكم فعليه أن يكون ذا علم واسع بالقوانين والآداب القديمة ؛ ذلك بأنه إذا
عرف هذه القوانين والآداب استطاع أن يكون عادلا مستقيما في أعماله الخارجية
وأمكنه أن يكون بينه وبين نفسه ذا خلق كزيم ؛ وبهذا ينشر السلام والنظام
في البلاد . وإذا كانت بلادنا الشرقية تقع وراء البحار ، فإن الكتب التي
تصلنا من بلاد الصين قليلة العدد ، وكثيراً ما تكون الكتب المطبوعة على
القوالب ناقصة .

« هذا إلى أنه يتعذر طبع كل ما لدينا من الكتب كاملة . ولهذا أمر أن
يصنع الحروف من البرنز ، وأن يطبع كل ما تستطيع يداي أن تصل إليه بلا
استثناء حتى ينتقل ما تحتويه هذه الكتب إلى أحفادنا من بعدنا ، وتلك نعمة
من أجل النعم التي تعود على البلاد إلى أبد الدهر . على أن نفقات هذا العمل
الجليل لن تفرض ضرائب على الشعب ، بل سأحملها أنا وأسرتي ومن يريد
أن يسهم فيها من الوزراء »^(١٥)

وانتشرت حروف الطباعة المفردة المتنقلة من كوريا إلى اليابان ثم عادت بعدئذ إلى الصين ، ولكن يظهر أنها لم تعد إليها إلا بعد اختراع جوتنبرج Gutenberg الضئيل في أوروبا . واستمر الكوريون يستخدمون حروف الطباعة المتنقلة قرنين كاملين ثم عفا عليها الزمان . أما في الصين فإن هذه الحروف لم تكن تستخدم إلا في أوقات متفرقة ، حتى نقل التجار والمبشرون أساليب الطباعة الغربية إلى بلاد الشرق ، كمن يعيد هدية قديمة إلى مهيديها . وظل الصينيون من أيام فنج دو إلى أيام لي هويج — چانج مستمسكين بطريق الطباعة على القوالب لأنهم كانوا يرونها أكثر الطرق ملائمة لقتهم . واستطاعت المطابع الصينية رغم هذا القصور أن تغمر الشعب بما لا يحصى من الكتب ، فأصدرت فيما بين عامي ٩٩٤ ، ١٠٦٣ م مئات من المجلدات في تواريخ الأسر الحاكمة ، كما أتمت في عام ٩٧٢ إصدار قوانين الشريعة البوذية في خمسة آلاف مجلد^(١٦) . ذلك أن الكتاب وجدوا في يدهم سلاحا لم يكن لهم به عهد من قبل ، وكثر عدد من يقرءون كتبهم فلم يعد مقصوراً على أعيان البلاد ، بل شمل الأعيان والطبقة الوسطى على السواء ، وشمل كذلك بعض أفراد الطبقة الدنيا نفسها . واصطفى الأدب بصيغة أكثر ديمقراطية وأكثر تباينا مما كان عليه من قبل . وجملة القول أن فن الطباعة بالقوالب كان من أسباب النهضة العلمية في عهد أسرة سونج . وكان من نتائج هذا الاختراع الجيد أن غمر البلاد فيض من الأدب لم يكن له مثيل من قبل ، وأن عمت البلاد نهضة في الآداب الإنسانية شملت كل ما شملته النهضة في إيطاليا وسبققتها بمائتي عام كاملة . وطبعت من الآثار الأدبية القديمة نحو مائة طبعة ، كما طبعت لها شروح وتعليقات تباع الألف عدداً . وأجاد المؤرخون العلماء دراسة الحياة الصينية في الأيام الخالية ، ووضعوها بين أيدي ملايين القراء مطبوعة بحروف الطباعة الجديدة العجيبة . ونشرت مجموعات كبيرة من الأعمال الأدبية ، ووضعت معاجم لغوية واسعة ، وألفت موسوعات ضخمة

جبارة انتشرت في طول البلاد وعرضها ، وكانت أولى ماصدر من الموسوعات ذات الشأن هي الموسوعة التي أصدرها ووشو (٩٤٧ — ١٠٠٢) ؛ وقد حالت الصعاب الناشئة من عدم وجود حروف هجائية سهلة دون إصدارها مرتبة ترتيباً هجائياً ، فاضطر إلى تقسيمها حسب الموضوعات . وكان أهم ما احتوته من المعلومات ما يتصل منها بالعالم المادى .

وفي عام ٩٧٧ أمر الإاطور تاي دزونج أحد أباطرة أسرة سونج أن تجمع موسوعة أخرى أوسع من الأولى ، بلغت مجلداتها اثنين وثمانين مجلداً ، معظمها مختارات من ١٦٩٠ كتاباً كانت موجودة قبل ذلك الوقت . ثم وضعت موسوعة أخرى فيما بعد في عهد الإمبراطور يونج لو من أباطرة أسرة منج (١٤٠٣ — ١٤٢٥) ، وبلغت مجلداتها عشرة آلاف ، ولكن كثرة النفقات حالت دون طبعها . وحدث في فتنة الملاكين التي قامت في عام ١٩٠٠ أن احترقت النسخة الوحيدة التي أورثها ذلك العهد الأجيال التالية فلم يبق منها إلا مائة وستون مجلداً^(١٧) . إن التاريخ لم يشهد قبل تلك الأيام عهداً سيطر فيه العلماء على الحضارة كما سيطروا عليها في ذلك العهد .

٣ — بعث الفلاسفة

چو - شى - وانج يانج - منج - ما وراء الخير والشر

لم يكن هؤلاء العلماء كلهم من أتباع كنفوشيوس ، ذلك أن مدارس فكرية منافسة لمدرسته قد نشأت في خلال القرون الخمسة عشر الحالية ، وحدثت في الحياة العقلية لهذا الشعب الخصب حركات قوية أثارت لديه أعنف الجدل حول هذه الآراء والآراء المناهضة لها . ولم تقف المبادئ البوذية التي تسربت إلى نفوس الصينيين عند عامة الشعب وطبقاته الوسطى ، بل وصلت إلى الفلاسفة أنفسهم ، فأثر معظمهم الآن طريقة العرلة والتأمل ، وبلغ من بعضهم أن احتقروا

كنفوشيوس لاحتقاره فلسفه ما وراء الطبيعة ، وتبذوا الطريقة التى كان يتبعها فى معالجة مشاكل الحياة والعقل ، وعابوا عليها أنها طريقة خارجية فجأة إلى حد كبير . وأضحى طريقة التأمل الذاتى هى الطريقة المستحبة فى دراسة الكون والكشف عن خفاياه ، وظهرت لأول مرة نظرية فلسفة المعرفة بين الصينيين ، وصار الأباطرة يتخذون الفلسفة البوذية أو الدويّة وسيلة يتحبّبون بها إلى الشعب أو يسيطرون بها عليه ، ولاحقاً فى وقت من الأوقات أن ساطان كنفوشيوس على العقلية الصينية قد انقضى عهده إلى غير رجعة .

لكن جوشى أبجاء من هذا المصير . وكما أن شنكارا فد طعم الفلسفة العقلية التى سادت الهند خلال القرن الثامن الميلادى بما كان للأبانيساد أحياناً من فراسة وبعّد نظر ؛ وكما أن أكويناس Aquinas فى أوربا قد مزج فى القرن الثالث عشر مبادئ أرسطو والقديس بولس فأخرج منها الفلسفة الكلامية التى كانت لها الغلبة والسيادة خلال العصور الوسطى ، كذلك فعل جوشى فى الصين فى القرن الثانى عشر ، إذ أخذ حكم كنفوشيوس المتفرقة غير المتناسكة ، وأقام منها طريقة فلسفية بلغت من النظام حدّاً أراضى ذوق هذا العصر الذى ساد فيه العلماء ، وبلغت من القوة درجة جعلت أتباع كنفوشيوس يتزعّمون الحياة السياسية والعقلية فى الصين طوال سبعة قرون

وكان أهم ما نأر حوله الجدل الفلسفى فى ذلك الوقت معنى فقرة فى كتاب العلم العظيم يعزوها كل من جوشى ومعارضيه إلى كنفوشيوس (*) ، فكان المتجادلون يتساءلون : ما معنى هذا المطلب المجيب القائل بأن نظام الدول يجب أن يقوم على تنظيم أحوال الأسرة ، وأن يقوم تنظيم الأسرة على تهذيب الإنسان لنفسه ، وأن تهذيب النفس يقف على الإخلاص فى التفكير ، وأن الإخلاص فى

(*) أورديا نص هذه الفقرة كاملاً فى ص ٥٥

التفكير ينشأ من « انتشار المعرفة إلى أبعد حد » وذلك عن طريق « البحث عن حقائق الأشياء ؟ » .

وكان جواب چوشى عن ذلك أن هذه الفقرة تعنى بالضبط ما يفهم من ألفاظها ؛ تعنى أن الفلسفة والأخلاق وسياسة الحكم يجب أن تبدأ كلها بدراسة الحقائق دراسة متواضعة . وكان يقبل بلا معارضة أو مناقشة النزعة الإيجابية التى اتصف بها عقل المعلم الأكبر ؛ ومع أنه كان يجهد نفسه فى دراسة علم أصول الكائنات الحية دراسة أطول مما كان يرتضيه كنفوشيوس لو أنه كان حياً ، فقد أوصله هذا الدرس إلى أن يمزج الإلحاد بالتقوى مزجاً غريباً لعله كان يعجب حكيم شانتونج . وكان چوشى يعترف بوجود شىء من الاثنينية المتناقضة فى الحقائق الواقعية كما كان يعترف بها كتاب النغبرات الذى كانت له على الدوام السيطرة على علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين ؛ فهو يرى أن الياج والين — أى الفاعلية والإنفعالية ، أو الحركة والسكون — يمتزجان فى كل مكان امتزاج المذكورة والأنوثة ، وبوثران فى العناصر الخمسة الأساسية : الماء والنار والتراب والمعادن والخشب ليوجد منها ظواهر الخلق ؛ وأن الى والچى — أى النازون والمادة — وكلاهما عنصر خارجى ، يتعاونان معاً للتحكم فى جميع الأشياء وإكسابها صورها ولكن من فوق هذه الصور شىء يجمعها ويؤلف بينها ، وهو التاي چى — أى الحقيقة المطلقة أو قانون القوانين غير البشرى ، أو بناء العالم . وكان چوشى يقول : إن هذه الحقيقة المطلقة هى التين أو السماء الذى تقول به الكنفوشية الصادقة . وكان يرى أن الله هو عملية عقلية فى الكون منزهة عن الشخصية أو الصور المحسوسة ، وأن « الطبيعة إن هى إلا القانون »^(١٨)

ويقول چو إن قانون الكون السالف الذكر هو أيضاً قانون الأخلاق والسياسة . فالأخلاق الفاضلة هى الانسجام مع قوانين الطبيعة ، وخير أنواع السياسة هو تطبيق قوانين الأخلاق على أعمال الدولة ، والطبيعة فى كل معانيها

تنتهى إلى الخير ، وطبيعة الناس خيرة ، واتباع سنن الطبيعة هو سر الحكمة والسلام . « وقد أبى جواماوشو أن يقتلع الأعشاب التي كانت أمام نافذة بيته وقال إن ما يدفعها إلى النماء هو بعينه الذى يدفعنى » ^(١٩) . ولربما ظن القارىء من هذه الأقوال أن جوشى كان يرى أن الغرائز هي الأحرى طيبة صالحة وأن على الإنسان أن يطلق لها السنان ولكنه لم ير هذا بل كان يندد بها ويقول إنها هي المظهر الخارجى للعادة « جى » وبطالبا بإخضاعها لحكم العقل والقانون « لى » ^(٢٠) . وقد يكون فى هذا شيء من التناقض ولكن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالماً أخلاقياً ومنطقياً معاً .

لقد كان فى هذه الفلسفة كثير من التناقض ، ولكن هذا التناقض رغم كثرتة لم يثر ثائرة كبير معارضيه وهو وانج يانج — منج صاحب الشخصية الظريفة الفذة . ذلك أن وانج لم يكن فيلسوفاً حسب بل كان إلى جانب ذلك قديساً تملكته زعة التأمل التي اتصفت بها البوذية المهايانية ^(*) ، وسرت عاداتها إلى أعماق نفسه . وقد بداه أن غلطة جوشى الأساسية ليست فيما يقوله عن الأخلاق بل فى طريقته ، ولقد كان يرى أن البحث عن حقائق الأشياء يجب ألا يبدأ بدراسة العالم الخارجى بل بما هو أعمق من هذا العالم وأكثر منه إظهاراً للحقائق وهو دراسة النفس الداخلية كما يقول الهنود . ذلك أن العلوم الطبيعية فى بلاد العالم كلها إذا اجتمعت لا تستطيع أن تفسر حقيقة غصن خيزران أو حبة أرز ، وفى هذا يقول :

قلت لصديق تشين فى السنين الخالية : « إذا كان لا بد للإنسان أن يبحث كل ما تحت قبة السماء لكي يكون حكماً أو إنساناً فاضلاً ، فكيف يستطيع إنسان فى الوقت الحاضر أن يستحوذ على هذه القدرة العظيمة ؟ » ثم أشرت إلى أعواد الخيزران التي أمام خيمتى وطلبت إليه أن يفحص عنها ويرى

(*) نسبة إلى مهابانا وهي سر من البوذية . (المترجم)

نتيجة فحصه . فواصل تشين نهاره بليله يبحث في عناصر الخيزران ، وأضنى عقله وتفكيره بهذا البحث ثلاثة أيام كاملة ، حتى نصب معين جهوده العقلية وسُمّ العمل . وظننت في بادئ الأمر أن منشأ عجزه أن جهوده وقواه لم تكن كافية لهذا العمل ، فأخذت أنا على عاقي أن أقوم بهذا البحث ، وقضيت فيه ليلى ونهارى ولكنى عجزت عن فهم كنهه الخيزران . وبعد أن واصلت العمل سبعة أيام انتابنى المرض أنا أيضاً من فرط ما أجهدت نفسى وفكرى ؛ فلما التقينا بعدئذ قال كلاماً لصاحبه فى حسرة : « إنا لا نستطيع أن نكون حكيمين أو فاضلين » (٢١) .

ومن أجل هذا تخلى وانج يانج — مفج عن بحث طبيعة الأشياء ، بل تخلى أيضاً عن دراسة أمهات الكتب القديمة ، فقد بدا له أن قراءة الإنسان قلبه وعقله وتأملهما فى عزلته يهيئان له من أسباب الحكمة أكثر مما تهيئه له دراسة جميع الكتب والأشياء المادية » (٢٢) . ولما نفى إلى برية جبلية يسكنها أقوام همج وتنتشر فيها الأفاعى السامة اتخذ له من المجرمين الذين فروا إلى هذه الأصقاع أصدقاء وأتباعاً ، وعلمهم الفلسفة وطهى لهم طعامهم وأنشد لهم الأناشيد . وفى ذات مرة ، بينما هو قائم بالحراسة فى منتصف الليل ، قفز من كوخه على حين غفلة وصاح قائلاً : « لا شك فى أن طبيعتى وحدها كافية . ولقد أخطأت حين أخذت أبحث عن المبادئ فى الأشياء المادية وفى شئون الخلق » . ولم يكن رفاقه واثقين من أنهم يدركون ما يرمى إليه ؛ ولكنه لم يلبث أن أرشدهم إلى الغاية المثالية التى كان يرمى إليها فقال : « إن العقل نفسه ليفطوى على القانون الطبيعى ، وهل فى السكون شيء يوجد مستقلاً عن العقل ؟ وهل ثمة قانون لا صلة له بالعقل ؟ » (٢٣) ولم يستدل من هذا على أن الله من تصوير الخيال ، بل كان يعتقد أنه قوة أخلاقية غامضة ولكنها قادرة على كل شيء ، وأنها أعظم من أن تكون إنساناً وأنها قادرة على أن تحس بالعطف والغضب على الخلق (٢٤) .

ومن هذه البداية المثالية وصل إلى المبادئ الأخلاقية التي وصل إليها جوشي والفاثلة إن الطبيعة هي الخير الأسمى ، وإن الفضيلة الكبرى إنما تكون بإطاعة قوانين الطبيعة والعمل بها كاملة^(٢٥) . ولما قيل له إن في الطبيعة أفاعى كما فيها فلاسفة أجاب إجابة فيها أثر من فلسفة أكويناس واسپنوزا Spinoza ونتشة فقال إن « الخير » و « الشر » إن هما إلا رأيان مبتسران ولفظان تسمى بهما الأشياء حسب ما فيها من نفع أو أذى للفرد أو لبنى الإنسان . وكان يعلم أتباعه أن الطبيعة نفسها فوق الخير والشر وأنها لا تعرف ما نطلقه نحن عليها من أسماء مبعثها الأنانية . وقد نقل عنه أحد تلاميذه ، أو لعله وضع من عنده ، حواراً كان في مقدوره أن يعنونه : ما وراء الخير والشر

ثم قال بعد ذلك بقليل : « إن منشأ هذه النظرة إلى الخير والشر في الجسم نفسه وأكبر الظن أنها نظرة خاطئة » . ولم أستطع فهم هذا فقال المعلم : « إن الغرض الذى تهدف إليه السماء من وراء عملية الخلق ليتمثل في الأزهار والحشائش، فهل لدينا طريقة نفرق بها بينهما فنقول إن هذه خير وتلك شر ؟ فإن كنت أنت أيها الطالب يسرك أن ترى الأزهار قلت إن الأزهار حسنة والحشائش رديئة ، أما إن كنت ترغب فى أن تنفع بالحشائش فإنك ترى فيها الخير كل الخير ؛ وهذا النوع من الخير أو الشر إنما ينشأ مما هو كامن فى عقلك من حب هذا الشيء أو كرهه ، ومن هذا أعرف أنك مخطئ » .

فقلت له : « وفى هذه الحال لا يكون ثمة خير أو شر ، فهل هذا صحيح ؟ » فأجاب المعلم : « إن الاطمئنان الناشئ من سيطرة القانون الطبيعى لهو حالة لا يفرق فيها بين الخير والشر ، على حين أن استثارة الطبيعة العاطفية هى الحالة التى يوجد فيها الخير والشر كلاهما . فإذا لم تثر تلك الطبيعة العاطفية لم يكن ثمة خير أو شر ، وهذا هو الذى يطلق عليه اسم الخير الأسمى ... »

فقلت : « وإذن فالخير والشر لا يوجدان قط في الأشياء نفسها ؟ » فقال :
« إنهما لا يوجدان إلا في عقلك » .

لقد كان من الخير أن يضرب وانح وأن تضرب البوذية على هذه النعمة ،
نعمة ما وراء الطبيعة المثالية ، في أبهاء الكنفوشيين الصادقين والمتأقين ؛ ونقول
للمتأقين لأن هؤلاء العلماء كانوا مفتونين بعض الافتتان بحكمتهم ، وأنهم أخذوا
يؤلفون فيما بينهم ببروقراطية ذهنية متعبدة مملدة معادية لكل روح مبدعة معرضة
للخطأ ، وإن كانت نظرهم إلى الطبيعة البشرية وإلى الأداة الحكومية أصدق
ما تصورته الفلسفة من نظريات ، وأكثرها عدالة . وإذا كان أتباع چوشى قد
كتب لهم النصر على معارضهم في آخر الأمر ، وإذا كانت اللوحة التذكارية
التي نقش عليها اسمه قد حظيت بشرف وضعها في البهو الذى وضعت فيه لوحة
المعلم نفسه (كنفوشىوس) ، وإذا كان شرحه لأهميات الكتب الصينية قد
أصبح هو القانون الذى يرجع إليه كل تفكير سليم مدى سبعمائة عام ، إذا كان
هذا وذاك قد حدث فإن حدوثه كان نصراً مؤزراً للعقلية السليمة البسيطة غير
المعقدة على التحذلق المزعج الذى كان يعتمد إليه أصحاب العقول الميتافيزيقية .
ولكن الأمة كالفرد قد تفرط في الحساسية ، وقد تكون عاقلة رزينة فوق
ما يجب ، وقد تسرف في الاستمسك بالحق والصواب إسرافاً لا يطاق . ولقد كان
انتصار چوشى والكنفوشية هذا الانتصار الكامل من الأسباب التى جعلت
ثورة الصين ضرورية لا بد منها .

الفصل الثاني

البرنز والأكّ واليشب

منزلة الفن في الصين - المسوحات - الأثاث - الحلى - المراوح - صنع
الك - قطع حجر اليشب - روائع فنية في البرنز - النحت الصينى

طلب الحكمة والهيام بالجمال هما قطب العقل الصينى ، وفى استطاعتنا أن نعرّف بلاد الصين بأنها بلاد الفلاسفة والخرف ، وإن لم يكن هذا التعريف جامعاً مانعاً . وكما أن طلب الحكمة لم يكن معناه فى بلاد الصين الجرى وراء أخيلة ميثافيزيقية لا علاقة لها بالحياة ، بل كان فلسفة إيجابية تهدف إلى ترقية الفرد والنظام الاجتماعى ، فكذلك لم يكن عشق الجمال إحساساً به كامناً فى النفس أو هواية خيالية للأشكال الفنية التى لا صلة لها بالشئون الإنسانية ، بل كان تزواجاً أرضياً وثيقاً بين الجمال والمنفعة ، وتصميماً عملياً لتزيين موضوعات الحياة اليومية وأدواتها .

ومن أجل ذلك ظلت الصين ، إلى الوقت الذى أخذت فيه تُخضع مثلها العليا لتأثير الغرب ، تأبى أن تعترف بوحود فرق ما بين الفنان والصانع أو بين هذا وبين العامل العادى . ولقد كانت الصناعات كلها إلا القليل منها من عمل الأيدى البشرية ، وكان كل ما تعمله الأيدى منها حِرَفًا متقنة ؛ وكانت الصناعة كما كان الفن تعبيراً عن شخصية الصانع بالشئ المصنوع ، ولذلك بزت الصين كل ما عداها من البلاد فى الذوق الفنى وفى كثرة ما لديها من الأدوات الجميلة التى تستخدمها فى حياتها اليومية ، وإن لم تمد أهلها عن طريق الصناعات الكبيرة بالسلع التى تنعم بها كثرة الناس فى البلاد الغربية . فقد كان الصينى المتوسط الثراء يتطلب أن يكون كل ما يحيط به ، من الحروف التى يكتب بها إلى

الصحاف التي يأكل فيها ، مما يشبع حاسة الجمال ، وأن يدل بشكله وصنعه على الحضارة الفاضحة الذي هو رمز لها وقطعة منها .

وباعت هذه الحركة التي ترمى إلى تجميل الجسم والمعبد والمسكن غايتها في عهد أسرة سويج . لقد كانت هذه الحركة عندهم أمن عناصر الحياة في عصر أسرة تانج ، وكان من شأنها أن تستمر وتنشر في عهد الأسر التي أعقبتها ؛ ولكن عهد

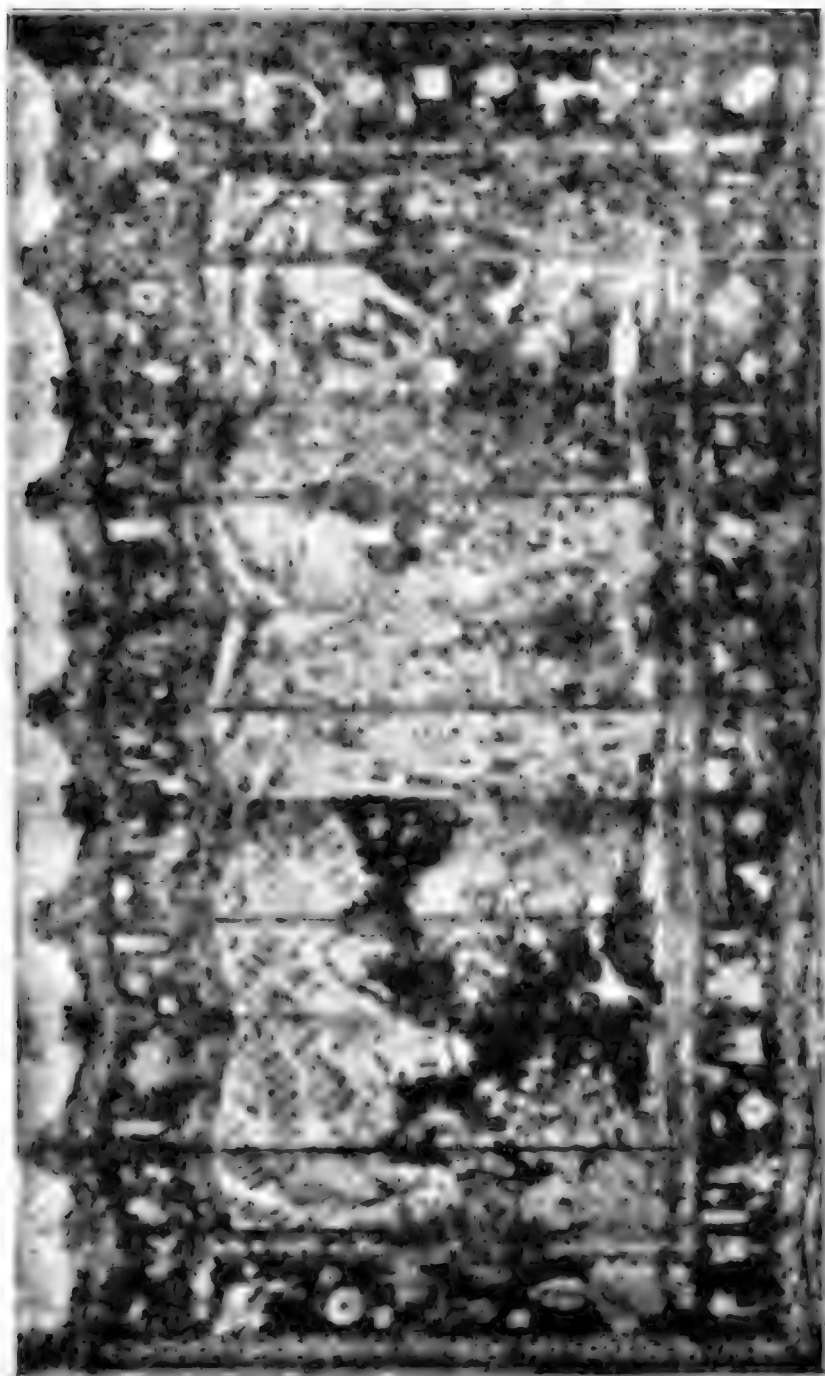


شكل ١ - عتبة البعدي من الك الأزرق

النظام والرخاء الطويل الذى عم البلاد بعد تلك الأسرة قد أمد الفنون كلها بحاجتها من الغذاء ، وخلق على الحياة الصينية جمالا وزينة لم تستمتع عملهما من قبل . وقد بلغ الصناع الصينيون فى صناعة النسيج والمعادن فى عهد أسرة سونج وما بعدها درجة من الإتقان والكمال لم يفقههم فيها أحد قبلهم ، وبزوا جميع منافسيهم فى كافة أنحاء العالم فى قطع الشب وغيره من الأحجار الصلبة ، ولم يتفوق عليهم فى نحت الخشب والنقش على العاج إلا من أخذوا عنهم هذه الصناعة من اليابانيين^(٢٧) . لقد كان أثاث المنازل يصنع على أشكال متعددة مختلفة ، فذة فى صورتها ولكنها غير مريحة لصاحبها ؛ وكان صناع الأثاث ، الذين تكفيهم حرفة من الأرز يوما كاملا ، يخرجون منه تحفة فنية صغيرة إثر تحفة . وكان الفنان ذو اليد الصناع الذى يخرج هذه الروائع الفنية الدقيقة يزين بها داره يتخذها بديلا من الأثاث الغالى الثمن ومن أسباب المتعة المنزلية ، وكانت تبعث فى نفس مالكها بهجة لا يدركها فى بلاد الغرب إلا الخبراء الإخصائيون . أما الحلى فلم تكن موفرة العدد ولكنها كانت بدبعة القطع ، وكان الرجال والنساء يبردون وجوههم بمراوح مزخرفة من الريش والخيزران ، أو الورق أو الحرير الملون ، بل إن المتسولين أنفسهم لم تكن تنقصهم المراوح الجميلة وهم يمارسون حرقهم التليدة .

وشأ فن الطلاء باللك فى الصين ، وبلغ ذروة الكمال فى اليابان . واللك فى بلاد الشرق الأقصى نتاج طبيعى لشجرة^(*) أصلها من أشجار الصين ، ولكنها الآن تزرع بكثرة فى بلاد اليابان ، ويؤخذ عصيرها من جذعها وغصونها ، ثم

(*) اسمها العلمى *Ria Vernicifere* . واللك مشتقة من الأصل الفرنسى لكر ومعناه اللقى ، والكلمة الفرنسية نفسها مشتقة من الكلمة اللاتينية *Lac* ومعناها اللين . واللّقى التى اخترناها لترجمة كلمة *Resin* الإنجليزية معناها كما ورد فى القاموس : « شئ يسقط من شجر السمر وما رق من العلوك حتى يسيل » . (المترجم)



شكل ٢ - ستار كاذب شئ المثل بالك

يصفى ويفلى ليزول منه ما لا حاجة لهم به من السوائل ، ويطلّى به الخشب الرقيق كما يطلّى به المعدن والخزف فى بعض الأحيان ، ثم يجفف بتعريضه للرطوبة^(٢٨) . ويتكوّن الطلاء من طبقات تتراوح بين عشرين وثلاثين طبقة يبدل فى تخفيف كل واحدة منها وصقلها جهد عظيم وعناية بالغة ، وتختلف كل طبقة عن غيرها فى لونها وسمكها . وبنقش الصينيون بعدئذ هذه الطبقات بعد تمامها بآلة حادة على شكل (٧) بحيث يصل كل حز إلى الطبقة ذات اللون الذى يتطلبه الشكل المطلوب .

وقد نما هذا الفن على مهل وبدأ فى صورة كتابة على شرائح من الخيزران ؛ وكانت مادة اللك تستخدم فى عهد أسرة چو لتزيين الأواني والسروج والعربات وما إليها . ثم استخدم فى القرن الثانى بعد الميلاد لطلاء الأبنية والآلات الموسيقية ؛ وفى عهد أسرة تانج أصدرت الصين كثيراً من الأدوات المطلية باللك إلى اليابان . ولما تولت الملك أسرة تانج كانت كل فروع صناعة اللك قد ازدهرت وتحددت أشكالها ، وكانت ترسل منتجاتها بجرأ إلى الثغور النائية كـثغور الهند وبلاد العرب . ولما ولى الملك أباطرة أسرة منج خطا الفن خطوة أخرى فى طريق السكال ، وبلغ فى بعض نواحيه ذروته^(٢٩) . فلما جالس على العرش الإمبراطوران المستنيران كانج - شى ، وتشين لونج من أباطرة المانشو صدرت الأوامر الإمبراطورية بتسييد المصانع والإنفاق عليها من مال الدولة ، فأخرجت من روائع الفن أمثال عرش تشين لونج^(٣٠) والستر الذى أهدها كانج - شى إلى ليو پولد الأول إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية^(٣١) . واحتفظ هذا الفن بتلك الدرجة الرفيعة حتى القرن التاسع عشر ، فكانت الحرب التى أوقد نارها النجار الأوربيون وما للمستوردين والعملاء الأوربيين من أدواق منحطة كانت هذه وتلك سبباً فى حبس معونة الأباطرة عنه فتدهور مستواه واحطت رسومه ، وانتقلت زعامته إلى اليابان .

أما صناعة اليشب فهي قديمة قدم التاريخ الصيني نفسه ، وشاهد ذلك أن آثارها وجدت في أقدم القبور . وتعزو أقدم السجلات أول استخدامه « حجر سمع » إلى عام ٢٥٠٠ ق . م وذلك أن حجر اليشب كان يقطع على صورة سمكة أو نحوها تعلق في إيسار ؛ فإذا ما أجيد قطع الحجر وتعليقه خرجت منه أنغام موسيقية واضحة جميلة تدوم مدى مدهشاً في طوله . والاسم الإنجليزى لهذا الحجر Jade مشتق من اللفظ الأسباني Ijada (المأخوذ عن اللفظ اللاتينى Ilia) عن طريق اللفظ الفرنسى Jade ومعناه الحقو . ولما فتح الأسبان أمريكا وجد الفاتحون أهل المكسيك الأقدمين يأتون بهذا الحجر مسحوقاً ومعجوناً بالماء ليعالجوا به كثيراً من الأمراض الباطنية ، فلما عادوا إلى أوربا حملوا معهم هذا العلاج هو والذهب الأمريكى إلى بلادهم . أما الاسم الصينى لهذا الحجر فهو أليق به من الاسم الأوروبى وأكثر مطابقة للمعقول . فلفظ چون الذى يطلق عليه معناه لين كالأندام^(٢٢) ، ويتركب حجر اليشب من معدنى الجاديت والتفريت ، والأول يتكون من سليكات الألومنيوم والصوديوم ويتكون الثانى من السليسيوم والمغنيزيوم . وكلا المعدنين صلب قاس يحتاج تهشيم البوصة المكعبة منه إلى ضغط خمسين طناً فى بعض الأحيان . وتكسر القطع الكبيرة منه عادة بتعرضها إلى الحرارة الشديدة ثم إلى الماء البارد على التعاقب .

وفى وسع الإنسان أن يدرك حذق الفنان الصينى من قدرته على إظهار ألوان براقة خضراء وسمرراء وسوداء وبيضاء من هذا الحجر العديم اللون بطبيعته ، ومن صبره الطويل ومثابرته ، حتى يخرج منه أشكالاً مختلفة لا عداد لها ، حتى لا يكاد الإنسان يحد بين مجموعات اليشب التى فى العالم كله قطعتين متماثلتين ، اللهم إلا أضرار الملابس .

وكان أول ما عثر عليه من مصنوعات يشبية فى عهد أسرة شانج فى صورة ضفدعة تستخدم قرباناً مقدساً^(٢٣) ، وصنعت منه أدوات غاية فى الجمال فى أيام

كنفوشيوس^(٣٤) . وبينما كان الناس في غير الصين يتخذون من الشب فؤوساً ، ومدى وأوانى ، فإن الصينيين كانوا يعظمون هذا الحجر تعظيماً حملهم على ألا يستخدموه إلا في التحف الفنية الجميلة ، إذا استثنينا بعض القطع الفادرة القليلة العدد . وكان عندهم أئمن من الفضة والذهب والحلى على اختلاف أنواعها^(٣٥) .

وكانوا يقدرّون بعض مصنوعات الشب الصغيرة كخواتم الإبهام التي يتحلى بها كبار الحكام الصينيين بما يقرب من خمسة آلاف ريال ، ويقدرّون بعض القلائد الشببية مائة ألف ريال . وكان المعنيون بجمع القطع الفادرة منه يقصّون السنين الطوال في البحث عن قطعة واحدة ، ويقال إن ما يوجد في الصين من التحف الشببية إذا جمعت في مكان واحد تكونت منها مجموعة لاتماثلها مجموعة من أية تحف صنعت من مادة أخرى في جميع أنحاء العالم^(٣٦) .

ولا يكاد البرنز يقل قدماً عن الشب في الفن الصيني ، وهو يفوقه مقاماً وتقديراً عند الصينيين . وتروى الأفاصيص الصينية أن الإمبراطور يو ، أحد أباطرة الصين الأقدمين وبطل الطوفان الصيني ، تلقى المعادن التي بعثت بها إليه الولايات التسع الخاضعة لحكمه ، وهي الخراج المفروض عليها ، ثم صبها كلها وصنع منها ثلاثة فدور لسكل منها تسع أرحل ، لها من القوة السحرية ما تستطيع به أن تدفع المؤثرات البغيضة ، وتجعل ما يوضع فيها من المواد يغلى بغير نار ، ويخرج منها كل ما لذ وطاب من الطعام والشراب .

ثم أصبحت هذه الفدور الرمز المقدس للسلطة الإمبراطورية . وتوارثتها الأسر واحدة بعد واحدة ، فكانت كل منها تتلقاها بعناية فائقة من التي قبلها ، ولكنها اختفت بطريقة مجهولة عامضة بعد سقوط أسرة جيو ، وهي حادثة كان لها أسوأ الأثر في منزلة شى هوانج — دى . ثم أصبح صب البرونز ونقشه فناً من الفنون الجميلة الصينية ، وأخرجت منه البلاد مجموعات نطلب حصر أسمائها وتصنيفها اثنين وأربعين مجلداً^(٣٧) . وكان يصنع منه أوانى للحفلات الدينية التي

تقييمها الحكومة أو يقيمها الأفراد في منازلهم ، وقد أحال آلافاً من أنواع الأواني المنزلية إلى تحف فنية . وليس في العالم كله ما يضاهى مصنوعات الصين البرنزية إلا ما صنع منه في إيطاليا في عهد النهضة الأوروبية ، ولعلها لا يضاهيها من هذه المصنوعات إلا « أبواب الجنة » التي وضع تصميمها غبرتي Ghiberti ليزين بها موضع التعميد في فلورنس .

وأقدم ما لدينا من القطع البرنزية الصينية أواني قربانية كشفت حديثاً في هونان ؛ ويرجمها العلماء الصينيون إلى عهد أسرة شانج^(٣٨) ، ولكن الخبراء الأوروبيين يرجعونها إلى عهد متأخر عن ذلك الوقت وإن كانوا لا يحددونه تحديداً مضبوطاً . وأقدم الآثار المعروفة تاريخياً هي التي ترجع إلى عهد أسرة چو ومن أروعها كلها مجموعة آنية الحفلات المحفوظة في المتحف الفنى بنيويورك . وقد استولى شى هوانج — دى على معظم ما كان لدى أسرة چو من آنية برنزية لثلاث بصرها الأهليون ليتخذوا منها أسلحة . وصنع مما تجمع له من هذا المعدن اثني عشر تمثالاً ضخماً يبلغ ارتفاع كل منها خمسين قدماً^(٣٨) ، ولكن هذه التماثيل كلها لم تبق منها قدم واحدة . وقد صنعت في عهد أسرة هان كثير من الآنية الجميلة طعمت أحياناً بالذهب .

وليس أدل على رقى هذا الفن في الصين من أن الفنانين الذين دربو في تلك البلاد هم الذين صنعوا عدداً من التحف التي تعد من روائع الفن ، والتي زين بها هيكل هريو چى في مدينة نارا اليابانية . وأجملها كلها ثلاثة تماثيل لأميذا — بوذا تصورها جالسة على أسرة في صورته رهرة الأزورد^(٣٩) ؛ وهي أجمل ما وجد من التحف في تاريخ صناعة البرنز في العالم أجمع^(*) . ووصل فن البرنز إلى ذروة مجده أيام أسرة سونج ، وإذا كانت التحف التي صنعت منه لم ترق إلى ذروة الكمال فإنها قد بلغت الغاية في كثرة عددها وتباين أشكالها ؛ فقد صنعت منه قدور

(*) انظر الفصل السابع من الباب الثلاثين في تاريخ اليابان .

ودنان، خمر ، وآنية ، ومباخر ، وأسلحة ، ومرايا ، ونواقيس ، وطبول.



شكل ٣ تمثال من البرنز لجوان - ين من عصر سوي
محموطة في متحف نيويورك

ومزهريات ؛ وكانت الآنية المنقوشة ولتماثيل الصغيرة تملأ الرفوف في دور خبراء الفن وهوائه ، وتجد لها مكانا في كل بيت من بيوت الصينيين .

ومن أجمل النماذج الباقية من أيام أسرة سونج مبخرة في صورة جاموس البحر ، وقد ركب عليها لو -- دزه وهو هادي مطمئن ليبت هذا قدرة الفلسفة على إخضاع الوحوش الكاسرة^(١٠) ، ولا يندسمك جدران المبخرة على سمك الورق ، وقد اكتسبت على مر الزمان قشرة أو طبقة خضراء مبرقة خلعت عليها جمال القدم^(*) ، ثم انحط هذا الفن انحطاطا تدريجيا بطيئا في عهد أسرة منج ، فزاد حجم التحف وقلت جودتها ، وأصبح البرنز ، الذي كان مقصورا على صنع آيات الفن في عهد الإمبراطور يو ، فنا عاما تصنع منه الآنية العادية التي تستخدم في الأغراض اليومية ، وتحلى عن مكائنه الأولى للخزف .

ولم يكن النحت من الفنون الكبرى ، ولا من الفنون الجميلة ، عند الصينيين^(١١) . وسبب هذا أن تواضع الشرق الأقصى قد أوى عليه أن يتخذ الجسم البشري نموذجا من نماذج الجمال . ولهذا فإن الذين اتخذوا صناعة التماثيل البشرية حرفة لهم وحووا قليلا من عنايتهم إلى تمثيل ما على الأجسام من ملابس ، واستخدموا تماثيل الرجال — وقاما استخدموا تماثيل النساء — لدراسة بعض أنواع الإحساسات أو لتصويرها ؛ ولكنهم لم يجدوا الأجسام البشرية . ومن أحل ذلك ترام في الغالب قد قصروا تصوير الأناسى على تماثيل القديسين البوذيين والحكام الدويين ، وأغفلوا تصوير الرياضيين والسراري من كانوا وكن مصدر الإلهام للفنانين من اليونان .

(*) الكلمة الإنجليزية Patina أى القشرة مشتقة من كلمة لاتينية معناه طاق وتستعمل للدلالة على الطبقة التي تتكون من انحلال السطح المعدني المعرض لרטوبة الجو . ومن عادة هذه الأيام أن يكون من عوامل تآكل قيمة التحف البرنزية ما يعيشها من طبقة خضراء أو سوداء تكونت عليها من مر الزمان ، أو من الأحماض التي تستخدم في تقليد الروائع الفنية القديمة .

وكان المثالون الصينيون يفصلون تمثيل الحيوانات على تمثيل الفلاسفة والحكماء أنفسهم .

وأقدم ما نعرفه من التماثيل الصينية التماثيل الإثنا عشر الضخمة المصنوعة من البرنز ، والتي أقامها شي هواي — دى . وقد صهرها فيما بعد أحد الحكام من أسرة هان ليتخذ منها « فكة » (*) برنزية . وبقي من أيام أسرة هان عدد قليل من التماثيل البرنزية ، ولكن كل ما صنع منها في ذلك العهد إلا قلة ضئيلة قضت عليه الحرب أو قضى عليه الإهمال الطويل الأمد . والتماثيل البشرية قايلة أيضاً في هذه القلة الباقية ، والأثر الهام الوحيد الباقي من أيام أسرة هان نقش بارز من نقوش القبور ، عثر عليه في شانتونج . وصور الآدميين قليلة نادرة في هذا النقش أيضاً ، وأهم ما يشغل رقبته صور حيوانات بارزة رقيقة . وأقرب من هذا النقش إلى صناعة الفحت التماثيل الجنائزية الصغيرة المتخذة من الصلصان — وأكثرها يمثل حيوانات ومنها قلة تمثل حدمًا أو زوجات — وكانت تدفن مع لموتى من الذكور عوضاً عن الأزواج والخدم الأحياء . وقد بقيت من هذا العهد تماثيل مستقلة لحيوانات منها تمثال رخامي لتمر كله عصابات يمثل القطة أدق تمثيل ، وكان يتولى حراسة معبد اسنيانج — فو^(٤٢) ؛ ومنها الدببة المزججة التي تشتمل عليها الآن مجموعة جاردنر Gardner في مدينة بوسطن Boston ، ومنها الآساد المجنحة المصابة بتضخم الغدة الدرقية والتي وجدت في مقابر ناسكنج^(٤٣) . وكل هذه الحيوانات والخيول المزهوة الممثلة في نقوش القبور البارزة السالفة الذكر تشهد بما كان للفن اليوناني البكتري والفن الأشوري والسكودي من أثر في الفن الصيني ؛ وليس فيها شيء منميزات الفن الصيني الخالص^(٤٤) .

وفي هذه الأثناء كانت الصين قد بدأت تتأثر بشيء آخر هو أثر الدين

(*) لم نر في هذه الأمة ما يمنعنا من استعمال هذا اللفظ معناه المعروف بـ « الفكة » والافكناك هو الفصل والتمكك عدم التماسك (المبرحم)

والفن البوذيين ، وقد استوطن هذا الفن البوذي في أول الأمر التركستان ، وأقام فيها صرح حضارة كشف اشتين Stein وپليوت Pelliot في أنقاضها عن أطلان كثيرة من التماثيل المحطمة يضارع بعضها أكثر ما أخرجته الفن الهندي البوذي . واستعمار الصينيون هذه الأشكال البوذية من غير تغيير كبير فيها ، وأخرجوا على غرارها تماثيل لبوذا تضارع في جمالها ما صنع في جندارا أو في الهند . وأقدم هذه التماثيل ما وضع في معابد يون كان الكهفية في شانسي (حوالي ٤٩٠ م) ، ومن أحسنها تماثيل مغارات لونج من هونان ، فقد أقيمت في خارج هذه المغارات عدة تماثيل ضخمة أعجبها كلها تمثال بوذاستوا الجميل ، وأروعها بوذا « فيروشانا » (حوالي ٦٧٤ م) الذي تحطم جزء منه عند قاعدته ، ولكنه لا يزال محتفظا بروعته الموحية الملهمة^(٤٦) . وإلى شرق هذا الإقليم في شانتونج وجد كثير من معابد الكهوف نقشت على جدرانها أساطير على الطريقة الهندية يظهر في أما كن متفرقة منها تماثيل قوى ابوذستوا شبيهة بالتمثال الذي في كهف يون من ، (ويرجع تاريخه إلى حوالي عام ٦٠٠ م)^(٤٧) . واحتفظت أسرة تانج بالتقاليد البوذية في النحت ، وقد بلغ درجة الكمال في تمثال بوذا الجالس (حوالي ٦٣٩ م) الذي عثر عليه في ولاية شينسي Shensi^{(*) (٤٨)} . وأخرجت الأسر التي جاءت من بعدها تماثيل ضخمة من الصلصال تمثل أتباعاً لبوذا الظريف لهم وجوه كالحة كوجوه رجال المال^(**) ، كما أخرجت عدداً من التماثيل الجميلة تمثل كوان — بن إله مهايانا وهو يوشك أن يتحول من إله إلى إله^(٤٩) .

وقد فن النحت إلهامه الديني بعد أسرة تانج ، واصطبغ بصبغة دنيوية تنحط أحياناً إلى صبغة شهوانية ، حتى شكا رجال الأخلاق في ذلك لوقت ، كما شكا رجال الأخلاق في إيطاليا في عصر النهضة ، من أن الفنانين ينحتون

(*) هي مر ولاية شانسي المعروفة

(**) في المصحف الفنني بنيويورك بمدح من هذا الطراز .

للقديسين تماثيل لا تقل رشاقة ورقة عن تماثيل النساء ، فوضع الكهنة البوذيين قواعد للتصوير تحرم تحديد شخصية صاحب الصورة أو إبراز معالم الجسم . ولربما كانت النزعة الأخلاقية القوية عند الصينيين هي التي عاقت تقدم فن النحت . ذلك أنه لما أن فقد الدافع الديني أثره المحرك للقوى في الفن ، ولم يسمح لجاذبية الجمال الجثائي بأن يكون لها شأن فيه ، اضمحل فن النحت في بلاد الصين ، وقضى الدين على ما لم يعد في مقدوره أن يكون له ماها . وما أن اقترب عهد أسرة تانج من نهايته حتى أخذ الابتكار في فن النحت ينضب معينه . وليس لدينا من القطع الفنية الممتازة التي أخرجتها أسرة سونج إلا عدد قليل ؛ أما المغول فقد خصوا الحرب بمجهودهم ؛ وأما أباطرة المانج فقد نبغ في عهدهم بعض المثالين الذين أخرجوا تماثيل غريبة وأخرى ضخمة من الحجارة كالمولات التي تقف أمام مقابر أباطرة المانج . فلما ضيق الدين الخلفاء على فن النحت لفظ أنفاسه الأخيرة ، وأخل ميدان الفن الصيني للخزف والنقش .

الفصل الثالث

المعابد (الپجودا) والقصور

العمارة الصينية - برج نانكج الخزفي - مجودا بيچج البيتسى - هيكل
كنفوشىوس - هيكل السماء ومدبحه - قصور كوبلاى خان -
دنت صيوى - داخل البيت - لوفه وشكله .

كذلك كانت العمارة من الفنون الصغرى فى بلاد الصين ، ولم يكد يترك من
كان فيها من البنايين العظام أثراً لم يخلد ذكرهم ؛ ويلوح أن الشعب لم يكن
يجلهم لإجلاله صنائع الخزف الكبار . والعمائر الضخمة نادرة فى بلاد الصين حتى
ما شيد منها تكريماً للآلهة ، وقلما نجد فيها مباني قديمة ، وليس فيها إلا القليل
من المعابد التى يرجع عهدها إلى ما قبل القرن السادس عشر .

وقد أصدر مهندسو أسرة سونج فى عام ١١٠٣ م ثمانية مجلدات موزعة
بالرسوم الجليظة فى شرح أساليب العمارة ؛ ولكن الآيات الفنية التى صوروها
كانت كلها من الخشب ولم تبق منها قطعة واحدة إلى اليوم . ويستدل من الرسوم
المحفوظة فى المتحف الأهل فى باريس ، والتى يقال إنها تمثل المساكن والهياكل
فى أيام كنفوشىوس ، على أن فن العمارة الصينية قد قنع فى خلال تاريخه الطويل
الذى دام ثلاثة وعشرين قرناً بما كان عليه فى تلك الأيام الخالية من أشكال
وأحجام متواضعة^(٥٠) .

ولعل إحساس الصينيين المرهف فى مسائل الفن والذوق هو الذى حدا بهم
إلى نبذ ما عساه أن يبدو من العمائر خالياً من الاحتشام مفرطاً فى الضخامة ،
أو لعل تفوقهم فى الذكاء قد حد بعض الشيء من مدى خيالهم . ومهما يكن
سبب هذا القصور فإن فن العمارة الصينية قد أضر به كثيراً انعدام ثلاث قوى

لم يخل منها تاريخ أمة عظيمة من الأمم القديمة ، وتلك هي الأرستقراطية الوراثية وطبقة الكهنة القوية^(٥١) والحكومة المركزية الكثيرة المال العظيمة السلطان^(٥٢) ذلك أن هذه القوى هي التي كانت في الأيام الخالية تبدل المال بسخاء لتشجيع الأعمال الفنية العظيمة ، من هياكل وقصور ومسارح ومظلمات ومقابر منقوشة في الصخور. ولقد انفردت الصين من بين الأمم القديمة بأنها لم تبطل بهذه النظم الثلاثة .

غير أن العقيدة البوذية قد استحوذت وقتاً ما على روح الصينيين وعلى ما يكفي من ثروة البلاد لإقامة الهياكل العظيمة التي كشفت بقاياها أخيراً في التركستان^(٥٣) . ولا تزال بعض الهياكل البوذية المتوسطة العظمة والفخامة باقية في أنحاء كثيرة من بلاد الصين ، ولكنهما لم تسم إلى ما سمت إليه العمار الدينية في بلاد الهند . ويصل الإنسان إلى هذه الهياكل بممرات طبيعية جميلة المنظر صاعدة بالتواء فوق منحدرات ذات أبواب منقوشة يسمونها البايو ، ولعلها مأخوذة عن درزين الأضرحة البوذية الهندية .

وتحرس مداخل هذه الهياكل في بعض الأحيان تماثيل بشعة وضعت لتخيف الشياطين الأجنبية فتبعدها عنها بطريقة ما . ومن أجل الأضرحة البوذية الصينية كلها هيكل بوذا النائم بالقرب من القصر الصيفي المشيد خارج بيچنج . ويرى فرجسون Fergusson أنه « أجل ما أخرجه فن العمارة في بلاد الصين »^(٥٤) .

غير أكثر ما يميز الشرق الأقصى في فن العمارة عن سائر الأقطار هو الهياكل (اليجودات) التي تشرف على جميع المدن الصينية تقريباً^(٥٥) . وقد

(*) ولا يزال أصل هذه القصور ومنشأ اسمها الصيني « اليجودات » مثاراً للبحث والجدل العنيد . وقد يكون هذا الاسم مشتقاً من اللفظ الهندي المارسي - كده أي « بت الأصنام » ، وقد يكون شكلها صني المنشأ كما يظن بعض المؤرخين ، أو قد يكون مشتقاً من الشرع الذي كان يشرف على بعض الأضرحة الهندوكية^(٥٥) .

اصطبغت هذه الصروح الجميلة ، كما اصطبغت العقائد البوذية التي ألهمت من شادوها ، ببعض الخرافات الدويّة التي كانت منتشرة في البلاد ، فكانت من أجل ذلك مراكز للاحتفالات الدينية وللتنبؤ بالغيب عن طريق دراسة الشقوق والعروق الأرضية . وكانت الجماعات المختلفة تشيد هذه الهياكل لاعتقادها أنها تبقى الناس غوائل الأعاصير والفيضانات ، وتسترضى الأرواح الشريرة ، وتجذب الرخاء ورغد العيش . وكانت تتخذ عادة شكل أبراج ذات ثمانية أضلاع تشاد من الآجر وترتفع فوق قواعد من الحجارة خمس طبقات أو سبعة أو تسعاً لأن الأعداد الزوجية في اعتقادهم أعداد مشنومة^(٥٦) . وأقدم البجودات التي لا تزال قائمة حتى الآن البجودة القائمة في سونج إيو - سو ، والتي شيدت في عام ٥٢٣م على جبل سونج شان المقدس في هونان . ومن أجملها البجودة الصيفية ، وأروعها منظرًا بجودة اليشب في بيجنجنج و « بجودة المزادة » في وو-واي-شان ، وأوسعها شهرة برج الخزف في نانكنج (نانجنج) وقد شيد في ١٤١٢-١٤٣١ ، ويمتاز بطبقة من الخزف فوق جدرانها المقامة من الآجر . وقد دمر هذا البرج في ثورة تايينج التي استمرت في عام ١٨٥٤ .



شكل ٤ - - القصر الصيفي في بيجنجنج

وأجل الهياكل الصينية هي التي كانت مخصصة للديانة الرسمية في بيجنج (بيكينج). ومن هذه الهياكل هيكل كنفوشيوس ، ويحرسه باي - لو ، نغم محفور أجمل حفر ، ولكن الهيكل نفسه يخلد الفلسفة أكثر مما يخلد الفن . وقد شيد في القرن الثالث عشر الميلادي ثم أدخلت عليه عدة تعديلات وأعيد بناء بعض أجزائه عدة مرات . وقد وضعت « لوحة روح أقدس القديسين للمعلم والألب كنفوشيوس » ، على قاعدة خشبية في مشكاة مفتوحة في الهيكل ، ونقشت العبارة الآتية فوق المذبح الرئيسي : « إلى المعلم الأعظم والمثال الذي تحتذيه عشرة آلاف جيل » . ويقوم بالقرب من سور بيجنج التتاري الجنوبي هيكل



شكل هـ - هيكل السماء في بيجنج

السماء ومذبح السماء . والمذبح مكوّن من سلسلة من الدرج والشرفات الرخامية التي كان لعدددها الكبير ونظامها أثر سحري في نفوس الزائرين . والهيكل نفسه بجودة معدلة من ثلاث طبقات قائمة فوق ربوة من الرخام ومشيدة من الآجر والقرميد الخالبيين من الرونق . وكان الإمبراطور في الأيام الخالية يأتي إلى هذا المكان في الساعة الثالثة من صباح يوم رأس السنة الصينية للصلاة والدعاء لأسرته بالتوفيق والفلاح ولشعبه بالرخاء ، ويقرب القربان للسماء التي يرحو أن تكون في صفه لا في صف أعدائه ، ولم تكن السماء ذكرا أو أنثى عند الصينيين بل كانت جمادا . وقد نزلت صاعقة من السماء على هذا المعبد في عام ١٨٨٩ فأصابته بضرر بليغ^(٥٧) .

وأجمل من هذه الأضرحة الخالية من الرونق والبهاء ، وأكثر منها جاذبية ، القصور المبنية الضعيفة البناء التي كانت مساكن للأمرء وكبار الحكام في بيچنج . ومن أجمل هذه المباني البهو الأكبر ، وقد شاده عند قبر أباطرة منج عباقرّة البنائين الذين جاد بهم عهد الإمبراطور تشنج دزو (١٤٠٣ — ٢٥) ، كما شادوا عددا من المساكن الملكية في بقعة عرفت فيما بعد باسم «المدينة المحرمة» أقيمت في الموضع الذي شاهد فيه ماركو پولو قصر كوبلاي خان قبل ذلك العهد بمائتي عام ، فدهش منه وأعجب به أيما إعجاب ، وتقوم آساد بشعة الحلقة على جانبي الدرزين الرحامي المؤدى إلى الشرفة الرخامية . وقد شيدت في هذا المكان مبان رسمية ، بعضها غرف لعروش الأباطرة وأخرى للاستقبال أو للمآدب وغيرها من حاجات الأباطرة .

وانتشرت حولها البيوت الأنيقة التي كانت تسكنها في الأيام الخالية أسر الأباطرة وأبناؤهم وأقاربهم وخدمهم وأتباعهم وخصيانهم وسرايهم . ولا تكاد هذه القصور تختلف بعضها عن بعض . ففيها كلها العمدة الرفيعة ، والنوافذ المتشابكة الجميلة ، والطنف المنحوتة أو المسطورة ، والألوان الكثيرة الزاهية

والرفارف القوسة المتجهة إلى أعلى المتصلة بالسقف المقرمدة الضخمة . وشبيه بهذه التبع المحرمة على غير هذه الطبقات من الأهلين القصر الصيفي الثاني الذي يبعد عن هذا المكان بضعة أميال ، ولعله أكثر رشاقة وتناسبا وتألقاً في النحت من البيوت التي كانت في يوم ما مساكن للملوك في بيجنج .

وإذا شئنا أن نذكر الخصائص العامة لفن العمارة الصينية في عبارة موجزة قلنا : إن من أول مظاهرها السور المجرد من الجمال الذي يفصل المبنى الرئيسي عن الطريق العام . وهذه الأسوار تمتد في الأحياء الفقيرة من بيت إلى بيت متصلة بعضها ببعض ، وتدل على أن الحياة في هذه الأحياء كانت غير آمنة . ويحيط هذا السور بفناء تفتح فيه أبواب ونوافذ لبيت واحد أو لعدة بيوت . وبيوت الفقراء مساكن كثيفة مظلمة ، ذات مداخل ودهاليز ضيقة وسقف منخفضة ، وأرض من التراب . وفي كثير من الأسر تعيش الخنازير والكلاب والدجاج والرجال والنساء في حجرة واحدة . وتعيش أفقر الأسر في أكواخ من الطين ولقش تغمرها مياه الأمطار وتصفر فيها الرياح ، وإذا كانت الأسر ذات يسار قليل غطت أرض الحجرات بالحصر أو رصفتها بالقرميد . أما الأثرياء فيزينون فناء المنزل الداخلي ببعض الشجيرات والأزهار والبرك ، أو يحيطون قصورهم بالحدائق يفرسون فيها مختلف الأشجار ، ويعرّضون فيها ويلعبون . ولا نرى في هذه الحدائق طرقات تزينها الورود ، وممرات غرست حولها الأزهار ، ومربعات أو دوائر أو مثمّنات من الكلا أو الزهر ؛ بل ترى بدلا منها ماشى ضيقة لا تثبت على حال ، تتلوى في بعض الأحيان مخترقة أخاديد تمر بين الصخور فوق مجار مائية متعرجة بين أشجار اضطرت جذوعها أو أغصانها إلى أن تتخذ لها أشكالا غريبة ترضى عنها النفوس السوفسطائية . وترى في أماكن متفرقة من هذه الحدائق جواسق جميلة تكاد تخفيها الغصون يستريح فيها الجائلون .

وليس البيت نفسه ذا روعة ولو كان قصراً للعظماء ، فهو لا يزيد على طبقة

واحدة، وإذا احتاجت الأمرة إلى أن تزيد حجرات منزلها فإنها تفضل إقامة مبنى جديد على إضافة حجرات للمبنى القديم. ومن ثم فإن القصر العظيم قلما يكون بناء منضم الأجزاء، بل يتكون من عدة مبان تمتد أحدهما في وصف واحد من مدخل القصر إلى السور وإلى جانبها المباني الثانوية التي تقل عن الأولى. شأنًا. وأكثر ما تبني منه المنازل الخشب والآجر، وقلما تعلو الحجارة إلى أكثر من الشرفات التي فوق الأساس.

وكان يقصر استعمال الآجر عادة على الجدران الخارجية، أما السقف فتتخذ من لبنات رقيقة، وأما الأعمدة المزينة والجدران الداخلية فتقام من الخشب. وكانت تعلو الجدران الزاهية الألوان طنق ذات نقوش. وليست الجدران ولا العمدة هي التي تحمل السقف، بل إن هذه الشقف رغم ثقلها تستقر على قوائم تكون جزءًا من الهيكل الخشبي للمنزل. والشقف أهم أجزاء الهيكل أو المنزل الصيني، فهو يبنى من المقرميد المصقول البراق — ذي اللون الأصفر إن كان يظلل رأس الإمبراطور، وإلا فهو أخضر أو أرجواني أو أحمر أو أزرق. وهو يبدو جميلًا وسط ما يحيط به من المناظر الطبيعية، بل إنه ليبدو كذلك حتى في فوضى شوارع المدن، ولربما كانت أعواد الخيزران التي تبرز أطرافها من أعلى الخيام هي التي أقيمت على غرارها في بلاد الشرق الأقصى رفارف السطوح الرشيفة المنحنية إلى أعلى، ولعل أقرب من هذا إلى الظن أن هذا الطراز الكثير الذبوع لم يكن منشؤه إلا رغبة البنائين الصينيين في وقاية البناء كله من مياه الأمطار^(٥٨).

ذلك أن النوافذ ذات المصاريع كانت قليلة في المباني الصينية، وكان يحل محلها الورق الكوري Korean^(*) أو النوافذ ذات القوائم المتقاطعة المتشابكة، وهذه لا تقي الحجرات من الأمطار.

(*) نسة إلى كوريا Korea

ولا يقع مدخل البيت الرئيسى عند طرفه ذى السقف المرمى ، بل يقع عند واجهته الجنوبية . ويقوم فى داخل هذا الباب الكبير عادة ستار أو جدار يحجب نظر الزائر عن رؤية من فى داخل الدار ، ويقف فى طريق الأرواح الخبيثة التى لا تسير إلا فى خطوط مستقيمة ، وردة الدار وحجراتها معتمة لأن ضوء النهار تحجبه النوافذ المتشابكة والظنف البارزة . وبهو المنزل وحجراته مظلمة لأن النوافذ المشبكة والظنف البارزة تحجب عنها ضوء النهار . ولما تجدد فى المنزل وسائل تهوية الغرف ، وليس فيه من وسائل التدفئة إلا الجاسر المتحركة ، أو طبقات من الآجر تبنى فوق نار مُدخنة . وليس لهذه المدافئ مداخن أو فتحات يخرج منها الدخان^(٩٩) . والأغنياء والفقراء على السواء يقاسون آلام البرد ويأتون إلى فراشهم مدثرين بالثياب الثقيلة^(١٠٠) . وإذا التقى السائح بصيدنى سأله : « أأنت بردان ؟ فيجيبه هذا بقوله : بطبيعة الحال »^(١٠١) ، وقد تعلق فى سقف الدار فوانيس من الورق زاهية الألوان ، وتزين الجدران أحياناً بكتابات بخط جميل أو بنقوش من الحبر ، أو بسجف من الحرير مطرزة تطريزاً جميلاً ومنقوش عليها مناظر رقيقة . ويتخذ أثاث المنزل عادة من الخشب الثقيل المدهون باللون الأسود البراق والمنحوت نحتاً جميلاً . أما القطع ذات الألوان الفاتحة فتعطى بالك البراق . والصينيون هم الأمة الشرقية الوحيدة التى يجلس أبنائها^(*) على كراسى ، وحتى هم يفضلون أن يجلسوا متكئين أو متربعين ؛ وهم يضعون ، على نضد خاص ، الأوانى التى تتخذ لتقديم القرابين لأسلافهم الأموات . وتقع فى مؤخرة الدار حجرات النساء ، وقد توجد فى حجرات مستقلة أو فى بناء منفصل عن سائر المنزل مكتبة أو مدرسة .

والأثر العام الذى تتركه المائر الصينية فى ذهن المشاهد الأجنبي غير الننى هو ما تتصف به من وهن سحرى يأخذ بالألباب ؛ واللون يطغى فيها على

(*) لعله يقصد بأبنائها جمهرة الشعب . (المترجم)

الشكل ، ومن واجب الجال فيها أن يستغنى عن الضخامة والعظمة . والمهيكل أو القصر الصينى لا يتناول إلى الإشراف على الطبيعة بل يتعاون معها على أن يخلق من الكل انسجاماً كاملاً يعتمد على تناسب أجزائه وتواضعها . والعمائر الصينية تعوزها الصفات التى تكسبها متانة وأماناً وطول بقاء ، كأن من شادرها يخشون أن تذهب الزلازل بجهودهم .

وإن من الصعب على الإنسان أن يعتقد أن هذه العمائر تنتمى إلى ذلك الفن الذى أقام آثار الكرنك ورسبوليس ، والآثار التى شيدت على الأكروبول ؛ فليست هى عمائر بالمعنى الذى يفهمه الغربيون من هذا اللفظ ، بل هى حفر فى الخشب ، وطلاء للخزف ، ونحت فى الحجر . وهى أكثر انسجاماً مع الخزف واليشب من الصروح الضخمة الثقيلة التى أقامها فنا الهندسة والمعمار فى بلاد الهند وبلاد النهرين ورومة . وإذا لم تتطلب إليها العظمة والصلابة التى ربما لم يعن بها من أنشئوها ، وإذا أخذناها على أنها أصداف تعبر عن أرق الأذواق فى أضعف أشكال المباني وأقلها بقاء ، إذا فعلنا هذا وذاك كان لهذه العمائر مكانها بين أجمل طرز الفن الصينى الطبيعية التى تناسب أهل تلك البلاد وبين أجمل الأشكال التى ابتدعها الإنسان .

الفصل الرابع

التصوير

١ — أسانذة فن التصوير الصيني

جور كاي - چيه « أعظم مصور ، وأعظم فكه ، وأعظم أبه » - صورة
هان يو الصغيرة - المدرستان الإبتدائية - وىج وى -
وو داو دزه - هو درونج الإمبراطور الفان - أسانذة عصر سونج

لقد أبطأ الغرب في دراسة فن التصوير الصيني ، وليس عليه في ذلك لوم ، لأن مناحى الفن وأساليبه في الشرق تكاد كلها تكون مغايرة لمفاهيمه وأساليبه في الغرب ؛ وأول ما نذكره من هذا الخلاف أن المصورين في بلاد الشرق الأقصى لم يكونوا يصورون على القماش ؛ وقد نجد من حين إلى حين مظلمات على الجدران ، وأكثر ما يوجد من هذا أثر من آثار النفوذ البوذى ؛ ونجد في بعض الأحيان رسوماً على الورق وهذه من آثار ما بعد العهد البوذى ؛ كل هذا نجد له ولكفه قليل ، أما معظم الرسوم الصينية فهي على الحرير ؛ ولقد كان ضعف هذه المادة وقصر أجلها سبباً في تلف الروائع الفنية جميعها حتى لم يبق من تاريخ هذا الفن إلا ذكريات له وسجلات تصف جهود الفنانين ؛ يضاف إلى هذا أن الصور نفسها كانت رقيقة خفيفة ، وأن كثرتها قد استخدمت فيها الألوان المائية وينقصها ما نراه في الصور الزيتية الأوروبية من تلوين يظهرها للعين وكأنها صور مجسمة نكاد نلمسها باليد . ولقد حاول الصينيون التصوير الزيتي ولكن يلوح أنهم تركوه لأنهم حسبوا هذه الطريقة من طرق التصوير خشنة ثقيلة لا تتفق وأغراضهم الدقيقة الرفيعة ؛ كذلك كان تصويرهم في أشكاله الأولى على الأقل ، فرعاً من فروع الكتابة أو الخط الجميل يستعملون فيه الفرشاة التي كانوا

يستعملونها في الخط ، وكانوا يقتصرون في كثير من روائعهم الفنية على الفرشاة والخبر (*)

وآخر ما نذكره من أوجه الخلاف أن أعظم ما أخرجوه من الصور الملونة قد أخفى من غير قصد عن أعين الرحالة الغربيين ، ذلك أن الصينيين لا يتباهون بعرض صورهم على الجدران العامة والخاصة بل بطونها ويخبئونها بمنتهى العناية ، فإذا أرادوا أن يستمتعوا برؤيتها أخرجوها من مخبئها كما نخرج نحن كتاباً ونقرؤه . وكانت هذه الصور المطوية تلف متتابعة في ملفات من الورق أو الحرير ثم « تقرأ » كما تقرأ الخطوط . أما الصور الصغيرة فكانت تعلق على الجدران وقلمها كانت توضع في إطارات . وكانت عدة صور ترسم أحياناً على شاشة كبيرة ، وفي العهد الأخير من عهد أسرة سونج كان فن التصوير قد تفرع إلى ثلاثة عشر « فرعاً »^(٦٣) واتخذ أشكالاً لا حصر لها .

وقد ورد ذكر الفن الصيني بوصفه فناً ثابت الأساس ، قبل ميلاد المسيح بمعدة قرون ، ولا يزال هذا الفن موطن الدعائم في بلاد الصين إلى يومنا هذا رغم ما عاناه بسبب الحروب الكثيرة . وتقول الأقاصيص الصينية إن أول من صور بالألوان في الصين امرأة تسمى لي وهي أخت الإمبراطور الصالح شوين . وقد ساء

(٦) يرى الصينيون أن التصوير ضرب من الكتابة ، ويعمدون الخط فناً من العنون الجميلة ، وإن كان العالم يرى عكس هذا ويعتقد أن الكتابة كانت في بادئ أمرها نوعاً من الرسم والصوير . ومن أجل هذا ترى لوحات من الخط الجميل معلقة في بيوت الصينيين واليابانيين ، ومن أجل ذلك أبصرت بعض المولعون بالهناء الروائع الخطية كما يحوب جامعو التحف الفنية القارات في هذه الأيام للحصول على صورة أومزهرية . وكان أشهر الخطاطين الصينيين وانج شى - چى (حوالي ١٤٠٠ م) ، وكانت الحروف الصينية الجميلة التي كتبها بيده هي التي قطعت عليها الأحرف التي اتخذت قوالب للطباعة . ولما أراد الإمبراطور العظيم ناي دزويج أجد أباطرة أسرة تانج أن يحصل من بيان - دراي على ملف بخط وانج شى - چى لم يجد سبيلاً إلى الحصول عليه إلا بالمرقة ، ويقال إنه لما تم له هذا فقد بيان - دزاي شهوة الطعام ومات غماً وكداً .



١ - صورة ملونة لعلامة عشر إمبراطور توري إلى بن لي - بن من مصوري القرن التاسع
مخفية في متحف الفن بمدينة بسملة.

ذلك أحد الناقدين فقال : « مما يؤسف له أشد الأسف أن يكون هذا الفن
القديم من اختراع امرأة »^(٦٤)

ولم يبق شيء من الصور التي رسمت في عهد أسرة چو . لكن الذي لاشك
فيه أن الفن في عهد هذه الأسرة كان قد تقدم عهده ، ويدلنا على ذلك تقرير
كتبه كنفوشيوس يقول فيه إنه : أعجب أشد الإعجاب بالمظلمات التي رآها
في الهيكل العظيم المقام في لو — يانج^(٦٥) .

أما في أيام أسرة هان فحسبنا دليلاً على انتشار التصوير أن كاتباً من الكتاب
قد شكّا من أن بطلاً يجب به لم يرسم له عدد كاف من الصور فقال : « إن
الفنانين كثيرون فلم إذن لا يصوره أحد منهم ؟ »^(٦٦) ومن القصص التي تروى عن
واحد من مهرة الفنانين في عهد الإمبراطور لي — يه — إى الأول أنه كان في
استطاعته أن يرسم خطاً مستقيماً لا ميل فيه طوله ألف قدم ؛ وأن يرسم خريطة
مفصلة للصين على سطح لا يزيد على بوصة مربعة ، وأن في مقدوره أن يملأ فاه ماء
ملوناً ثم يصبقه فيكون صورة ، وأن الصور التي كان يرسمها للعنقاء قد بلغت من
الإتقان حداً جعل الناس إذا نظروا إليها يتساءلون قائلين لم لاتغير من أمامهم^(٦٧) .
ولدينا ما يشير إلى أن فن التصوير الصيني بلغ إحدى درجاته القصوى من البكال
في بداية التاريخ الميلادي ، ولكن الحروب تحت كل دليل قاطع على هذا .
ولقد تناوبت على الصين غلبة الفن والحرب في نزاعهما الأيدي القديم ، منذ العهد
الذي نهب فيه لويانج المحاربون من إقليم تشين (حوالي عام ٢٤٩ ق . م) وأخذوا
يحرقون كل ما لم يستطيعوا الانتفاع به ، إلى أيام ثورة الملاكمين (١٩٠٠ م)
حين كان جنود تونج چو يستخدمون الصور المرسومة على الحرير في المجموعة
الإمبراطورية لحزم ما يريدون حزمه من الأمتعة . فكانت روائع الفن يحمل بها
الدمار ولكن الفنانين لم يكونوا يتوانون عن الخلق والابتداع .

ولقد أحدثت البوذية انقلاباً في شئون الدين والفن في بلاد الصين لا يقل في عمقه ومداه عن الانقلاب الذي أحدثته المسيحية في ثقافة البحر المتوسط وفنونه . نعم إن الكنفوشية احتفظت بسلطانها السياسي في البلاد ، ولكن البوذية امتزجت بالدوية وأصبحت السلطة المهيمنة على الفن ، وأنشأت بين الصينيين وبين البواعث والرموز والأساليب والأنماط الهندية صلات ذات أثر قوى .

وكان أعظم العباقرة من رجال مدرسة التصوير الصينية البوذية جوو — كاي — چيه ، وهو رجل بلغ من قوة شخصيته وصفاته الفذة أن اجتمعت حوله أفاقيص وأساطير كثيرة . منها أنه أحب فتاة تسكن منزلاً مجاور منزله ، فلما عرض عليها أن تزوج به أبت لجهلها بما كانت تحبته له الأيام من شهرة عظيمة ، فما كان منه إلا أن رسم صورة لها على أحد الجدران وأنفذ شوكة في قلبها ، فأشرفت الفتاة على الموت . ثم تقدم إليها مرة أخرى فرفضت به ، فرفع الشوكة عن صورتها فشفيت الفتاة من مرضها . ولما أراد البوذيون أن يجمعوا المال لتشييد هيكل في نانكينج وعد أن يمدحهم بمليون كاش^(٥) ، وسخرت الصين كلها من هذا الوعد ، لأن جوو قد بلغ من الفقر ما يبلغه الفنان .

فقال لهم : « اسمحوا لي أن أستخدم أحد الجدران » ، فلما وجد الجدار واستطاع أن ينفرد بنفسه عنده رسم عليه صورة القديس البوذي أو إيمالا — كيرتي . ولما أتم الصورة دعا الكهنة ، وأخذ يصف لهم طريقة جمع المال المطلوب فقال : « عليكم أن تطلبوا في اليوم الأول مائة ألف كاش » ممن يريد أن يدخل ليرى الصورة ، « وأن تطلبوا في اليوم الثاني خمسين ألفاً . أما في اليوم الثالث فدعوا الزائرين أحراراً يتبرعون بما يشاءون » . ففعلوا ما أمرهم به وجمعوا بهذه الطريقة مليون « كاش »^(٦) . ورسم جوو سلسلة طويلة من الصور البوذية كما رسم صوراً

(٥) عملة صينية صغيرة قيمتها نحو ¼ ملية . (لترجم)

أخرى غير بوذية . ولكننا لم يصلنا شيء من رسومه الموثوق بنسبتها إليه (*) . وكتب ثلاث رسائل في التصوير بقيت بعض أجزائها إلى اليوم . ومن أقواله : إن أصعب التصوير تصوير الرجال ، وبلى الرجال في الصعوبة تصوير المناظر الطبيعية ثم تأتي بعدها الخيل والآلهة (٧٢) . وكان يصير على أنه فنان وفيلسوف معاً . ولما رسم صورة للإمبراطور كتب تحتها : « ليس في الطبيعة شيء عال لا ينحط بعد قليل ... فالشمس إذا بلغت كبد السماء أخذت في الانحدار ، والقمر إذا كمل وصار بدرأ بدأ بتناقص . ونسجم الجدل لا يقل صعوبة عن بناء جبل من حبات التراب ؛ أما التردى في الهلاك فسهل كأنسياب اللولب المشدود » (٧٣) (***) ، وكان معاصروه يعدونه أعظم رجال زمانه في ثلاث نواح : في التصوير وفي الفكاهة وفي البلاهة (٧٤) .

وازدهر التصوير في بلاط الأباطرة من أسرة تانج ، ومن الأقوال المويدة لهذا قول دوفو : « إن المصورين ليعاغون من الكثرة عدد نجوم الصباح ، ولكن الفنانين منهم قليلون » (٧٥) .

وكتب چانج ين — يوان في القرن التاسع عشر كتاباً سماه : عظماء المصورين في جميع العصور وصف فيه أعمال ثلثمائة وسبعين فناناً ، ويقول فيه : إن الصورة التي يرسمها أحد أساتذة التصوير كانت تدرّ عليه وقتئذ نحو عشرين ألف أوقية من الفضة ، ولكنه يحذرنا فيما بعد من أن نقدر الفن بالمال ويقول : « إن الصور الجميلة أعظم قيمة من الذهب واليشب ، أما الصور الرديئة فلا تساوى الواحدة منها بثلاثة » .

(*) ويعزو له سدة المتحف البريطاني ملغاً جميلاً وإن يكن حائل اللون عليه خمسة رسوم تصور حياة نموذجية لأسرة من الأسر (٧٠) ، ويحوى هيكل كنفوشيوس في تشوفو نقشاً على حجر يقول ناقشه إنه حذا فيه حذو جورو . ويحوى معرض فريزر Frezer في واشنطن : من كتابات تمزى إليه (٧١) .

(**) اقرأ هذا المعنى نفسه في مقام بيكن « في المنصب الرقيق » أو ترجمة هذا المقال في الجزء الثاني من مقالات مختارة من اللغة الإنجائزية . (المترجم)

ولا نزال نعرف من المصورين في عهد أسرة تانج أسماء مائتين وعشرين ، أما أعمالهم فلا يكاد يبق منها شيء ، لأن ثوار التتار الذين نهبوا شانج — آن في عام ٧٥٦ لم يكونوا يعنون بهذا الفن ؛ وفي وسعنا أن نلمح الجو الفني الذي كان يمزج بشعر ذلك الوقت في قصة هان يو « أمير الأدب » الذائع الصيت .

وخلاصة هذه القصة أن هذا الأمير كسب من زميل له يقيم معه في نزل رقعة صغيرة اشتملت في أصغر مساحة مستطاعة على ثلاث وعشرين ومائة صورة من صور الآدميين ، وثلاث وثمانين من صور الجياد ، وثلاثين من صور الحيوانات الأخرى ، وصور لثلاث عربات ، وإحدى وخمسين ومائتي صورة لأشياء أخرى ويقول هو عنها : « لقد فكرت كثيراً في أمر هذه الصورة لأنني لم أكن أصدق أنها من عمل رجل واحد ، فقد جمعت عدداً من المزايا المختلفة الأنواع ، ولم يكن في وسمي أن أتخلى عنها مهما عرض عليّ من المال ثمنها لها . وفي العام الثاني غادرت المدينة وسافرت إلى هو — يانج ، وحدث أن كفت في أحد الأيام أتحدث عن الفن إلى بعض الغرباء ، وأخرجت لهم الصورة ليروها ؛ وكان من بينها رجل يدعى جَوّ ، يشغل وظيفة رقيب (*) وكان ذا ثقافة عالية ؛ فلما وقعت عينه على الصورة دهش أيما دهشة لرؤيتها ثم قال بعد تفكير طويل : « إن هذه الصورة من عمل يدي رسمتها في أيام شبابي ، وهي منقولة عن صورة في معرض الفن الإمبراطوري ، ولقد فقدتها منذ عشرين عاماً ، وأنا مسافر في مقاطعة فوفين » ، فما كان من هان يو إلا أن أهدى الصورة الصغيرة إلى جَوّ .

ولقد نشأت في فن التصوير الصيني مدرستان مختلفتان إحداهما في الشمال والثانية في الجنوب ، كما نشأت في الديانة الصينية مدرستان هي المدرسة الكنفوشية والمدرسة اللاوئية — البوذية وكما نشأت في الفلاسفة مدرستان إحداهما بزعاية جوشى والثانية بزعاية وانج يانج منجج ، تمثل الأولى ما يطلق عليه الغربيون العقلية-

(*) انظر واجبات الرقيب في الفصل السادس من الباب الحادي والعشرين .

الإتباعية ، وتمثل الثانية العقلية للابتداعية ، فكان الفنانون الشماليون يتمسكون بالتقاليد الصارمة ويتقدمون في رسومهم بقيود العفة والوقار ؛ أما أهل الجنوب فكانوا يعنون في تصويرهم بإبراز المشاعر والخيال . وعنيت المدرسة الشمالية أشد عناية بإبراز نماذج صحيحة متقنة من الأشكال التي تصورها وجعلها واضحة الخطوط والمعالم ، أما المدرسة الجنوبية فقد نارت كما نارت مونتارتر Montmartre على هذه القيود ، فكانت تحتقر هذه الواقعية البسيطة ولا تستخدم الأشياء إلا عناصر في تجارب روحية ، أو نغمات في مزاج موسيقي^(٧٧) . ولقد وجد لي سو — شون وهو يصور في بلاط منتج هوانج بين زعازع السلطة السياسية وعُرلة النفى ما يكفي من الوقت لتوطيد دعائم المدرسة الشمالية . وصور هو نفسه بعض المناظر الصينية الطبيعية وبلغ فيها درجة من الواقعية تناقلتها فيما بعد كثير من الأقاصيص . من ذلك قول الإمبراطور إنه يستطيع أن يستمع في الليل إلى خرير الماء الذي صوره لي على شاشة في قصره ، وإن سمكة في صورة أخرى له دبّت فيها الحياة ووجدت بعد في بركة — وليس لنا أن نلوم الصينيين على هذه الأقوال ، فإن لكل أمة أقوالاً مثلها في مدح مصوريها .

ونشأت المدرسة الجنوبية مما أدخل على الفن من تجديد ومن عبقرية وانج واي ، فلم يكن المفطر الطبيعي في طرازه التأثيرى من طرز الفن أكثر من رسمه لمزاج معين ، وكان وانج شاعراً ومصوراً معاً ، ولذلك عمل على ربط الفنين بعضهما ببعض ، وذلك بجعل الصورة تعبر عن قصيدة . وفيه قال الناس لأول مرة العبارة التي طالما لاكتها الألسن حتى ابتذلت ، والتي تنطبق كل الانطباق على الشعر والتصوير الصينيين كليهما وهي : « كل قصيدة صورة وكل صورة قصيدة » (وكان يحدث في كثير من الأحيان أن تنقش القصيدة على الصورة وأن تكون القصيدة نفسها مخطوطة فنياً جميلاً) . ويروى المؤرخون أن تونج جي —

جانب قضى حياته كلها يبحث عن صورة أصلية من عمل وانج ويه (*) (٧٨) .
وأعظم المصورين في عهد أسرة تانج ، وأعظم المصورين في الشرق الأقصى كله
بإجماع الآراء ، رجل علا فوق فروق مدرستي التصوير السالفتي الذكر ، وكان
من الذين حافظوا على التقاليد البوذية في الفن الصيني ، واسم هذا المصور
وودو — دزه ؛ ولقد كان في الحق خليقاً باسمه فإن معنى هذا الاسم هو وواستأذ
الدوا أو الطريقة ، ذلك أن جميع التأثيرات والأفكار المجردة التي وجدها لو دزه
وجوانج دزه أدق من أن تعبر عنها الألفاظ ، وقد بدت وكأنها تنساب انسياً طبيعياً
في صورة خطوط وألوان يجرى بها قلمه ، ويصفه أحد المؤرخين الصينيين بقوله :
« إنه كان شخصاً معدماً يتيماً ، ولكنه وهب فطرة إلهية ، فلم يكذب يلبس فلسفة
البلوغ حتى كان من أساتذة الفن ، وحتى غمر لو — يانج بأعماله » . وتقول
الروايات الصينية إنه كان مغرمًا بالخمر وبأعمال القوة ، وإنه كان يعتقد — كما
يعتقد الشاعر الإنجليزي Poe — أن الروح تخرج أحسن ثمارها تحت تأثير قليل
من السكر (٨١) . وقد برز في كل موضوع صوره ؛ في الرجال والأرباب والشياطين ،
وفي تصوير بوذا بأشكال مختلفة ، وفي رسم الطيور والوحوش والمباني والمناظر
الطبيعية — وكانت كلها تأتية طائفة لفنّه الخصب ؛ وبرع في الرسم على الحرير
والورق والجدران الحديثة الطلاء فكانت هذه كلها عند سواء . وقد أنشأ ثلثمائة
مظلم لاهيا كل البوذية منها مظلم يحتوي على صورة ألف شخص لانتقل شهرته في
الصين عن شهرة « يوم الحساب » أو صورة « العشاء الأخير » في أوروبا . وكانت
ثلاث وتسعون صورة من صوره في معرض الصور الإمبراطوري في القرن الثاني
عشر بعد أربع مائة سنة من وفاته ، ولكنها لم يبق منها شيء في مكان ما في الوقت
الحاضر . ويحدثنا الرواة أن الصور التي رسمها لبوذا « قد كشفت عن أسرار الحياة

(*) لم يبق إلا صور منسوخة منها : أهمها « مسقط ماء » محفوظة الآن في معبد
شاكوبين في كيوتو (٧٩) وملف (في كل من المتحف البريطاني ومتحف فريزر) كتب عليه :
« منظر وانج جوان » (٨٠) .

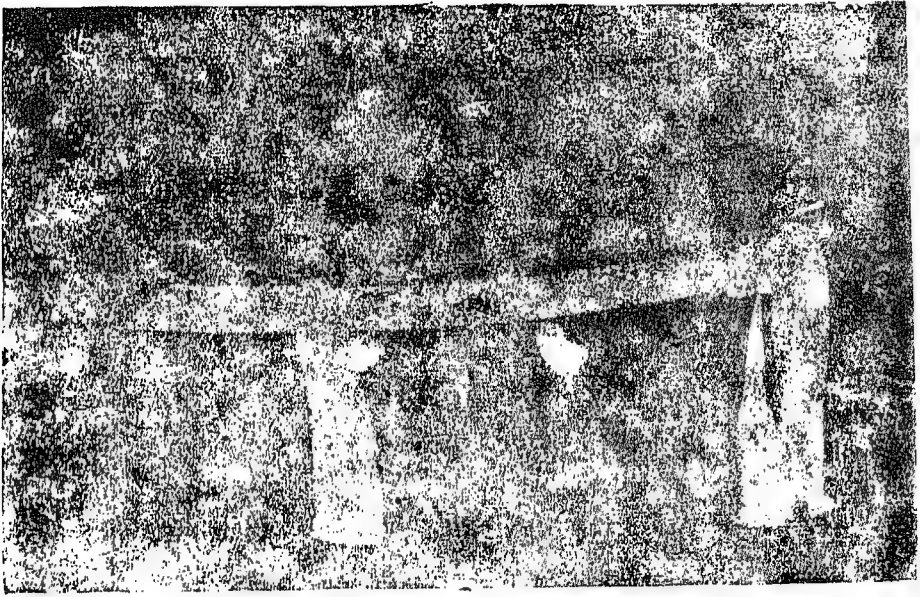
والموت» وقد بلغ من تأثير صورته التي تمثل الحشر أن ارتاع من رؤيتها بعض القصابين والسماكين فنبذوا حرقهم المشينتين غير البوذيتين .

ولما رسم صورة تمثل رؤي منج هوانج أيقن الإمبراطور أن وو قد رأى هو أيضاً رؤي مثلها^(٨٢) . ولما أرسل الملك وو ليرسم منظرأ على ضفة نهر جيانج في ولاية سشوان هاله أن يعود الفنان دون أن يرسم خطأ واحداً ، فقال له وو : « لقد وعيته كله في قلبي » ، ثم انفرده بنفسه في حجرة من حجر القصر وأخرج ، كما يؤكد لنا المؤرخون ، مناظر تمثل ألف ميل^(*) . ولما أراد القائد باي أن يرسم له صورة طلب إليه وو ألا يقف أمامه ليرسمه ، بل أن يلعب بالسيف ، فلما فعل أخرج المصور له صورة لم يسع معاصريه إلا أن يقولوا إنها قد أوحى إليه بها ولم تكن من عنده . وقد بلغ من شهرته أن أقبلت « شانج — آن » على بكرة أبيها لتشاهده وهو يحتتم رسم بعض الصور البوذية في هيكل شنج شان . ويقول مؤرخ صيني من مؤرخي القرن التاسع إنه لما أحاط به هذا الجمع الحاشد « رسم الهالات بسرعة عجيبة عنيفة بدا للناس معها كأن يده يحركها إعصار ، وصاح كل من رآه أن إلهاً من الآلهة كان يساعده »^(٨٥) : ذلك أن الكسالى لا يفتنون بعزون العبقرية « لوحى » يوحى لمن ينتظر هذا الإلهاء .

ونقول لإحدى القصص الطريفة إنه لما طال الأجل بوو رسم منظرأ طبيعياً كبيراً ، ودخل في فم كهف مصور في هذا المنظر ، ولم يره أحد بعد دخوله فيه^(٨٦) . ولا جدال في أن الفن لم يصل قط إلى ما أوصله إليه هو من إتقان وإبداع . وأصبح الفن في عهد أسرة سونج شهوة عارمة عند الصينيين ، ذلك أنه بعد أن تحرر من سيطرة الموضوعات البوذية عليه غمر البلاد بما لا يحصى من الصور المختلفة ، ولم يكن الإمبراطور هواي دزونج نفسه أقل الثمانمائة الرسامين المشهورين في أيامه .

(*) اقرأ رأى كروسى القائل بأن الفن هو الفكرة نفسها لا طريقة إخراجها^(٨٤) .

ومن الكنوز المحفوظة بمتحف الآثار الجميلة بدسطن ملف صَوَّر فيه هذا الإمبراطور في بساطة عجيبية ووضوح أعجب المراحل المختلفة التي تسير فيها عملية إعداد الحرير على يد النساء الصينيات^(٨٧). ومن أعماله أنه أنشأ متحفاً للفن جمع فيه أكبر مجموعة من الروائع الفنية عرفت لها الصين من بعده^(٨٨)؛ وأنه رفع المجمع الفني من فرع تابع للسككية الأدبية لا غير إلى معهد مستقل من الدرجة الأولى، واستبدل الاختبار في الفن ببعض الاختبارات الأدبية التي جرت العادة بأن يتمتع فيها طلاب المناصب السياسية، ورفع رجالاً إلى مناصب الوزراء لأنهم برعوا في الفن بقدر ما رفع إليها غيرهم لأنهم برعوا في السياسة^(٨٩). وسمع التتار بهذا كله فغزوا الصين وأنزلوا الإمبراطور عن عرشه، ونهبوا المدينة وعاثوا فيها فساداً، ودمروا كل الصور المحفوظة في المتحف الإمبراطوري إلا القليل، وكانت سجلات هذه الصور تملأ عشرين مجلداً^(٩٠). وساق الغزاة الإمبراطور الفنان أمامهم ومات في ذل الأسر.



شكل ٧ - صناعة الحرير من تصوير الإمبراطور هواي دزو
في متحف الفن الجميل بمدينة بسطن

وكان أجل من هذا الإمبراطور الفنان شأنًا رجلان من غير الأسر المالكة هما جووشى ، ولى لونج — مين . «ويقول الناقدون والفنانون إن جووشى ز جميع معاصريه فى تصوير أشجار الصنوبر الباسقة ، والدوحات الضخمة ، والمياه الدوامة ، والصخور النائية ، والجروف الوعرة ، وقلل الجبال السامقة التى لا يحصى عديدها»^{(٩١)(*)} . وكان لى لونج — مين فنانًا وعالمًا وموظفًا ناجحًا ورجلا سميدعا^(**) يحله الصينيون ويرون فيه مثلاً أعلى لما يجب أن يكون عليه الصينى المثقف . وقد بدأ أولاً بالخط ثم انتقل منه إلى الرسم بالخطوط ثم بالألوان ، وقبلها كان يستخدم فى هذا كله شيئاً غير المداد ؛ وكان يفخر بمحافظته الشديدة على تقاليد المدرسة الشمالية ، ويبدل جهوده كلها فى ضبط الخطوط ودقتها . وقد برع فى رسم الخيل براعة بلغ منها أن اتهمه الناس حين ماتت ستة منها بأن الصورة التى رسمها لها قد سلبتها أرواحها ، وأن حذره كاهن بوذى من أنه سيصبح هو نفسه جواداً إذا دأب على العناية برسم الجياد بدقته المعهودة ، فإكان منه إلا أن قبل نصيحة الكاهن وصور خمسمائة لوهان^(†) . وفى وسعنا أن ندرك شهرته إذا عرفنا أن معرض هواى دزونج الإمبراطورى حين نُهب كان يحتوى على مائة صورة وسبع صور من عمل لى لونج — مين وحده .

ونبغ فى عهد أسرة سويج عدد كبير من أساتذة الفن ، نذكر منهم مى فائ وهو عبقرى غريب الأطوار ، كان لا يرى إلا هو يفسل يديه أو يغير ملابسه إذا لم يكن يشتغل بجمع أعمال رجال الفن القدماء ، أو يرسم صوراً لمناظر طبيعية

(*) فى معرض فرير الفن بواشنطن « منظر على الهوانج — هو » يعزى إلى جو — شى وإن كان هذا مشكوكاً فيه^(٩٢) .

(**) السَّمِيدْع أو السَّمِيدَع . السيد الكريم الشريف السخى الموطأ الأكتاف والشجاع ، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Gentleman

(†) اللوهان هو الذى وصل إلى النرفانا أى الذى سمى نفسه إلى أرق المراتب الروحية

« بطريقة التنقيط » أى بنقط من المداد يضمنها دون أن يستعين بالخطوط الخارجية(*) . ومنهم أيضاً شيه جواى وقد رسم ملفاً طويلاً يحتوى على مناظر متفرقة لنهر يانج-دزه(**) من منابعه الصغيرة ، ومجرأه ، مخترقا اللويس والخوانق إلى مصبه الواسع الغاص بالسفن التجارية والقوارب الصغيرة (السمبان) ؛ وهذا الملف قد جعل بعض الفنانين^(٩٣) يضعون صاحبه على رأس مصورى المناظر الطبيعية فى الشرق والغرب على السواء . ومن مشهورى المصورين فى هذا العهد مايوان ؛ ويزدان متحف الفن الجميل فى بُسْطُنْ بمناظر طبيعية أنيقة ، ومناظر مصورة عن



شكل ٨ - منظر طبيعى ، جسر وصفصاف من تصوير مايوان فى القرن الثانى عشر
محفوظ فى متحف الفن الجميل ببسطن

(*) فى الحجر رقم ١١ فى المتحف البنى بنيورك منظر طبيعى يقال إنه من تصوير
« مى فائى » .

(**) Yung-tze وهو النهر الذى يطلق اسمه أحياناً يانج - تسى أو يانج - تسى - كيوانج

بعد^(*). ومنهم ليانج كاي الذي رسم صورة نخمة للشاعر الصيني لي بو ، وموتشي صاحب صورة النمر الرهيب ، والزرزور ، وصورة كوان ين الظريف المكتئب ، وفي وسعنا أن نذكر غير هؤلاء كثيرين من المصورين الصينيين الذين لم يألف الغرب سماع أسمائهم أو يعيها إذا سمعها لفرابتها ، ولكنهم في واقع الأمر نماذج من تراث الشرق العقلي العظيم . وما أصدق ما قاله عنهم فنلوزا Fenollosa : « لقد كانت ثقافة أسرة سونج أنضج تعبير عن العبقرية الصينية »^(٩٥) .

وإذا شئنا أن نقدر فن التصوير الصيني في أيام مجد أسرتي تانج وسونج ، كما كن يحاولون من مؤرخي المستقبل أن يكتبوا عن عصر النهضة الإيطالية بعد أن فقدت جميع أعمال رفائيل وليوناردو دافنشي وميكل أنجلو . ويبدو أن فن التصوير الصيني قد كسر في ذرعه وهدر كنه ما توالى عليه من غارات جحافل الغزاة الذين دمروا روائعه وعاقوا تقدمه قروناً عدة . ومع أنه قد نبغ في عهد الأسر التي تربعت على عرش الصين بعد أسرتي تانج وسونج ، الصينية منها والأجنبية ، فنانون لهم رسوم بلغت مستوى عالياً من الظرف أو القوة ، فليس من هؤلاء الفنانين من يرقى إلى مستوى أولئك الرجال الذين عاشوا في جنان بلاط منج هوانج أو هواي دزونج وخلق بنا إذا فكرنا في الصينيين ألا نفكر فيهم على أنهم مجرد شعب سلط عليه الفاقة ، وأضعفه فساد الحكم ، وفرقته التحيزات والانقسامات السياسية ، وأذلته الهزائم الحربية ، بل يجب أن نفكر فيهم أيضاً على أنهم أمة شهدت في تاريخها الطويل عصوراً لا تقل في مجدها عن عصور بركليز وأغسطس وآل ميديشي ، وأنها قد تشهد عصوراً أخرى مثلها في مستقبل الأيام .

(*) ومن أروع الصور صورة « السيدة لنج - چاو واقفة بين الثلوج » . والصورة تمثل السيدة (وهي صوفية بوذية من نساء القرن الثامن) ساكنة غارقة في التفكير كأنها سقراط واقف وسط الثلوج في پلانية . ويخيل إلينا أن الفنان يقول « إن العالم لا وجود له إلا إذا أدرك العقل وجوده ، وإن في وسع العقل أن يتجاهله إل حين » .

٢ — خصائص فن التصوير الصيني

نبذ فن المنظور — الواقعية — الخط أسمى من اللون —
الشكل إيقاع — التصوير بالإيحاء — العرف والقيود
أمانة الفن الصيني وإخلاصه

ترى ما هي الخصائص التي تميز فن التصوير الصيني فتجعله يختلف كل الاختلاف عما أنتجته أية مدرسة أخرى من مدارس التصوير في التاريخ كله عدا تلاميذه في اليابان ؟ إن أول ما نذكره من هذه الخصائص أن الصور الصينية ترسم على ملفات أو شاشات كبيرة ، ولكن هذه مسألة تتعلق بالشكل الخارجي ، وأهم منها وأعق وأكثر صلة بالصفات الذاتية اختصار الصينيين للمنظور والظلال . فلما أن قبل مصوران أوروبيان دعوة وجهها إليهم الإمبراطور كانج شى ليزينوا له قصوره رفض الإمبراطور ما عرضه عليه من زينات لأنهم رسموا العمدة البعيدة في صورهم أقصر من القريبة . وقال لهم الصينيون في هذا أن لشيء يمكن أن يكون أكذب وأبعد عن الطبيعة من تمثيل المسافات حيث لا توجد مسافات مطلقاً^(٩٦) . ولم تستطع إحدى الفئتين أن تفهم آراء الأخرى ومبادئها لأن الأوروبيين اعتادوا أن ينظروا إليه من أعلاه^(٩٧) . وكذلك كان يخيّل إلى الصينيين أن الظلال لا محل لها في نمط من أنماط الفن لا يهدف في زعمهم إلى محاكاة الحقيقة بل يهدف إلى إدخال السرور على النفس ، وتمثيل الأمزجة ، والإيحاء بالأفكار عن طريق الأشكال التامة الكاملة .

وكان الشكل كل شيء في هذه الصور ، ولم تكن السبيل إلى إجادته غزارة اللون أو بهجته ، بل كانت في انسجامه ودقة خطوطه . وكانت الألوان محرمة تحريماً باتاً في الرسوم الأولى ، وظلت نادرة في رسوم أساتذة الفن ؛ فقد كان هؤلاء يكتبون بللداد والفرشاة ؛ ذلك أن اللون لم يكن في رأيهم ذا صلة ما

بالشكل ، بل كان الشكل على حد قول شياه — هو هو الانسجام ؛ وأول معانى الانسجام عند الصينيين هو أن يكون الرسم الصينى السجل المرئى لحركة منسجمة أو رقصة تمثلها اليد^(٩٨) ؛ ومعناه كذلك أن الشكل البديع يكشف عن « انسجام الروح » وعن جوهر الحقيقة وحركتها المادية^(٩٩) . ومظهر الانسجام فى آخر الأمر هو الخط — غير مستخدم فى بيان حدود الأشياء ومحيطها الخارجى ، بل مستخدم فى بناء الأشكال التى تعبر عن النفس بطريق الإيحاء أو الرمز . وتكاد دقة الخطوط وجماها يكونان وحدهما فى فن التصوير الصينى السبب الوحيد فى براعة التنفيذ المستقلة عن قوة الإدراك والشعور والخيال . ومن أجل هذا كان من واجب المصور أن يلاحظ ما يريد تصويره بصبر وعناية ، وأن يكون ذا شعور قوى مرهف ، وأن يضبط أحاسيسه أدق الضبط وأحكمه ، وأن يتبين غرضه واضحاً ، ثم ينقل بعد هذا على الحرير ما تمثله فى خياله ، نقلاً لا يترك فيه مجالاً للإصلاح أو التعديل ، وذلك بعدد قليل من الضربات المتواصلة السهلة . وقد وصل فن التصوير بالخطوط ذروة مجده فى الصين واليابان ، كما اقترب فن التلوين من ذروة مجده فى البندقية وفى الأراضى الوطيفة .

ولم يعن فن التصوير الصينى بالواقعية فى يوم من الأيام ، بل كان يهدف إلى الإيحاء أكثر مما يهدف إلى الوصف . أما « الحقيقة » فقد تركها للعلم وذهب نفسه للجمال . ولقد كان هذا النوع من التصوير فرعاً لم ينبت فى غير بلاد الصين ، ثم ترعرع وازدهر بعض الازدهار تحت سماء صافية ، فأصبح كافياً لأن يستهوى نفوس أعظم أساتذة الفن ويملك عليهم تفكيرهم ، وأن يكون تناولهم لرقعة التصوير الفارغة وتقسيمها تقسيماً يتناسب مع ما يريدون تصويره ، أن يكون هذا وذاك محكماً تختبر به قدرتهم ومهارتهم . ومن الموضوعات التى كانت تعرض على طالبي الالتحاق بجميع هواى دزويج للتصوير موضوع يوضح لنا مقدار توكيد الصينيين للإيحاء غير المباشر وعنايتهم به لا بالتصوير الصريح . ذلك أن للتسابقين

كان يعرض عليهم أن يشرحوا بالرسم بيتاً من أبيات الشعر هو . « وعاد حافر جواده مثقلاً بعبير ما وطئه من الأزهار » . وكان المتسابق الذى أحرز قصب السبق فى هذا المضمار فناناً رسم صورة فارس ومن حول كعوب جواده سرب من الفراش .

ولما كان الشكل كل شيء فإن من الممكن أن يكون الموضوع أى شيء .
وقلنا كان الرجال مركز الصورة أو جوهرها ؛ وإذا ما ظهروا فيها كانوا فى كل الأحوال تقريباً شيوخاً وكانوا كلهم متقاربين فى الشبه . وقلنا كان المصور الصينى ينظر إلى العالم بمعنى الشاب وإن لم يكن قط واضح التشاؤم فى تصويره ولقد رسم المصورون صوراً لبعض الأفراد ولكنها كلها صور لم تبلغ ما بلغه غيرها من الجودة والإتقان ؛ ذلك أن الفنان الصينى لم يكن يعنى بالأفراد ، وما من شك فى أنه كان يحب الأزهار والحيوانات أكثر مما يحب الرجال ، ولذلك أطلق لنفسه العنان فى تصويرها ؛ فترى هواى — دزونج وهو الذى كانت تأتمر بأمره إمبراطورية متسعة الأرجاء يهب نصف حياته لتصوير الطيور والأزهار . وكانت الأزهار والحيوانات كالأزورد والتنين تتخذ رموزاً غير مقصودة لذاتها فى بعض الأحيان ؛ لكنها فى الأغلب الأعم كانت ترسم لأن سر الحياة وسحرها يتمثلان فيها كاملين كما يتمثلان فى الإنسان نفسه ، وكان الحصان محبباً للفنانين الصينيين بنوع خاص ، ومن أجل هذا ترى فنانين كباراً مثل هان كان لا يكادون يعملون شيئاً غير رسم شكل فى إثر شكل لهذا المخلوق الذى هو جسم حتى للتخطيط الفنى .

ولسنا ننكر أن التصوير فى الصين قد لاقى الأمرين من جراء التقاليد الدينية أولاً ومن القيود التى وضعها العلماء بعدئذ ، وأن تقليد الأساتذة القدامى والنسج على منوالهم كانا من العوامل المعوقة فى تدريب طلاب الفن ، وأن الفنان كان فى كثير من الأحوال يقيد بعدد محدود من المسائل لا يسمح له أن يلجأ إلى

غيرها في تشكيل مادته^(١٠٠). وفي وسع للقارىء أن يدرك قوة العرف والتقاليد من قول أحد كبار النقاد الفنيين في عهد آل سويج: «لقد كنت في أيام شبابي أثنى على الأستاذ الذى أحب صورته؛ فلما أن نضج عقلى أصبحت أثنى على نفسه لأننى أحببت ما اختاره الأساتذة لى لىكى أحبه»^(١٠١)، وأما ليدهشنا ما بقى في هذا الفن من حيوية بالرغم من قيود العرف والقواعد التى وضعت له. وفي وسعنا أن نقول في هؤلاء ما قاله هيوم عن كتاب عهد الاستنارة وهم الذين علا شأنهم رغم الرقابة المفروضة عليهم: «إن القيود التى عانى الفنانون ما عانوه منها قد أرغمتهم هى نفسها على أن يكونوا عطاء ممتازين».

وما من شك في أن الذى أنقذ المصورين الصينيين من وهدة الركود هو إخلاصهم في إحساسهم بالطبيعة. وقد استمدوا هذا الإحساس من مبادئ الدوية، وقوتها في نفوسهم البوذية إذ علمتهم أن الإنسان والطبيعة شئ واحد في مجرى الحياة وتغيرها ووحدها. وكما أن الشعراء قد وجدوا في الطبيعة ملجأ يهرعون إليه من صخب المدن وكفاحها، وكما أن الفلاسفة كانوا يبحثون فيها عن نماذج للأخلاق وهادياً للحياة، كذلك كان المصورون يطيلون التأمل بجوار الجارى المائية المنعزلة ويوغلون في شعاب الجبال الشجراء، لأنهم يشعرون أن الروح الأعلى الذى لا يعرفون له اسماً قد عبر عن نفسه في هذه الأشياء الصامتة الخالدة تعبيراً أوضح مما عبر عنها في حياة الناس وأفكارهم المضطربة الهائجة^(*). ولقد اتخذ الصينيون الطبيعية الشديدة القسوة عليهم، والتي تنفث الموت ببردها وفيضان أنهارها، اتخذوها إلههم الأعلى، ورضوا بذلك في قوة وطمأنينة، ولم يقبلوا أن يقدموا لها القرابين الدينية، بل رضوا بأن تكون فوق هذا معبود فلسفتهم

(*) لم يكن تصوير المناظر الطبيعية يسمى في الصين بأكثر من شأن - روى أى الجبال والمياه.

وأديهم وفنهم . . . وحسبنا شاهداً على قدم عهد الثقافة الصينية وعمقها أن الصينيين قد هاموا بحب الطبيعة قبل أن يهيم بها كلود لورين ، وروسو ، ووردسورث ، وشاتو برين بألف عام كاملة ؛ وأنهم أنشأوا مدرسة من مصورى المناظر الطبيعية أخذت صورها فى جميع بلاد الشرق الأقصى أسمى ما عبرت به الإنسانية عن مشاعرها .

الفصل الخامس

الخزف الصيني

فن الخزف - صنع الخزف - تاريخه القديم - اللون الأخضر
الحائل - الطلاء بالمينا - براعة هاوشى جيو - تقاسيم
الطلاء - عصر كانج شى - عصر تشين لونج

إذا أخذنا نتحدث عن الفن الذى يمتاز به الصين عن سائر الأمم ، والذى لا يجادل أحد فى أنها هى حاملة لوائه فى العالم كله ، وجدنا فى أنفسنا نزعة بقوية إلى اعتبار الخزف صناعة من الصناعات . ولما كانت كلمة « الصينى » إذا وردت على لساننا ارتبطت فى عقولنا بالمطبخ وأدواته . فإننا إذا ذكرنا الفخورة تمثلنا من فورنا المكان الذى يصنع فيه « الصينى » ، وظننا هذا المكان مصنعاً ككل المصانع لا تثير منتجاته فى النفس روابط عليا سامية . أما الصينيون فقد كانت صناعة الخزف عندهم فناً من للفنون الكبرى ، تبهج له نفوسهم العملية المولعة مع ذلك بالجمال ، لأنه يجمع بين النعم وبهاء المفطر .

فلقد أمدهم هذا الفن بأنية يستخدمونها فى شرايهم القومى الشهير — شراب الشاي — جميلة فى ملمسها ومنظرها ، وازدانت منازلهم بأشكال بلغت كلها من الجمال حداً تستطيع معه أقرر الأسر أن تعيش فى صحة نوع من أنواع الكمال ، لقد كان فن الخزف هو فن النحت عند الصينيين .

ولفظ الفخار يطلق أولاً على الصناعة التى تحيل الطين بعد حرقه إلى أدوات صالحة للاستعمال المنزل ، ويطلق كذلك على الفن الذى يحمل هذه الأدوات ، وعلى الأدوات التى تنتجها هذه الصناعة ؛ والخزف هو الفخار المزجج أى أنه هو الطين المزوج بالمعادن والذى إذا عرض للنار ساح واستحال إلى مادة نصف

شفافة شبيهة بالزجاج (*) . وقد صنع الصينيون الخزف من مادتين الكولين — وهو طين أبيض نقي مكون من فتات الفلسبار والحجر الأعبل (الجرانيت) ، ومن الي — تن — دزى وهو كوارتز أبيض قابل للانصهار ، هو الذى يكسب الأوانى الخزفية ما فيها من الشفافية . وتسحق هذه المواد كلها وتخلط بالماء فتتكون منها عجينة تشكل باليد أو على عجلة ، ثم تعرض لدرجة حرارة مرتفعة تصهر العجينة وتحيلها إلى مادة زجاجية براقه صلبة . وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يقنع الخزاف بهذا النوع الأبيض البسيط ، فكان يغطى « العجينة » أى الإناء قبل حرقه بطبقة من مسحوق الزجاج ، ثم يحرق فى أتون . وكان فى بعض الأحيان يضع هذه الطبقة الزجاجية على العجينة بعد حرقها قليلاً ثم يعيد حرق الإناء بعدئذ . وكانت الطبقة الزجاجية تلون فى أغلب الأحيان ، ولكن العجينة كثيراً ما كانت تنقش وتلون قبل أن تضاف إليها المادة الزجاجية الشفافة أو تلون الطبقة الزجاجية بعد حرقها ثم تثبت عليها بحرقها مرة ثانية . أما الميناء فقد كانت تصنع من الزجاج الملون يدق ويسحق ثم يحول إلى مادة سائلة يضعها الرسام على الآنية بفرشاته الرفيعة . وكان من الصينيين إخصائيوون قضا حياتهم فى التدريب على عملهم ؛ تخصص بعضهم فى رسم المناظر الطبيعية ، وغيرهم فى رسم القديسين والحكماء للنقطعين للتأمل والتفكير بين الجبال ، أو الذين يمتطون ظهور حيوانات غريبة فوق أمواج البحار .

وصناعة الفخار عند الصينيين قديمة العهد قدم العصر الحجري ، فقد عثر الأستاذ أندرسن على أوانى من الفخار فى هونان وكانسو « لا يمكن أن تكون أحدث عهداً من عام ٣٠٠٠ ق . م » (١٠٣) . وإن ما تتصف به تلك المزهريات

(*) لما أدخلت صناعة الخزف فى أوروبا اشتق اسمها من البرسلانا أى صدفة الودع ، ولفظ برسلانا نفسه مشتق من المشابهة المزعومة التى بين الصدفة وبين ظهر البرسلا أو الخزير الصينى (١٠٢) .

من جمال قائق في الشكل وفي الصقل ليدل دلالة قاطعة على أن هذه الصناعة قد أصبحت فنا من الفنون الجميلة قبل ذلك العهد بزمان طويل . وبعض القطع التي عثر عليها شبيهة بفخار أنو ، وتوحى بأن الحضارة الصينية مأخوذة عن حضارة البلاد الواقعة في غربها . وهناك قطع من الأواني الفخارية الجنازية كشفت في هونان وتعزى إلى عهد اضمحلال أسرة شانج ولكنها أحط كثيراً من بقايا العصر الحجري الحديث السالفة الذكر .

ولم يعثر المنقبون بعد عصر هذه الأسرة على بقايا من الفخار ذات قيمة فنية قبل أيام أسرة هان ، ففي عهد هذه الأسرة عثروا على فخار وعثروا فوق ذلك على أول إناء من الزجاج عرف في الشرق الأقصى (*) ، وكان انتشار عادة شرب الشاي في عهد أباطرة تانج باعثاً قوياً على تقدم فن الخزف . وقد كشفت البعيرة ، أو المصادفة الحضة ، حوالي القرن التاسع أن من المستطاع صنع إناء مزجج لام من سطحه الخارجى نحسب (كالآنية المصنوعة في عهد أسرة هان وفي حضارات غير حضارة الصين قبل ذلك العهد) ، بل زجاجي كله من أوله إلى آخره — أى من خرف حقيقى وقد كتب أحد الرحالة المسلمين المدعو سليمان إلى بني وطنه يقول : « إن في الصين طيناً رقيقاً جميلاً يصنعون منه أواني شفافة كالزجاج ، يرى من جدرانها ما في داخلها من الماء » . وقد كشفت أعمال التنقيب الحديثة في موضع إحدى المدن القديمة عند سر من رأى على نهر دجلة قطعاً من الخزف من صنع الصين . وظهر الخزف بعدئذ في السجلات المدونة خارج بلاد الصين حوالي عام ١١٧١ م حين أهدى صلاح الدين إلى سلطان دمشق إحدى وأربعين قطعة من الخزف (١٠٥)

(*) لقد صنع المصريون الأقدمون فخاراً مزججاً قبل المسيح بقرون عدة لا يمكن تحديدها ، وإن ما على أقدم الفخار الصينى من نقوش ليدل على أن الصين قد أخذت طريقة الزجاج عن بلاد الشرق الأدنى (١٠٤) .

وليس ثمة شاهد على أن صناعة الخزف بدأت في أوروبا قبل عام ١٤٧٠ م ،
فقد ذكر في ذلك العام على أنه فن جميل أخذته البنادقة عن العرب في أثناء
الحروب الصليبية (١٠٦) .

وكان عهد أسرة سونج هو العهد الذى بلغ فيه فن الخزف الصينى ذروة مجده .
وحبراء هذا الفن يعززون إلى هذا العهد أقدم ما لدينا من الآنية الصينية وأحسنها
بل إن صناعة الخزف فى عهد أسرة منج ، وهم الذين جاءوا بعد هذا العصر ونبغ
فيه بعضهم نبوغ فنانيه ، حتى هؤلاء كانوا إذا ذكروا خزف أسرة سونج ذكروه
بالإجلال والإكبار ، وكان حامعو العاديات الصينية يحتفظون بما يعثرون عليه من
خزف هذه الأسرة ويعدون من السكنوز التى لا تقوم بمال وأنشئت فى القرن
السادس الميلادى مصانع عظيمة فى جنج ده — جن حيث توجد الرواسب الفخية
من المعادن التى تستخدم فى صنع الفخار وتلوينه ، واعترف البلاط الإمبراطورى
بهذه امصانع رسمياً ، وبدأت تغمر الصين بفيض من الصحاف الخزفية والأقداس
والحفان والزهريات والطاسات والأباريق والقنينات والجرار والصناديق ورقع
الشطرنج والمائلات (*) والخراطى . وحتى مشاحب التبعات كانت تصنع من الخزف
المطلى بالمينا والمرصع بالذهب (١٠٧) ؛ وظهرت فى ذلك الوقت لأول مرة القطع
ذات اللون الأخضر اليشبى (**) المعروية بالسلاذون (†) والتى أصبحت محاكاتها
أهم ما يصبوا إليه الفخراى فى الوقت الحاضر ، كما أصبح اقتناؤها أهم ما يصبوا إليه
جامع التحف (††) . وقد أرسل سلطان مصر فى عام ١٤٨٧ نماذج منها إلى لورنزو ده

(*) فى القاموس المائلة منارة المرسجة وقد استعراها (لشعمدان) .

(**) الشبه بخضرة اليشب .

(†) اسم أطلقه عليها الفرنسيون فى القرن السابع عشر وهو مأخوذ من اسم بطل رواية
« الكوكب » I. Astrée تأليف دوريه . وكان هذا البطل إذا مثلت الرواية يرتدى حل التوام
ملابس خضر (١٠٨) .

(††) وليس أصعب من محاكاتها عنه الغربيين إلا اقتناؤها ، ذلك أن اليابانيين —

ميديشى ، وكان الفرس والأتراك يقدرونها لا لنعمومة ملمسها وشدة برقيها
فحسب ، بل لأنها فوق هذا تكشف عن وجود السم ، فقد كانوا يعتقدون أن
تلك الآنية يتغير لونها إذا وضعت فيها مواد مسمومة^(١٠٩) . وترى أسر الخبيرين
المولعين بهذا الفن يتوارثون هذه القطع جيلا بعد جيل ؛ ويحتفظون بها احتفاظ
الناس بأثمن الكنوز^(١١٠) .

ولقد ظل الصنّاع في عهد أسرة منج نحو ثلثائة عام يبذلون أقصى ما يستطيعون
من جهود ليحتفظوا بفن الخزف في المستوى الرفيع الذى بلغه في عهد أسرة
سونج ، وليس في مقدورنا أن نقول إنهم مجزوا عن بلوغ هذه الغاية . وكان في
چنچ ده — جن خمسمائة أنون لحرق الخزف ، وكان البلاط الإمبراطورى وحده
يستخدم ٩٦٠٠٠ قطعة خزفية لتزيين حدائق القصور وموانئها وحجراتها^(١١١)
وظهرت في أيام هذه الأسرة أول قطع جيدة من الميناء التى حرقت ألوانها بعد
تزيينها . وأتقن إلى أقصى حدود الإتقان صنع اللون الأصفر الواحد ؛ والخزف
الأزرق والأبيض الذى يشبه في رفته قشر البيض ، ولا يزال القدح الأزرق
والأبيض المطعم بالفضة والمسمى باسم الإمبراطور واندلى (أو شن دزونج) يعد
من آيات فن الخزف في العالم كله إلى هذه الأيام .

وكان هاوشى — جى من أروع صنّاع الخزف وأعظمهم خبرة في أيام واندلى .
وكان في مقدوره أن يصنع أقداحاً للبيد لا يزيد وزن الواحد منها على جزء من
ثمانية وأربعين جزءاً من الأوقية ، ويروى أحد المؤرخين الصينيين أن هاوشى — جى
زار في يوم من الأيام بيت موظف كبير ، واستأذنه في أن يفحص ، عن وعاء من الخزف
ذى ثلاث أرجل ، تملكه هذا الكبير ويعد من أثمن ما صنع في عهد أسرة سونج .

= قد جمعوا معظم قطع السلادون الصينية الدائمة الصيت ، وهم يأبون أن يبيعوها مهما
هرض عليهم من الثمن . وقد عجز صانعو الخزف المتأخرون عن مجاراة ثنائى عهد أسرة سونج
في هذا المضمار .

وأخذ هاو يلمس الإناء بيديه برقة ولطف ، وهو ينقل ما عليه من الرسوم .
 ثم عاد لزيارة هذا الموظف بعد ستة أشهر من زيارته الأولى ، وقال له : « إنك يا صاحب السعادة تمتلك مبخرة ذات ثلاث أرجل من الدنج — ياو الأبيض^(٥) ، وها هي ذى مبخرة مثلها أمتلكها أنا » . وأخذ نانج الموظف الكبير يوازن بين هذه المبخرة ومبخرته ، ولكنه لم يستطع أن يتبين فرقاً ما بينهما . وبلغ من تشابههما أن قاعدة مبخرة الفنان وغطاءها قد واءما بمبخرته كل المواءمة . وأقر هاو وهو يبتسم أن مبخرته تقليد لمبخرة العظيم ، ثم باعها نانج بستان قطعة من الفضة ، وباعها هذا بعدئذ بألف وخمسةائة^(١٢) .

وقد بلغت صناعة الخطوط الفاصلة بين الميناء أقصى حد من الإتقان في عهد أسرة منج . ولم يكن منشأ هذا الفن في بلاد الصين بل جاء إليها من بلاد الشرق الأدنى في أيام الدولة البيزنطية ، وكان الصينيون يسمون مصنوعات هذا الفن في بعض الأحيان جوى جود ياو ، أى آنية بلاد الشياطين^(١٣) . وهذا الفن يتكون من قطع شرائح من النحاس أو الفضة أو الذهب ، وتثبيتها على حدها فوق خطوط شكل رُسم من قبل على جسم معدنى ، ثم ملء ما بين هذه الفوارق من فراغ بميناء من اللون المطلوب الملائم لها ، ثم تعريض الإناء بعدئذ للنار عدة مرات وذلك السطح الصلب بقطعة من حجر الخفاف وصقله بقطعة من فحم الخشب ، ثم تزليق أطراف الحواجز المعدنية الظاهرة . وأقدم ما عرف من منتجات هذا الفن في الصين سرايا استوردتها نارا في اليابان في منتصف القرن الثامن عشر . وأقدم الأواني المحددة التاريخ ترجع إلى أواخر العهد المغولى أو إلى أيام أسرة يوان ، وأحسنها كلها ما صنع في أيام الإمبراطور چنج دى

(٥) وهو الاسم الذى كان الصينيون يطلقونه على نوع من الخزف فى لون العاج كان يصنع فى عهد أسرة سونج .

من أباطرة المنشو العظماء في القرن الثامن عشر الميلادي .

ودمرت المصانع التي كانت قائمة في عهد أسرة چنج ده — چین في أثناء الحروب التي قضت على أسرة منج ، ولم تعد إلى سابق عهدها إلا بعد أن جلس على العرش إمبراطور من أعظم أباطرة الصين استنارة وهو الإمبراطور كانج-شى ، وكان ملكاً أصيلاً جمع كل صفات الملوك كما جمعها معاصره لويس الرابع عشر . وقد أمر هذا الملك بإعادة بناء مصانع چنج ده — چین ، وسرعان ما أوقدت النار في ثلاثة آلاف مصنع أخذت تعمل عملها المتواصل ، فأخرجت خزفاً جميلاً ظريفاً بلغ من الكثرة درجة لم تر الصين ولا غيرها من البلاد مثيلاً لها من قبل . وكان صناع كانج شى يظنون أن آتيتهم أقل جودة مما صنع في عهد أسرة منج ، ولكن الخبيرين بأصول الفن في هذه الأيام لا يوافقونهم على رأيهم ، بل يرون أن الأشكال القديمة قد قلّت تقليداً بلغ أقصى درجات الكمال ، وأن أشكالاً جديدة كثيرة العدد مختلفة الأنواع قد ابتكرت وارتقت رقياً عظيماً .

وكان في مقدور الفنانين في عهد أباطرة المنشو أن يغطوا عجينة الخزف بطبقة زجاجية تختلف عنها في سرعة انصهارها ، فأخرجوا بذلك أواني ذات سطح مسنن ؛ ثم كان في مقدورهم أن ينفخوا فقاعات من اللون على السطح الزجاجي فأخرجوا بذلك الصعاف الرفيعة المغطاة بدوائر صغيرة من الألوان . وأنقنوا كذلك فن التلوين بلون واحد وأخرجوا ظلالاً من اللون الأحمر الخوخى ، والمرجاني ، والياقوتي ، والقرمزي ، ودم الثور (الأحمر القاتم) والوردي ؛ وأخرجوا من اللون الأخضر الخياري ، والتفاحي ، والطاووسي ، والنباتي ، والسلاطون (الأخضر الحائل) ؛ ومن اللون الأزرق « المزرا » ، والسموي ، والبنفسجي الفاتح ، والفيروزجي ؛ ومن اللونين الأصفر والأبيض ضرباً ملساء مخملية كل ما يستطيع الإنسان أن يصفها به أنها النعومة ذاتها ترى رأى العين . وابتدعوا أماناً مزخرفة يطلق عليها جامعوا التحف الفرنسيون الأسر الوردية ؛ والخضراء ،

والسوداء ، والصفراء^(*) . وقد أتقنوا ذلك الفن الشاق فن تعدد الألوان بتعريض الإيناء في التنور إلى تيارات متعاقبة من الهواء الصافي والحمل بالسناج — الأول يدخل فيه الأكسجين ، والثاني يمتصه منه — بحيث يتحول الطلاء الزجاجي الأخضر إلى لُب متعدد الألوان . وكانوا يرسمون على بعض انيتهم صور كبار الموظفين في أبواب قضاة ذات ذبول طويلة ، فابتدعوا بذلك طراز الآنية المعروفة « بالندزين » (طراز كبار الموظفين) . وكانوا يرسمون أزهار البرقوق باللون الأبيض فوق أرضية زرقاء (أو سوداء في قليل من الأحيان) ، وهم الذين ابتدعوا ما للمزهريات التي في صورة العوسج من رقة ورشاقة .

وكان آخر ما مر به الخزف الصيني من عهود المجد في عهد تشين لويج الرخي الطويل . ولم يقل الإنتاج في ذلك العهد عما كان عليه في العهود التي تقدمته ، كما أن مهارة الصناع الممتازين لم تفقد شيئاً من عظمتها وتفوقها وإن لم تحظ ببعض الأشكال الجديدة بما كانت تحظى به مبتكرات عهد كانج شى من نجاح . وقد بلغت الأسرة الورديّة في هذا العهد أعلى درجات الكمال . فقد انتشرت فيها نصف أزهار الطبيعة وفاكهتها فوق أبهى الطبقات الزجاجية ، كما كان ذوو الثراء المترفون يستخدمون الخزف الثمين الذي لا يزيد سمكه على سمك قشرة البيض غطاء لأضواء المصابيح^(١١٤) . ثم شبت نار فتنة دى — پنج ودامت خمسة عشر عاماً جرت فيها الدماء أنهاراً ، ودمرت خمس عشرة ولاية من الولايات الصينية ، وهدمت ستمائة مدينة ، وأهلكت عشرين مليوناً من الرجال والنساء . وأقمرت أسرة المنشو إقفاراً اضطرها إلى أن تحبس معوتها عن مصانع الخزف ، فأغلقت هذه المصانع أبوابها ؛ وتشتت صناعاتها في أنحاء العالم المضطرب . ولم يبق فن الخزف الصيني حتى الآن مما أصابه من الهمار في أثناء هذه الفتنة

(*) وفي متحف الفن بمدينة نيويورك أتموزجان ممتازان من المجموعتين الأخيرتين .

الصماء ولغله لن يفيق منها أبداً . ذلك ان عوامل أخرى قد ضاعفت من آثار



شكل ٩ - مزهرية عليها نقش اشجرة العضة
من عهد كانيج - ثي

الحرب الخطيرة ومن امتناع الرعاية الإمبراطورية ؛ منها أن نمو تجارة الصادرات قد أغرى الفنانين بأن يخرجوا قطعاً خزفية توأم ذوق المشتريين الأوربيين . وإذا كانت ذلك الذوق لا يبلغ من السمو ما بلغه ذوق أهل الصين فإن القطع المنحطة طردت القطع الثمينة من التداول ، كما تطرد العملة الرديئة العملة الطيبة حسب قانون جريشام^(*) .

وما أن حل عام ١٨٤٠ حتى شرع مصنع إنجليزى أقيم في مدينة كانتون يخرج أنواعاً منحطة من الخزف ويصدرها إلى أوروبا ويسمىها « الأوانى الصينية » . ثم قامت مصانع في سيثر بفرنسا ، ومايسن في ألمانيا وبورسلم في إنجلترا تماكي خزف الصينيين ، وقلت من نفقات الإنتاج باستخدام الآلات ، وأخذت تستحوذ عاماً بعد عام على تجارة الخزف الصينية الخارجية .

وكل ما بقي حتى الآن هو ذكرى ذلك الفن الذى خسره العالم خسارة كاملة لاتكاد تقل عن خسارته لزعاج المصور الوسطى الملون . ولقد عجز الخزافون الأوربيون رغم ما بذلوه من محاولات وجهود جبارة عن أن يبلغوا ما بلغه الخزافون الصينيون من الدقة والمهارة . وحسب الفنانين الصينيين فخرأ أن الخبراء العالميين يضاعفون في كل عقد من السنين أثمان ما بقي من روائع فن الخزف الصينى ، فتراهم يطلبون خمسمائة ريال ثمناً لقدم الشاي ، ويبيعون المزهرية التى فى صورة شجرة العوسج بثلاثة وعشرين ألف ريال ، وفى عام ١٧٦٧ وصل ثمن إناءين من الخزف بلون العقيق يعرفان « بكلي فو » فى أحد المزادات إلى خمسة أضعاف ما وصل إليه ثمن صورة « الطفل يسوع » لجيدروتى ، وإلى ثلاثة أمثال ما وصل إليه ثمن صورة « الأسرة المقدسة » لرفائيل^(١١٥) . على أن كل من أحس بعينيه وأصابه ، وبكل عصب من أعصاب جسمه ، جمال الخزف الصينى بغضب

(*) هو قانون النقد المشهور الذى يقول إنه إذا وجد فى بلد ما عملتان إحداهما جيدة والأخرى رديئة فإن العملة الرديئة لا تلبث أن تطرد العملة الجيدة . (المترجم)

بلا ريب من هذا التقدير الضئيل وبعمده إهانة للفن الصيني وازدراء به وتدنيساً
لقدسيته . ذلك أن دنيا الجمال ودنيا الملل لاثنيان أمداً حتى في الوقت الذي
تباع فيه الأشياء الجميلة . وحسبنا تقديراً للخزف الصيني أن نقول إن هذا الخزف
هو ذروة الحضارة الصينية ورمزها ، وإنه من أنبل ما صنعتها الجنس البشري ليبرر
به وجوده على ظهر الأرض . -

الباب السادس والعشرون

الشعب والدولة

الفصل الأول

نبذة تاريخية

١ — ماركو بولو يزور كوبيلاي خان

رسالة لا يصدّقون - يندق في الصين - جمال هانجشتان ورخاؤها - قصور
بيجينج - فتح المغول - چنگيز خان - كوبيلاي خان - أخلاقه
وسياسته - ساؤو - «ماركو الملايين»

في عصر البندقية الذهبي حوالي عام ١٢٩٥ أقبل على المدينة رجلان طاعتان
في السن ومعهما رجل كهل ، وقد أنهكهم التعب وأضنتهم الأسفار ، يحملون متاعهم
على ظهورهم ، ويلبسون أسمالا بالية ، ويعلمون الكثير ، ثم طلبوا إلى أهل المدينة أن
يأذنوا لهم بدخول موطنهم الذي غادروه كما زعموا منذ ستة وعشرين عاماً ، فلما
تردد مواطنوهم في الإذن لهم دخلوا المدينة على الرغم منهم . وقال ثلاثتهم إنهم
جاءوا بحاراً مفعمة بالأخطار ، وصعدوا فوق جبال وهضاب شائخة ، واجتازوا
صحارى ملاءى باللصوص وقطاع الطريق ، واخترقوا السور العظيم أربع مرات ،
وأقاموا عشرين عاماً في الخطأ^(*) ، وخدموا أعظم ملك في العالم كله . وأخذوا
يحدثون مواطنيهم عن إمبراطورية أوسع رقعة ، ومدن أكثر سكاناً ، وحاكماً

(*) الاسم الذي يطنقه الروس على بلاد الصين وهو في الأصل اسم قبيلة مغولية ، وقد
حور الإنجليز هذا الاسم فجعلوه كاثاي Cathay . (المترجم)

أعظم ثروة، من كل ما عرفته ومن عرفته قارة أوربا؛ وعن حجارة تتخذ للتدفئة، وورق يتعامل به الناس بدل الذهب، وعن بندق الواحدة منه أكبر من رأس الإنسان، وعن أم تقف بكارة الفتيات فيها حجر عثرة في سبيل الزواج، وأم غيرها يقدم المضيف فيها لضيوفه أزواجه وبناته ليستمتعوا بهن وهن راضيات^(١). ولم يجد هؤلاء القادمون من أهل المدينة من يصدقهم، وأطلقوا على أصغر الثلاثة وأكثرهم ثروة لقب «ماركو الملايين» لأن ما كان يرويه لهم من القصص كان مملوفاً بالأعداد الكبيرة العجيبة^(٢).

ولم يبتئس ماركو وأبوه وعمه من هذا المصير، بل رضوا به مسرورين، لأنهم جاءوا معهم بكثير من الأحجار الكريمة من حاضرة البلاد القاصية، وأنت لهم هذه الأحجار بثروة رفعت منزلتهم في مدينتهم. ولما دارت رحى الحرب بين البندقية وجنوى في عام ١٢٩٨ عقد لواء إحدى السفن الحربية لماركو، فلما أن استولى الأعداء على هذه السفينة وألقي هو في أحد سجون جنوى حيث مكث عاماً كاملاً، أخذ يسلى نفسه بأن يملى على أحد الكتبة أشهر كتاب في الأسفار في آداب العالم؛ وقد قص فيه بأسلوب ساخر جميل خال من التكلف والتعقيد كيف غادر هو وأبوه نيقولو وعمه مافيو مدينة عكا ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وكيف تسلقوا جبال لبنان واجتازوا أرض الجزيرة إلى الخليج الفارسي، ثم اخترقوا بلاد فارس وخراسان وبلخ حتى وصلوا إلى هضبة «اليامير»، ثم انضموا إلى بعض القوافل وساروا معها سيراً بطيئاً إلى كاشغر وخوتان، ثم اجتازوا صحراء جنوى إلى تنجوت، ثم اخترقوا السور العظيم إلى شانجتو حيث استقبلهم الخان الأكبر بوصفهم رسلاً أذلاء من العرب الناشئ^(٣).

(*) شانجتو هي المدينة التي يسميها الشاعر الإنجليزي كولردج «رندو»، ولم يرق أحد من الرحالة بعد ماركو بولو (إلا واحد منهم نسيه الناس على مر الأجيال) أقاليم آسيا الوسطى التي وصفها إلا في عام ١٨٣٨.

ولم يكونوا يظنون أنهم سيقيمون في الصين أكثر من عام أو عامين ، ولكنهم وجدوا في تلك البلاد من الأعمال الحزينة والفرص التجارية المربحة تحت حكم كوبلاي ما حملهم على البقاء فيها ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً . وأثرى ماركو بنوع خاص وارتقى في مناصب الدولة حتى عين حاكماً على هانجتشاو . ويصفها ماركو في كتابه وصف المعجب بها الحافظ لعهدها ، فيقول إنها أرق من بلاد أوروبا بأجمعها في جمال مبانيها وجسورها وفي عدد مستشفياتها العامة ورشاقة دورها ذات الحدائق ، وكثرة ما فيها من وسائل المتعة والفساد ، وجمال سراريها وسحرهن ، وقدرة حكامها على الاحتفاظ بالأمن العام والنظام ، ورقة أهلها وحسن أخلاقهن ، ويقول إن محيط المدينة يبلغ مائة ميل وإن :

« طرقاتها وقنواتها عريضة تتسع أولاً للمرور العربات وأخراً للمرور السفن محملة بالبضائع التي يحتاج إليها ساكنوها . والشائع على ألسنة الناس أن عدد ما فيها من الجسور على اختلاف أحجامها يبلغ اثني عشر ألفاً ، وأن الجسور الممتدة فوق القنوات الكبرى والمتصلة بالشوارع الرئيسية مقامة على عقود عالية وبمهارة فائقة تستطيع معها السفن أن تمر من تحتها مبسوطة الشراع ، كما تستطيع العربات والخيول أن تمر من فوقها لتدرج إحداهما من الشوارع إلى أعلى العقود ... وفي داخل المدينة عشرة ميادين رئيسية وأسواق عامة غير ما فيها من الحوانيت التي يخطئها الحصر ، والممتدة على جانبي شوارعها . . . ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع هذه الميادين نصف ميل ، وأمام الميدان يمتد الشارع الرئيسي ويبلغ عرضه أربعين خطوة ، ويسير مستقيماً من أحد طرفي المدينة إلى الطرف الآخر . وتجرى في اتجاه مواز إلى اتجاه الشارع الرئيسي ... قناة كبيرة أقيمت على شاطئها المجاور للمدينة مخازن واسعة مشيدة من الحجارة يأوى إليها التجار القادمون من الهند وغيرها من الأقطار ، ومعهم بضائعهم ومتاعهم . وبهذه الطريقة يسهل عليهم الاتصال بالأسواق العامة . ويجتمع في كل سوق من هذه الأسواق مدة ثلاثة أيام

فى كل أسبوع نحو أربعين أو خمسين ألف شخص ...
والشوارع كلها مرصوفة بالحجارة والآبر ... والشارع الرئيسى فى المدينة
مرصوف منه على الجانبين مسافة قدرها عشر خطوات ، أما ما بينهما فمملوء
بالخشب الصغيرة ومن تحتها مصارف مقيمة تجرى فيها مياه الأمطار تنقلها إلى
القنوات المجاورة بحيث يبقى الشارع جافاً على الدوام . والمركبات لا ينقطع
مرورها على هذه الخشب جيئة وذهاباً . وهى طويلة الشكل مغطاة من أعلاها ،
ولها ستائر ووسائد من الحرير وتتسع لسته أشخاص ، يستأجرها أهل المدينة
رجالاً كانوا أو نساء ممن يميلون إلى التزه والاستمتاع بركوبها ...

ومن حول الأماكن فى جميع الجهات مساح لصيد الحيوان على اختلاف
أنواعه ... ولا يبعد البحر عن المدينة أكثر من خمسة عشر ميلاً ، وتحمل إليها منه
فى كل يوم عن طريق النهر كميات كبيرة من السمك ... وإذا رأى الإنسان هذا
السمك حين يأتى إلى المدينة ظن أول وهلة أنه لن يباع كله فيها ، ولكنه لا تمضى
على مجيئه إليها إلا ساعات قليلة حتى يباع عن آخره وذلك لكثرة من فيها
من السكان ... والشوارع المتصلة بالسوق كثيرة العدد وفى الكثير منها حمامات
باردة يشرف عليها خدم وخادمت . وقد اعتاد من يتردد عليها من رجال ونساء
أن يستحموا فيها بالماء البارد منذ صغرهم لاعتقادهم أن الاستحمام بالماء البارد
مفيد لأجسامهم . لكن هذه الحمامات قد أعدت بجوارها مع ذلك حجرات مجهزة
بالماء الساخن ليستحم فيها الغرباء الذين لا يتحملون الماء البارد . ومن عادة الأهلىين
كلهم أن يفتسلوا فى كل يوم وخاصة قبل وجبات الطعام ...

وخصت فى شوارع أخرى من المدينة أحياء للماهرات وهن يبلغن من
الكثرة حداً لا أجرو على ذكره ... وهؤلاء النسوة يلبسن الملابس الجميلة ،
ويتعطرن ، ويسكن فى بيوت جميلة الأثاث ، ويقوم على خدمتهن كثيرات
من الخادمت .

وفى شوارع أخرى يقيم الأطباء والمنجمون ... وقد أنشئت على جانبي شارع المدينة الرئيسى بيوت وقصور رحبة ... وأهل المدينة كلهم رجالا كانوا أو نساء بيض الوجوه على جانب كبير من الجمال ، يرتدى معظمهم ملابس من الحرير ... والنساء ذوات جمال بارع ويعودن من صفرهن الرقة والنحافة ، وليس فى وسع من لم يشهد هؤلاء النسوة أن يتصور ما يتجلىن به من حرير وجواهر^(٣) .

وقد أعجب ماركو بولو بمدينة بيجنج (أو كمبلوك كما كانت تسمى وقتئذ) أكثر من إعجابه بهانجتشاو نفسها ، فهو إذ تحدث عنها عجزت ملاينته عن وصف ثروتها وتعداد عامرها . وكانت ضواحي المدينة الاثنتا عشرة أجمل منها نفسها ، ذلك بأن رجال الأعمال قد شادوا فى هذه الضواحي كثيراً من البيوت الجميلة^(٤) . وكان فى المدينة نفسها كثير من الفنادق وآلاف المتاجر الثابتة والمتنقلة . وكان الطعام فيها على اختلاف أنواعه موفوراً ، وكان يدخلها فى كل يوم ألف حمل من الحرير الخام لتصنع ملابس لأهلها . وقد كان للخان قصور فى هانجتشاو وشانجتو وغيرها من المدن ولكن أكبر قصوره كان فى بيجنج نفسها . وكان يحيط بهذا القصر سور من الرخام ويصعد إليه بدرج من الرخام أيضاً . وكان مبناه الرئيسى كبيراً « يتسع لأن تمد فيه موائد الطعام لجماعات كبيرة من الناس » . وقد أعجب ماركو بتنظيم الغرف ، وبنوافذها البراقة الدقيقة الشفافة ، وبما ينفى سقفا من قرميد مختلف الألوان ، ويقول إنه لم يرفى فى حياته مدينة فى مثل غناها ولا ملكاً فى عظمة ملكها^(٥) .

وما من شك فى أن الشاب البندقي قد تعلم اللغة الصينية حتى استطاع أن يتحدث بها ويقرأها ، ولعله عرف من المؤرخين الرسميين كيف فتح كوبلاى وأسلافه المغول بلاد الصين . وكان سبب غزوات المغول أن ما أصاب الأقاليم الممتدة بإزاء حدود الصين الشمالية الغربية من جفاف قد أحالها صحراء جدهاء

عاجزة عن الوفاء بحاجة أهامها الأقوياء ، فاندفع المغول (أى البواسل) إلى شن الغارات المستيئة لامتلاك بلاد أخصب من بلادهم وأوفر منها أرزاقاً . وكان نجاحهم فى غاراتهم سبباً فى تقوية روحهم العسكرية ونزعتهم الحربية ، فلم يقفوا فى فتوحهم إلا بعد أن اكتسحت جحافلهم بلاد آسية كلها إلا القليل منها ، وأجزاء من أوربا . وتقول الروايات إن قائدهم الجبار جنكيزخان قد ولد وفى كفه جلطة من الدماء ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره أخذ يؤلف بين قبائل المغول ويجمعها تحت لوائه . واتخذ الإرهاب وسيلة إلى هذا الجمع ، فكان يصلب الأسرى على حير من الخشب ، أو يقطعهم إرباً ، أو يقلى أجسامهم فى القدور ، أو يسلخ جلودهم وهم أحياء . ولما تلقى من إمبراطور الصين تنج دزونج رسالة يدعوها فيها للخضوع بصق فى اتجاه عرش التنين ، وبدأ من فوره حملته مجتازاً ألفاً ومائتين من الأميال فى قلب صحراء جوى ؛ وهجم على ولايات الصين الغربية ، ودمر من مدائنها تسعين مدينة سواها بالأرض حتى يستطيع الفرسان أن يسيروا فوق الأراضى المخربة فى الظلام دون أن تشر خيولهم . وظل « عاهل العالم » خمس سنين كاملة يخرب فى بلاد الصين الشمالية . ثم أزعجه اقتران كوكبين من الكواكب رأى فى اقترانهما نذير مشئوم ، فقفل راجعاً إلى قريته ، ولكنه مرض ومات فى الطريق .

وواصل خلفاؤه أو جوادى ، ومانجو ، وكوبلاى حملاته بقوة همجية ؛ وكان الصينيون قد أهملوا فنون الحرب ووجهوا همهم كله مدة قرون عدة إلى الثقافة ، فلم يثبتوا أمام الغزاة بل خروا صرعى يحللهم العار القومى والبطولة الفردية ، وثبت أحد حكام الصين فى جويتنج — فو وسمد للحصار حتى قتل المحاصرون كل من كان فى المدينة من الشيوخ والعاجزين وأكلوا لحومهم ، وهلك جميع القادرين على القتال ولم يبق لحراسة الأسوار إلا النساء ، ثم أشعل النار فى المدينة واحترق هو نفسه فى قصره . واجتاحت جيوش كوبلاى بلاد الصين حتى وقفت أمام

كنتون آخر ملجأ لجأت إليه أسرة سونج الحاكمة . فلما عجزت الجيوش الصينية عن المقاومة حمل لوشى يوفو القائد الصينى الإمبراطور الغلام على ظهره وألقى به وب نفسه فى البحر فاتا معا . ويقال إن مائة ألف من الصينيين آثروا الموت غرقاً على التسليم للفتح المغولى . وأمر كوبلاى أن يحتفل بجزاة الإمبراطور احتفالاً رسمياً كبيراً ، وشرع يؤسس الأسرة اليوانية « الأصيلة » وهى الأسرة المغولية التى حكمت الصين أقل من مائة عام .

ولم يكن كوبلاى نفسه بربرياً همجياً . وليس أهم ما يستثنى من هذا الوصف هو سياسته الفادرة لأن القدر كان من الأخلاق الشائعة فى تلك الأيام ، بل أهم ما يستثنى منه هو ما عامل به ون تيان — شيانج ، وهو عالم وطنى أبى أن يعترف بحكومة كوبلاى وخاء منه لأسرة سونج . فألقاه كوبلاى فى السجن ومكث فيه ثلاث سنين ولكنه أبى أن يخضع وكتب فى سجنه تلك القطعة التى تعد من أشهر ما كتب فى الأدب الصينى كله :

إن سجنى لا يضيؤه إلا الصيهد ولا تدخله نسمة من نسمة الربيع لتؤنسنى فى وحدتى وتخفف بعض ظلمته ... وكثيراً ما فكرت فى أن أقضى على نفسى من فرط ما أتر فى من الضباب والندى ، ولكن الموت ظل عامين كاملين يحوم حولى ولا يقضى علىّ ؛ وأضحت الأرض الرطبة المضرة بالصحة جنة الفردوس نفسها . ذلك بأنه كان يستقرين جوانحى ما لا تستطيع الثمبات أن تفتصبه منى ، ولهذا بقيت مطمئن القلب ثابت الجنان أتطلع إلى السحب البيضاء فوق رأسى وأطوى قلبى على آلام لا حد لها كالأحد للسماء .

واستدعاه كوبلاى آخر الأمر إلى المثول بين يديه وسأله الملك قائلاً : « أى شئ تريد ؟ » فجابته ون بهوله : « لقد عطف علىّ إمبراطور سونج فجعلنى وزيراً لجلالته ، وليس فى وسعنى أن أخدم سيدين ، وكل ما أطلبه أن أموت ! » . وأجابته كوبلاى إلى ما طلب ؛ وبينما كان ون ينتظر أن يهوى سيف الجلاد على

عنقه انحنى فى خضوغ واحترام نحو الجنوب كان الإمبراطور من آل سونج لا يزال يحكم فى نانكنج العاصمة الجنوبية^(٧) .

ومع هذا فقد أوتى كوبلاى من الحكمة ما جعله يعترف بتفوق الصينيين على المغول فى ميدان الحضارة ، ويعمل من أجل هذا على مزج عاداتهم بعادات أهل بلاده . وكان لا بد له أن يلغى نظام تقلد المناصب العامة بالامتحان ، وذلك لأنه لو اتبع هذا النظام لكان جميع الموظفين فى حكومته من الصينيين ، ثم قصر معظم الوظائف الكبرى على أتباعه من المغول وحاول وقتاً ما أن يدخل إلى البلاد الحروف الهجائية المغولية ، ولكنه قَبِلَ هو وأتباعه ، فى معظم شئونهم حضارة الصين ، وما لبثوا أن استحلوا بفضل هذه الحضارة أمة صينية . وما يذكر له أنه أباح ما كان فى الصين من ديانات ، وشجع دخول الديانة المسيحية فى البلاد لأنه رأى فيها أداة صالحة لتهدئتها وبسط سلطانه عليها . وأعاد فتح القناة العظمى بين تينغسين وهنجتشاو ، وأصلح الطرق الكبرى ، وأنشأ نظاماً سريعاً للبريد فى أقاليم أوسع رقعة من البلاد التى خضعت لحكومة الصين منذ جلس على عرشها ، وأقام فى البلاد أهراء عامة عظيمة ليخزن فيها ما يفيض عن حاجتها من المحصولات الزراعية ليوزعها على الأهلىن فى أيام القحط ، وألغى الضرائب عن جميع الزراع الذين أضربم زروعاتهم الجفاف والعواصف والحشرات^(٨) ، وأوجد نظاماً تعين الدولة بمقتضاه الشيوخ من العلماء والأيتام والعجزة ، وكان سخياً فى تشجيع التعليم والآداب والفنون وبسط رعايته عاىها . وقد عدل التقويم فى أيامه ، وافتتح الجمع العلمى الإمبراطورى^(٩) ، وشاد عاصمة جديدة للبلاد فى بيكين كانت لروعتها وكثرة

(*) وقد كتب ماركوبولو فى ذلك بقول : « لا يكاد يمضى يوم واحد لا يوزع فيه الموظفون المختصون ملء عشرين ألف وعاء من الأرز والذرة والقمح . وقد كان لهذا الكرم العظيم المدهش الذى يعامل به الخان العظيم الفراء من أهل البلاد أعظم الأثر فى نفوس الناس جميعاً فأحبوه وأجلوه . »

عاصرها موضع إعجاب من يزورها من الغرباء ، وشيدت القصور وازدهرت العمارة ازدهاراً لم تر الصين له مثيلاً من قبل .

ويقول ماركو پولو : « وقد كان پولو حاضراً في البلاد حين كان هذا كله يحدث فيها »^(١٠) واتصل الشاب بالخان وتقرّب إليه واستطاع بذلك أن يصف لنا ضروب تسليته وصفاً مفصلاً ينم عن إعجابه الشديد به ؛ ويقول إنه كان للخان فضلاً عن زوجاته الأربع اللاتي يسمين بالإمبراطورات عدد كبير من السراري جيء بهن من أنجوت في بلاد التتار لأن الإمبراطور كان يعجب بمجال نساء تلك البلاد . ويضيف ماركو إلى هذا قوله إن عدداً من الموظفين المشهود لهم بحسن الذوق كانوا يرسلون إلى هذا الإقليم ليجندوا لخدمة جلالة الإمبراطور مائة من الفتيات حسب الأوصاف التي كان هو نفسه يعنى بوصفها أشد العناية .

فإذا ما ملئن أمامه ، أمر أن تختبرهن اختباراً جديداً طائفة أخرى من الباحثين وأن يختار من بينهن ثلاثون أو أربعون فتاة يستبقين في قصره ... ثم يعهد بكل واحدة منهن إلى إحدى كبار السيدات في القصر لتتأكد من أنها ليس فيها شيء من العيوب التي تخفى عن الأعين وأنها تنام نوماً هادئاً ، ولا تغف في أثناء نومها ، ولا تنبعث رائحة كريهة من أى جزء من أجزاء جسمها . فإذا ما نجحن في هذا الاختبار الدقيق قسمن جماعات كل منها مؤلفة من خمس تقيم في حجرة جلالته الداخلية ثلاثة أيام وثلاث ليال يؤدين في خلالها كل ما يطلب إليهن من خدمات ويفعل بهن ما يشاء : فإذا ما انقضت هذه الفترة حلت محل تلك الجماعة جماعة أخرى وهكذا دواليك حتى تأخذ كل جماعة دورها ثم تعود الجماعة الأولى إلى الخدمة من جديد^(١١)

* * *

وبعد أن أقام ماركو پولو هو وأبوه وعمه عشرين سنة في بلاد الصين اغتنم ثلاثتهم فرصة قيامهم بعجمة إلى الفرس ، أوفدهم بها الخان ، فعادوا إلى بلادهم بأقل

النفقات وأقل ما يمكن أن يتعرضوا له من الأخطار . وبعث معهم كوبلاي برسالة إلى البابا ، وحباهم بجميع ما كان معروفاً في ذلك الوقت من التسهيلات للمسافرين ، وقضوا في طوافهم بحراً حول شبه جزيرة الملايو إلى الهند وفارس وفي رحلتهم البرية إلى طبرزون على البحر الأسود وأخيراً في رحلتهم البحرية إلى البندقية ثلاث سنين . ولما وصلوا إلى أوروبا عرفوا أن الخان والبابا قد توفيا^(*) . وعمر ماركو طويلاً فلم يستسلم للموت حتى بلغ السبعين من عمره . فلما حضرته الوفاة طلب إليه أصدقاؤه أن ينجى نفسه من العذاب في الدار الآخرة بمحو ما ورد في كتابه من العبارات الواضحة البطلان ولكنه أخفهم برده عليهم : « إنى لم أذكر في كتابي نصف ما شاهدته » .

ولم يمض على وفاته إلا وقت قصير حتى أصبح من العادات المألوفة في حفلات البندقية الساخرة أن يرتدى شخص ثياب المهرجين ليسر الناس في تلك الاحتفالات بما ينطق به من المبالغات غير المعقولة ؛ وكان يطلق على هذا المهرج المساجن اسم « ماركو الملايين » :

٢ — أسرنا منج ومنج

ستوط المغول — أسرة منج — غزو المنشو — أسرة چنچ
— ملك مستنبر — شين لونج يأبى قبول الأفكار الغربية

ولم تعرف الصين بعدئذ مثل هذا العهد الزاهر إلا بعد أربعة قرون ، فسرعان ما دب الاضمحلال في أسرة يوان متأثرة بانهييار سلطان المغول في أوروبا وغرب آسيه وفي ذوبان المغول في جسم الشعب الصينى نفسه ، إذا جاز أن نلجأ إلى هذه العبارة السهلة المتجذلة لنعلم بها هذه الظاهرة التى تتكرر في جميع الأوقات . وهناك أسباب أخرى لا تقل عن هذين السببين قوة وخطراً ، ذلك أن إمبراطورية

(*) لقد أثبت كوبلاي اعتناقه مبادئ الحضارة الأوربية بما أصيب به من داء النقرس .

كالصين مدسة الرقعة ، قليلة التماسك من الناحية الطبيعية ، تفصلها الجبال والصحراوات والبحار لا يمكن أن تخضع إلى ما شاء الله لحكومة واحدة . وقد كان المغول رجال حرب خيراً منهم رجال حكم وإدارة ، ولذلك اضطر خلفاء كوبلاي خان أن يعودوا إلى نظام الامتحان وإلى الانتفاع بكفاية الصين الإدارية ، ولم يحدث الفتح المغولي أثراً يذكر في عادات الصينيين وأفكارهم إلا ما عسى أن يكون قد أدخله في الأدب الصيني من الروايات والمسرحيات . وتزوج الصينيون مرة أخرى من فاتحيهم ومدنومهم وغلبهم على أمرهم . حتى إذا كان عام ١٣٦٨ تزعم أحد الكهنة البوذيين السابقين ثورة على هؤلاء الفاتحين ودخل ييكنين منتصراً وأعلن نفسه أول إمبراطور من أسرة السنج (أى المتألقين) . وجلس على العرش في الجيل التالى ملك قدير من ملوك هذه الأسرة ، واستمعت الصين في عهد يويج لو مرة أخرى بعهد جديد من عهود الرخاء ، وعادت إلى تشجيع الفنون ، بيد أن عهد الأسرة « المتألقة » انتهى مع ذلك بفترة من الفوضى والاضطراب والغزو الخارجى ؛ وبينما كانت البلاد منقسمة إلى أحزاب متنافرة متعادية اجتاحتها جحافل جديدة من الغزاة الفاتحين ، واقتحمت السور العظيم وحاصرت ييكنين . تلك هى جحافل المنشو .

وكان المنشو شعباً تنجوسياً ظل قروناً كثيرة يعيش في البلاد التى تعرف الآن باسم منشوكو (أى مملكة المنشو) ، ومدوا فتوحهم في أول الأمر نحو الشمال حتى وصلوا إلى نهر عامور ، ثم اتجهوا نحو الجنوب وهجموا على عاصمة الصينيين . وجمع آخر أباطرة المنج أسرته حوله وشرب نخبهم ، وأمر زوجته أن تلتجر^(٥) ، ثم شق نفسه بمنطقة بعد أن كتب آخر أوامره على طية ثوبه : « نحن الفقراء في الفضيلة ، ذوى الشخصية الحقيمة ، قد استحققنا غضب الله العلى القدير .

(٥) وصعدت بما أمرت ، ونقول الروايات الماثورة إن الكهيزات من السراى قد حملون حملوها .

« لقد غررني وزرائي وإني لأستحي أن ألقى في الآخرة آبائي وأجدادي ، ولهذا فإني أخلع يدي تاجي عن رأسي ، وأنتظر وشعري يغطي وجهي أن يقطع الثوار أشلائي ، لا تؤذوا أحداً من أبناء شعبي »^(١٥) . ودفنه المنشو باحتفال يليق بكرامته وأسسوا أسرة الشنيج (الطاهرة) التي حكمت الصين حتى عهدنا الثوري الحاضر .

وسرعان ما أصبحوا هم أيضاً صينيين واستمتعت البلاد تحت حكم كانج شي بعهد من الرخاء والسلام والاستنارة لم تعرف له مثيلاً في تاريخها كله . جلس هذا الإمبراطور على العرش وهو في السابعة من عمره ، فلما بلغ الثالثة عشرة أمسك بيده زمام الأمور في إمبراطورية لم تكن تشمل وقتئذ بلاد الصين وحدها بل كانت تشمل معها بلاد المغول ومنشوريا وكوريا والهند الصينية وأنام والتبت والتركستان . وما من شك في أنها كانت أكبر إمبراطوريات ذلك العهد وأكثرها ثروة وسكاناً . وحكمها كانج شي بحكمة وعدل حسدها عليهما معاصراه أورنجيزب ولويس الرابع عشر . وكان الإمبراطور نفسه رجلاً نشيطاً قوى الجسم والعقل ، ينشد الصحة في الحياة العنيفة خارج القصور ويعمل في الوقت نفسه على أن يلم بعلوم تلك الأيام وفنونها . وكان يطوف في أنحاء مملكته ويصلح ما فيها من العيوب حيثما وجدها ، ومن أعماله أنه عدل قانونها الجنائي . وكان يعيش عيشة بسيطة ليس فيها شيء من الإسراف أو الترف ويمتصد في نفقات الدولة الإدارية ويفتخر بالعمل على رفاهية شعبه^(١٦) . وازدهرت الآداب والعلوم في أيامه بفضل تشجيعه إياها ومفاصرتها ؛ وعادفن الخلف إلى أعلى ما وصل إليه في أيام مجده السابقة . وكان متسامحاً في الأمور الدينية فأجاز كل العبادات ، ودرس اللغة اللاتينية على القساوسة اليسوعيين ، وصبر على الأساليب الغربية التي كان يتبعها التجار الأوروبيون في ثغور بلاده . ولما مات بعد حكمه الطويل الموافق (١٦٦١ — ١٧٢٢) كان آخر ما نطق به هو هذه الألفاظ : « إني

لأخشى أن تتعرض الصين في مئات أو آلاف السنين المقبلة إلى خطر الاصطدام مع مختلف الأمم الغربية التي تفد إلى هذه البلاد من وراء البحار^(١٧) .

وبرزت هذه المشاكل الناشئة من ازدياد التبادل التجارى والاتصال بين الصين وأوروبا مرة أخرى في عهد إمبراطور آخر قدير من أسرة المنشو هو شين لونج . وكان هذا الإمبراطور شاعراً أنشأ ٣٤٠٠ قصيدة إحداها في «الشاي» وصلت إلى مسامع قنشير فأرسل « تحياته إلى ملك الصين الفاتن »^(١٨) ؛ وصوره المصورون الفرنسيون وكتبوا تحت صورته باللغة الفرنسية أبياتاً من الشعر لا توفيه حقه من الثناء يقولون فيها :

« إنه يعمل جاهداً دون أن يخلد إلى الراحة للقيام بأعمال حكومته المختلفة التي يعجب الناس بها . وهذا الملك أعظم ملوك العالم وهو أيضاً أعلم الناس في إمبراطوريته بفنون الأدب » .

وحكم الصين جيلين كاملين (١٧٣٧ — ١٧٩٦) ، ونزل غن الملك لما بلغ الخامسة والثمانين ، ولكنه ظل يشرف على حكومة البلاد حتى توفي (١٧٩٩) .

وحدثت في آخر سنى حكمه حادثة كان من شأنها أن تذكر المفكرين من الصينيين بما أنذرهم به كانج — شى ، فقد أرسلت إنجلترا بعد أن أثارت غضب الإمبراطور باستيراد الأفيون إلى بلاد الصين بمئة برياسة لورد مكارتنى لتفاوض شين لونج في عقد معاهدة تجارية بين البلدين . وأخذ المبعوثون الإنجليز يشرحون للإمبراطور المزايا التي تعود عليه من تبادل التجارة مع إنجلترا ، وأضافوا إلى أقوالهم أن المعاهدة التي يريدون عقدها سيفترض فيها مساواة ملك بريطانيا بإمبراطور الصين . فما كان من شين لونج إلا أن أملى هذا الجواب ليرسل إلى جورج الثالث :

« إن الأشياء المعجبية البديعة لا قيمة لها في نظرى ؛ وليس لمصنوعات بلادكم فائدة لدى . هذا إذن هو ردى على ما تطلبون إلى من تعيين بمنزلكم في بلاطى

وهو طلب يتعارض مع عادات أسرتى ولا يعود عليكم إلا بالمتاعب . لقد شرحت لك آرائى مفصلة وأمرت مبعوثيك أن يبادروا البلاد فى سلام عائدين إلى بلادهم ، وخلق بك أيها الملك أن تحترم شعورى هذا ، وأن تكون فى المستقبل أكثر إخلاصاً وولاء مما كنت فى الماضى ، حتى يكون خضوعك الدائم لعرشى من أسباب استمتماع بلادك بالسلم والرخاء فى مستقبل الأيام »^(١٩) .

بهذه العبارات القوية الفخورة حاولت الصين أن تدرأ عنها شر الانقلاب الصناعى . ولكننا سنعرف فى الفصول التالية كيف غزت الثورة الصناعية البلاد رغم هذا الاحتياط . ولندرس الآن قبل الكلام على هذه الثورة العناصر الاقتصادية والسياسية والخلقية التى تتألف منها تلك الحصاراة القذة للسنديرة الجديرة بالدرس ، والتى يبدو أن الثورة الصناعية ستقضى عليها القضاء الأخير .

الفصل الثمانى

الصينيون ولغتهم (*)

تعداد السكان - مظهرهم الخارجى - ملبسهم - خصائص
اللغة الصينية - خصائص الكتابة الصينية

إن أول عنصر من عنصر الصورة التى سنرسمها فى هذا الفصل هو عنصر العدد؛ فالصينيون كثيرون، وليس عددهم معروفاً بالضبط، وكل ما يقال عنه من قبيل الحدس والتخمين. ويظن بعض العلماء أن سكان الصين فى عام ٢٨٠ ق.م كانوا يبلغون حوالى ١٤٠٠٠٠٠٠ وأنهم وصلوا فى عام ٢٠٠ ق.م إلى ٢٨٠٠٠٠٠٠ وفى عام ٧٢٦ ق.م إلى ٤١٥٠٠٠٠٠ وفى عام ١٦٤٤ بعد الميلاد إلى ٨٩٠٠٠٠٠٠ وفى عام ١٧٤٣ إلى ١٥٠٠٠٠٠٠ وفى عام ١٩١٩ إلى ٣٣٠٠٠٠٠٠^(٢٠). ويقول أحد الرحالة الأوربيين إنه أحصى فى الصين فى القرن الرابع عشر «مائتى مدينة كل واحدة منها أكبر من مدينة البندقية»^(٢١) وإحصاء السكان فى الصين يحدث تنفيذاً لقانون يحتم على كل صاحب بيت أن ينقش اسم كل ساكن فيه على لوحة عند مدخله^(٢٢). ولسنا نعلم بطبيعة الحال مدى صحة هذه اللوحات، ولا مدى صحة التقارير التى يقال إنها توضع على أساسها، وحسبنا أن نقول إن سكان الصين يبلغون الآن حوالى أربعمائة مليون من الأنفس. ويختلف الصينيون فى أجسامهم، فهم فى الجنوب أقصر قامة وأضعف أجساماً منهم فى الشمال، غير أنهم بوجه عام أنشط أهل قارة آسية وأكثرهم حيوية، ذوو بأس وصبر على الشدائد والآلام، شديداً المقاومة للأمراض، سريعوا التأقلم فى كل مناخ؛

(*) إن هذا الوصف الذى نصف به المجتمع الصينى لينطبق بنوع خاص على ذلك المجتمع فى القرن التاسع عشر. أما ما حدث فى هذا المجتمع من تطورات على أثر اتصاله بالأمم الغربية فسندرسه فى الفصول التالية. ويجب أن يؤخذ كل ما نورد من وصف له بالتحذر والاحتياط لأنه ما من حضارة من الحضارات تكون ماثلة فى عهد طويل أو فى رقعة من الأرض واسعة.

وقد استطاعوا بفضل هذه الصفة أن يعيشوا ويثروا في مناطق العالم كلها تقريباً . ولم يقو الأفيون ولا الزهرى ولا عدم الزواج بغيرهم من الشعوب على إضعاف صحتهم ؛ وإذا كان نظامهم الاجتماعى قد انهيار فى الأيام الأخيرة فإن هذا الانهيار لم يكن نتيجة ضعف ظاهر فى قواهم الجسمية أو العقلية .

ووجه الصينى ينم عن أنه أذكى خلق الله طراً ، وإن لم يكن هذا الوجه على الدوام جميلاً جذاباً . نعم إن بعض الطبقات المعدمة تبدو فى أعين الغربيين بشعة شديدة القبح ، وإن لبعض المجرمين منهم نظرات خبيثة ما أجدر أصحابها بأن يكونوا ممثلين هزليين فى دور الخيالة ، ولكن كثرتهم العظلى ذات ملامح منتظمة متناسبة هادئة ، زادها هدوءاً عاملان أحدهما جثائى وهو انخفاض الجفون وثانيهما اجتماعى وهو ما نعموا به من الحضارة التى دامت عدة قرون . وليس انحراف العينين كبيراً وانحماً إلى الحد الذى يتصوره المرء مما يقال أو يكتب عنهم ، وكثيراً ما تؤثر الشمس فى بشرتهم الصفراء فتخلع عليها لوناً أسمر جميلاً . ونساء الزراع منهم لا يكدن ينقص عن الرجال قوة فى الأجسام ، كما أن نساء الطبقات العليا رقيقات الحاشية جميلات يبيضن وجوههن بالمساحيق ، ويحمرن شفاههن وخدودهن ، ويسودن حواجهن ويزججنها حتى تكون أشبه بورقة الصفصاف أو الهلال^(٢٣) . وشعر الرأس خشن قوى عند الرجال والنساء ، خال من التجاعيد يعقسه النساء ويزينه عادة بالأزهار . ولقد أراد الرجال فى عهد آخر الأسر الحاكمة أن يسروا حكامهم فاتبعوا عادة المنشو وهى حاق شعر نصف الرأس الأعلى . ثم أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فتركوا شعر النصف الخلقى وجمعوه فى غديرة طويلة أصبحت على مر الزمن أداة لتقويم الخطئ ومظهراً من مظاهر الكبرياء^(٢٤) . ولحاهم لا تطول ، وكانوا يحلقونها على الدوام ، وقلماً كان الواحد منهم يحلق لحيته بيده ، فقد كان من عادة الخلاقين أن يطوفوا بالناس ومعهم أدواتهم ، وكانوا طائفة موفورة الكسب .

وكانوا عادة يتركون رؤوسهم عارية ؛ فإذا غطى الرجال رؤوسهم اتخذوا لهم في الشتاء قلانس من الخمل أو الفراء ذوات حافات مبطنة إلى أعلى ، وفي الصيف قلانس مخروطة الشكل مصنوعة من خيوط الخيزران المجدولة تعلو الواحدة منها إذا كان صاحبها ذا شأن ، كرة ملونة وشريط حريري .

أما النساء فكان يضعن على رؤوسهن ، إذا مكتهن من ذلك مواردهن ، أشرطة من نسيج الحرير أو القطن مزينة بالبهرجان والحلى أو الأزهار الصناعية ، وكانت الأحذية تتخذ عادة من الأقمشة المدفئة ، ولما كانت أرض المنازل تصنع في كثير من الأحيان من القرميد البارد أو الطين فإن الصيني كان يحمل معه أينما سار طنفسة صغيرة يضعها تحت قدميه . وقد نبقت في بلاط الإمبراطور لى هو — جو (حوالى ٩٧٠ ب. م) عادة ربط أقدام البنات وهن في سن السابعة بأربطة ضيقة لكي تبقى صغيرة فتمشى السيدة الكبيرة تحطاً خطراً بمعجب به الرجال . وكان يعد من سوء الأدب أن يتحدث الناس عن قدم السيدة كما كان يعد من الإهانة الفاضحة أن ينظر الرجل إلى هذه القدم ؛ بل إن الكلمة الصينية التي معناها القدم كان يحرم ذكرها في حضرة السيدات^(٢٥) . وانتشرت هذه العادة بين جميع الطبقات والجماعات عدا المنشو والتتار وأصبحت من العادات الثابتة الجامدة ، حتى لقد كان الكذب في حجم قدم العروس كافياً لإلغاء عقد الزواج^(٢٦) . وحاول كانبج شى أن يبطل هذه العادة ولكنه أخفق وظلت حتى أبطلتها الثورة فكان لإبطلها أثراً من آثارها الصالحة .

وكانت ملابس الرجال هي السراويل والجلابيب ، ويكاد لونها يكون على الدوام هو اللون الأزرق . وفي الشتاء كان السراويل يغطى بالعطاق ويضاعف عدد الجلابيب حتى يبلغ الثلاثة عشر في بعض الأحيان ، وكانت كلها تبقى على الجسم ليلاً ونهاراً طول فصل الشتاء ، فإذا أقبل الربيع خلعت تدريجاً واحداً بعد واحد^(٢٧) . وكان للثرز مختلف الطول فكان يصل حيناً إلى الحقوين وحيناً إلى

الركبتين وتارة إلى القدمين ، وكان يزرر إلى العنق ، وكان له كمان كبيران يفتيان عن الجيوب ، والصينيون لا يقولون إن الرجل وضع شيئاً ما في « جيبه » بل يقولون إنه وضعه في « كفه » أما القمصان والملابس الداخلية فلسنا نخطئ كثيراً إذا قلنا إنها كانت غير معروفة . وكانت النساء في الريف يلبسن سراويل كسراويل الرجال لأنهن قد اعتدن أن يعملن أعمال الرجال وأكثر من أعمال الرجال . أما في المدن فكان يلبسن فوق السراويل نقباً(*) . وكان الحرير كثيراً في المدن يستوى في ذلك هو والقطن .

ولم تكن للنساء مناطق تضغط على خصرهن أو مشدات تمسك أئداءهن ، وبذلك كانت ملابس الصينيين بوجه عام أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل وأكثر ملاءمة لصحة الجسم وراحته من ملابس الغربيين في هذه الأيام . ولم يكن لأنماط الملابس سلطان قوى على المرأة الصينية كما لم تكن الملابس وسيلة لتباين الطبقات ورفع بعضها فوق بعض . ذلك بأن أهل المدن مهما اختلفت أقدارهم كانوا لا يختلفون في ملابسهم ، كما أن هذه الملابس لا تكاد تختلف في الأجيال المختلفة . نعم قد يختلف القماش الذي يصنع منه الثوب ، أما شكله فقد كان واحداً على الدوام ، ولم تكن طبقة من الطبقات تشك في أن نمطاً من الأنماط سيبقى إلى أن يبلى الثوب .

والغة الصينيين تختلف عن سائر لغات العالم أكثر مما تختلف ملابسهم عن ملابس سائر اللغات . ذلك أنها ليست لها حروف ولا هجاء ولا نحو ، ولا تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف ، وإنما لمعجب كيف استطاعت هذه الأمة وهي أقدم أمم الأرض وأكثرها عدداً أن تعيش من غير هذه البلايا التي ابتلى بها شبان الأمم الغربية . ومن يدرى فلربما كان لهذه اللغة في الأيام الخالية المنسية اشتقاق ونحو وصرف وإعراب وتنثية وجمع وأفعال ماضية وحاضرة ومستقبلية ، ولكننا لا نجد

(*) هي المعروفة بالجنونلات .

أثراً لشيء من هذا في أقدم ما عرفنا من عهود هذه اللغة ، فكل كلمة فيها قد تكون اسماً أو فعلاً أو صفة أو ظرفاً بحسب سياقها وطريقة النطق بها . ولما كانت اللهجات الكلامية لا تحتوى على أكثر من ثلثمائة أو أربعمائة لفظ صوتي ذي مقطع واحد ، ولما كانت هذه المقاطع هي التي تستعمل للتعبير عن الأربعين ألف حرف المستخدمة في اللغة السكتانية فإن لكل واحد من هذه الألفاظ الصوتية « نغمت » تختلف من أربع إلى تسع بحيث يختلف معناه باختلاف طريقة النغنى به .

وتوضح حركات الجسم وسياق الكلام هذه النغمت ، وتجعل كل صوت يؤدي أغراضاً متعددة ، فحرف الباء وحده مثلاً قد يؤدي تسعة وستين معنى كما أن للفظ شي تسعة وخمسين ، ولللفظ كو تسعة وعشرين^(٣٠) . ولجئنا لعرف لغة من اللغات قد باغت ما بلغته اللغة الصينية من التعقيد والدقة والاختصار .

وكانت لغة الكتابة أكثر اختلافاً عن سائر لغات العالم من لغة الكلام . تشهد بذلك الأدوات التي استخرجت من هونان والتي يرجعها المؤرخون إلى عهد أسرة شانج وإن لم يكونوا واثقين من ذلك كل الثقة ، فقد وجدوا على هذه الأدوات كتابة برموز لا تختلف كثيراً عن الرموز المستعملة في هذا الجيل . ولهذا فإننا إذا استثنينا عدداً قليلاً من الأقباط الذين يتكلمون اللغة المصرية القديمة^(*) فإن اللغة الصينية هي أقدم اللغات التي يطق بها الناس في هذه الأيام وأوسعها انتشاراً . وكان الصينيون في بادئ الأمر يعقدون عقداً في خيوط لينقلوا بها رسائلهم ، وأكبر الظن أن حاجة الكهنة إلى نقل الطالسم السحرية وحاجة الفخريانيين إلى تمييز آيتهم بعضها من بعض هي التي أدت إلى الرموز المصورة^(٣٢) .

(*) فممن هم ما قلناه من قبل وهو أن أقباط مصر لا ينجلمون اللغة المصرية القديمة ، وإذا كان من إخواننا الأقباط من يعرفون اللغة القبطية فإنهم لا يستعملونها في كلامهم . وليست اللغة القبطية هي اللغة المصرية القديمة وإن احتوت بعض ألفاظها . (المترجم)

وكانت هذه الرموز المصورة البدائية منشأ العلامات الستائة ، وهى الرموز الأساسية فى الكتابة الصينية ؛ وقد سُمى نحو مائتين ، وأربعة عشر رمزاً منها « أصولاً » لأنها عفاصر أساسية . وجميع حروف اللغة الدارجة ، والحروف المستعملة فى الوقت الحاضر ، رموز معقدة غاية التعقيد أثقل فيها العنصر التصويرى البدائى بزيادات كثيرة يقصد بها تحديد معنى اللفظ تحديداً واضحاً ، ويكون ذلك فى العادة ببيان ما يطرأ من تغيير على نغمته . ولم يكتف الصينيون بأن يجعلوا لكل كلمة ينطقون بها علامة بل إنهم يجعلون لكل فكرة أيضاً علامة خاصة ، فهذه علامة يرمز بها للحصان وهذه علامة أخرى يرمز بها للحصان الأحمر الأسود ذى البطن الأبيض «^(٥)» كما يرمز برمز آخر للحصان ذى البقعة البيضاء على جبهته «^(٦)» . ولا تزال بعض هذه الرموز بسيطة بساطة نسبية ، فالقوس فوق خط مستقيم (أى الشمس فوق الأفق) معناها « الصباح » . والشمس والقمر مجتمعين يمثلان « الضوء » ؛ والفم والطارم معاً معناها « الغداء » ، والمرأة تحت سقف معناها « السلام » ؛ والمرأة والفم والعلامة الدالة على « الالتواء » يتكون منها الرمز الذى منه « خطر » ؛ والرجل والمرأة مجتمعين يعبران « شرشرة » ؛ والنزاع يعبر عنه بامرأة ذات فمين ؛ والزوجة يعبر عنها بالعلامات الدالة على امرأة ومكنسة وزوجة «^(٣٣)» .

وهذه لغة بدائية من بعض الوجوه استطاع أهلها بحفاظتهم الشديدة على القديم أن يبقوها حية فى هذه الأوقات « الحاضرة » . والصعوبات الكامنة فى هذه اللغة أوضح من مزاياها وفضائلها ، ويقال إن الصينى يحتاج إلى ما بين عشر سنين وخمسين سنة ليتعلم فيها جميع الأربعين ألف رمز التى تتكون منها

(*) فى اللغة العربية شئ . من هذا أو ما يقرب منه فهذه المعانى يؤدبها فى العربية لفظ الكيت والأبط ، ولكن هذا لا يبلغ بالضبط ملحه فى اللغة الصينية إذ يؤدبها فيها رمز واحد (المترجم)

(**) وهذا المعنى يؤدبه فى العربية لفظ أصتبع . (المترجم)

لغته ، ولكننا إذا عرفنا أن هذه الرموز ليست حروفاً بل أفكاراً ، ثم فكرنا في طول الوقت الذى نحتاجه لكي نعرف أربعين ألف فكرة من الأفكار أو حتى أربعين ألف كلمة من الكلمات ، رأينا أن في العبارات التى نستخدمها للمفاضلة بين اللغة الصينية وغيرها من اللغات ظمناً شديداً للصينيين ، وأن من واجبنا إذا كنا ننشد الإنصاف أن نقول إن الصينى يحتاج إلى خمسين عاماً ليعرف أربعين ألف فكرة . والواقع أن الصينى العادى يكفيه ثلاثة آلاف علامة أو أربعة آلاف ، وأن من السهل عليه أن يعرف هذا العدد بمعرفة « أصولها » السالفة الذكر . وأوضع ميزة لهذه اللغة — التى لا تعبر عن الأصوات بل عن الأفكار — هي أن الكوريين واليابانيين يسهل عليهم أن يقرؤوها كما يسهل على الصينيين ، وأنها تعد لغة كتابة دولية لبلاد الشرق الأقصى . يضاف إلى هذا أنها تجمع في نظام واحد من نظم الكتابة بين جميع سكان الصين الذين تختلف لهجاتهم اختلافاً يجعل التفاهم بينهم يكاد يكون مستحيلاً ، حتى أن الرمز الواحد يقرأ بأصوات مختلفة وكلمات مختلفة في مختلف البيئات . وهذه الميزة تنطبق على مختلف الأزمنة انطباقها على مختلف الأمكنة ، ذلك بأن لغة الكتابة قد بقيت واحدة في جوهرها على حين أن لغة الكلام قد تفرعت إلى ما ينيف على مائة من اللهجات . ومن أجل هذا كان في وسع الصينى غير الأُمى أن يقرأ الأدب الصينى الذى ظل يكتب بهذه الحروف نحو ألفى عام كاملة ، وإن كنا لانعلم كيف كان الكتاب الأقدمون ينطقون بالألفاظ التى كتبوها أو يعبرون عن الأفكار التى ترمز لها هذه العلامات . ولقد كان هذا الإصرار الشديد على الاحتفاظ بالكتابة الموحدة القديمة بين هذا الغيص الدافق من اللهجات الكلامية المتباينة عاملاً قوياً على الاحتفاظ بالأفكار الصينية والثقافة الصينية إلى هذه الأيام كما كانت عاملاً قوياً في تمسك الصينيين بعاداتهم وتقاليدهم القديمة . ذلك أن الأفكار القديمة قد رسخت في البلاد ، وكانت هي القالب الذى صبب فيه عقول الشباب

وإن خصائص الحضارة الصينية لتتمثل في هذه الظاهرة الفذة التي امتازت بها كتابتها على غيرها من البلاد : وحدتها بين مختلف اللهجات والتطورات ، وتمسكها الشديد بالقديم واتصالها المنقطع النظير . ولقد كان هذا النظام الكتابي في حد ذاته من أجل الأعمال العقلية واعلاها شأنًا ، فقد صنف العالم بأجمعه — عالم الجاد والنشاط والأوصاف — إلى بضع مئات من الرموز التي جعلت « أصولا » ، ثم أضاف إلى هذه الأصول نحو خمسمائة وألف من العلامات المميزة فأضحت تمثل في صورها الكاملة جميع ما في الحياة من أفكار وآداب . ومن واجبنا ألا نثق كل الثقة من أن الطرق المختلفة التي ندون بها نحن أفكارنا أرقى من هذه الطريقة البدائية ، فقد كان ليبنتز في القرن السابع عشر وسير وُلْدُرس في هذه الأيام يحلمان بوضع طريقة من العلامات الكتابية مستقلة كل الاستقلال عن لغات الكلام ، بعيدة كل البعد عن الاختلافات القومية ، وعن اختلافات الزمان والمكان ، يستطاع بها من أجل هذا التعبير عن أفكار الشعوب المختلفة بطرق واحدة يفهمها الناس كلهم على السواء ، ولكن لغة الرموز هذه التي كان يحلم بها هذان العالمان قائمة فعلاً في الشرق الأقصى توحد بين مائة من الأجيال وبين ربع سكان العالم . وإن النتيجة التي وصل إليها الشرقي لنتيجة منطقية رهيبية : إن سائر بلاد العالم يجب أن تتعلم طريقة الكتابة الصينية .

الفصل الثالث

الحياة العملية

١ - في الحقول

فقر الزراع - الوسائل الاقتصادية - المحصولات -
الشاي - الطعام - صبر أهل القرية

لقد كان خصب التربة هو الدعامة التي يقوم عليها آخر الأمر كل ما حوته تلك اللغة من آداب ، وكل ما اشتمل عليه التفكير الصيني من دقة وعمق ، وكل ما انطوت عليه الحياة الصينية من نعيم وترف . وبعبارة أصح لقد كانت هذه الدعامة هي جهود الصينيين أنفسهم ، لأن التربة الخصبة لا تتخلق خلقاً بل تنشأ إ شاء . وما من شك في أن سكان الصين الأولين قد ظلوا قروناً طوالا يكافحون الأدغال والغابات ، والوحوش والحشرات ، والجفاف والفيضان ، وأملاح التربة والصقيع ، حتى استطاعوا في آخر الأمر أن يحولوا تلك البراري الشاسعة الموحشة إلى حقول خصبة مثمرة ، وكان لا بد لهم أن يعودوا حيناً بعد حين إلى خوص هذه المعارك لكي يحتفظوا بما نالوا من نصر ، فإذا ما استمروا يقطعون أشجار الغابات مائة عام مثلاً استجالت الأرض صحراء مجربة(*) ، وإذا أهملوا تقطيعها بضع سنين استجالت حراجاً وعابات كثيفة .

ولقد كان هذا الكفاح كفاحاً صريحاً ينطوى على أخطار جسيمة ، وكان يزيد من صرارته أن البلاد كانت معرضة لهجمات البرابرة واستيلائهم على

(*) ذلك أن سفوح التلال والمنحدرات التي تقطع أثمارها لا تقوى على الاحتفاظ بما يسقط عليها من الأمطار فتجرف مياهها التربة العليا الخصبة وتحدث وتخاو من الدوايق التي تعزل دون السياب السيول على الوردان وإغراقها

محصولات الأرض المستصلحة ، ومن أجل هذا كان الزراع يتقنون هذه الإغارة بأن يعيشوا في جماعات صغيرة لا في منازل متفرقة متباعدة ، وكانوا ينشئون حول قراهم أسواراً ، ويخرجون لزراع الأرض مجتمعين ، وكثيراً ما كانوا يقضون الليل ساهرين يحرسون الحقول .

وكانت طرق الزراعة عندهم ساذجة وإن لم تختلف كثيراً عن طرق الزراعة في هذه الأيام . وكانوا في بعض الأحيان يفلحون الأرض بالحارث ، وقد اتخذوها أولاً من الأخشاب ثم من الحجارة ، واتخذوها بعدئذ من الحديد ، ولكنهم كانوا في أكثر الأحيان يقلبون ما يمتلكون من قطع الأرض الصغيرة بالقأس يكدحون بها صابرين . وكانوا يستعينون على إخصاب التربة بكل ما يجدونه من الخصبات الطبيعية ، ولا يستدكفون أن يجمعوا لهذا الغرض فضلات الكلاب والادميين . ولقد احتفروا من أقدم الأزمنة قنوات يحرون فيها مياه أنهارهم الكثيرة إلى مزارع الأرز أو حقول الذرة ، فشقوا ترعاً عميقة يبلغ طولها عدة أميال في الصخور الصماء ليصلوا بها إلى مجرى مائى بعيداً أو يحولوا مجراه حتى يصل إلى سهل جاف ، واستطاع الصينيون دون الاستعانة بالدورة الزراعية أو الخصبات الصناعية ، ومن غير حيوانات الجر في كثير من الأحيان ، أن يزرعوا نصف أرضهم على الأقل زرعتين أو ثلاث زروعات في العام ، وأن يستخرجوا منها من أنواع الغذاء أكثر مما استخرجه أى شعب آخر في التاريخ^(٢٤) .

وكانت أهم الحبوب التي زرعوها هي الأرز والذرة ويليهما في الأهمية القمح والشعير . وكانوا يتخذون من الأرز غذاء وخمراً ، ولكن الفلاح لم يدمن هذا الشراب في يوم من الأيام . أما شرابه الحبيب إليه ، ومحصوله الذي بلى الأرز في أهميته ، فهو الشاي . وكان استعماله في مبدأ الأمر مقصوراً على التداوى ، ثم زاد انتشاراً حتى صار في عهد أسرة تانج من المحصولات التي تصدر إلى خارج البلاد ،

والتي يتغنى بها الشعراء في أشعارهم . ولم يحل القرن الخامس عشر حتى كانت جميع بلاد الشرق الأقصى مغرمة بشراب الشاي تتغنى بمدحيه ، وحتى أخذ المولعون به يعملون لاستنبات أنواع جديدة منه ، ويعقدون مجالس الشراب للحكم على خير ما يقدم منها للحاضرين^(٣٥) . وكان من محصولاتهم الأخرى الخضر اللذيذة والمغذية كفول الصويا ، والتوابل القوية كالثوم والبصل ، وعشرات المثات من أنواع الفاكهة^(٣٦) ؛ وكانت اللحوم أقل المنتجات الريفية شأنًا ؛ وكانت الثيران والجاموس تستخدم أحيانًا في حرث الأرض ، أما تربية الماشية للانتفاع بلحومها فكانت مقصورة على الخنازير والدجاج^(٣٧) ، وكانت طائفة كبيرة من السكان تتخذ غذاءها من سمك البحر والحجاري المائية العذبة . وكان أهم ما تتغذى به الطبقات الفقيرة هو الأرز الجاف ، والمكرونة ، والشعيرية ، وقليل من الخضر والسمك . أما الطبقات الوسطى فكانت تضيف إلى هذا اللحم الخنازير والدجاج ، وتضيف إليه الغنية لحم البط ، وكانت أرقى المآدب التي تقام في بيكين تحتوي على مائة صنف من أصناف البط^(٣٨) . وكان ابن البقر نادرًا وكذلك كان البيض قليلًا وقلما كان يؤكل طازجًا . غير أن فول الصويا كان يمد الأهلين باللبن الصالح والجبن . وقد تطور فن الطهو في الصين حتى أصبح من الفنون الجميلة ، وكان يستخدم فيه كل منتجات الأرض والماء وطيور الهواء ، فكانت الحشائش والأعشاب البحرية تقتلع من الأرض ، وأعشاش الطير تنهب لتعمل منها أنواع الحساء اللذيذ ، وكانت أطعمة لذيذة تتخذ من زعانف كلب البحر وأمعاء السمك والجراد والجنادب وصفار الديدان ودود القز ولحم الخيل والبقال والجرزان وثمانين الماء والققط والكلاب^(٣٩) . وكان الصينيون يحبون لذيق المأكول ، ولم يكن من غير المألوف أن تشتمل مائدة الرجل الغني على أربعين صنفًا ، وأن يظل القوم حول موائد الطعام ثلاث ساعات أو أربعًا يأكلون فيها وشربون . أما الرجل الفقير فلم يكن يصرف هذا الوقت كله في طعامه الذي كان

يقاوم منه وجبتين في اليوم . ولم يكن الفلاح رغم كدحه المتواصل بمنجاة من الجوع طول أيام حياته ، إذا استثنينا بعض الحالات في مختلف الأقاليم والأوقات . وكان في وسع الأقوياء الماهرين منهم أن يستحوذوا على ضياع واسعة ، وأن يركزوا ثروة البلاد في أيدي قليلة . وكان يحدث في بعض الأحيان ، كما حدث في أيام الإمبراطور شي هوانج — دى ، أن يعاد توزيع الأرض على السكان ، غير أن ما بين الناس من فروق طبيعية سرعان ما كان يؤدي إلى تركيز الثروة مرة أخرى^(٤١) . وكان معظم الزراع من ملاك الأراضي ، ولكن متوسط ما كان يملكه الفرد أخذ يتضاءل في كل قرن عن الذي قبله نظراً لتزايد عدد السكان أسرع من ازدياد مساحة الأرض الصالحة للزراعة . فكانت نتيجة هذا هي الفقر الذي لا مثيل له إلا في أفقر أقاليم الهند ! فقد كان دخل الأسرة المتوسطة لا يزيد على ٨٣ ريالاً أمريكياً ، وكان كثيرون من الأفراد يعيشون بما يعادل جزء من الريال في اليوم ، كما كان الملايين منهم يموتون من الجوع في كل عام^(٤٢) . وقد ظلت الصين عشية القرن الماضي تعاني القحط بمعدل مرة في كل عام^(٤٣) ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى أن الفلاح كان يستغل أسوأ استغلال ولا ينال من الطعام إلا ما يمسك الرمح ، ويرجع بعضه إلى ازدياد المواليد أسرع من تحسن الإنتاج الزراعي واتساع مساحة الأرض المنزرعة ، كما يرجع بعضه الآخر إلى سوء سبل الاتصال والنقل إلى حد يجعل السكان في بعض الأقاليم يهلكون من الجوع بينما الطعام في البعض الآخر يزيد على حاجة الأهالي . وآخر ما نذكره من هذه الأسباب أن الفيضان كان في بعض الأحيان يتلف ما يتركه المالك والجاني للزارع فكثيراً ما كان نهر هوانج — هو ، الذي يسميه الناس « حزن الصين » ، يغير مجراه ويفرق ألفاً من القرى ويترك ألفاً أخرى صادية .

وكان الفلاحون يصبرون على هذه السكوارث ويتجرعون غصصها ، ومن أمثالهم المأثورة : « كل ما يحتاجه الإنسان في هذه الحياة الفانية هو قبة وحفنة

من الأرض^(٤٤) . وكانوا يكدحون ولكنهم لا يسرعون في عملهم ، فلم تكن ثمة آلة معقدة تدفعهم إلى العمل سراعاً ، أو تنهك أعصابهم بضجيجها وخطرها وسرعتها . ولم يكن لهم أيام راحة في آخر الأسبوع ولا أيام آحاد ، ولكن كانت لهم أيام إجازات وأعياد كعيد رأس السنة وعيد الفوانيس تتيح للعامل فرصة يستريح فيها من عناء كدحه ؛ ويخفف فيها بالمسرحيات والأساطير ما في سائر فصول السنة من اكتئاب فإذا ما ولى الشتاء بزهريره ووجهه السكالح ، ولانت تربة الأرض بما سقط عليها من مطر الربيع بعد أن ذاب ما تراكم عليها من ثلج الشتاء ، خرج الفلاحون مرة أخرى ليزرعوا حقولهم الضيقة ، ويغنوا في صرح وجبور أغاني الأمل التي تحدت إليهم من ماضيهم السحيق .

٢ — في المناهج

الحرف اليدوية — الحرير — المصانع — الطوائف — الحمالون —
الطرق والقنوت — التجار — الائتلاف والنقود — تجارب في العملة
المتداولة — التصخم الناشئ من الطباعة

ازدهرت الصناعة في تلك الأيام ازدهاراً لم ير له مثيل في كافة أنحاء الأرض قبل القرن الثامن عشر . فمهما تتبعنا تاريخ الصين إلى ماضيها السحيق وجدنا الحرف اليدوية منهجرة في البيوت والتجارة رائجة في المدن .

وكانت أهم الصناعات الأساسية هي صناعة النسيج وتربية دود القز لاستخراج خيوط الحرير . وكانت كلتا الحرفتين تقوم بها النساء في أكوأخهن أو بالقرب منها . وكان غزل الحرير من الحرف القديمة في البلاد ، وترجع بدايتها في الصين إلى الألفي السنة السابقة لميلاد المسيح^(*)(٤٥) . وكان الصينيون يطعمون

(*) لقد كان اليونان والرومان الأقدمون يعرفون طريقة غزل الحرير المستخرج من شراقي ديدانه البرية ؛ أما صناعة تربية الود وجمع الحرير ونسجه فقد جاء بها الرهبان النساطرة من الصين إلى أوروبا حوالي عام ٥٢٢ م^(٤٦) . وانتقلت هذه الصناعة في القرن الثاني عشر من القسطنطينية إلى صقلية ثم انتقلت إلى إنجلترا في القرن الخامس عشر .

الدود ورق التوت الحديث التطعيم ويحصلون من تربيته على نتائج عجيبة ، ولعل القارىء لا يصدق إذا قيل له إن رطلا من الديدان (أى ٧٠٠٠٠٠ دورة) يتغذى على هذا الورق كان يتضاعف إلى ٥٠٠ رطل فى اثنين وأربعين يوماً^(٤٧) . وكانت الديدان الكبار توضع بعدئذ فى سدادات صغيرة من القش تنسج حولها شرائقها بما تفرزه من الحرير ، فإذا أتمت عملها أخذت الشرائق وألقيت فى ماء ساخن تخرج الحرير من القالب الذى لف عليه وعالجوه ونسجوه وسنموا منه أنواعاً عدة من الثياب والأقمشة المزركشة والمطرزة والأنسجة المشجرة التى كانت تصنع منها ملابس الطبقات العليا فى العالم كله^(*) ، أما من ينتجون الحرير وينسجونه فكانوا يتخذون ثيابهم من القطن .

وكانت هذه الصناعة المنزلية تكمل بحوانيت فى المدن حتى فى القرون السابقة ليلاد المسيح ، ولذلك وجدت من بداية القرن الثالث قبل الميلاد جماعات من العمال فى المدن نظمت هى والمشرفون عليها فى طوائف من أرباب الحرف . وكان نمو هذه الصناعة فى الحوانيت سبباً فى ازدهار المدن بالسكان العاملين المجدين الذين جعلوا الصين فى أيام كوبرلاى خان تضارع من الوجهة الصناعية أوروبا فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد . وقد كتب ماركوبولو فى ذلك يقول :

« لسكل حرفة من الحرف مائة متجر يرمى كل واحد منها العمل لعشرة أو خمسة عشر أو عشرين من الصناع ، وقد يصل هذا العدد فى بعض الصناعات إلى أربعين ... والسادة الأغنياء أصحاب الحوانيت لا يعملون بأيديهم بل يتظاهرون بالركة والتسامى والتأنق فى حديثهم وحركاتهم »^(٥٠) . وكانت هذه اللقابات تعمل ما تعمله الصناعات المنظمة فى هذه الأيام ، فتحدد التنافس وتفظم

(*) لم يكن من غير المألوف عند المضيف إذا جاءه الضيوف أن يمر عليهم بفسيج رقيق من الحرير يعرضه عليهم^(٤٨) كما يعرض عليهم غيره آنية من الحرف أو ببسط أمامهم ملءاً من الصور أو من الخط الجميل .

الأجور وساعات العمل ، وكان الكثير منها يحدد الإنتاج ليحتفظ بمستوى أسعار منتجاته ، ولعل رضاها بأساليبها القديمة واطمئنانها إليها كانا من أسباب تأخر العلوم في الصين ، ومقاومة الانقلاب الصناعي في تلك البلاد ، مقاومة دامت حتى أخذت كل الحواجز والأنظمة في هذه الأيام تنهار أمام طوفان الصناعة الأوربية الجارف .

وكانت النقابات في الصين تضطلع بكثير من الواجبات التي عهد بها السكان الغريبون المتكبرون إلى الدولة . فكانت هذه النقابات تسن قوانينها بنفسها وتعدل في تنفيذها . وقد قللت من الإضراب بما كانت تقوم به من تسوية النزاع بين العمال وأصحاب الأعمال بطرق التحكيم على يد لجان الوسطاء التي يمثل فيها كلا الطرفين بالتساوى . وكانت هذه النقابات بوجه عام هيئات صناعية تحكم نفسها وتنظم شئونها ، وكانت مخرجا يدعو إلى الإعجاب من التذبذب الحادث في هذه الأيام بين مبدأى التخلي وترك الأمور تجري في مجراها من جهة وسيطرة الدولة على جميع الشئون من جهة أخرى .

ولم تكن النقابات مقصورة على التجار والصناع وعمالهم ، بل كانت هناك نقابات لطوائف أقل من هؤلاء شأنًا كالحلّاقين والحمالين والطباخين . بل إن المتسولين أنفسهم كانت لهم هيئة تفرض على أعضائها قوانين صارمة^(٥١) . وكانت أقلية ضئيلة من عمال المدن من الأرقاء يستخدم معظمهم في الأعمال المنزلية ويبقون تحت سلطان سادتهم عدة سنين أو طول الحياة ، وكان اليتامى والبنات يُعرضون للبيع في أيام التحط ويبيعون بعدد قايل من « الكاشات » ، وكان من حق الأب في كل وقت أن يبيع بناته أو عبده . على أن هذا الاسترقاق لم يبلغ في يوم من الأيام ما بلغه في بلاد اليونان أو الرومان ، وكانت كثرة العمال من أعضاء النقابات أو الوكلاء الأحرار — كما كانت كثرة الزراع من ملاك

الأراضى ... يحكمون أنفسهم فى هيئات قروية مستقلة فى معظم شئونها عن إشراف الدولة^(٥٢).

وكانت منتجات العمل تنقل على ظهور الناس ، بل إن الناس أنفسهم كان معظمهم ينقلون فى الخدوج فوق أكتاف الحمالين المكدودة المتصلبة ، ولم يكن هؤلاء يشكون من عمامهم أو يتضجرون منه^(*) ، وكانت الدلاء الثقيلة أو الحزم الضخمة تعلق فى طرفى قوائم خشبية تحمل على الكتفين ، وكانت عربات النقل تجرها الخيل أحيانا ولكنها فى أكثر الأحيان كان يجرها الرجال . ذلك أن عضلات الادميين قد بلغت من الرخص حدا لا يشجع على رقى النقل الحيوانى أو الآلى ، كما كانت حال النقل البدائية غير حافزة على إصلاح الطرق وتبيدها . ولما أن أنشئ أول خط حديدى فى الصين بين شنفهى وووسونج بفضل رؤوس الأموال الأجنبية ، احتج الصينيون على هذا العمل وقالوا إنه سيزعج الأرواح التى فى باطن الأرض ، واشتدت مقاومتهم حتى اضطرت الحكومة إلى شراء الخط الحديدى وإلقاء القاطرات والعربات فى البحر^(٥٣) . وقد أنشئت فى أيام شى هوانج — دى وكوبلاى خان طرق عامة رصفت بالحجارة ولكنها لم يبق منها الآن إلا جوانبها . أما شوارع المدن فلم تكن سوى أزقة لايزيد عرضها على ثمان أقدام صممت لى تحجب الشمس ، وكانت القناطر كثيرة العدد جميلة فى بعض الأحيان ، ومن أمثلتها القنطرة الرخامية التى كانت عند القصر الصيفى ، وكان التجار والمسافرون يستخدمون الطرق المائية بقدر ما كانوا يستخدمون الطرق البرية ، وكان فى البلاد قنوات مائية يبلغ طولها ٢٥٠٠٠ ميل ، تستخدم بدل السكك الحديدية ، ولم يكن فى الأعمال الهندسية الصينية ما يفوق القناة الكبرى التى تربط هانجتشوا بتيانشين والتى يبلغ طولها ٦٥٠ ميلا ، والتى بدى

(*) إن المفظ الإنجليزى لهذه الكلمة وهو Cooli هدى الأصل ولعله مشتق من المفظ التيملى Kuli ومعناه الخادم المأجور .

في حفرها سنة ٣٠٠ م وتم في عهد كوبلاي خان ، لم يكن يفوقها إلا السور العظيم . وكانت القوارب المختلفة الأشكال والأحجام لا يقطع غدوها ورواحها في الأنهار ، ولم تكن تتخذ وسائل للنقل الرخيص فحسب بل كانت تتخذ كذلك مساكن للملايين من الأهلين الفقراء .

والصينيون تجار بطبعمهم وهم يقضون عدة ساعات في المساومات التجارية ، وكان الفلاسفة الصينيون والموظفون الصينيون متفقيين على احتقار التجار ، وقد فرض عليهم أباطرة أسرة هان ضرائب فادحة وحرموا عليهم الانتقال بالعربات ولبس الحرير .

وكان أفراد الطبقات الراقية يطيلون أظافرهم ليدلوا بعملهم هذا على أنهم لا يقومون بأعمال جثمانية ، كما تطيل النساء الغريبات أظافر أيديهن لهذا الغرض عينه^(٤٦) ؛ وقد جرت العادة أن يعد العلماء والمدرسون والموظفون من الطبقات الراقية ، وتليهم في هذا طبقة الزراع ، ويأتي الصناع في المرتبة الثالثة ، وكانت أوطأ الطبقات طبقة التجار لأن هذه الطبقة الأخيرة - على حد قول الصينيين - لا تجني الأرباح إلا ببادل منتجات غيرها من الناس .

لكن التجار مع ذلك أثروا وقلوا غلات حقول الصين وسلع متاجرها إلى جميع أطراف آسية ، وصاروا في آخر الأمر الدعامة المالية للحكومة الصينية . وكانت التجارة الداخلية تعرقها الضرائب الفادحة ، وأما التجارة الخارجية فكانت معرضة لهجمات قطاع الطريق في البر والقراصنة في البحر . ومع هذا فقد استطاع التجار الصينيون أن ينقلوا بضائعهم إلى الهند وفارس وبلاد النهرين ورومة نفسها في آخر الأمر بالطواف حول شبه جزيرة الملايو بمرأ وبالسير في طرق القوافل التي تخترق التركستان^(٥٥) وكانت أشهر الصادرات هي الحرير والشاي والخوخ والمشمش والبارود وورق اللعب ، وكان العالم يرسل إلى الصين بدل هذه الغلات والبضائع الفضة^(*) .

(*) هو المعروف بالإنجليزية باسم Alfalfa واللفظة الأسبانية منحرفة عن اللفظة العربية « الفصفصة » وهو نبات ذو ثلاث أوراق .

والزجاج والجزر والفول السوداني والدخان والأفيون .

وكان من أسباب تيسير التبادل التجارى نظام الائتمان والنقود . فقد كان التجار يقرض بعضهم بعضاً بقوائد عالية تبلغ فى العادة نحو ٣٦ ٪ ، ونقول إنها عالية وإن لم تكن أعلى مما كانت فى بلاد اليونان والرومان^(٥٦) . وكان من أسباب ارتفاع سعر الفائدة ما يتعرض له المرابون من أخطار شديدة ، فكانوا من أجل ذلك يتقاضون من الأرباح ما يتناسب مع هذه الأخطار ، ولم يكن أحد يحبهم إلا فى مواسم الاستدانة . ومن الحكم الصينية المأثورة قولهم : « السارقون بالجملة ينشئون المصارف »^(٥٧) . وأقدم ما عرف من النقود ما كان يتخذ من الأصداغ البحرية والمدى والحرير .

ويرجع تاريخ أقدم عمله معدنية إلى القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل^(٥٨) وجعلت الحكومة الذهب العملة الرسمية فى عهد أسرة شين ، وكانت العملة المصغرى تصنع من خليط من النحاس والقصدير ، وما لبثت هذه أن طردت الذهب من التعامل^(*) . ولما أخفقت التجربة التى قام بها وودى والتى أراد بها أن يضرب عملة مصنوعة من الفضة والقصدير لكثرة ما زيف وقتئذ من النقود ، استعاض عنها بشرائح من الجلد يبلغ طول الواحدة منها قدماً ، وكانت هذه الشرائح مقدمة لاستعمال النقود الورقية . ولما أن أضحى ما يستخرج من النحاس أقل من أن يفي بالأغراض التجارية لكثرة البضائع المتداولة ، أمر الإمبراطور شين دزونج فى عام ٨٠٧ أن تودع العملة النحاسية كلها فى خزائن الحكومة وأن يصدر بدلا منها شهادات مدينة أطلق عليها الصينيون اسم « النقود الطائفة » ، لأنهم كما يبدو تحملوا متاعبهم المالية بنفس الطبائفة التى تحمل بها الأمريكيون

(*) لا يزال النحاس هو العملة السائدة فى الصين فى هذه الأيام وتصنع منه « الكاشة » وهى عملة قيمتها بـ ١٠٠ أو بـ ١٠٠٠ من الريال الأمريكى كما يصنع منه الثقل وهو يساوى ألف « كاشة » .

متابعهم في عام ١٩٣٣ . ولم تستمر هذه الطريقة إلّا ريثما زالت الضائقة ؛ ولكن اختراع الطباعة بالقوالب أغرى الحكومة على أن تستخدم هذه الطريقة الجديدة في عمل النقود ، فشرعت ولاية سشوان شبه المستقلة في عام ٩٣٥ م والحكومة الوطنية في شنجان عام ٩٧٠ تصدران النقود الورقية . وأسرفت الحكومة في عهد أسرة سونج في إصدار هذه النقود ، فنشأ من ذلك تضخم شديد قضى على كثير من الثروات^(٥٩) .

ويقول ماركو بولو عن خزائن كوبلاي خان : « إن دارالسك الإمبراطورية تقوم في مدينة كمبوك (بيكين) ، وأنت إذا شاهدت الطريقة التي تصدر بها النقود قلت إن فن الكيمياء أتقن إتقاناً لا إتقان بعده ، وكنت صادقاً فيما تقول . ذلك أنه يصنع نقوده بالطريقة الآتية » ، ثم أخذ يستثير سخرية مواطنيه وتشككهم فيما يقول وعدم تصديقهم إياه فوصف الطريقة التي يؤخذ بها الحاء شجر التوت فتصنع منه قطع من الورق يقبلها الشعب ويعدّها في مقام الذهب^(٦٠) . ذلك هو منشأ السيل الجارف من النقود الورقية الذي أخذ من ذلك الحين يدفع عبلة الحياة الاقتصادية في العالم مسرعة تارة ويهدد هذه الحياة بالخراب تارة أخرى

٣ — المخترعات والعلوم

البارود — الألعاب النارية والحروب — ندرة المخترعات الصناعية —

الجغرافية — الرياضيات — الطبيعة — « فنج شوى » —

الفلك — الطب — تدبير الصحة

لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يبتكرون . فقد اخترعوا البارود في أيام أسرة تانج ، ولكنهم قصروا استعماله وقتئذ على الألعاب النارية ، وكانوا في ذلك جد عقلاء ، ولم يستخدموه في صنع القذابل اليدوية وفي الحروب إلّا في عهد أسرة سونج (عام ١١٦١ م) . وعرف العرب ملع البارود (نترات البوتاسا) — وهو أهم مركبات البارود — في أثناء

أتجارهم مع الصين وسموه « التاج الصينى » ونقلوا سر صناعة البارود إلى البلاد الغربية ، واستخدمه العرب فى إسبانيا فى الأغراض الحربية ، ولعل سير روجر بيكين أول من ذكره من الأوربيين قد عرفه من دراسته لعلوم العرب أو من اتصاله به — روكى الرحالة الذى طاف فى أواسط آسية .

والبوصلة البحرية أقدم عهداً من البارود . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنها المؤرخون الصينيون فإن دوق جو قد اخترعها فى عهد الإمبراطور تشنج وانج (١١١٥ — ١٠٧٨ ق . م) ليهدى بها بعض السفراء الأجانب فى عودتهم إلى بلادهم . ويقول الرواة إن الدوق أهدى إلى السفارة خمس عربات جهزت كل منها « بإبرة تشير إلى الجنوب »^(٦٢) . وأكبر الظن أن الصينيين الأندمين كانوا يعرفون ما لحجر المغنطيس من خواص مغنطيسية ، ولكن استعماله كان مقصوداً على تحديد الاتجاهات فى بناء المياكل . وقد ورد وصف الإبرة المغنطيسية فى السونج — شو وهو كتاب تاريخى مؤلف فى القرن الخامس الميلادى . ويقول المؤلف إن مخترعها هو الفيلسوف چانج هنج (المتوفى فى عام ١٣٩ م) ، على أن هذا العالم لم يفعل أكثر من أن يكشف من جديد ما كانت الصين تعرفه قبل أيامه . وأقدم ما ورد عن الإبرة من حيث فائدتها للملاحين هو ما جاء فى كتاب ألف فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى وهو بعزو استخدامها فى هذا الغرض إلى البحارة الأجانب — وأكبر الظن أنهم من العرب — الذين كانوا يسفرون سفنهم بين سومطره وكانتون^(٦٣) . وأول إشارة معروفة لنا عن البوصلة فى أقوال الأوربيين هى ما ذكر عنها فى قصيدة لجنيو ده بروفن^(٦٤) .

على أننا لانستطيع أن نصف الصينيين بأنهم من الأمم النشيطة فى ميدان الاختراعات الصناعيّة رغم اختراعهم البوصلة والبارود والطباعة والخرف . ولقد كانوا مخترعين فى الفنون ؛ وقد ارتقوا بها فى صورها التى ابتدعوها حتى بلغت درجة من الكمال لا نظير لها فى غير بلادهم أو فى غير تاريخهم ، ولكنهم ظلوا حتى

عام ١٩١٢ قانعين بالجري على طرقهم الاقتصادية القديمة ، يحرقون الأساليب والحيل التي تغني عن العمل الشاق ، وبضاعف ثمار الجهود البشرية ، وتعطل نصف سكان العالم لتزيد من ثراء نصفه الآخر ، كأنهم في احتقارهم هذا كانوا يتنبئون بما تجره هذه الاختراعات على البشر من شرور . وكان الصينيون من أوائل الأمم التي اتخذت الفحم وقوداً واستخرجوه من الأرض بكميات قليلة منذ عام ١٩٢٢ ق م^(٦٥) ، ولكنهم لم يخترعوا آلات تريحهم من كدح استخراجهم وتركوا معظم ما تحبثه أرضهم من الثروة المعدنية دون أن يستغلوها ، ومع أنهم عرفوا كيف يصنعون الزجاج فقد رضوا أن يستوردوه من الغرب ، ولم يصنعوا ساعات للجيب أو للحواء ، ولم يخترعوا المسامير الحواة بل إنهم لم يصنعوا من المسامير العادية إلا أغلظها^(٦٦) . وقد ظلت حياة الصين الصناعية في أهم نواحيها على حالها لم تتغير كثيراً خلال الألفي العام التي بين قيام أسرة هان وسقوط المنشو — شأنها في هذا شأن الحياة الصناعية في أوروبا من أيام بركليز إلى عهد الانقلاب الصناعي .

كذلك كانت الصين تفضل سلطان التقاليد والعلماء على سلطان العلم والمال المثير للأعصاب ، ولذلك كانت الحضارة الصينية أفقر الحضارات العظمى فيما أفادته منها فنون الحياة المادية . فقد أخرجت هذه الحضارة كتباً من أرقى الكتب الدراسية في الزراعة وفي تربية دود القز قبل ميلاد المسيح بقرنين كاملين ، وألقت رسالات قيمة في علم تقويم البلدان^(٦٧) . وقد خلف عالمها الرياضي المعمر چانج تسانج (المتوفى في عام ١٥٢ ق . م) وراءه كتاباً في الجبر والهندسة فيه أول إشارة معروفة للكميات السالبة . وقد حسب دزو تسو تشونج — جى القيمة الصحيحة للنسبة التقريبية إلى ثلاثة أرقام عشرية ، وحسن المغنطيس أو « الأداة التي تشير إلى الجنوب » وقد وردت إشارة عنه غير واضحة قيل فيها إنه كان يجرى التجارب على سفينة تتحرك بنفسها^(٦٨) .

واخترع تشانج هنج آلة لتسجيل الزلازل (سيسمغرافا) في عام ١٣٢ م (*). ولكن علم الطبيعة الصيني قد ضلت معظم أبحاثه في دياجير الفنج جوى السحرية واليانج والين من أبحاث ما وراء الطبيعة (**). وأكبر الظن أن علماء الرياضة الصينيين قد أخذوا الجبر عن علماء الهند ، ولكنهم هم الذين أنشئوا علم الهندسة في بلادهم مدفوعين إلى هذا بحاجتهم إلى قياس الأرض ^(٧٠). وكان في وسع الفلكيين في أيام كنفوشيوس أن يتنبئوا بالخسوف والكسوف تنبؤاً دقيقاً ، وأن يضعوا أساس التقويم الصيني بتقسيم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعة وتقسيم السنة إلى اثني عشر شهراً يبدأ كل منها بظهور الهلال ، وكانوا يضيفون شهراً آخر في كل بضع سنين لكي يتفق التقويم القمري مع الفصول الشمسية ^(٧١). وكانت حياة الصينيين على الأرض تتفق والحياة في السماء ؛ وكانت أعياد السنة تحددها منازل الشمس والقمر ، بل إن نظام المجتمع من الناحية الأخلاقية كان يقوم على منازل الكواكب السيارة والنجوم .

وكان الطب في الصين خليطاً من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية . وكانت بدايته فيما قبل التاريخ المدون ، ونبغ فيه أطباء عظام قبل عهد أبقراط بزمان طويل ، وكانت الدولة من أيام أسرة جوتو تعد امتحاناً سنوياً للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية ، وتحدد مرتبات الناجحين منهم في الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة في الاختبارات . وقد أمر حاكم صيني في القرن الرابع

(*) وكانت الآلة التي اخترعها تتركب من ثمانية تنينات من النحاس قائمة على لولاب دقيقة حول وعاء نحس في وسطه ضمدعة فاخرة فاها . وكان كل تنين يمسك في فمه كرة من النحاس ؛ فإذا حدث زلزال سقطت الكرة من أقرب التنينات إلى مركزها في ثم الضمدعة ؛ وحدث مرة أن سقطت الكرة من أحد التنينات وإن كان الناس لم يحسوا بهزة زلزال فسخروا من تشانج هنج وقالوا إنه مشعرذ حتى حاهم رسول وقال لهم إن زلزالاً وقع في أحد الأقاليم الماضية (٦٩) .

(**) كان الفنج حي (الرياح والماء) فنا واسع الانتشار في الصين الغرض منه التوفيق بين مواضع السيوت والتدور في الإقليم ومهاب الرياح وتيارات الماء فيه .

قبل المسيح أن تشرح جثث أربعين من المجرمين المحكوم بإعدامهم ، وأن تدرس أجسامهم دراسة تشريحية ، ولكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظري ، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد . وكتب جانج جونج — تنج في القرن الثاني عدة رسائل في التغذية والحيات ظلت هي النصوص المعمول بها مدى ألف عام ، وكتب هوا — دو في القرن الثالث كتاباً في الجراحة ، وأشاع العمليات الجراحية باختراع فينيد يخدر المريض تخديراً تاماً . ومن سخافات التاريخ أن ضاعت أوصاف هذا المخدر فيما بعد ، ولم يعرف عنها شيء . وكتب وانج شو — هو في عام ٣٠٠ بعد الميلاد رسالة ذائعة الصيت عن ضربات القلب^(٧٢)

وفي أوائل القرن السادس كتب داو هونج — جنج وصفا شاملاً لسبعمائة وثلاثين عقاراً مما كان يستخدم في الأدوية الصينية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب چاويوان — فانج كتاباً قيماً في أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع الهامة زمناً طويلاً . وكثرت دوائر المعارف الطبية في أيام أباطرة أسرة تانج كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التي تبحث كل منها في موضوع واحد في عهد الملوك من أسرة سونج^(٧٣) . وأنشئت في أيام هذه الأسرة كلية طبية ، وإن ظل طريق التعليم الطبي هو التمرين والممارسة . وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة حتى لقد كان أحد محازن الأدوية منذ ثلثمائة عام يبيع منها بنحو ألف ريال في اليوم الواحد^(٧٤) . وكان الأطباء يطنبون ويتخذون في تشخيص الأمراض ، فقد وصفوا من الحيات مثلاً ألف نوع ، وميزوا من أنواع النبض أربعاً وعشرين حالة . واستخدموا اللقاح في معالجة الجدري ، وإن كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه ، ولعلمهم قد أخذوا هذا عن الهند ، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهرى . ويلوح أن هذا المرض الأخير قد ظهر في الصين في أواخر أيام أسرة منج وأنه انتشر انتشاراً مروعاً بين الأهليين ، وأنه بعد زواله قد خلف

وراءه حصانة نسبية تقيهم أشد عواقبه خطورة . غير أن الإجراءات الصحية العامة ، والأدوية الواقية ، والقوانين الصحية ، لم تتقدم تقدماً يذكر في بلاد الصين ؛ كما كان نظام المجارى والمصارف نظاماً بدائياً إذا كان قد وضع لها نظام على الإطلاق^(٧٥) . وقد عجزت بعض المدن عن حل أول الواجبات المفروضة على كل مجتمع منظم — ضمان ماء الشرب النقي والتخلص من الفضلات . وكان الصابون من مواد الترف التي لا يحصل عليها إلا الأثرياء للممتازون ، وإن كان القمل وغيره من الحشرات كثير الانتشار . وقد اعتاد الصينى الساذج أن يهرش جسمه ويخدشه وهو مطمئن هادئ هذوء الكنفوشيو سين . ولم يتقدم علم الطب تقدماً يستحق الذكر من أيام شى هوانج — دى إلى أيام الملكة الوالدة . ولعل في وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب في أوروبا من عهد أبقرراط إلى عهد باستير . وغزا الطب الأوروبى بلاد الصين في صحبة المسيحية ، ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة . أما فيما عداها فهم يفضلون أطباءهم وأعسابهم القديمة على الأطباء الأوربيين والعقاقير الأوربية .

الفصل الرابع

دين بلا كنيسة

الخرافات والتشكك - عبادة الطبيعة - عبادة السماء - عبادة
الأسلاف - الكيموشية - الدونة - لكسير الخلود -
الوذية - النساخ الدني والتصوف - الإسلام - المسيحية
وأسباب إخفاقها في الصين

لم يتم المجتمع الصيني على العلم بل قام على خليط فذ عجيب من الدين والأخلاق والفلسفة ، ولم يشهد التاريخ شعباً من الشعوب أشد من الشعب الصيني استمساكاً بالخرافات ، أو أكثر منه تشككاً أو أعظم منه ثقي ، أو أكثر انصياعاً لحكم العقل أو أقوى منه دنيوية . ولم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية في التحرر من سيطرة الكهنة ، ولم يسعد قوم غير الهنود بالهتهم ، أو يشقوا بهم بمثل ما ساعد بهم الصينيون أو شقوا . ولستأ نستطيع أن نفسر هذه المتناقضات إلا بأن نعزو لفلاسفة الصين نفوذاً لا نظير له في التاريخ ، وأن نقر بما في فقر الصين من معين للأمانى الخيالية لا يفضب .

ولم يكن دين سكان الصين البدائيين يختلف بوجه عام عن دين عبدة الطبيعة ، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة وعبادة الأرواح الكامنة في جميع نواحيها ، وإجلال شعري لما على الأرض من صور رهيبة وما فيها من قدرة عظيمة على الإنتاج والتوالد ، وخشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة كانوا يعدونها عنصراً من عناصر الوثام والارتباط بين ما على الأرض من حياة وما في السماء من قوى خفية ، فكانوا يعبدون الريح والرعد والأشجار والجبال الأفاعي ؛ ولكن أعظم أعيادهم كانت تقام لمعجزة السماء ، وكان

الشبان والفتيات فى أيام الربيع يرقصون ويتضاجعون فى الحقول ليضربوا المثل
لأهمهم الأرض فى الإخصاب والإنتاج . ولم يكن ثمة فرق كبير بين الملك والكاهن
فى تلك الأيام ، وكان ملوك الصين الأولون ، كما ورد فى أقوال المؤرخين الذين
أطنبوا فيما بعد فى وصفهم ، كهاناً سياسيين لا يقدمون على عمل من أعمال البطولة
إلا بعد أن يمهّدوا له بالأدعية والصلوات ويستعينوا عليه الآلهة^(٧٦) .

وكانت الأرض والسماء فى هذا الدين البدائى مرتبطتين إحداها بالأخرى ،
لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداها بالأخرى أشبه
ما تكون بصلة الرجل والمرأة وصلة السيد بالتابع واليانج بالين . وكان نظام
السموات ومسلك الآدميين الخلقى عمليتين متقاربتين متشابهتين لأنهما شطران
من نظام عالمى لا غنى عنه يسمى دو — أى الطريقة السماوية ؛ وليست الأخلاق
الطيبة فى اعتقادهم إلا نتيجة للتعاون القائم بين أجزاء هذا الكل شأنها فى هذا
شأن القوانين التى تسير نجوم السماء .

وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها ، هذا النظام الأخلاقى ،
هذا الترتيب القدسى ، الذى يشمل بين طياته الناس والجماد ويحدد العلاقات
الحقة بين الأطفال وآبائهم ، والزوجات وأزواجهن ، وبين الأتباع وسادتهم ،
والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله . لقد كان هذا تفكيراً عجيباً ولسكنه
تفكير نبيل يتأرجح بين التجسيد الشخصى حين يصلى الشعب لتين — للسماء
المعبودة — والتجريد حين يتحدث الفلاسفة عن جماع تلك القوى — الشديدة
البعد عن قوة البشر فرادى أو مجتمعين — التى تسيطر على السموات والأرضين
والأناسى . ولما تقدمت دراسة الفلسفة أخذت فكرة « السماء » الشيمية مقصورة
على عامة الشعب ، أما فكرتها المجردة غير الشيمية فأصبحت عريضة الطبقات المتعلمة
ودين الدولة الرسمى^(٧٧) .

ومن هاتين البدايتين نشأ العنصران اللذان بتألف منهما دين الصين القومى وهما : عبادة الأسلاف المنتشرة بين جميع طبقات الأمة وعبادة السماء وعظماء الرجال التى تدعو إليها الكنفوشية . وكان الصينيون يقربون فى كل يوم قرباناً متواضعاً — ويكون فى العادة شيئاً من الطعام — للموتى ، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم ؛ ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يمشون بعد موتهم فى مملكة غير محددة أو واضحة له ، وأن فى مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه . وكان الصينى المتعلم يقرب لأسلافه مثل هذا القربان ، ولكنه لم يكن ينظر إلى المراسم التى تصحبه على أنها عبادة ، بل كان ينظر إليها على أنها نوع من إحياء ذكراهم . ولقد كان من الخير لأرواح الموتى وللشعب الصينى بوجه عام أن يعظم هؤلاء الأموات ، وأن تخلد ذكراهم لأن فى تخليدها تعظيماً للطرق القديمة التى كانوا يسرون عليها وسداً لطريق البدع وإفرازاً للسلام فى أنحاء الإمبراطورية . وما من شك فى أن هذا الدين كان يسبب للصينيين بعض المتاعب والمضايقات ؛ من ذلك أنه ملأ البلاد بما لا يحصى من القبور الضخمة التى لا يمكن انتهاك حرمتها ، فعاقبت هذه القبور إنشاء الطرق الحديدية وفتح الأرض للزراعة ؛ ولكن هذه الصعاب كانت فى نظر الفيلسوف الصينى صعباً تافهة لا يقام لها وزن أمام ما تسديه عبادة الأسلاف إلى المدنية الصينية من استقرار سياسى واطراد روحى . ذلك أن هذا النظام المتغلغل فى كيان الأمة الصينية قد أفاض عليها وحدة روحية زمانية رغم ما فيها من عوامل التفرق والانفصال التى تحول دون وحدتها المكانية وأهمها المسافات الشاسعة ، ومن فقرها فى وسائل النقل وسبل الاتصال . وبفضل هذه الوحدة الروحية ارتبطت الأجيال بعضها ببعض برباط قوى من وحدة العقائد ، وبذلك كان للحياة الفردية نصب مشرف موفور وخطر عظيم فى هذه العظمة التى لا يحدها وقت وفى ذلك المجال الممتد على مدى الزمان .

ومن عجب أن الدين الذى اعتنقه العلماء واتبعتة الدولة قد وسع دائرة هذه العقائد الشعبية وضيق نطاقها فى آن واحد؛ ذلك أن إجلال الناس لكنفوشيوس قد أخذ يعظم جيلا بعد جيل حتى أصبح بفضل ما كان يصدره الأباطرة من مراسم فى المسكناة الثانية بعد السماء نفسها . فكانت كل مدرسة تكرمه بوضع لوحة تذكارية وكل مدينة تكرمه ببناء هيكل فيها ، وكان كبار الموظفين يحرقون البخور أو يقربون القرابين من حين إلى حين تكريماً لروحه أو إحياء لذكراه ، ويعدون هذه الذكرى أعظم دافع لفعل الخير بين جميع ذكريات الشعب الصينى التى يخطئها الحصر .

ولم تكن الطبقات الراقية المثقفة تعدّه إلهاً ؛ بل كان كثير من الصينيين يعدّونه بديلاً من الإله ؛ ولربما كان من بين من يحضرون الصلوات التى تقام تكريماً له لا أدريون أو كفرة ملحدون ، ولكنهم — إذا ما عظموه وعظموا أسلافهم — كانوا يعدون فى المجتمع الذى يعيشون فيه أتقياء متدينين . وكان من الأصول المقررة فى الديانة الكنفوشية الاعتراف بالشانج — تى ، أى القوة العليا المسيطرة على العالم ، وكان الإمبراطور فى كل عام يقرب القران باحتفال عظيم على مذبح السماء لهذا المعبود المجرد . وقد حلا هذا الدين الرسمى من كل إشارة للخلود^(٧٨) ، فلم تكن السماء مكاناً بل كانت إرادة الله أو نظام العالم .

لكن هذا الدين البسيط الذى يكاد ينطبق على مقتضيات العقل لم يرض أهل الصين فى وقت من الأوقات . ذلك بأن مبادئه لا تفسح المجال واسعاً أمام خيال الناس ، ولا تستجيب إلى آمالهم وأمانهم ، ولا تشجع الخرافات التى تبعث البهجة فى حياتهم اليومية . ولقد كان الناس فى الصين كما كانوا فى سائر بلاد العالم يحملون الحقائق الواقعية العادية بخوارق الطبيعية الشعرية ، وكانوا يحسون بأن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم فى الهواء المحيط بهم وفى

الأرض التي تحت أقدامهم ، وكانوا يحرسون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية أو يستعينوها بالأدعية وبالزرق السحرية . وكانوا يستأجرون التنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم من سطور إلأى — چنج' أو أصداف السلاحف أو حركات النجوم ، ويستأجرون السحرة ليوصلوا منازلهم نحو الريح والماء ، والعراةفين ليستنزلوا لهم نور الشمس وماء الأمطار^(٧٩) . وكانوا يعرضون للموت من يولد لهم من الأطفال في أيام « النقص »^(٨٠) . وكانت البنات المتوقدات حماسة وغيره يقتلن أنفسهن في بعض الأحيان ليجلبن الخير أو الشر لآبائهن^(٨١) . وكانت نفوس الصينيين عامة وفي الجنوب خاصة تنزع إلى التصوف ، وتتميز من النزعة العقلية الجامدة التي تسود العقائد الكنفوشية ، وتتوق إلى عقيدة تجدها فيها ما يجده غيرها من الأمم من سلوى دائمة تحمي موات النفوس .

ومن أجل هذا عمد بعض الفقهاء الشعبيين إلى عقيدة لو دزه الغامضة فصاغوها تدريجاً في دين جديد . لقد كانت الدوية في رأى الأستاذ القديم وفي رأى جوانج — دزه طريقة للحياة تهدف إلى الحصول على السلام الشخصى على ظهر الأرض ؛ ويبدو أنهم لم يؤمنوا بهذه الطريقة أو يتخذوها نوعاً من العبادة ، كما أنهم لم يفتظروا إليها على أنها ممن يؤدونه في هذه الدار ليشتروا به الحياة في الدار الآخرة^(٨٢) ، فلما كان القرن الثانى بعد الميلاد عدلت هذه العقائد على يد رجال ادعوا أنهم قد وصل إليهم عن طريق لو دزه نفسه إكسير يهب صاحبه الخلود . وكان هذا الإكسير في صورة شراب شاع بين الصينيين وأسرفوا فيه إسرافاً يقال إنه أودى بحياة عدد غير قليل من الأباطرة الصينيين لسكثرة إدمانهم إياه^(٨٣) . وأشد من هذا غرابة أن معلماً من رجال الدين في ششوان (حوالى عام ١٤٨ بعد الميلاد) كان يعرض على الناس أن يشفيهم من أمراضهم كلها بطلسم بسيط يعطيهم إياه في نظير خمس حفنات من الأرز . وبدا لبعض الناس أنهم قد شفوا من أمراضهم بفضل هذه الأعمال السحرية ، وقيل للذين لم يثمر فيهم العلاج إن

إخفاقه كان نتيجة لضعف إيمانهم^(٨٤) . وأقبل الناس على الدين الجديد زرافات ووحدانا ، وشادوا له الهياكل وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم ، ومنجوا به جزءاً من قصصهم الشعبي الخرافي الذي لا ينضب له معين . واتخذ الناس لودزه إلهاً يعبدونه ، وقالوا إن أمه حملت فيه سملاً سماوياً ، واعتقد المؤمنون الصالحون إنه ولد كامل العقل طاعماً في السن لأنه أقام في بطن أمه ثمانين عاماً^(٨٥) . ثم ملأوا الأرض بشياطين وآلهة جديدة ، وكانوا يخيفون الأولى بصواريخ نارية تنفجر في أفنية الهياكل ويتهيج بانفجارها من يجتمع حولها من الناس ، ويوقظون الثانية من سباتها بنواقيس ضخمة قوية الصوت لتستمع إلى دعوات عبّادها ومطالبهم الملحة .

وظلت العقائد الدوية أنعام عقيدة الملايين من الصينيين ، وآمن بها كثير من الأباطرة ، وحاك أتباعها كثيراً من الدسائس ، وكافحوا أشد الكفاح ليدزعوا من الكنفوشيين حقهم المقدس في فرض الضرائب وإنفاق حصيلتها . ثم قضى عليها آخر الأمر ، ولكن الذي قضى عليها لم يكن منطق كنفوشبوس وأتباعه بل قضى عليها دين جديد أقدر منها هي نفسها على إلهام رجل الشارع وبعث السلوى في نفسه .

وهذا الدين الجديد هو البوذية ، ولم تكن البوذية التي بدأت تنتقل من الهند إلى الصين في القرن الأول الميلادي هي العقيدة الجامدة المكتتبة التي نادى بها « المستنير » قبل دخولها إلى الصين بخمسمائة عام ، ولم تكن عقيدة قائمة على الزهد والتقشف ، بل كانت ديناً يدعو إلى الإيمان في غبطة وبهجة بآلهة تعين البشر على أعمالهم ، وجنة ذات أزهار ورياض . واتخذت على توالي الأيام صورة المركبة الكبرى أو الماهيانا التي وفق فقهاء الككتشكا بينها وبين الحاجات العاطفية لسكان الصين السذج ؛ وغمرت الصين بآلهة جدد لا يفترون كثيراً عن الآدميين أمثال أميتها حاكم الجفة ، وكون — ين إله الرحمة وإلهتها فيما

بعد ، وأضافت إلى مجمع آلهة الصين عدداً من اللوهاره والدرباط — وهم ثمانية عشر من أتباع بوذا الأولين — المتأهبين في كل حين لأن يهبوا الناس بعض ما لهم من فضائل لكي يساعدوا بنى الإنسان الحيارى المعذبين .

ولما ألقت الصين نفسها بعد سقوط أسرة هان مقطعة الأوصال من جراء ما سادها من فوضى سياسية ، وخيل إلى أهلها أن حياتها نفسها قد قضى عليها اضطراب حبل الأمن وتوالى الحروب ، ولت الأمة المذبذبة وجهها شطر البوذية كما ولى العالم الرومانى وجهه في ذلك الوقت نفسه شطر المسيحية وفتحت الدوية ذراعها لاحتضان الدين الجديد وامتزجت به على مر الزمان في نفوس الصينيين امتزاجاً تاماً ؛ وأخذ الأباطرة بضطهدون البوذية والفلاسفة يشكون مما فيها من خرافات ، وأخذ الساسة بأسفون لأن طائفة من خير أبناء الصين قد انزوت في الأديرة وعقمت فأضحت لا تفيد منها البلاد شيئاً . لكن الحكومة وجدت آخر الأمر أن الدين أقوى من الدولة ؛ فتصالح الأباطرة مع الآلهة الجدد ؛ وأجيز للكهنة أن يجمعوا الزكاة ويشيدوا الهياكل ، ورضيت طبقتا الموظفين والعلماء على الرغم منهما أن تبقى الكنفوشية ديناً أرسقراطياً لها . واستولى الدين الجديد على كثير من المزارات القديمة وأقام رهبانه وهياكله إلى جانب رهبان الدوية وهياكلها على تاي — شان جبلها المقدس ، وحث الناس على أن يحجوا إلى هذه الهياكل مراراً كثيرة لإظهاراً لورعهم وتقواهم ، وكان له أثر عظيم في إزدهار فنون التصوير والنحت والعمارة والآداب ، وتقدم الطباعة ، ورفق كثير من طباع الصينيين ، ثم اضمحلت كما اضمحلت الدوية ، فدب الفساد في نفوس كهنة الديانة الجديدة ، وتغلغل في عقائدها على مر الأيام كثير من الأرباب المشؤمين والخرافات الشعبية المؤذية ، وقضى على ما كان لها من سلطان سياسى لم يكن كبيراً في يوم من الأيام — نهضة الكنفوشية على يد چوشى . والآن قد هجرت هياكلها ، ونصب معين مواردها ، وأضحت وليس لها عبادة إلا كهنتها الفقراء المعدمة . (٨٦)

بيد أنها مع ذلك قد نفذت إلى قرار النفس الصينية ، ولا تزال حتى الآن عنصراً هاماً من العناصر المعقدة غير الرسمية في دين الصينى الساذج . ذلك أن الأديان في الصين ليست محدودة مانعة كما هي في أوروبا وأمريكا ، ولم تدفع البلاد في يوم من الأيام إلى الحروب الدينية . فأنصار كل دين في تلك البلاد متسامحون عادة مع أهل كل دين آخر ، وليس هذا التسامح مقصوراً على شئون الدولة السياسية بل تراه أيضاً في العقائد نفسها ؛ فالصينى العادى من عبدة مظاهر الطبيعة ودوئى وبوذى وكنفوشى في وقت واحد . ذلك أنه فيلسوف متواضع ، يعرف ألا شئ في هذا العالم محقق مؤكد ، ويقول في نفسه لعل رجال الدين على حق ولعل هناك جنة كما يقولون ، وخير ما يفعله الإنسان أن يتقبل كل هذه العقائد ؛ ويستأجر كثيراً من الكهنة من ديانات مختلفة ليتلوا الصلوات على قبره . على أن المواطن الصينى لا يعبأ كثيراً بالآلهة مادام الحظ يبسم له ؛ فهو يعظم أسلافه ولكنه يترك هياكل الدوية والبوذية في رعاية الكهنة وعدد قليل من النساء .

ولم يعرف التاريخ نفساً أشد دنيوية من نفسه ، فأكبر ما يهتم به الصينى أن يعيش بخير في هذه الحياة الدنيا ، وإذا صلى فإنه لا يطلب أن يصلاته أن ينال نعيم الجنة بل يطلب الخير لنفسه في هذا العالم الأرضى ^(٨٧) . وإذا لم يستجب إلهه لدعائه فقد يطلق فيه لسانه بالسباب ثم يمزقه آخر الأمر في النهر . ومن الأمثال الصينية للأثورة : « ليس من صانعى التماثيل والصور من يعبد الآلهة ، فهم يعرفون من أية مادة تصنع ^(٨٨) » .

ومن أجل هذا لم يقبل الصينى العادى بحماسة على الإسلام أو المسيحية ، فذائك الدينان يمنيانه بجنة قد وعدته إياها البوذية من قبلهما ؛ ولكن الذى يريده بحق هو دين يضمن له السعادة في هذه الأرض . وإذا قيل إن في الصين مسلمين فجوابنا أن معظم الخمسة عشر مليوناً من المسلمين في الصين ليسوا في

الحقيقة صينيين ؛ بل هم من أصول أجنبية أو أبناء أجانب^(٨٩) . وقد دخلت المسيحية الصين على يد النساطرة ، وكان ذلك حوالى عام ٦٣٦ م . وأظهر الإمبراطور ناى دزونج شيئاً من العطف عليها ، وحى الداعين لها من الاضطهاد ، وبلغ من اغتباط نساطرة الصين بهذا التسامح أن أقاموا فى عام ٧٨١ نصيباً تذكاريًا سجلوا عليه تقديرهم لهذا التسامح المستدير ، ورجاءهم أن تعم المسيحية فى القريب العاجل جميع أنحاء البلاد^(٩٠) .

ومن ذلك الحين ظل المبشرون اليسوعيون ذوو الغيرة الدينية والعلم الغزير ، وظل المبشرون البروتستنت تؤيدهم الأموال الأمريكية التى لا ينضب لها معين ، ظل هؤلاء وأولئك يبذلون أقصى جهودهم ليحققوا آمال النساطرة فإذا كانت النتيجة ؟ إن عدد المسيحيين فى الصين فى هذه الأيام لا يتجاوز ثلاثة ملايين أى أن واحداً فى المائة من سكان الصين قد اعتنق المسيحية فى ألف عام كاملة^(٩١) .

(*) لقد فانت المسيحية فرصة أتيحت لها فى القرن الثامن عشر حين قام النزاع بين اليسوعيين وغيرهم من المذاهب الكاثوليكية الرومانية فى الصين ذلك أن اليسوعيين كانوا حرباً على براعتهم السياسية قد وجدوا وسيلة للوفيق بين العنصرين الأساسيين فى الدبافات الصينية — عبادة الأسلاف وإجلال السماء — وبين العقائد المسيحية من غير أن يقوضوا دعائم النظم الدينية المتأصلة فى الصين أو يعرضوا للخطر كيان الصين الأخلاقى . لكن رهبان الدمنيكيين والفرنسيسيين لم يرضهم إلا أن يفسروا الدين المسيحى على أصوله الدققة ، وأخذوا يشتهرون بكل ما فى العقائد الدينية الصينية من مبادئ ومراسم ويقولون إنها من فعل الشيطان . وكان الإمبراطور كانج — شى رجلاً مستثيراً شديد العطف على المسيحية ، عهد إلى اليسوعيين أن يعلموا أبناءه وعرض هو نفسه أن يعتنق المسيحية ببعض الشروط ؛ فلما أن أدت الكنيسة المسيحية فى الصين رسمها موقف الدمنيكيين والفرنسيسيين الحامد الشديد قنص يده عن معونة المسيحية ، ولم يكف خلفاؤه بأن يقفوا منها هذا الموقف السلمى بل قرروا أن يقاوموها بمقاومة فعالة . وكانت مطامع الغربيين فى الأيام الأخيرة وفرغتهم الاستعمارية من العوامل التى أضعفت قدرة المبشرين المسيحيين على الإقناع ، وزادت الحركة المضادة للمسيحية التى يقوم بها الثوار الصينيون قوة على قوتها .

الفصل الخامس

حكم الأخلاق

ما للأخلاق من مكانة سامية في المجتمع الصيني - الأسرة -
الأطفال - العمة - الدعارة - العلاقات الجنسية قبل الزواج -
الزواج والحب - الاقتصاد على روجة واحدة وتعدد الزوجات
- الذسرى - الطلاق - إمبراطورة صينية - الحكم
الأنوى للذكور - حصوع النساء للرجال - الخلق الصيني

لقد تغلبت الكنفوشية وعبادة الأسلاف على كثير من الديانات المنافسة لها، وقاومتا هجمات كثير من أعدائهما، وخرجتا ظافرتين من صراع دام عشرين قرناً، لأن الصينيين يشعرون بأنهما لاغنى عنهما للاحتفاظ بالتقاليد القوية السامية التي أقامت الصين عليها حياتها. وكما كانت هاتان الديانتان هما الضمانتين الدينتين لهذه الحياة، فكذلك كانت الأسرة هي الوسيلة الكبرى لدوام هذا التراث الأخلاقي. فقد ظل الأبناء يتوارثون عن الآباء قانون البلاد الأخلاقي جيلاً بعد جيل حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصيني، وكان قانوناً قوياً ثابت الدائم بلغ من قوته وثباته أن أمكن المجتمع الصيني من أن يحتفظ بنظامه رغم ما انتاب الدولة غير المستقرة من نواذب وما اجتاحتها من أعاصير سياسية. وفي ذلك يقول قلتير: « إن خير ما يعرفه الصينيون، وأكثر ما يغرسونه في نفوس أبنائهم، وما بلغ به ذروة الكمال، هو قانونهم الأخلاقي »^(٩٢) ويقول كنفوشيوس في هذا المعنى نفسه: « إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم »^(٩٣).

وكان الصينيون يفترضون أن الغرض الذي يهدف إليه القانون الأخلاقي هو أن يحول فوضى العلاقات الجنسية إلى نظام ثابت مقرر يهدف إلى تنشئة الأبناء. فالطفل هو علة وجود الأسرة، ويرى الصينيون أن أطفال الأسرة مهما كثروا

لا يمكن أن يزيدوا على الحد الواجب المقبول . ذلك أن الأمة معرضة على الدوام لهجمات الفزاة فهي في حاجة إلى من يحميها ، وأن الأرض خصبة غنية يجد ملايين الناس فيها كفايتهم ؛ وإذا فرض أن اشتد تنافس البقاء بين الناس في الأسرة الكبيرة والبيئات المزدهجة فإن هذا التنافس نفسه سيقتضي على أضعفهم ويحتفظ بأقدرهم على الحياة ، فيتضاعف عددهم ليكونوا دعامة قوية للأمة ومصدرا لعزة آبائهم وكرامتهم ، يرعون قبور أسلافهم الرعاية الدينية الواجبة . ولقد صاغت عبادة الأسلاف من الأجيال المتعاقبة سلسلة قوية لا آخر لها ، كثيرة الحلقات تربط الأجيال بعضها ببعض وتضاعف قوتها . فكان على الزوج أن يلد أبناء ليقرنوا له القربان بعد وفاته وليواظبوا في الوقت نفسه على تقريب القربان لأسلافه . وفي ذلك يقول منشيس : « ثلاثة أشياء لا يليق صدورها من الآباء ، وشرها كلها ألا يكون لهم أبناء »^(٩٤) .

وكان الآباء يدعون في صلواتهم أن يرزقوا أبناء ؛ وكان من أشد أسباب المذلة الدائمة للأمهات ألا يكون لهن أبناء ذكور لأن هؤلاء أقدر من البنات على العمل في الحقول وأثبت منهن خبنا في ميدان القتال ؛ وكان من الشرائع المتبعة في البلاد — ولعل هذا الاعتقاد قد روعى في وضعها — ألا يسمح لغير الذكور بتقريب القربان إلى الآباء والأسلاف . وكانت البنات تعد عبثا على الآباء لأنهم يربونهن ويصبرون على تربيتهن ولا ينالهن من ذلك إلا أن يبعثوا بهن متى كبرن إلى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ويلدن أبناء يكدون لأسر غير أسرهم . وإذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها وصادفت الأسرة الصعاب في إعالتهم تركتهن في الحقول ليقضى عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية^(٩٥) دون أن تشعر بشيء من وخز الضمير . وكان من بقى على قيد الحياة من الأبناء والبنات بعد أخطار الطفولة وأمراضها ينشئون بحنان عظيم ؛ وكانت القدوة الحسنة تحمل في تربيتهم محل الضرب واللكم ، وكان الأقارب يتبادلون الأبناء في بعض الأحيان حتى لا يتلفهم

حب الآباء وحفانهم^(٩٦) . وكان الأطفال يتركون في المنزل في الجناح الخاص بالنساء ، وقلم كانوا يختلطون بالكبار من الذكور حتى يبالغوا السابعة من العمر ، وبعدها يرسل الأولاد إلى المدارس إذا كانت موارد الأسرة تكفي لتعليمهم ويفصلون عن البنات فصلاً تاماً ، حتى إذا بلغوا العاشرة لم يسمع لهم بأن يختاروا لهم رفقاء من غير الرجال والمحاضى . ولكن انتشار اللواط جعل هذا الاختيار صورياً^(٩٧) .

وكانت العفة تعد من الفضائل السامية ، وكان الآباء يحرصون عليها أشد الحرص في بناتهم ، وقد نجحوا في غرس هذه الفضيلة في البنات نجاحاً منقطع النظير ، يدل عليه أن البنات الصينيات كن في بعض الأحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث بأن مسهن رجل مصادفة^(٩٨) . غير أنهم لم يبذلوا أى مجهود يرمى إلى أن يحتفظ الرجل غير المتزوج بعفته ، بل كان يعد من الأمور العادية المشروعة أن يتردد على المواقير ، وكان الزنا عند الرجال من الشهوات المألوفة الواسعة الانتشار ، يستمتع به الرجل كما يشتهي من غير أن يفاله من ورائه أى عار إلا ما ينال المقرط في أية عادة من العادات^{(٩٩)(١٠٠)} .

وكان إعداد النساء لإشباع هذه الشهوات من النظم المقررة في الصين من زمن بعيد . من ذلك أن الوزير الشهير جوان چونج وزير ولاية تشى أعد مقراً للقوادات تؤخذ فيه من التجار القادمين من الولايات الأخرى مكاسبهم قبل أن يعودوا إلى أوطانهم^(١٠١) .

ويقول ماركو بولو إنه شاهد في عاصمة كويلاى خان من العاهرات ما لا يحصى عددهن وما لا يتصور العقل جماهن . وهؤلاء البغايا مرخص لهن

(١) وكان الرجال في بعض الأحيان يعدون أنفسهم حجرة لقضاء الليل في بيت من بيوت الدعارة بالصورة الخليعة والباهات والأغاني^(١٠٠) . ومن واحنا أن نقول إن هذه العادات الجنسية الشاذة آخذة في الزوال في هذه الأيام .

بمزاولة مهنتهن ، وتنظم الدولة أمورهن وتراقبهن من الوجهة الطبية ، وتقدم
أجلهن دون أجر إلى أعضاء السفارات الأجنبية^(١٠٣) .

ونشأت فيما بعد طائفة خاصة من الفانتات يعرفن « بالبنات المغنيات »
مهنتهن أن يتحدثن حديثاً مذهباً إلى الشبان إذا أرادوا أو يستخدمن في بيوت
الأزواج لتسلية الضيوف . وكثيراً ما تكون هؤلاء الفتيات من البارعات
في الأدب والفلسفة ومن يجدن الموسيقى والرقص^(١٠٣) .

وقد كان الرجال يستمتعون بحرية واسعة في صلاتهم بالنساء قبل الزواج ،
كما كانت صلات النساء المحترمات بالرجال قبل زواجهن مقيدة بأشد القيود ،
وكان من نتائج هذه الحرية الواسعة من جهة وهذا التقييد الشديد من جهة أخرى
أن الفرصة لم تتح كثيراً لنشأة الحب العاطفي السامي . على أنه قد ظهرت كتابات
تصف هذا الحب العاطفي في عهد أسرة تانج ؛ وفي وسعنا أن نرى شواهد دالة على
وجود هذه العاطفة منذ القرن السادس قبل الميلاد في قصة واى شنج . فقد تواعد
هو وفنائه أن يلتقيا تحت قنطرة ، وظل هو ينتظرها هناك بلا جدوى وإن كان الماء
قد علا فوق رأسه وأغرقه^(١٠٤) . وما من شك في أن واى شنج كان أعرف
بحقائق الأمور مما يبدو في هذه القصة . ولكن الشاعر الذى نظمها يظن هو
وأمثاله من الشعراء أنه قد لا يعرف ، وفي هذا الظن ما فيه من الدلالة . وقصارى
القول أن الحب بوصفه عاطفة رقيقة وهياماً بالحجوب وتعلقاً به كان بين الرجال
بعضهم بعضاً أقوى منه بين الرجال والنساء ؛ والصينيون في هذا أشبه الناس
باليونان^(١٠٥) .

ولم يكن للزواج صلة بالحب . ولما كان الغرض من الزواج هو ربط
زوجين أحباء بعضهما ببعض لكي تنشأ من ارتباطهما أسرة كبيرة ، فإن هذه
الرابطة لم يكن يصح في اعتقاد الصينيين أن تترك لحكم العواطف القائم على غير
أساس من العقل . ومن أجل هذا كان الآباء يحرصون على فصل الذكور عن

الإناث حتى يبحثوا هم زوجات لأبنائهم أو أزواج لبناتهم . وكانوا يعدون امتناع الرجل عن الزواج عيباً خلقياً ، كما كانت العزوبة جريمة في حق الأسلاف . وفي حق الدولة وفي حق الجنس لا تغتفر حتى لرجال الدين . وكان الصينيون في أيامهم الأولى يعيّنون موظفاً خاصاً عمله أن يتأكد من أن كل إنسان في الثلاثين من عمره متزوج وأن كل امرأة قد تزوجت قبل العشرين^(١٠٦) . وكان الآباء يظلمون خطبة أبنائهم وبنايتهم بمعونة وسطاء محترفين (ماى - رن = وسطاء) ، وكانوا يفعلون هذا عقب بلوغهم الحلم وقبله أحياناً وقبل أن يولدوا في بعض الأحيان^(١٠٧) . وكان ثمة قيود تفرض على الزواج بين الأقارب وأخرى على الزواج من غير الأقارب تحد من هذا الاختيار ، منها : أن الزوج يجب أن يكون من أسرة معروفة من زمن بعيد للأب الذى يبحث عن زوج لابنه أو بنته ولكنها بعيدة النسب عنه بعداً يجعلها خارج دائرة عشيرته . وهذا القول نفسه يصدق على الزوجة . وكانت طريقة الخطبة أن يرسل والد الخطيب هدية قيمة إلى والد الفتاة . ولكن الفتاة كان ينتظر منها هي الأخرى أن تأتى معها ببائنة قيمة إلى زوجها تكون في الغالب على شكل متاع أو بضاعة كما كانت الأسرتان تتبادلان في العادة كثيراً من الهدايا ذات الشأن وقت الزواج . وكانت البنت تظل في عزلة شديدة عن حطبها حتى تزف إياه ، فلم يكن زوجها المرتقب يستطيع رؤيتها إلا إذا احتال على ذلك احتيالا — ولقد كان هذا الاحتيال مستطاعاً في بعض الأحيان — ، ولكنه في كثير من الحالات كان يراها أول مرة حين يرفع النقاب عن وجهها في حفلة الزفاف . وكانت هذه الحفلة من الطقوس الرمزية المعقدة ، أهم ما فيها أن يحسنى المريس من الخمر ما يكفي لأن يزيل ما عساه أن ينتابه من حياء يعد في عرف الصينيين جريمة لا تغتفر^(١٠٨) . أما البنت فكانت تدرّب على أن تكون حيّة ومطيمة في وقت واحد . وكانت الزوجة تعيش بعد الزواج مع زوجها في بيت أبيه أو بأقرب منه ، حيث تكدح كدحاً في خدمة زوجها وأمه حتى يموت

الوقت الذى يحررها فيه الموت من هذا الاسترقاق ، ويتركها على استعداد لأن تفرضه هى نفسها على زوجات أبنائها .

وكان الفقراء يكتفون بزوجة واحدة ، ولكن حرص الصينيين على إنجاب أبناء أقوياء كان من القوة بحيث يجعلهم يسمحون عادة للقادرين منهم بأن يتخذوا لهم سرارى أو « زوجات فى الدرجة الثانية » . أما تعدد الزوجات فكان فى نظرهم وسيلة لتحسين النسل ؛ وحجتهم فى هذا أن من يستطيعون القيام بنفقاته منهم هم فى العادة أكثر أهل العشيرة قدرة على إنجاب الأبناء . وكانت الزوجة الأولى إذا ظلت عاقراً تحث زوجها على أن يتخذ له زوجة ثانية ؛ وكثيراً ما كانت هى نفسها تتبنى ابن إحدى المحاضى . وكثيراً ما كان يحدث أن الزوجات اللاتى يرغبن فى أن يحتفظن بأزواجهن داخل بيوتهن يطلبن إليهم أن يتزوجوا بالمحاضى اللاتى يؤثرونهن بالعناية وبالصلات الجنسية ، وأن يأتوا بهن إلى منازلهم ويتخذونهم فيها زوجات من الدرجة الثانية^(١٠٩) .

ومن أجل ذلك رى القصص والأخبار الصينية ثنى على زوجة الإمبراطور جوانج — تشو أطيب الثناء لأنها قالت : « لم أكف قط عن إرسال الرسل إلى المدن المجاورة للبحث عن النساء الجميلات لأجعلن خايلات لمولاي »^(١١٠) وكانت الأسرى ينافس بعضها بعضاً فى أن يثقلن شرف الخطوة بإرسال إحدى بناتها إلى حريم الإمبراطور . وكان من حق الإمبراطور أن يتخذ له ثلاثة آلاف من الخصييان ليحرسوا له حريمه وليعنوا ببعض الشئون الأخرى فى بلاطه ، وكان هؤلاء الخصييان يخصصهم آباؤهم وهم فى سن الثامنة ليضمنوا لهم الحصول على رزقهم^(١١١) .

ولم تكن الزوجات الثانيات فى جنه الذكور هذه يفترقن كثيراً عن الإمام ، كما لم تكن الزوجات الأوليات إلا رئيسات هيئة لإنتاج الأبناء والبنات ، تعتمد مكانتهن فى الأسرة اعتماداً يكاد يكون تاماً على عدد من يلدن من الأبناء وعلى

جنسهن . وإذا كانت الزوجة قد نشئت على الرضا بسيادة زوجها عليها فقد كان في وسعها أن تنعم بقسط متواضع من السعادة بالاندماج ببطء ويُسِر في النظام الرتيب الذي هيئت له والذي ينتظره الناس كلهم منها . وإذا كانت النفس البشرية كما نعلم جميعاً سريعة القبول لما تنشأ عليه فإن الرجل والمرأة المرتبطين برباط الزوجية في تلك البلاد كانا يعيشان كما يبدو لنا عيشة راضية سعيدة لاتقل في ذلك عن عيشة الزواج التي تعقب الحب الروائي في البلاد الغربية . وكان في وسع الرجل أن يطلق الزوجة لأي سبب كان ، لعقمها أو لثرتها^(١١٢) ، ولم يكن من حقها هي أن تطلق زوجها ، بل كان لها أن تغادر داره وتعود إلى دار أبيها . وإن كان هذا لا يحدث إلا في القليل النادر . على أن الطلاق كان مع ذلك قليلاً ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى ما كان ينتظر المطلقة من مصير أسوأ من أن تستطيع التفكير فيه ، وبعضه إلى أن الصينيين فلاسفة بطبيعتهم يرون الألم أمراً طبيعياً وأنه من مقتضيات النظام العام .

وأكبر الظن أن الأم قبل أيام كنفوشيوس كانت محور الأسرة لأنها مصدر وجودها وسلطانها . وكان الناس في أول عهودهم كما سبق القول « يعرفون أمهاتهم ولا يعرفون آباءهم » ، ولا يزال اللفظ الدال على اسم أسرة مكوناً من الأصل الذي اشتق منه لفظ « امرأة »^(١١٣) ، واللفظ الصيني المقابل لكلمة الزوجة معناه « المساوي » ، وكانت الزوجة تحتفظ باسمها بعد زواجها . وكانت النساء حتى القرن الثالث بعد الميلاد يشغلن في البلاد مناصب إدارية وتنفيذية رفيعة ، وقد وصل بعضهن إلى أن يكن حاكمات للبلاد^(١١٤) ؛ ولم تكن « الإمبراطورة الأم » حين قبضت بيدها على شئون الدولة إلا متتبعة لخلى الإمبراطورة « لو » التي حكمت الصين حكماً صارماً دام من عام ١٩٥ إلى عام ١٨٠ ق . م . وكانت « لو » حاسية لاتلين قناتها ، قتلت منافسيها وأعداءها أو قضت عليهم بالسيم ، وكانت تعقب بتعتيلهم وتسميمهم اغتباط آل ميديشي ، وكانت تختار الملوك وتخلصهم عن

عرشهم ، وتصلم آذان محظيات زوجها وتفقأ عيونهم ثم تلقيهن في المراحيض^(١١٥) وكان التعليم منتشرأ بين نساء الطبقات العليا في الأيام القديمة وإن كان عدد من يعرفون القراءة والكتابة من الصينيين في أيام المنشو لا يكاد يبلغ واحداً في كل عشرة آلاف . وكانت كمثرات من النساء يقرضن الشعر ، ولقد أتمت بان چاو أخت المؤرخ بان كو الموهوبة (حوالى عام ١٠٠ م) تاريخه بعد وفاته ونالت حظوة كبيرة عند الإمبراطور^(١١٧) .

ولعل قيام نظام الأقطاع فى الصين قد قلل من منزلة المرأة السياسية والاقتصادية فى تلك البلاد ؛ وجاء معه بنمط صارم من الأسرة الأبوية . ذلك أن الأبناء الذكور هم وزوجاتهم وأطفالهم كانوا يعيشون فى العادة مع أكبر رجال الأسرة . ومع أن الأسرة كلها كانت تمتلك أرضها امتلاكاً مشتركاً فإنها كانت تعترف للأب بالسلطان الكامل على الأسرة وعلى أملاكها . فلما أن حل عهد كنفوشيوس كاد سلطان الأب يكون سلطاناً مطلقاً فى جميع الأمور ، فكان فى وسعه أن يبيع زوجته وأبناءه ليكونوا عبيداً ، وإن لم يفعل هذا إلا إذا ألجأته إليه الضرورة القصوى ؛ وكان يستطيع إذا شاء أن يقتل أبناءه لا يحول بينه وبين هذا إلا حكم الرأى العام^(١١٨) . وكان يتناول طعامه بمفرده لا يدعو زوجته ولا أبناءه إلى المائدة معه إلا فى أوقات قليلة نادرة ، وإذا مات كان ينتظر من أرملته ألا تتزوج بعده ، وكان يطلب إليها فى بداية الأمر أن تحرق نفسها تكريماً له ؛ وظلت حوادث من هذا النوع تقع فى الصين إلى أواخر القرن التاسع عشر بعد الميلاد^(١١٩) . وكان الصينى يحامل زوجته كما يحامل كل إنسان سواها ، ولكنه كان فى حياته بعيداً كل البعد عن زوجته وأبنائه كأنه من طبقة غير طبقتهم . وكان النساء يعشن فى أقسام خاصة من المنزل ، وقد أكن يختلطن فيه بالرجال ، وكانت الحياة الاجتماعية كلها مقصورة على الرجال إلا إذا كانت النساء من الطبقات التى يسمح لأفرادها بالاختلاط بالرجال كالمغنيات والمحدثات ومن إليهن .

وكان الرجل لا يفكر في زوجته إلا بوصفها أم أبنائه ولا يكرمها لجمالها أو لثقافتها بل لخصوبتها وجدّتها وطاعتها؛ يشهد بذلك ما كتبتة السيدة بان هو — بان إحدى بنات الطبقة العليا في رسالة ذائعة الصيت بعبارات غاية في التواضع والخضوع تصف فيها المسكينة الحقّة للمرأة :

نشغل نحن النساء آخر مكان في الجنس البشرى ، ونحن أضعف قسم من بنى الإنسان ، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال ... وما أعدل ما يقوله في حقنا كتاب قوانين الجنسين وأصدقّه : « إذا كان للمرأة زوج يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه طيلة حياتها ؛ وإذا كان للمرأة زوج لا يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه أيضاً طيلة حياتها » (١٢٠) .

ويغنى فوشوان قائلا :

ألا ما أتعس حظ المرأة !

ليس في العالم كله شيء أقل قيمة منها .

إن الأولاد يقفون متكئين على الأبواب ،

كأنهم آلهة سقطوا من السماء ،

تتحدى قلوبهم البحار الأربعة ،

والرياح والتراب آلاف الأميال ؛

أما البنات فإن أحداً لا يسر بمولدها ،

ولا تدخر الأسرة من ورائها شيئاً ،

وإذا كبرت اختبأت في حجرتها ،

تخشى أن تنظر إلى وجه إنسان ،

ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها —

على حين غفلة كما تختفي السحب بعد هطول الأمطار ،

وهي تغطّي رأسها وتجتمل وجهها .

وتعص بأسنانها على شففتها ،
وتتحنى وتركع صواراً يخطئها الحصر^(١٥١) .

قد يكون في هذه المقتبسات ظلم للبيت الصيني ؛ نعم قد كان فيه خضوع ومذلة ، وكثيراً ما قام فيه النزاع بين الرجل والمرأة وبين بعض الأطفال ، ولكن كان في البيت أيضاً كثير من الحب والحنان ، وكثير من التعاون والتآزر في الأعمال المنزلية ، مما يجعل البيت مكاناً طبيعياً ومستقراً صالحاً للأسرة . وكانت المرأة رغم خضوعها للرجل من الناحية الاقتصادية تستمتع بكامل حقها في استخدام لسانها ، وكان في وسعها أن تؤنب الرجل حتى يرهبها أو يفر من وجهها كأحسن ما تستطيعه المرأة الغربية في هذه الأيام . هذا وجدير بنا أن نقول إن الأسرة ذات النظام الأبوي ليس في مقدورها أن تكون أسرة ديمقراطية ، وهي أشد من ذلك عجزاً عن أن يكون جميع أفرادها متساوين في الحقوق ، وذلك لأن الدولة كانت تترك للأسرة مهمة القيام على النظام الاجتماعي ، ولأن المنزل كان مربى للأطفال ومدرسة ومصنعاً وحكومة في وقت واحد . ولم يتراخ نظام الأسرة في أمريكا إلا بعد أن ضعف شأن المنزل في المدينة ، وقلت أهميته باتباع واجبات الأسرة إلى المدرسة والمصنع والدولة .

ولقد أثني كثير من الرحالة أجمل ثناء على الخلق الذي كان ثمرة هذه النظم المنزلية . فإذا صرفنا النظر عن الحالات الشاذة الكثيرة التي تضعف كل حكم عام يمكن أن يصدره الإنسان على أي نظام اجتماعي ، استطعنا أن نقول إن المنزل الصيني العادي كان مثلاً يحتذى في طاعة الأبناء والآباء ، وإخلاصهم ووفائهم لهم ، وفي احترام الصغار للكبار وعنايتهم بهم عن رضا واختيار^(*) وكان الصيني يقبل الحكم

(*) توضيح الأقاصيص الصينية هذه المصنفات توضيحاً فكها بما ترويه في قصة هكوجا الذي كانت أمه تضربه بالسوط كل يوم ولكنه لا يبكي أبداً . لكنه يبكي في يوم من الأيام في أثناء ضربه ، ولما سئل عن سبب اضطرابه هذا الاضطراب الغير المألوف قال إنه يبكي لأن أمه يعد أن كبرت وضمفت عجزت عن أن تسبب له الأذى بغير بابها (١٢٢) .

الأخلاقية التي جاءت في اللى — شئ أو كتاب الحفلات ، ويعمل بما فيها من آداب اللياقة رغم مشقتها ، وينظم كل ناحية من نواحي حياته حسب ما فيها من قواعد الجمالة العاطفية التي أكسبت أخلاقه من الرقة والسهولة والاتزان والكرامة ما لم يثله أمثاله من الغربيين — فقد يظهر الحمال الذي ينقل الأقدار في الطرقات من الأدب وحسن التربية واحترام النفس أكثر مما يظهره التاجر الأجنبي الذي باعه الأفيون . ولقد تعلم الصيني فن التراضي والمصالحة واستطاع بذلك أن يستل ضغينة عدوه المغلوب . ولقد كان في بعض الأحيان عنيفاً في قوله ، وكان على الدوام ثنائراً ، وكثيراً ما تراه قدراً أو ثلماً يدمن القمار ويلتهم الطعام اتهاماً^(١٢٤) ، ويميل إلى ابتزاز الأموال العامة وإلى سؤال الناس في غير الخاف^(١٢٤) ، يعبد إله المال عبادة وثنية مسرفة في صراحتها^(١٢٥) ، ويجرى وراء الذهب جرى الأمريكي كما تراه في صورته الساخرة ، يستطيع أحياناً أن يكون قاسياً فظاً غليظ القلب ، إذا توالى عليه المظالم ثار أحياناً وأقدم على ضروب من السلب والتقتيل في جماعات كبيرة . ولكنه في جميع أحواله تقريباً رجل مسالم رحيم ، كثير الاستعداد لمساعدة جيرانه ، يحترم المجرمين والمخاربين ، مقتصد بمجد مثابر على عمله وإن كان لا يعجل فيه ، بسيط في أسلوب حياته لا يحب النظاهم والتصنع ، شريف إلى حد كبير في معاملاته التجارية والمالية . وكان من عادته الصبر على النوائب ، يستقبل النعم والنقم على السواء بحكمة ووداعة ، ويتحمل الحرمان بالعباب دون أن يفقد سلطانه على نفسه ، ويصبر عليهما صبر من يرى أن كل شئ مقدر عليه في الأزل ، ولا يعطف قط على من يتأفف منهما على مسمع من الناس ، يحزن حزناً صادقاً طويلاً على من يموت من أقاربه ، وإذا عجز عن الفرار من الموت بجميع ما لديه من الوسائل واجبه وهو صابر صبر الفلاسفة ؛ وكان

(*) كان الباعة الجوالون يقفون على جوانب الطرق في كثير من المدن ويبد كل منهم طبق ويرد وفنجان على استعداد لإشباع رغبة المقامر المابر (١٢٥) .

مرهف الشعور بالجمال بقدر ما كان قليل الشعور بالألم ، وكان يزين مدانته
بالنقوش الملونة ويتنعم في حياته بأرق أنواع الفن .

وإذا شئنا أن نفهم هذه الحضارة حق الفهم كان علينا أن ننسى ، ولو إلى
حين ، ما ترددت فيه البلاد من فوضى وعجز بسبب ضعفها في الداخل ، واحتكاكها
بمدافع الغرب وآلاته الضخمة القوية ، وأن نراها في فترة من فترات عزها
ومجدها في عهد أسراء تجو أو في عهد منبج هواج أو هواي دزونج أو كاج — شى .
ذلك أن الصينى في تلك الأيام أيام حب الجمال كان يمثل بلا ريب أرقى المدينيات
وأنضج الثقافات اللتين شهدتهما آسية أو إن شئت فقل أية قارة من القارات .

الفصل السادس

حكومة يثنى عليها فلتير (١٢٦)

المرد المغمور - الحكم الداقى - القرية والإقليم - نراخى القانون -
صراة العقاب - الإمبراطور - الرقيب - المحالس الإدارية -
الإعداد للمناصب العامة - الرشيع بالتعليم - نظام الامتحانات -
عبونه - وفصائله

إن أكثر ما يروعننا فى هذه الحضارة هو نظام حكومتها . وإذا كانت الدولة المثالية هى التى تجمع بين الديمقراطية والأرستقراطية فإن الصينيين قد أنشأوا هذه الدولة منذ ألف عام أو تزيد ؛ وإذا كانت خير الحكومات هى أقلها حكما ، فقد كانت حكومة الصين خير حكومات العالم على الإطلاق . ولم يشهد التاريخ قط حكومة كان لها رعايا أكثر من رعايا الحكومة الصينية أو كانت فى حكمها أطول عهداً وأقل سيطرة من تلك الحكومة .

لسنا نقصد بهذا أن البرزة الفردية أو الحرية الفردية كان لها شأن عظيم فى بلاد الصين ؛ ذلك أن فكرة الفردية كانت ضعيفة فى تلك البلاد وأن الفرد كان مغموراً فى الجماعات التى ينتمى إليها . فقد كان أولاً عضواً من أعضاء أسرة ، ووحدة عابرة فى موكب الحياة بين أسلافه وأخلافه ؛ وكانت القوانين والعادات تحمله تبعاً لأعمال غيره من أفراد أسرته كما يحملون هم تبعه أعماله ؛ وكان فضلاً عن هذا ينتمى عادة إلى جمعية سرية ، وإذا كان من سكان الحواضر فإنه ينتمى إلى نقابة من نقابات الحرف .

وهذه كلها أمور تحد من حقه فى أن يفعل ما يشاء . وكان يحيط به فضلاً عن هذا طائفة من العادات القديمة ويهدده رأى عام قوى بالطرده من البلاد إذا خرج على أخلاق الجماعة أو تقاليدها خروجاً خطيراً . وكانت قوة هذه العظم

الشعبية التي نشأت بطبيعتها من حاجات الناس وتعاونهم الاختيارى هي التي أمكنت الصين من أن تحتفظ بنظامها واستقرارها رغم ما يشوب القانون والدولة من لين وضعف .

ولكن الصينيين ظلوا أحراراً من الناحيتين السياسية والاقتصادية في داخل هذا الإطار من نظم الحكم الذاتى التي أقاموها بأنفسهم لأنفسهم .

لقد كانت المسافات الشاسعة التي تفصل كل مدينة عن الأخرى ، وتفصل المدن كلها عن عاصمة الإمبراطورية ، والجبال الشاخنة والصحارى الواسعة والمجارى التي تتعذر فيها الملاحة أو لا تقوم عليها القناطر ، وانعدام وسائل النقل والاتصال السريع ، وصعوبة تموين جيش كبير يكفى لفرض سلطان الحكومات المركزية على شعب تبلغ عدته أربع مائة مليون من الأنفس -- كانت هذه كلها عوامل تضطر الدولة لأن تترك لكل إقليم من أقاليمها استقلالاً ذاتياً يكاد يكون كاملاً من كل الوجوه .

وكانت وحدة الإدارة المحلية هي القرية ، يحكمها حكماً مترخياً رؤساء العشائر بإشراف « زعيم » منهم ترشحه الحكومة . وكانت كل طائفة من القرى مجتمعة حول بلدة كبيرة تؤلف « بينا » أى مقاطعة بلغت عدتها فى الصين نحو ألف وثلاثمائة . ويتألف من كل بينين أو أكثر تحكمهما معاً مدينة « فو » ومن كل

فوين أو ثلاثة « داو » أى دائرة ، ومن كل داوين أو أكثر « شنج » أى إقليم . وكانت الإمبراطورية فى عهد اللدشو تتألف من ثمانية عشر من هذه الأقاليم .

وكانت الدولة تعين من قبلها موظفاً فى كل بين يدير شئونه ، ويحجى ضرائبه ، ويفصل فى قضاياها ، وتعين موظفاً آخر فى كل فو وآخر فى كل داو ؛ كما تعين قاضياً ، وخازناً لبيت المال ، وحاكماً ، ونائباً للإمبراطور أحياناً فى كل إقليم (١٢٧) .

ولكن هؤلاء الموظفين كانوا يقنعون أحياناً بجباية الضرائب والفروض الأخرى

والفصل في المنازعات التي يميز المحكمون عن تسويتها بالحسنى، ويتركون حفظ النظام لسلطان العادة وللأسرة والعشيرة والنقابة الطائفية. وكان كل إقليم ولاية شبه مستقلة لا تتدخل الحكومة الإمبراطورية في أعمالها، ولا تفرض عليها شرائعها طالما كانت تدفع حصتها من الضرائب وتحافظ على الأمن والنظام في داخل حدودها. وكان انعدام وسائل الاتصال السهلة مما جعل الحكومة المركزية فكرة معنوية أكثر منها حقيقة واقعية. وبما جعل عواطف الأهلين الوطنية تنصرف في دوائرهم وأقاليمهم، ولا تتسع إلا في القليل النادر حتى تشمل الإمبراطورية بوجه عام.

وفي هذا البناء غير المحكم كان القانون ضعيفاً، بغضاً، متبايناً. وكان الناس يفضلون أن تحكمهم عاداتهم وتقاليدهم، وأن يسووا نزاعهم بالتراضي خارج دور القضاء. وكانوا يعبرون عن آرائهم في التقاضي بمثل هذه الحكم والأمثال القصيرة القوية: «قاض برغوثاً يعضك» و«اكسب قضيتك تخسر مالك». وكانت تمر عدة سنين على كثير من المدن التي تبلغ عدة أهلها آلافاً مؤلفة لا ترفع فيها قضية واحدة إلى الحاكم^(١٢٨). وكانت قوانين البلاد قد جمعت في عهد أباطرة تانج ولكنها كلها اقتصررت تقريباً على الجرائم ولم تبذل محاولات جديدة لوضع قانون مدني. وكانت المحاكمات بسيطة سهلة لأن المحامي لم يكن يسمح له بمناقشة الخصم داخل المحكمة، وإن كان في استطاعة كتاب مرخصين من الدولة أن يعدوا في بعض الأحيان تقارير بالنيابة عن المتقاضين ويتلوها على القاضي^(١٢٩).

ولم يكن هناك نظام للمحلفين، ولم يكن في نصوص القوانين ما يحمي الفرد من أن يقبض عليه موظفو الدولة على حين غفلة ويقتلوه. وكانت تؤخذ بصمات أصابع المتهمين^(١٣٠)، ويلجأ أحياناً إلى تعذيبهم لكي يقرؤا بجرائمهم، ولم يكن هذا التعذيب الجسمي ليزيد إلا قليلاً على ما يتبع الآن لهذا الغرض عينه في أكثر المدن رقيقاً. وكان العقاب صارماً، وإن لم يكن أشد وحشية مما كان في معظم

بلاد القارة الآسيوية؛ وكان أوله قص الشعر ولبيه الضرب ثم النفي من البلاد ثم الإعدام . وإذا كان التهم ذات فضائل غير معهودة ، أو كان من طبقة راقية ، سمح له أن ينتحر^(١٣١) . وكانت العقوبات تخفف أحياناً تخفيفاً كريماً ، وكان حكم الإعدام لا يصدر في الأوقات العادية إلا من الإمبراطور نفسه . وكان الناس جميعاً من الناحية النظرية سواسية أمام القانون ، شأنهم في هذا كسأنا نحن في هذه الأيام . ولكن هذه القوانين لم تمنح السطو في الطرق العامة أو الارتشاء في وظائف الدولة ودور القضاء ، غير أنها كان لها قسط متواضع في معاونة الأسرة والعادات الموروثة على أن تهيب الصين درجة من النظام الاجتماعي والأمن والاطمئنان الشخصي لم تضارعها فيها أمة أخرى قبل القرن العشرين^(١٣٢) .

وكان الإمبراطور يشرف على هذه الملايين الكثيرة من فوق عرشه المزخرف ، وكان يحكم من الوجهة النظرية بحقه المقدس ؛ فقد كان هو « ابن السماء » وممثل الكائن الأعلى^(*) في هذه الأرض . وبفضل سلطانه الإلهي هذا كانت له السيطرة على الفصول ، وكان يأمر الناس أن يوفقوا بين أعمالهم وبين النظام السماوي المسيطر على العالم ، وكانت كلمته هي القانون وأحكامه هي القضاء الذي لا مرد له . وكان المدبر لشئون الدولة ورئيس ديانتها ، يعين جميع موظفيها ، ويمتحن المتسابقين لأعلى مناصبها ، ويختار من يخلفه على العرش . لكن سلطانه كان يحده من الوجهة العملية القانون والعادات المرعية ، فكان ينتظر منه أن يحكم من غير أن يخرج على النظم التي انحدرت من الماضي المقدس . وكان معرضاً في أي وقت لأن يعزّر على يد رجل ذي مقام كبير يسمى بالرقيب ؛ وكان في واقع الأمر محوطاً بحلقة قوية من المستشارين والمبعوثين من مصلحته أن يعمل بمشورتهم ، وإذا ظلم أو فسد حكمه خسر بحكم العادات المرعية وباتفاق أهل الدولة « تفويض السماء » ، وأمكن

(*) ومن أجل هذا كانت مملكته تسمى أحياناً تيان - شان أي التي « تحكمها السماء » : وقد ترجم الأوروبيون هذه العبارة « بالمملكة السماوية » وسماوا الصينيين حذلقة باسم « السماويين » .

خلعه بالقوة من غير أن يعد ذلك خروجاً على الدين أو الأخلاق .

وكان الرقيب رئيس مجلس مهمته التفتيش على جميع الموظفين في أثناء قيامهم بواجباتهم ، ولم يكن الإمبراطور نفسه بمنجاة من إشرافه . وقد حدث مراراً في تاريخ الصين أن عزز الرقيب الإمبراطور نفسه . من ذلك أن الرقيب سونج أشار على الإمبراطور جيا تشنج (١٧٩٦ — ١٧٢١) بالاحترام اللائق بمقامه العظيم طبعاً ، أن يراعى جانب الاعتدال في صلاته بالممثلين ويتعاطى المسكرات فما كان من جيا تشنج إلا أن استدعى سونج للمثول أمامه وسأله وهو غاضب أى عقاب يليق أن يوقع على من كان موظفاً وقحاً مثله ، فأجابه سونج : « الموت بتقطيع جسمه إرباً » ولما أمره الإمبراطور باختيار عقاب أخف من هذا أجابه بقوله : « إذن فليقطع رأسي » فطلب إليه مرة أخرى أن يختار عقاباً أخف فاختر أن يقتل خنقاً . وأعجب الإمبراطور بشجاعته وخشى وجوده بالقرب منه فعيده حاكماً على إقليم إيلي (١٣٤) .

وأضحت الحكومة المركزية على مرّ الزمن أداة إدارية شديدة التعقيد . وكان أقرب الهيئات إلى العرش المجلس الأعلى ، ويتكون من أربعة « وزراء كبار » يرأسهم في العادة أمير من أمراء الأسرة المالكة . وكان يجتمع بحكم العادة في كل يوم في ساعات الصباح المبكرة لينظر في شئون الدولة السياسية . وكان يعلو عليه في المنزلة ، ولكن يقل عنه في السلطان ، هيئة أخرى من المستشارين يسمون « بالديوان الداخلي » . وكان يشرف على الأعمال الإدارية « ستة مجالس » للشئون المدنية ، والدخل ، والاحتفالات ، والحرب ، والمعقوبات ، والأشغال العامة ؛ وكان ثمة إدارة للمستعمرات تصرف شئون الأقاليم النائية مثل منغوليا ، وسبكيانج ، وال Tibet ، ولكنها لم تكن لها إدارة للشئون الخارجية لأن الصين لم تكن تعترف بأن في العالم دولة مساوية لها ، ومن أجل ذلك لم تنشأ في

بلادها هيئة للاتصال بها غير ما وضعته من النظم لاستقبال البعث التي تحمل لها الخراج .

وكان أكبر أسباب ضعف الحكومة قلة مواردها، وضعف وسائل الدفاع عن أراضيها، ورفضها كل اتصال بالعالم الخارجي يعود عليها بالنفع. لقد فرضت الضرائب على أراضيها، واحتكرت بيع الملح، وعطلت نماء التجارة بما فرضته بعد عام ١٨٢١ من عوائد على انتقال البضائع على طرق البلاد الرئيسية، ولكن فقر السكان، وما كانت تعانيه من الصعاب في جباية الضرائب وللكوس، وما يتصف به الجباة من الخيانة، كل هذا قد ترك خزانة الدولة عاجزة عن الوفاء بمحاجات القوى البحرية والبرية التي كان في وسعها لولا هذا العجز أن تنقذ البلاد من مذلة الغزو والمزمنة^(*). ولعل أهم أسباب هزائهما هو فساد موظفي حكومتها؛ ذلك أن ما كان يتصف به موظفوها من جدارة وأمانة قد ضعف في خلال القرن التاسع عشر، فأضحت البلاد تعوزها الزعامة الرشيدة في الوقت الذي كان فيه نصف ثروة العالم ونصف قواه يتجمعان اسباب استغلالها، وانهاب مواردها، والقضاء على أنظمتها.

بيد أن أولئك الموظفين كانوا يختارون بوسيلة لا مثيل لها في دقتها، وتعد في جملتها أجدر وسائل الاختيار بالإعجاب والتقدير، وخير ما وصل إليه العالم من الوسائل لاختيار الخدام العموميين. لقد كانت وسيلة جديدة بإعجاب أفلاطون، ولا تزال رغم عجزها وتحلى الصين عنها تقرب الصين إلى قلوب الفلاسفة. وكانت

(*) بلغ متوسط دخل الخزانة الإمبراطورية في أواخر القرن الماضي نحو ٧٥ مليوناً من الدولارات الأمريكية في العام، ويضاف إليها من الإيرادات التي تجمع للأغراض المحلية ١٧٥ مليوناً أخرى (١٣٦)، وإذا أوزنا بين هذه الإيرادات التي لا غنى عنها لاستتباب الأمن والنظام وبين الـ ١٥٠ مليوناً من الدولارات التي فرضتها اليلبان على الصين غرامة حربية في عام ١٨٩٤ والغرامة التي فرضها عليها الحلفاء بعد حرب الملاكين لم تكن مسألة انهيار الصين في نظرنا أكثر من مسألة حسابية.

هذه الطريقة من الناحية النظرية توفق أحسن التوفيق بين المبادئ الأرستقراطية والديمقراطية : فهي تمنح الناس جميعاً فرصة متكافئة لإعداد أنفسهم للمناصب العامة ، ولكنها لا تفتح أبواب المناصب إلا لمن أعدوا أنفسهم لها. ولقد أنتجت خير النتائج من الوجهة العملية مدى ألف عام .

وكانت بداية الطريقة في مدارس القرى — وهي معاهد خاصة ساذجة لا تزيد قليلاً على حجرة واحدة في كوخ صغير — يقوم فيها معلم واحد بتعليم أبناء سرات القرية تعليماً أولياً ينفق عليه بما يؤديه هؤلاء الأبناء من أجر ضئيل . أما النصف الفقير من السكان فقد ظل أبناءه أميين^(١٣٧) . ولم تكن الدولة هي التي تنفق على تلك المدارس ، ولم يكن الكهنة هم الذين يديرونها ، ذلك أن التعليم قد بقي في الصين ، كما بقي الزواج فيها ، مستقلاً عن الدين لا صلة بينهما سوى أن الكنفوشية كانت عقيدة المعلمين . وكانت أوقات الدراسة طويلة كما كان النظام صارماً في هذه المدارس المتواضعة . فكان الأطفال يأتون إلى المعلم في مطلع الشمس ويدرسون معه حتى الساعة العاشرة . ثم يفطرون ويواصلون الدرس حتى الساعة الخامسة ، ثم ينصرفون بقية النهار . وكانت العطلات قليلة العدد قصيرة الأجل ، وكانت الدراسة تعطل بعد الظهر في فصل الصيف ، ولكن هذا الفراغ الذي كان يصرف في العمل في الحقول كان يعوض بفصول مسائية في ليالي الشتاء . وكان أهم ما يتعلمه الأطفال كتابات كنفوشوس وشعر تانج ؛ وكانت أداة المعلم عصاً من الخيزران . وكانت طريقة التعليم الحفظ عن ظهر قلب ؛ فكان الأطفال الصغار يواصلون حفظ فاسفة المعلم كوتج ، ويناقشون فيها مدرّسهم ، حتى ترسخ كل كلمة من كلماته في ذاكرتهم ، وحتى يستقر بعضها في قلوبهم . وكانت الصين تأمل أن يتمكن جميع أبنائها ، ومنهم الزراع أنفسهم ، بهذه الطريقة القاسية الخالية من اللذة أن يصبحوا فلاسفة وسادة مهذبين ،

وكان الصبي يخرج من المدرسة ذا علم قليل وإدراك كبير ، جاهلاً بالحقائق ناضج العقل^(٩).

وكان هذا التعليم هو الأساس الذي أقامت عليه الصين - في عهد أسرة هان على سبيل التجربة وفي عهد أسرة تانج بصفة نهائية - نظام تولى المناصب العامة بالامتحان . ومن أقوال الصينيين في هذا : إن من أضر الأمور بالشعب أن يتعلم حكمه طرق الحكم بالحكم نفسه ، وإن من واجبهم كلما استطاعوا أن يتعلموا طرق الحكم قبل أن يحكموا ، ومن أضر الأمور بالشعب أن يحال بينه وبين تولى المناصب العامة وأن يصبح الحكم امتيازاً تتوارثه فئة قليلة من أبناء الأمة ؛ ولكن من الخير للشعب أن تقصر المناصب على من أعدوا لها بفضل مواهبهم وتدريبهم . وكان الحل الذي عرضته الصين لمشكلة الحكم القديمة المستعصية هي أن نتيح لكل الرجال ديمقراطياً فرصاً متكافئة لأن يدرّبوا هذا التدريب ، وأن تقصر الوظائف أرسقراطياً على من يثبتون بأنهم ألبق الناس لأن يتولوها . ومن أجل هذا كانت تعقد في أوقات معينة امتحانات عامة في كل مركز من المراكز يتقدم إليها كل من شاء من الذكور متى كانوا في سن معينة .

وكان المتقدم إلى الامتحان يمتحن في قوة تذكره وفهمه لكتابات كنفوشيوس وفي مقدار ما يعرف من الشعر الصيني ومن تاريخ الصين ، وفي قدرته على أن يكتب أبحاثاً في السياسة والأخلاق كتابة تدل على الفهم والذكاء . وكان في وسع من يخفق في الامتحان أن يعيد الدرس ويتقدم إليه مرة أخرى ، ومن نجح مُنح درجة شيو دزاي التي تؤهله لأن يكون عضواً في طبقة الأدباء ولأن يعين في

(*) وكان في وسع الأطفال به أن يتموا الدراسة في هذه المدارس أن يلحقوا بإحدى كليات الدولة القليلة العدد المنتشرة في أدياتها واستعدادها . ولكنهم كانوا في أكثر الأحيان يتلقون العلم على مدرسين خصوصيين أو يواصلون الدرس في منازلهم في عاد قليل من الكتبة الثمينة . وكان المدرسون في بعض الأحيان يعينون المقراء من الطلاب على مواصلة الدرس في هذه الكليات على أن يكون ما يتفق عليهم فرضاً يؤدونه مع فوائده حين يعينون في منصب من المناصب ويستطيعون أن « يبتزوا » الأموال من الناس .

المناصب الصفري في الحكومة الإقليمية ؛ وأهم من هذا أن يكون من حقه أن يتقدم إما مباشرة أو بعد استعداد جديد لامتحان آخر ، يعقد في الأقاليم كل ثلاث سنوات شبيه بالأول ولكنه أصعب منه . ومن أخفق فيه جاز أن يتقدم إليه مرة أخرى . وكان يفعل ذلك كثيرون من المتقدمين فكان يجتازه في بعض الأحيان رجال جاوزوا الثمانين وظلوا طول حياتهم يدرسون ، وكثيراً ما مات الناس وهم يتأهبون لدخول هذه الامتحانات . وكان الذين ينجحون يُختارون للوظائف الحكومية الصفري ، كما كان من حقهم أن يتقدموا للامتحان النهائي الشديد الذي يمتد في بيكين . وكان في تلك المدينة ردهة للامتحان العام تحتوي على عشرة آلاف حجرة انفرادية يقضى فيها المنسابقون ثلاثة أيام منفردة في عزلة تامة ، ومعهم طعامهم وفراشهم ، يكتبون مقالات أو رسائل في موضوعات تملن لهم بعد دخولها . وكانت هذه الغرف خالية من وسائل التدفئة والراحة ، وديئة الإضاءة غير صحية لأن الروح لا الجسم — في رأيهم — هي التي يجب أن تكون موضع الاهتمام ! وكان من الموضوعات المألوفة في هذه الامتحانات أن ينشئ المتقدم قصيدة في : « صوت الجاديف والثلل الخضراء والماء » ، وأن يكتب مقالا عن النقرة الآتية من كتابات كنفوشيوس . قال دزائج دزي : « من يك ذا كفاية ويسأل من لا كفاية له ؛ ومن يك ذا علم كثير ويسأل من لا يعلم إلا القليل ؛ ومن يملك ثم يتظاهر بأنه لا يملك ؛ ومن يمتلك ثم يبد أنه فارغ » . ولم يكن في أى امتحان من هذه الامتحانات كلمة واحدة عن العلوم أو الأعمال التجارية أو الصناعية ، لأنها لم تكن تهدف إلى تبين علم الرجل بل كانت ترمى إلى معرفة ما له من حكم صادق وخلق قويم وكان كبار موظفي الدولة يُختارون من الناجحين في هذا الامتحان النهائي .

وتبين على مر الزمن ما تنطوى عليه هذه الطريقة من عيوب . فقد وجد الغش سبيله إلى الحكم على الامتحان ، وإن كان الغش في الامتحان أو في

تقديره يعاقب عليه أحياناً بالإعدام . وأصبح شراء الوظائف بالمال كثيراً متفشياً في القرن التاسع عشر^(١٣٨) ، من ذلك أن موظفاً صغيراً باع عشرين ألف شهادة مزورة قبل أن يكشف أمره^(١٣٩) . ومنها أن صورة المقالة التي تكتب في الامتحان أصبحت صورة عادية معروفة يعد المتسابقون أنفسهم لها إعداداً آلياً . كذلك كان منهج الدراسة ينزع إلى الهبوط بالثقافة إلى الصور الشكلية دون اللباب ، ويحول دون الرقي الفكري لأن الأفكار التي كانت تتداول في هذه المقالات قد تحددت وتعينت خلال مئات السنين . وكان من آثارها أن أصبح الخريجون طبقة ديوانية (بيروقراطية) ذات عقلية رسمية متعجرفة بطبيعتها ، أنانية ، مستبدة في بعض الأحيان ، وفاسدة في كثير من الأحوال ؛ لا يستطيع الشعب مع ذلك أن يعزلها أو يشرف على أعمالها ، إلا إذا لجأ بعد يأسه إلى الطريقة الخطرة طريقة الإضراب عن طاعتها أو مقاطعتها وعدم التعامل معها . وقصارى القول أن هذا النظام كان ينطوى على كل العيوب التي يمكن أن ينطوى عليها أى نظام حكومى يقدعه ويسيره بنو الإنسان ؛ فعيوبه هى عيوب القائمين عليه لا عيوب النظام نفسه ، وليس ثمة نظام آخر لم يكن فيه من العيوب ما فى هذا النظام^(١٤٠) .

أما مزاياه فهى كثيرة : فهو يرى من طريقة الترشيح وما يؤثر فيها من تيارات خفية ؛ وليس فيه مجال للمساعى الدينية وللنفاق والخداع فى تصوير النتائج ، ولا تدور فيه الممارك الصورية بين الأحزاب ، ولا يتأثر بالانتخابات الفاسدة ذات الجلبلة والضجيج ، ولا يتيح الفرصة لتسليم المركز الرفيع عن طريق الشهرة الزائفة . لقد كانت الحكومة القائمة على هذا النظام حكومة ديمقراطية بأحسن ما لهذا اللفظ من معان ، لأنها تتيح للناس جميعاً فرصاً متكافئة للتنافس على الزعامة وعلى المناصب الرفيعة . وكانت أرستقراطية فى أحسن صورها ، لأنها

(*) يقول الدكتور لا ثورت : « قل أن توجد مجموعة كبيرة من بنى الإنسان عاشت فى رخاء وعاشت قائمة كما عاش الصينيون تحت سيطرة أداثهم الحكومية حين كان يشرف عليها أقدر ملوكهم » . وكان هذا رأى أيضاً رأى العالم الكبير برنكاى (١٤٠)

حكومة يتولاها أقدر الرجال الذين اختيروا اختياراً ديمقراطياً من بين جميع طبقات الشعب ومن كل جيل . وبفضل هذه الطريقة وجهت عقول الأمة ومطامعها وجهة الدرس والتحصيل ، وكان أبطالها الذين تقتدى بهم هم رجال العلم والثقافة لا سادة المال^(٥) .

ولقد كان جديراً بالإعجاب أن يجرب مجتمع من المجتمعات أن يحكمه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية رجال أعدوا للحكم بتعلم الفلسفة والعلوم الإنسانية ولذلك كان من شر المآسى أن تنقض قوى التطور والتاريخ القاسية التي لا ترحم ولا تلين على ذلك النظام الفذ وعلى جميع معالم الحضارة التي كان هو أهم عناصرها فتدمرها تدميراً .

(*) يقول السير روبرت هارت . « يعبد الصينيون المواهب العقلية ، ويتهجون بالآداب »
حيث يقيمون في كل نوادي صغيرة للتعليم والدرس وللمناقشة مقالاتهم وأشعارهم »

الباب السابع والعشرون

الثورة والتجديد

الفضل الأول

الخطر الأبيض

النزاع دس آسية وأوربا - البرعماليون - الآسمان -
الهوماديون - الإنجليز - بحارة الأفريون - حروب الأميون
- فتنة بنج تاي - منيح - حرب المابان - محاولة تمزاق
الصين - « الباب المقسوح » - الإمبراطورة الوالدة -
إصلاحات كوانج شوعزاه - الملاكون - العرامة الحربية

اتخذت هذه القوى شكل الانقلاب الصناعي . فقد نشطت أوربا وتجدد
شبابها على أثر كشف القوى الآلية واستخدامها في صنع الآلات ومضاعفة
الإنتاج . وما لبثت أوربا أن وجدت نفسها قادرة على إنتاج سلع أرخص من
التي تلتجها أمة أو قارة ، ظلت تعتمد على الصناعات والحرف اليدوية ، وعجزت
أوربا عن تصريف منتجات آلاتها بين سكانها لأنها كانت تؤدي لعمالها أجوراً
أقل من بعض الشيء من القيمة الكاملة للجهودهم ، واضطرت من أجل ذلك إلى
البحث عن أسواق خارجية لتصرف فيها ما زاد من منتجاتها على حاجتها ،
فكان لا بد لها أن تستعمر ودفعها الاستعمار إلى الحروب . وأصبح القرن
التاسع عشر ، بحكم الظروف القائمة فيه وبدافع الاختراعات الكثيرة التي تعاقبت
في خلاله ، لا يقطع فيه النزاع بين ما كان في آسية من حضارة قديمة ناضجة
منهوكة ، وما قام في أوربا الصناعية من حضارة فتية ، قوية منهومة .

وكان الانقلاب التجارى الذى حدث فى أيام كولب هو الذى أفسح الطريق. ومهد السبيل للانقلاب الصناعى ، فقد كشف الرحالة عن أراضى قديمة ، وفتحوا ثغوراً جديدة ، ونقلوا إلى الثقافات القديمة منتجات الغرب وأفكاره . وكان البرتغاليون المغامرون فى أوائل القرن السادس عشر قد استولوا على جزائر ملقا ، وكاوا من قبل قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الهند ، ثم طافوا حول شبه جزيرة الملايو ، ووصلوا بسفائنهم الجليّة ومدافعهم الرهيبة إلى كانتون (١٥١٧) .

وكان أولئك القادمون خلقاً متوحشين لا يخضعون لقانون ، ويعدون كل الشعوب الشرقية فريسة مشروعة مباحة لهم ، ولم يكونوا يفترون إلا قليلا عن القراصنة ... إن كان بين هؤلاء وبينهم فرق على الإطلاق^(١) . ، وعاملهم الصينيون معاملة القراصنة فألقوا بممثلهم فى السجن ، ورفضوا ما عرضه عليهم من تجارة حرة ، وكثيراً ما طهر الصينيون الغضاب الخائفون الأحياء التى استقر فيها البرتغاليون بدمع ساكنها . ولكن البرتغاليين أعانوا الصينيين على قتال غيرهم من القراصنة ، فكان جزاؤهم على هذه المعونة أن منحهم بيكين حق الإقامة فى مكاف وحكمها كأنها ملك لهم ، فسادوا فى تلك المدينة مصانع كبيرة لصنع الأفيون ، وأجازت لهم أن يستخدموا فى هذه المصانع الرجال والنساء والأطفال . ودرت عليهم هذه الصناعة أرباحاً عظيمة يكفى لمعرفة مقدارها أن نقول إن مصنعاً واحداً كان يعود على الحكومة البرتغالية التى أنشئت فى هذا الإقليم بربح مقداره ١٥٦٠,٠٠٠ دولار فى كل عام^(٢) .

ثم جاء الأسبان وفتحوا جزائر الفلبين فى عام ١٥٧١ واستقروا فى جزيرة فرموزا الصينية ؛ وأعقبهم الهولنديون ، وفى عام ١٦٣٧ أقبلت خمس سفن إنجليزية وصعدت فى النهر إلى كانتون ، وأسكتت بمدافعها القوية المدافع التى قاومتها ، وأنزلت فى المدينة بضائعها^(٣) . وعلم البرتغاليون الصينيين شراء الدخان وشربه ، ثم بدأ فى مستهل القرن الثامن عشر استيراد الأفيون من الهند إلى الصين . وجرمت

الحكومة الصينية على الشعب تعاطى الأفيون ، ولكن عادة تعاطيه انتشرت انتشار النار في الهشيم حتى بلغ ما استورد منه إلى الصين في عام ١٧٩٥ أربعة آلاف صندوق^(*) . وحرمت الحكومة استيراده في تلك السنة وكررت هذا التحريم في عام ١٨٠٠ ولجأت إلى المستوردين وإلى الأهالي على السواء تبين لهم ما لهذا المخدر القوى من أثر في إصعاف حيوية الأمة . ولكن تجارة الأفيون لم تنقطع رغم هذا التحريم ، ولم تكن رغبة الصينيين في شرائه أقل من رغبة الأوروبيين في بيعه ، ولم يحد الموظفون حرجاً في تداول الرشاوى التي كانت تقدم إليهم ليتفاوضوا عن أوامر التحريم بل كانوا يتقبلونها شاكرين .

وأصدرت حكومة بيكين في عام ١٨٣٨ أمراً بتشديد في تنفيذ قرار تحريم استيراد الأفيون ، وجاء موظف قوى يدعى لن تز - شو فأمر من في كاتون من المستوردين الأجانب أن يسلموا ما في مخازنهم منه . فلما أبوا حاصر الأحياء الأجنبية وأرغمهم على أن يسلموه عشرين ألف صندوق من هذا المخدر ، ثم أقام في كاتون شبه حفلة أفيونية أتلف فيها هذه الكمية كلها . وعلى أثر هذا انسحب البريطانيون إلى هنج كنج وبدأت « حرب الأفيون » الأولى . وقال الإنجليز إن الحرب لم تكن حرب أفيون ، بل كان سببها أنهم غضبوا لما أظهرته الحكومة الصينية من قحة وغلظة في استقبالها ممثلهم أو برفضها استقبالهم ، وما وضعته أمامهم من عقبات في صورة ضرائب باهظة ومحاكم فاسدة مرتشية أقامتها القوانين والعادات الصينية تعطل بها تجارة منظمة مشروعة . وأطلقوا المدافع على المدن الصينية التي كان في وسعهم أن يصلوا إليها من الشاطئ ، وأرغوا الصين على طلب الصالح باستيلائهم على مصب القناة الكبيرة عند شنكيانج . ولم تذكر معاهدة نانكينج شيئاً عن الأفيون ، وتحلت الصين بمقتضاها عن هنج كنج إلى

(*) يمكن تقدير ثمن هذه الكمية إذا ذكرنا أن قطعة من الأفيون يتسع لها جيب صديريّة الرجل ببلغ ثمنها ثلاثين دولاراً .

البريطانيين ، وأرغمت الصين على تخفيض الضرائب إلى ٥ ٪ ، وفتحت للتجارة الأجنبية خمسة « ثغور معاهدات » (كانتون ، وأموى ، وفوتشو ، وتنچيو ، وشنغهاى) ، وفرضت على الصين غرامة حربية لتغطية نفقات الحرب وما أتلفته من أفيون ، واشترطت أن يحاكم الرعايا البريطانيون فى الصين ، إذا اتهموا بمخالفة قوانين البلاد ، أمام محاكم بريطانية^(٥) . وطلبت عدة دول أخرى منها الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا أن تطبق هذه « الامتيازات الأجنبية » على تجارها ورعاياها المقيمين فى الصين وأجبرت إلى طلبها .

وكانت هذه الحرب بداية انحلال النظام القديم . ذلك أن الحكومة خذلت أشد الخذلان فى نزاعها مع الأوربيين ، فقد سخرت منهم أولاً ، ثم تحذتهم بعدئذ ، ثم خضعت لهم آخر الأمر ، ولم تقد الألفاظ الظريفة المعسولة فى إخفاء الحقائق عن الوطنيين المتعدين أو الأجانب المتربصين .

وسرعان ما ضعف سلطان الحكومة فى كل مكان تسربت إليه أخبار هزيمتها ، وما لبثت القوى التى كانت من قبل صامتة خاضعة — والتى كانت تظل صامتة خاضعة لولا هذه الهزيمة — ما لبثت هذه القوى أن ثارت علناً على حكومة بيكين . من ذلك أن وطنياً متحمساً يدعى هونج سيو — شوان ، بعد أن تعلم طرفاً من البروتستنتية وتراءت له بعض الخيالات الوهمية ، اعتقد فى عام ١٨٤٣ أن الله قد اختاره ليظهر الصين من عبادة الأوثان ويحوّلها إلى المسيحية . وبعد أن بدأ هونج عمله بهذه الدعوة المتواضعة تزعم آخر الأمر حركة ترمى إلى القضاء على أسرة المنشو الحاكمة وإيجاد أسرة جديدة هى أسرة التاي بنج أى السلم العظيم ، وحارب أتباعه حرب الأبطال البواسل يحدوهم التعصب الدينى من جهة والرغبة فى إصلاح الصين على غرار الدول الأوروبية من جهة أخرى ، وحطموا الأصنام ، وقتلوا المخالفين من الصينيين ، وأتلفوا كثيراً من دور الكتب والجامع العلمية القديمة ومصانع الخزف القائمة فى چينج ده — چن ، واستولوا على نانكينج وظلت فى

أيديهم اثنتي عشرة سنة (١٨٥٣ - ٦٥) ، وزحفوا على بيكين وزعيمهم من خلفهم في مأمن من الأعداء منغمس في ترفه ولذاته ؛ ولكمهم هزموا وتشتتوا لعجز قادتهم ، وارتدوا إلى أحضان إخوانهم مئات الملايين الصينيين^(٦) .

وبينا كانت فتنة تاي — پنج السماء تمزق الصين وتقطع أوصالها اضطرت الحكومة إلى مواجهة أوروبا مرة أخرى في « حرب الأفيون » الثانية (١٨٥٦ - ١٨٦٠) . وكان سببها أن بريطانيا العظمى ، تعاونها فرنسا والولايات المتحدة معاونة تقوى تارة وتضعف تارة أخرى ، طلبت إلى الصين أن تجعل تجارة الأفيون تجارة مشروعة (وكانت هذه التجارة قد ظلت قائمة بين الحربين رغم ما صدر من الأوامر بتحريمها) ، وأن تسمح لها بالدخول في مدن جديدة غير التي كانت قد سمح لها بدخولها ، وأن يستقبل الرسل الغربيون بما يليق بهم من التكريم في بلاط بيكين . فلما رفض الصينيون هذه المطالب استولى البريطانيون والفرنسيون على كانتون ، وأرسلوا حاكمها مقيداً بالأغلال إلى الهند ، واقتحموا حصون تيننسين وزحفوا على العاصمة ، ودسروا القصر الصيفي انتقاماً لما نال مبعوثي الحلفاء من تعذيب وقتل على يد الصينيين في بيكين . وأملى الغزاة الظافرون على المهزومين معاهدة فتحت لهم بمقتضى شروطها ثغور جديدة كما فتحت نهر چنچ — دزه للتجارة الأجنبية ، وحددت طريقة لاستقبال الوزراء الأمريكيين والأوروبيين في الصين على قدم المساواة مع الوزراء الصينيين ، ووضعت الضمانات القوية لسلامة المبشرين والتجار الأجانب والسماح لهم بممارسة نشاطهم في جميع أجزاء الصين ، وأخرجت البعثات التبشيرية من اختصاص الحاكم والموظفين . وزادت في امتيازات أبناء الأمم الغربية وتحروهم من الخضوع لقوانين البلاد ، وأعطت بريطانيا قطعة من الأرض مقابلة لهنج كنجج ؛ وجعلت استيراد الأفيون عملاً مشروعاً ، وفرضت على الصين غرامة حربية لينفق منها على إخضاعها لسلطان الغربيين وتدريبها على أساليبهم .

وشجعت الأمم الأوروبية انتصاراتها السهلة فأخذت تقتطع من الصين قطعة بعد قطعة ، فاستولت روسيا على الأراضي التي تقع في شمال نهر عامور وشرق نهر الأوسورى (١٨٦٠) ، وانتقم الفرنسيون لموت أحد المبشرين بالاستيلاء على الهند الصينية (١٨٨٥) ، وانقضت اليابان على جارتها ومصدر حضارتها وأثارت عليها حرباً فجائية (١٨٩٤) ، وهزمتها بعد عام واستولت على فرموزا وحررت كوريا من الصين لتستولى عليها هي فيما بعد (١٩١٠) ، وفرضت على الصين غرامة حربية تبلغ ١٧٠٠٠٠٠٠٠ دولار لما سببته لها من متاعب حجة^(٧) . ومنعت روسيا اليابان أن تستولى على شبه جزيرة لياتنج على أن تؤدي الصين إلى اليابان غرامة إضافية ، فلما انقضت ثلاث سنين من ذلك الوقت استولت روسيا نفسها على شبه الجزيرة وأقامت فيها عدة حصون منيعة . وكان مقتل اثنين من المبشرين على يد الصينيين سبباً في استيلاء ألمانيا على شبه جزيرة شانتج (١٨٩٨) ، ثم قُسمت الدولة الصينية التي كانت تحكمها من قبل حكومة قوية إلى « مناطق نفوذ » تستمتع فيها هذه الدولة الأوروبية أو تلك بامتيازات في التعدين أو التجارة لا تشاركها فيها غيرها من الدول . وخشيت اليابان أن تقسم الصين تقسيماً حقيقياً بين الدول الغربية ، وأدركت شدة حاجتها إلى الصين في مستقبل الأيام ، فانضمت إلى أمريكا وطالبت الدولتان بسياسة « الباب المفتوح » ، أى بحق الدول جميعاً في الاتجار مع الصين على قدم المساواة رغم اعترافها بما للدول في الصين من « مناطق نفوذ » ، على أن تكون الضرائب الجمركية ونفقات النقل واحدة لجميع الدول على السواء . وأرادت الولايات المتحدة أن تضع نفسها في مركز يمكنها من أن تساوم على هذه المسائل ، فوضعت يدها على جزائر الفلبين (١٨٩٨) وأعلنت بعملها هذا عزمها على أن تشارك في النزاع القائم من أجل الاتجار مع الصين . وفي هذه الأثناء كان فصل آخر من الرواية يمثل وراء جدران القصر الإمبراطورى في بكين . ذلك أنه لما دخل الحلفاء عاصمة الصين ظافرين في

نهاية « حرب الأفيون » الثانية (١٨٦٠) فر الإمبراطور الشاب شيان فنجنج إلى جيهول حيث توفي، بعد عام واحد من ذلك الوقت وترك العرش لابنه البالغ من العمر خمس سنين ، فما كان من زوجة الإمبراطور الثانية أم ذلك الغلام إلا أن استولت على مقاليد الحكم وتسمت باسم تزه شى — وعرفها العالم باسم الإمبراطورة الوالدة — وحكمت الصين حكما طيبا صارما مجرداً من الرحمة دام جيلا كاملا . وكانت هذه السيدة فى شبابها قد حكمت البلاد بقوة جمالها ؛ أما الآن فقد حكمتها بقوة إرادتها . ولما مات ولدها عند بلوغه سن الرشد (١٨٧٥) لم تعبأ الإمبراطورة بالسوابق ولم تأبه بالمعارضين وأجلست على العرش غلاماً قاصراً — جوانج تشو — واستبقت مقاليد الحكم فى يدها . وحافظت هذه الإمبراطورة الجريئة على السلام فى بلاد الصين نحو ثلاثين عاماً مستعينة على ذلك برجال من دهاقين السياسة أمثال لى هونج — جانج ، وأرغمت الدول الجشعة على أن تحسب للصين بعض الحساب . فلما أن انقضت اليابان على الصين فجأة ، وأسرت الدول الأوربية إلى تقطيع أوصال البلاد تقطيعاً جديداً بعد انتصار اليابانيين عليها ، قامت فى عاصمة الصين حركة قوية تطالب بأن تحذو حذو اليابان التى أخذت بأساليب الدول الغربية — أى أن تجيش جيشاً قوياً ، وأن تنشئ المصانع وتمهد الطرق ، وأن تحاول الحصول على الثروة الصناعية التى مولت بها اليابان وأوربا حروبهما الظافرة . وقاومت الإمبراطورة ومستشاروها هذه الحركة بكل ما لديهم من قوة ، ولكن جوانج تشو انضم إليها سرّاً ، وكان قد أذن له أن يتربع على العرش وأن يكون إمبراطوراً بحق . فلم تشعر الإمبراطورة ومستشاروها إلا وقد أصدر جوانج إلى الشعب الصينى (فى عام ١٨٩٨) من غير أن يستشير « بوذا العجوز » (وهو الاسم الذى كانت حاشية الإمبراطورة تطلقه عليها) عدة مراسيم عجيبية لو أن البلاد قبالتها وجملت بها لسارت سيراً حثيثاً سلمياً فى طريق الأخذ بأساليب الغرب ونظمه ، وخلال أخذها بها دون سقوط الأسرة المالكة وتدهور الأمة فى هاوية الفوضى والشقاء .

فقد أمر الإمبراطور الشاب بإقامة نظام جديد للتعليم ، وإنشاء مدارس لا يقتصر التعليم فيها على كتب كنفوشيوس وأتباعه القدماء ، بل تدرس فيها أيضاً الثقافة الغربية في العلوم والآداب والفنون الصناعية ؛ وشجع على إنشاء الطرق وإصلاح الجيش والبحرية ، وكان يهدف بهذا إلى الاستعداد لمواجهة « الأزمة » المقبلة على حد قوله هو « لأننا محاطون من كل ناحية بحيران أقوىاء يريدون بختلهم أن يظفروا بنا ، ويحاولون بتأليبهم علينا أن يغلبونا على أمرنا »^(٨) . وهال الإمبراطورة والدة أن يصدر الإمبراطور هذه المراسيم التي رأت فيها تطرفاً لا تحمد مغيبته ، فسجنت جوانج شو في أحد القصور الإمبراطورية ، ونقضت مراسيمه ، وقبضت بيدها مرة أخرى على أزمة الحكم في الصين .

وبدا في ذلك الوقت رد فعل عنيف ومعارضة قوية لجميع الأفكار الغربية اتخذتها الإمبراطورة الداهية عوناً لها على الوصول إلى أغراضها . وكان بعض العصاة قد أقاموا في البلاد جماعة تعرف باسم أي هو — جوان ؛ أي قبضات التوافق الصالحة . ويطلق عليهم المؤرخون اسم « الملاكين » (البكسر) . وكانت هذه الجماعة تهدف في الأصل إلى خلع الإمبراطورة والأسرة المالكة . ولكن الإمبراطورة أفلحت في إقناع زعمائها بأن يوجهوا هذه الحركة وقوتها لمقاومة الغزاة الأجانب بدل أن يوجهوها لمقاومتها هي . وقبل الملاكون أن يصدعوا بأمرها ونادوا بإخراج جميع الأجانب من بلاد الصين ، وجرفهم تيار الوطنية العارمة فشرعوا يذبحون المسيحيين بلا تفرق بين الطيب منهم والخبيث في كثير من أنحاء الصين (١٩٠٠) . فما كان من الجيوش المتحالفة إلا أن زحفت مرة أخرى على بيكين ، وكان زحفها في هذه المرة لحماية مواطنيها الذين استولى عليهم الرعب فاخبتوا في أركان دور السفارات الأجنبية . وفرت الإمبراطورة وحاشيتها إلى شيانغو ، وانقضت جيوش إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا واليابان والولايات المتحدة على المدينة ، وأعملت فيها السلب والنهب ،

وقتل كثيراً من الصينيين انتقاماً منهم لمواطنيها ، وخربت كثيراً من الممتلكات القيمة أو نهبتها^(*) . وفرض الحلفاء على عدوهم المهول المغلوب غرامة حربية مقدارها ٣٣٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار يجمعها الأوربيون من المكوس المفروضة على الواردات الصينية وعلى احتكار الملح . على أن جزءاً كبيراً من هذه الغرامة قد رفعته فيما بعد الولايات المتحدة ؛ وبريطانيا العظمى ، والروسيا ، واليابان ، عن الصين . وكانت هذه الدول تشترط عليها عادة أن تنفق الأموال التي نزلت عنها على تعليم الطلبة الصينيين في جامعات الدول التي كانت هذه الأموال من حقها . وكان هذا منها عملاً كريماً كان له من الأثر في تحطيم الصين القديمة أقوى مما كان لأى عمل آخر بمفرده في الصراع التاريخي المير بين الشرق والغرب .

(*) ويقول الكيّن برنكلي في ذلك . « مما يمشر منه بدن كل شخص أبيض أن يعلم أن أربعين من النساء المشرات وخمسة وعشرين من الأطفال دجهم الملاكون ، ولكن جسمائة وسماً وثلاثين من نساء الطبقات العليا في الصين قد انتحروا في تونغشاور وحدها مقصدين هذا الانتحار على الحياة بعد ما لاقوا من عار ومذلة ، مع أن الصينيين لم يبدوا أية مقاومة في هذه المدينة ولم يقع فيها قتال ما » .

الفصل الثاني

حضارة تموت

طلبة الغرامة الحربية - تشريحهم بالحضارة الغربية - أهرم في
تملكك الوحدة الصينية - عمل المشرين - صون يات - صن
المسيحي - مامراته في شبابه - التماز - بل هونج - چانج -
تديره للثورة - نجاحهما - يوآن شى - كاي - موت صون
بادت - صن - الفوضى والنهب - الشيوعية - « الشمال
يهدأ » - جيانج كاي - شك - اليابان في منشوريا - شنفاى

وغادر « طلبة الغرامة » وآلاف غيرهم من الطلبة بلاد الصين ليرتادوا
حضارة الغزاة الفاتحين . فذهب كثيرون منهم إلى إنجلترا ، وذهب أكثر من
هؤلاء إلى ألمانيا ، وأكثر من هؤلاء وأولئك إلى أمريكا ، وأكثر منهم جميعاً
إلى اليابان . وتخرج في جامعات أمريكا وحدها مئات منهم في كل عام ، وكانوا
يأتون إلى هذه الجامعات وهم صغار السن سريعو التأثير قبل أن تنضج عقولهم ،
فيدركوا ما تنطوى عليه حضارتهم القومية من عمق ومالها من قيمة ، وارتووا وهم
شاكرون معجبون من معين التربية الجديدة التي قدمت لهم ، ومن علوم الغرب
وأساليبه وأفكاره ، وأدهشهم ما شاهدوه حولهم من وسائل الراحة والحياة النشيطة
القوية ، ومن حرية الأفراد في بلاد الغرب ، وما تستمتع به الشعوب من حقوق .
ودرسوا الفلسفة الغربية وفقدوا إيمانهم بدين آبائهم ، وسرهم أن يكونوا مصلحين
متطرفين يشجعهم في ذلك من لقنوهم علومهم وحضارتهم ، كما تشجعهم بيئتهم
الجديدة على نبذ جميع العناصر التي تتكون منها حضارة بلادهم . ورجع إلى الصين
في كل عام آلاف من هؤلاء الشبان الذين انتزعوا من بيئتهم في حداثة سنهم
وهم حائقون على تأخر بلادهم المادى وخطوها البطيء في سبيل الحضارة الغربية
وبذروا في كل مدينة دخلوها بذور البحث والثورة على القديم .

وأعانتهم على غرضهم سلسلة من الحوادث والظروف ، منها أن التجار والمبشرين الذين غزوا الصين من الغرب قد ظلوا قرابة جيلين مراكز للعدوى الغربية أرادوا هم ذلك أو لم يريدوه ، فقد كان طراز معيشتهم وأساليب متعتهم وراحتهم مما بعث في نفوس من حولهم من شباب الصين رغبة قوية في أن ينالوا حظا من هذه الحضارة الراقية . وكان هؤلاء التجار والمبشرون رغم قلتهم قد قوضوا بنشاطهم العقيدة الدينية التي كانت دعامة القانون الأخلاق القديم ؛ وأناروا شبان البلاد على شيوخها بدعوتهم إلى نبذ عبادة الآباء ؛ ومع أنهم كانوا يدعون إلى دين عيسى المسالم الوديع فقد كانوا إذا تآزمت الأمور تحميمهم مدافع ترهب الشرق بضخامتها وقوتها وتخضعه لسيطرة الأوربيين . لقد كانت المسيحية في أول نشأتها ثورة المظلومين على الظالمين ، وها هي ذى قد عادت في يد معتققيها من شباب الصين عاملا من عوامل الثورة .

وكان زعيم الثورة ممن اعتنقوا المسيحية . ذلك أن أحد المستأجرين من الزراع القاطنين قرب كانتون قد ولد له في عام ١٨٦٦ ولد مشاغب سماه العالم فيما بعد — في سخرية غير مقصودة — صون يات — صن ؛ أى الشمس جنبية السكينة^(١٠) . واعتنق صون المسيحية وقوى إيمانه بها فاندفع يحطم أصنام الآلهة في معبد قريته . وكان لهذا الغلام أخ له أكبر منه سنا هاجر من قبل إلى جزائر هاواي ، فجاء بأخيه الأصغر إلى هنولولو وأدخله مدرسة يديرها راهب من أتباع الكنيسة الإنجليزية ويسير التعليم فيها بالأساليب الغربية البحتة^(١١) . ولما عاد صون إلى الصين التحق بالكلية الحربية البريطانية فكان أول من تخرج فيها من الصينيين .

وكانت هذه الدراسات من أكبر الأسباب التي أفقدت الرجل كل ما كان في قلبه من العقائد الدينية ، كما كانت الإهانات وضروب الإذلال التي يلقيها هو وأبناء وطنه في الجارك التي يسيطر عليها الأوربيون وفي الأحياء الأجنبية من

ثغور المعاهدات مما أوغر صدره وجعله يفكر في الثورة . وكان عجز الحكومة الفاسدة الرجعية عن أن تبقى الصين العظيمة مذلة المهزومة على يد اليابان الصغيرة ، وتجزئة البلاد بين الدول الأوروبية لأغراضها التجارية ، مما أشعره بالمذلة وملاً قلبه حقداً وضغينة على تلك الحكومة ، فاعتقد أن أول خطوة يجب عليه أن يخطوها في سبيل تحرير الصين هي أن يقضى على أسرة المنشو .

وكانت أولى حركاته شاهداً حقاً على ثقته بنفسه ، ومثاليته ، وبساطته . ذلك أنه ركب سفينة تجارية دفع أجرها من ماله الخاص وسار بها مدى ألف وستمائة ميل نحو الشمال ليعرض على لي هونج — چانج نائب الملكة الوالدة مشروعاته التي تهدف إلى إصلاح أحوال البلاد واستعادة عزها وكرامتها . فلما رفض هذا الحاكم مقابلته بدأ حياة كلها مفامرات وتحوال لجمع المال الذي يوجب به نار الثورة الصينية ، ولقى معونة من كثير من النقابات التجارية والجمعيات السرية القوية التي كان قادتها يحسدون الطبقة الحاكمة الأرستقراطية ، ويتوقنون إلى إقامة نظام للحكم يكون فيه للطبقات الحديثة من أرباب المصانع والتاجر شأن يتناسب وثروتهم المتزايدة : ثم غادر الصين وأبحر إلى أمريكا وأوروبا يجمع المال القليل من ملايين الغساليين وآلاف التجار الصينيين . فلما جاء إلى لندن اعتقلته المفوضية الصينية دون سند قانوني أو شكت أن ترسله سراً إلى الصين مكبلاً بالأغلال بحجة أنه خائن لحكومته ، ولم ينجه إلا مبشر ممن علموه في صباه ، فنبه الحكومة البريطانية وتدخلت هذه في الأمر وأنقذته . وظل خمسة عشر عاماً أخرى ينتقل من مدينة إلى مدينة في جميع أنحاء العالم ، وجمع في تجواله مليونين ونصف مليون من الدولارات ليموّل بها الثورة ، ويلوح أنه لم ينفق شيئاً من هذا المال على نفسه . ثم جاءته على حين غفلة في أثناء تجواله رسالة تنبهه أن قوات الثورة استولت على الجزء الجنوبي من بلاد الصين ، وأنها بسبيل الاستيلاء على شمالها ، وأنها اختارته رئيساً مؤقتاً للجمهورية الصينية . وبعد بضعة أسابيع من

ذلك الوقت رست السفينة التي أقلته في هنج كنج التي لقي في ثغرها المذلة منذ عشرين عاماً على يد الموظفين البريطانيين .

وكانت الإمبراطورة الولدة قد قضت نحبها في عام ١٩٠٨ بعد أن دبرت موت الإمبراطور السجين جوانج شو قبل موتها بيوم واحد ، وخلفها على العرش بويسى ابن أخى جوانج ، وهو الآن إمبراطور منشوكو^(*) . وأدخلت الحكومة الصينية في أواخر حكم الإمبراطورة الولدة وأوائل حكم خليفتها الطفل كثيراً من ضروب الإصلاح التي تهدف إلى تجديد البلاد وصبغها بالصبغة الغربية الحديثة ؛ فدت الطرق الحديدية مستعينة في الغالب برءوس الأموال الأجنبية وبخبرة الأجانب وإشرافهم ، وألنى نظام الامتحان للتعين في المناصب الحكومية ، وأنشئ نظام جديد للتعليم ، ودعيت جمعية وطنية لتجتمع في عام ١٩١٠ ، ووضع مشروع يستغرق تنفيذه تسع سنين يهدف إلى إقامة حكومة ملكية دستورية ، وينتهى بتعميم حق الانتخاب بعد أن يتدرج خطوة خطوة مع انتشار التعليم العام في البلاد . وجاء في المرسوم الذى أعلن به هذا المنهج ما يأتى : « كل تسرع في إدخال هذه الإصلاحات سيؤدى في النهاية إلى ضياع كل ما بذل فيها من جهود »^(١٣) . ولكن الثورة لم تكن لتوقف تيارها هذه النوبة التي جهرت بها الأسرة المريضة وهى على فراش الموت ، وألنى الإمبراطور الشاب نفسه تحيط به الثورة من كل جوانبه ، وقد تحلى عنه الجيش فلم يجد من يدافع عنه ، فلم ير بداً من أن يعلن تخليه عن العرش ، وأصدر نائب الإمبراطور الأمير چون مرسوماً هو أعجب ما صدر من المراسيم في تاريخ الصين كله :

إن الشعب في جميع أنحاء الإمبراطورية يتجه الآن بعقله نحو الجمهورية ...

(*) لقد كتب هذا الفصل قبل الحرب الأوربية الأخيرة ، وكانت اليابان قد غزت الصين ، واجتاحت جيوشها منشوريا ، وأقامت فيها دولة تأمر بأمرها هى دولة منشوكو ، وأجلست هذا الإمبراطور على عرشها . ولكن الحرب الأخيرة بدلت هذا كله (المترجم)

إن إرادة الله واضحة ورغبات الشعب غير خافية . فكيف أستطيع أن أعارض . رغبات الملايين الكثيرة للاحتفاظ بمجد أسرة واحدة وكرامتها ؟ ومن أجل ذلك فإنى أنا والإمبراطور نرى أن تكون الحكومة فى الصين جمهورية دستورية لإجابة لرغبات الشعب فى داخل الإمبراطورية كلها ، وعملاً بآراء الحكماء الأقدمين الذين كانوا يرون أن العرش تراث عام^(١٤) .

وكانت الثورة كريمة كل الكرم فى معاماتها ليو — بى ؛ فقد أمنت على حياته ومنحته قصرًا مريحًا ومرتبًا سنويًا يقوم بشؤونه ، وخليفة يسكن إليها . لقد جاء المنشو . إلى الصين آسداً وخرجوا منها حملانا .

وكان مولد الثورة هادئاً سلمياً ، ولكن حياتها كانت حياة عاصفة مليئة بالأحداث . فقد كان ليوان شى — كاي وهو سياسى من الطراز القديم جيش . قادر على مقاومة الثورة . وطلب أن يكون ثمن تأييده إياها أن يتولى رئاسة الجمهورية ، وأجابه صون يات — صن إلى ما طلب واعتزل الحياة العامة فى كرم وعرة نفس ، وكان قد بدأ منذ قليل يستمتع بمنصبه الجديد . وأخذ ليوان يمد العدة لأن يجعل نفسه إمبراطوراً وينشئ أسرة حاكمة جديدة مستعينة فى عمله هذا بجماعات مالية قوية أجنبية ووطنية ؛ وحجته فى هذا أن الإمبراطورية هى السبيل الوحيدة لمنع تدهور الصين وتفككها . واتهمه صون يات — صن بالخيانة وأهاب بأتباعه أن يجددوا عهد الثورة ، ولكن ليوان مرض ومات قبل أن يصل الأمر إلى امتشاق الحسام .

ولم تعرف الصين النظام والوحدة من ذلك الحين . فقد تبين أن صون يات — صن رجل أحلام يسبح فى بيداء الخيال ، وأنه خطيب مفوه ولكنه سياسى عاجز عن تولى زمام الحكم وقيادة الأمة إلى بر السلام ، فكان ينتقل من خطة إلى خطة ومن نظرية إلى أخرى ، أغضب من عاونوه من الطبقات الوسطى بما أظهره من ميل إلى الشيوعية ، وانتهى أمره بالانزواء فى كاتون ليعلم شبابها ويث فيهم روحه .

ويحكم أهلها في بعض الأحيان^(٩). وحرمت الصين من حكومة تعترف بها جميع أجزائها، ومن ملكية كانت رمز وحدتها، ونبتت عادة الطاعة والخضوع لتقاليدها وشرائعها؛ وهي من بداية أمرها ضعيفة النزعة الوطنية التي تربط النفس بالوطن كله لا بالإقليم الذي تعيش فيه، فشبت فيها نار حرب متقطعة بين الجنوب والشمال تارة، وبين طائفة وطائفة تارة أخرى، ثم بين السراة والجياغ، وبين الشيوخ والشبان. وقام المغامرون يجيشون الجيوش، ويفرضون سلطانهم على الولايات النائية، يجبون منها الضرائب ويزرعون الأفيون^(١٥)، ويخرجون بجنودهم من حين إلى حين ليضرموا ضحايا جدداً إلى رعاياهم المساكين. واضطربت أحوال الصناعة والتجارة واضمحلت لكثرة ما كان يفرضها عليها قائد منتصر بعد قائد. وأخذ اللصوص وقطاع الطريق يفرضون الإتاوات، وينهبون ويقتلون، لأنهم لا يجدون قوة منظمة تقف في وجههم وتضرب على أيديهم. ووجد الناس في التلصص والجندية وقاية لهم من الهلاك جوعاً، وكثيراً ما كان هذا القائد أو ذاك المنسرح من اللصوص يداهم أسيرة مقتصدات فيسلبها ما ادخرته طول حياتها من المال أو ما جمعه من المتاع. وحسبنا تصويراً لهذه الحال أن عدد قطاع الطريق في ولاية هونان وحدها قد بلغ في عام ١٩٣١ — ٤٠٠.٠٠٠^(١٦) أو يزيدون.

وبينا كانت هذه الفوضى ضاربة أطنابها في البلاد أرسلت روسيا في عام ١٩٢٢ اثنين من أقدر ساستها هما كرخان وچف ليضما الصين إلى نطاق الثورة الشيوعية. ومهد كرخان لعمله هذا بنزول روسيا عملها من امتيازات في الصين، وبتوقيع معاهدة تعترف فيها بشرعية حكومة الثورة وبمركزها الدولي. ولم يجد چف الداهية صعبة ما في أن يستميل صون يات — صن إلى الشيوعية لأن جميع السلطات الأخرى كانت قد نبذته، ولم يمض إلا وقت قصير حتى تكون جيش وطني جديد ودرب بمعونة سبعين من الضابط السوفيت. وزحف هذا

(*) ومات پيكن عام ١٩٢٥ في أحسن الفرص التي أتاحت لأعدائه المحافظين.

الجيش من كانتون إلى الشمال تحت إمرة جيانج كاي — شك أمين سر صون يات — صن السابق ، ويقوده عمليا المستشار الروسي برودين ، يخضع بلدة في إثر بلدة حتى استقر أخيراً في بيكين^(*) . ولكن المتصرين انقسموا على أنفسهم في ساعة النصر فخرج جيان كاي — شك على الحركة الشيوعية وأقام دكتاتورية عسكرية إجابة لرغبات رجال الأعمال والمال^(**) .

إن الأمم كالأفراد من العسير عليها ألا تفيد من مصائب جيرانها . ومصدق ذلك أن اليابان ، التي كان ينبغي صون يات — صن أن تكون صديقة الصين وحليقتها على الأمم الغربية ، والتي شجعت الثورة الصينية بنجاحها السريع في السير على النظم الأوربية في الصناعة والسياسة والحرب ، نقول إن اليابان وجدت في الفوضى التي تردت فيها معلمتها القديمة فرصة سانحة لحل المشكلة التي أثارها نجاحها هي وتقديمها السريع . ذلك أن اليابان لم يكن في وسعها أن تحمد من عدد سكانها دون أن تعرض سلامتها للخطر الشديد بعجزها عن صد من تحدثه نفسه بالإغارة عليها ؛ ولم يكن في وسعها كذلك أن تمنح سكانها المتزايدين إلا إذا زادت مواردها بتشجيع الصناعة والتجارة ؛ وليس في وسعها أن تشجع الصناعة والتجارة من غير أن تستورد الحديد والفحم وغيرهما من المواد الأولية التي لا تجدها في بلادها ، وليس في وسعها كذلك أن تنمي تجارتها وأن تفيد منها أكبر فائدة دون أن يكون لها نصيب موفور في السوق العظيمة الوحيدة التي لا تزال خارجة عن نطاق الاستعمار الأوربي الذي شمل الكرة الأرضية كلها . وكانت الصين

(*) وتغير اسم تلك المدينة من ذلك الوقت فسميت بـ «بيجينج» أي الشمال المهدأ بدل بيكينج (العاصمة الشمالية) ، واتخذت الحكومة الوطنية مقراً في فانكينج «العاصمة الجنوبية» لتكون قريبة من مواردها المالية في شنهائي .

(**) أما الحوادث التي تلت هذا فلا تزال ماثلة في الأذهان ، فقد اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ، وهزمت اليابان ، وزحف الشيوعيون بجيوشهم على الحنوب تعاليمهم روسيا السوفيتية وانتصروا على جيان كاي — شك ، وهزموا جيوش الحكومة الوطنية ، وأصبحت الصين كلها تقريباً دولة شيوعية . (المترجم)

مشهورة بكثرة ما فيها من الحديد والفحم ، ويرجى منها أن تكون في المستقبل أعظم الأسواق العالمية . وهى إلى ذلك أقرب الأسواق إلى اليابان . وهل في العالم أمة يبدو لها أن في مقدورها أن تختار بين العودة إلى الزراعة والفاقة والمذلة ، وبين التقدم في الصناعة والفتح والاستعمار ، ثم تستطيع أن تقاوم الميل الشديد إلى اختطاف جزء من الصين الضعيفة المقطعة الأوصال في الوقت الذى كانت فيه النبور الأوربية يقطع بعضها أشلاء بعض في ميدان فرنسا^(٥) ؟

من أجل هذا أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا في بداية الحرب العالمية الأولى ، وانقضت على إقليم چياو چو وهو الإقليم الذى كانت ألمانيا قد استأجرتة من الصين قبل ذلك الوقت بستة عشر عاماً ، ثم قدمت إلى حكومة يوان شى كاي « واحدأ وعشرين مطلباً » لو أجابتها الصين لأصبحت مستعمرة سياسية واقتصادية لليابان ، ولولا احتجاج الولايات المتحدة ومقاطعة الصينيين بزعماء طلابها الغضاب للبضائع اليابانية لنفذت هذه المطالب قوة واقتداراً ، ذلك أن الطلاب انطلقوا في شوارع المدن الصينية ليكون أو يقتلون أنفسهم لأنهم يستحون أن يرى الناس وجوههم بعد هذا الإذلال الذى حاق ببلادهم^(١٧) .

وكان اليابانيون يستمعون وهم ساخرون إلى غضب أوروبا واحتجاجها وهى التى ظلت تنخر في عظام الصين خمسين سنة أو تزيد . وارتدت اليابان دون أن تصل إلى أهدافها ولكنها ظلت تتحين فرصة أخرى تحقق فيها أطباعها . ولاحق لها هذه الفرصة حين كانت أوروبا وأمريكا تتردیان في عواقب خططهما الصناعية الاستعمارية التى كانت تعتمد على الأسواق الأجنبية لاستيعاب « الفائض » من محصولاتها التى لا يستطيع منتجوها أن يبتاعوها . وزحفت اليابان على منشورية وأقامت بوى إمبراطور الصين السابق رئيساً للجمهورية منشوكو التى أنشأتها في ربوعها ثم نصبته بعدئذ إمبراطوراً عليها . ثم عقدت مع الدولة الجديدة حلفاً

(*) يشير المؤلف بهذا القول إلى الحرب العالمية الأولى (المترجم)

سياسيا ، ثم تغلغت فيها اقتصاديا ، وسيطرت عليها عسكريا ، وجعلت لنفسها بهذه الوسائل فيها مركزاً ممتازاً يمكنها من استغلال موارد منشوريا الطبيعية ، واستخدام أهلها ، وفتح أسواقها للتجارة اليابانية . وانضمت الدول الأوروبية التي كانت قد اتفقت فيما بينهما على وقف غارات التلصص زمنا ما بعد أن جمعت كل ما تستطيع أن تجمعها من الأسلاب ، انضمت هذه الدول إلى أمريكا ، ووجهت احتجاجا ضعيفا إلى اليابان على هذا النهب الصريح ؛ ولكنها كانت في هذه المرة كما هي عادتها في جميع الأحوال على اعتماد لأن تعد النصر مبرراً للغاية .

كانت آخر مذلة لحقت بأوروبا وأمريكا هي ما أقدمت عليه اليابان في شنغهاي . ذلك أن اليابان ثار ثائرها لما أصاب تجارتها من جراء المقاطعة الصينية ، فأنزلت جيوشها المنتصرة في أغنى ثغور الصين ، واحتلت حى چاى ودمرتة ، وأنذرت الحكومة الصينية بأن توقف أعمال جمعيات المقاطعة . ودافع الصينيون عن أنفسهم دفاع الأبطال ، وقاوم جيش الطريق التاسع عشر القادم من كانتون . قوى اليابان التي كانت تفوقه عدة ونظاما ، ووقف وحده تقريبا في وجهها شهرين ، كاملين . ثم عرضت حكومة نانكينج على اليابان أن تتراضى وإياها على حل وسط ، وانسحبت اليابان من شنغهاي ، وعادت الصين تضمّد جراحها ، فاعتزمت أن تضع لنفسها أساس حضارة جديدة أقوى من حضارتها السابقة وأمتن منها دعامة تستطيع أن تدفع بها العالم النهم وترد مطامعه .

الفصل الثالث

بداية عهد جديد

التغيير في القرية - وفي المدينة - المصانع - التجارة - اتحادات العمال - الأجور - الحكومة الجديدة - القومية واتساع الأساليب الغربية - إنزال كنفوشيوس عن عرشه - مناهضة الدين - المبادئ الخلقية الجديدة - التحول في نظام الزواج - تحديد النسل - التعليم المشترك بين الذكور والإناث - « التيار الجديد » في الأدب والفلسفة - لغة الأدب الجديدة - هوشى - عناصر التدمير - عناصر التحديد

كان كل شيء في الماضي يتغير ما عدا الشرق ، أما الآن فليس شيء في الشرق لا يتغير ، وأصبحت أشد الأمم استمساكا بالتقديم أكثرها تطرفا بعد روسيا ، وأخذت تدمر عامدة عادات ونظما كانت تعدها من قبل حرما آمنا غير قابل للتعديل . فليس الأمر الآن مقصوراً على القضاء على أسرة حاكمة كما حدث في عام ١٦٤٤ بل هو اقتلاع جذور حضارة قديمة .

وقد جرت العادة أن يكون آخر التغيير وأقله في القرية ، لأن اعتدال القرية وبطء سيرها لا يشجعان على التجديد ، والجيل الجديد نفسه لا بدله أن يزرع أولاً ثم يحصد ما زرعه فيما بعد . وأما الآن فإن سبعة آلاف ميل من الخطوط الحديدية تخترق الريف الصيني ، ولا تزال تربط القرى الشرقية بالمدن الساحلية وتحمل كل جديد من سلع الغرب إلى الملايين من بيوت الزراع ، رغم ما أصابها من الدمار في خلال الفوضى وسوء الإدارة اللذين دامعا عشرات السنين ، ورغم ما تحمته من الأعباء الباهظة بسبب حاجات الحرب ومطالبها الملحة . ففي هذه القرى يرى السائح كثيراً من الواردات الأجنبية مثل الكيروسين ، ومصابيح الكيروسين ، وعيدان الثقاب ، ولفافات التبغ ؛ بل يرى فيها القمع الأمريكي نفسه . ولعل القارىء يظن أن وجود هذه البضائع والسائح في داخل البلاد أمر عادى غير جديد بالذكر ؛ والحق أن

نقلها إليها من أصعب الأمور لأن البلاد لا تزال جد فقيرة في وسائل النقل ، حتى أن نقل البضائع بين الأقاليم الداخلية والمقاطعات الساحلية يتطلب من النفقات أكثر مما يتطلبه نقلها إلى ثغور الصين من أستراليا أو الولايات المتحدة . ولقد تبين لأهل البلاد أن نمو الحضارة من الناحية الاقتصادية موقوف على سهولة سبل النقل ووسائل الاتصال . من أجل ذلك أنشئت طرق برية يبلغ طولها نحو عشرين ألف ميل تسير عليها ستة آلاف مركبة حافلة سيراً غير منتظم مملوءة على الدوام بالركاب . فإذا ما ارتبطت هذه القرى التي يحيطها الحصر بالسيارات السريعة فإن ذلك يحدث في الصين أعظم تغيير شهدته في تاريخها الطويل وهو القضاء حتى على التحط الذي طالما هدهدها وأفنى الكثيرين من أهلها .

هذا في القرى أما في الحواضر فإن انتصار الأساليب الغربية يسير بخطى أسرع وأيسر ، فالجرف اليدوية أخذت في الزوال بتأثير منافسة السلع الرخيصة السهلة النقل المستوردة من خارج البلاد . وقد تعطل لهذا السبب آلاف من الصناع ، ولسكن المصانع الآلية التي أنشئت على طول السواحل بمعونة رؤوس الأموال الأجنبية والوطنية تبتلعهم ابتلاعاً سريعاً . وقد سكنت صوت الأنوال لليدوية في المدن وإن كانت لا تزال تدور في الريف ، وغمر القطن والمنسوجات القطنية أسواق البلاد ، وشيدت مصانع النسيج لتجعل من فقراء الصين عبيداً مسخرين للآلات ، وأقيمت في هانجتشواو أفران لصهر المعادن لا تقل ضخامة وروعة عن مثيلاتها في البلاد الغربية ، ووضعت مشروعات هائلة لإنشاء مخازن ومصانع لحفظ الطعام ولصنع الأسمنت والورق والصابون والشمع وتكرير السكر ، وهي تعمل رويداً رويداً على تحويل العامل الصيني اليدوي إلى صانع ومشرف على الآلات . لكن الصناعات الجديدة يعوق نموها السريع تردد أصحاب رؤوس الأموال في أن يستثمروها في بلاد لا تقطع فيها الثورات ، وبلاقون فيها صعباً بجهة من جراء نقص وسائل النقل وكثرة نفقاتها وثقل المواد في داخل

البلاد ، ومن جراء تمسك الصينيين بتلك العادة الجميلة عادة الولاء للأسرة قبل الولاء لكل ما عداها من الجماعات ، والتي تحمل كل مكتب من مكاتب الموظفين . وكل مصنع معششاً للأقارب والعاجزين عن أداء عمل من الأعمال^(١٩) . والتجارة يعوقها فضلاً عن هذا ما يفرض عليها من الضرائب في داخل البلاد ومن الرسوم الجركية والرشا وضروب الاغتصاب ، وإن كانت مع ذلك تنمو أسرع من نمو الصناعة وتضطلع بدور خطير في تحول الصين الاقتصادية^(٢٠) .

وقد قضت الصناعات الجديدة على نقابات أرباب الحرف القديمة وأحدثت كثيراً من الاضطراب والفوضى بين العمال وأرباب الأعمال . ذلك أن هذه النقابات كانت تعيش بفضل ما تبذله من الجهود لتحديد أجور العمال وأثمان البضائع بالتوفيق بين المالك والمنتجين الذين لم يكن لمنتجاتهم ما ينافسها في التجارة المحلية . فلما أن اتسع نطاق التجارة بزيادة وسائل النقل ، وجاءت البضائع من البلاد البعيدة تنافس في جميع المدن بضائع النقابات المصنوعة باليد ، تبين لها أن ليس في استطاعتها أن تشرف على الأسعار أو تحدد الأجور من غير أن تخضع في ذلك إلى أوامر التنافسين الأجانب وإلى ردوس الأموال الأجنبية . ومن أجل هذا تفككت النقابات ونقسمت إلى غرف تجارية من جهة وإلى اتحادات العمال من جهة أخرى . فاعترف تعنى بالنظام والولاء لأصحاب الأعمال وبالحرية الاقتصادية ، والعمال يعنون بأجورهم المنخفضة التي تكاد تميتهم جوعاً . وقد كثرت الإضراب والمقاطعة ولكن هذين قد أفاحا في إرغام أرباب الأعمال من الأجانب على التسليم للحكومة الصينية ببعض الامتيازات أكثر مما أفاحا في رفع

(١٩) كانت بريطانيا العظمى في وقت من الأوقات هي المسيطرة على تجارة الواردات ، أما الآن فإن لها فيها نحو ١٤ ٪ وللولايات المتحدة ١٧ ٪ واليابان ٢٧ ٪ ، ولا يزال مركز اليابان في هذه التجارة يقوى عاماً بعد عام . وقد تضاعفت تجارة الصين فيما بين ١٩١٠ ، ١٩٣٠ قبلت ٦٠٠ ٪ وتقدر قيمتها بما يقرب من نصف بليون من الدولارات . غير أن الحرب المالية الأخيرة وهزيمة اليابان قد بدلتا من مركزها في هذه التجارة .

أجور العمال . وقد قدرت مصالحة الشئون الاجتماعية التابعة لبلدية شنغهاي الصينية متوسط الأجر الأسبوعي لعمال مصانع النسيج بين ١٧٣ر ، ٢٧٦ر دولار للرجل ، وما بين ١١٠ر ، ٢٧٨ر دولار للمرأة . وكان متوسط الأجور الأسبوعية للرجال في المطاحن والمصانع ١٩٦ر دولار وفي مصانع الأسمت ١٧٢ر دولار ، وفي مصانع تلزجاج ١٨٤ر ، وفي مصانع الكبريت ٢١١ر ؛ وكان متوسط أجر العمال المهرة في المصانع الكهربائية ٣١٠ر وفي مصانع الآلات ٣٢٤ر وبين عمال المطابع ٥٥ر^(٢٣) . وما من شك في أن الزيادة الكبيرة في أجور عمال المطابع إنما ترجع إلى حسن تنظيمهم وإلى الصعوبة التي يعانيها أصحاب المطابع في استبدال غيرهم بهم إذا توقفوا عن العمل فجأة . وتألفت أولى اتحادات العمال في عام ١٩١٩ وزاد عددها وقوتها حتى طلبت في أيام برودين أن تتولى هي حكم الصين ؛ ولكن چيانج كاي — شك كيج جاحها من غير رحمة بعد نزاعه مع روسيا ، وقد سنت لمقاومتها في هذه الأيام قوانين غاية في الصرامة ، ولكن عددها مع ذلك أخذت في الازدياد بسرعة لأنها الملاجأ الوحيد للعمال من عنت النظام الصناعي الذي لم يعمل حتى الآن أكثر . من أن يبدأ بوضع التشريع الخاص بالعمال ، ولم يبدأ قط في تنفيذه^(٢٤) . وإن ما يعانيه صماليك المدن في هذه الأيام من فقر مدقع وكدح يدوم اثنتي عشرة ساعة في اليوم بأجور لا تكاد تمسك الروح بالجسم ، يهددهم الموت جوعاً إذا لم يجدوا عملاً في يوم من الأيام ، إن ما يعانيه هؤلاء الصماليك في هذه الأيام لأسوأ مما كان يعانيه فقراء القرى في الأيام الخالية حيث لم يكن يسمح للفقراء أن يروا الأغنياء ، وحيث كانوا يرضون بما قسم لهم منذ الأزل . ولعله كان من المستطاع تجنب هذه الشرور لو أن تبدل الأحوال في شرق الصين لم يتم بغير ما تم به من السرعة ولم يبلغ ما بلغه من الكمال . إذن لكان في مقدور كبار الموظفين الصينيين ، وإن فقدوا ما كان لهم من حيوية وتلوث أيديهم بالرشوة ، أن يكبحوا جماح القوى الصناعية الجديدة حتى تتأهب الصين

لقبولها من غير أن تقع في برائن الفوضى والعبودية — وإذن لنشأت من نمو الصناعة عامًّا بعد عام طبقة جديدة من السكان لعلها كانت تستطيع أن تخطو بسلام إلى ميدان السلطة السياسية ، كما خطا الصناع إليها في إنجلترا وحلوا محل كبار ملاك الأراضي الزراعية .

ولكن الحكومة الجديدة ألقت نفسها بلا جيش ، ولا زعماء مجريين ، ولا مال ؛ ووجد السكومتانج ، أى حزب الشعب الذى أنشئ لتحرير الأمة ، أن لا بد له أن يقف موقف العاجز وهو يرى الأمة تخضع لرؤوس الأموال الأجنبية والوطنية . وكان هذا الحزب قد ولد في مهاد الديمقراطية ونشأ في أحضان الشيوعية ، ثم أخفى جل اعتماده على مصارف شنغهاى المالية ، فترك الديمقراطية وانحاز إلى الدكتاتورية وحاول أن يقضى على اتحادات الصناع^(*) . ذلك أن الحزب يعتمد على الجيش ، ولا بد للجيش من مال ، والمال لا يأتي إلا من القروض ؛ وإلى أن يكون للجيش من القوة ما يمكنه من إخضاع الصين فإن الحكومة ستظل عاجزة عن فرض الضرائب على الصين ، وإلى أن تستطيع الحكومة فرض الضرائب على الصين ستظل تتلقى النصح والإرشاد من حيث تتلقى المال . على إنها مع هذا كله قد أنجزت الشيء الكثير ؛ فقد أعادت إلى الصين إشرافها التام على التعريف الجمركية وعلى صناعاتها — داخل نطاق قوة المال العالمية — وأنشأت ودرّبت وجهزت جيشًا قد يستخدم في يوم من الأيام لقتال غير الصينيين ؛ ووسعت رقعة الأقاليم التى تعترف بسلطة الحكومة ، وقللت في هذه الرقعة من قوة قطاع الطرق الذين كانوا يجمعون على أنفاس الأمة ويكادون يقضون على حياتها الاقتصادية . وهى تسير في هذا سيرا بطيئًا لأن إشعال نار الثورة مستطاع في يوم وليلة ولكن إقامة حكومة ثابتة يحتاج إلى جيل

(*) وقد أعدم في عام ١٩١٧ وحدها آلاف مؤلفة من البالك لانفاسهم إلى هذه الاتحادات .

وليس تفكك الصين وانقسام عرى وحدتها إلا مظهرًا مما في النفس الصينية من انقسام ونتيجة لازمة له . إن أقوى ما في الصين من مشاعر في هذه الأيام هو شعور الكراهية للأجانب ، وأقوى التيارات التي تجتاح الصين هو تيار محاكاة الأجانب . والصين تعترف أن الغرب لا يستحق أن تتملقه وتحاكى ؛ ولكن الصين يضطرها روح الأيام ودوافعها القوية إلى تملق الغرب ومحاكاته لأن الأمم في هذا العصر لا بد لها أن تختار بين التصنيع والاسترقاق ولا ثالث لهما . ومن أجل هذا نرى الصينيين في المدن الشرقية يهجرون الحقول إلى المصانع ، والثياب الغريبة إلى السراويل الضيقة ، ونفات الماضي البسيطة الشجية إلى موسيقى الغرب المعقدة ، ويتخلون عن ذوقهم الجميل في الثياب والأثاث والفن ، ويزينون جدرانهم بالصور الأوربية ، ويشيدون دور الحكومة ومكاتب الأعمال على أنجع الطرز الأمريكية . وقد تخلت نساء الصين عن عادة ضغط أقدامهن من الأمام إلى الخلف وأخذن يضغطن من اليمين إلى اليسار على آخر طراز غربي^(*) ، وأخذن فلاسفتها يتخلون عن مبادئ كنفوشيوس المعتدلة القنوعة الظرفية ويهرعون إلى مبادئ موسكو ولندن وبرلين وباريس ونيويورك الشرسة الخصيمة ، ويتلقونها بنفس الحماسة التي كان الأوروبيون يتلقون بها مبادئ النهضة في أواخر العصر الوسيط .

لقد ثلّ عرش كنفوشيوس وكان في الطريقة التي ثل بها شيء من سمات عصر النهضة وعصر الاستنارة ؛ ولقد كان نبذا لأرسطو الصين والآلهة التي عبدها الشعب من أقدم الأزمنة . وأتى على الدولة حين من الدهر اضطهدت فيه البوذية وطوائف الرهبان في الأديرة ، ذلك أن ثوار الصين كانوا كثوار فرنسا ملاحظة لا يخفون عن الفاس إلحادهم ، ويجهرون بعبادتهم للدين ، ولا يعبدون غير

(*) تعتمد بعض الصينيات في هذه الأيام إلى وضع وسادات في أحذيتن ليخفيا عن الناس أن أقدامهن قد ضغطت في صفرهن (٢٦) .

العقل . وامل الكنفوشية كانت تترك الناس أحراراً في عقائدهم الدينية لأنها تفترض أن الآلهة ستبقى ما بقى الفقر ؛ أما الثورة فكانت تظن أن في وسعها أن تقضى على الفقر ولذلك لم تر حاجة إلى الآلهة ؛ وكانت الكنفوشية ترى أن الزراعة والأسرة هما نظام الحياة العملية والاجتماعية الطبيعية ولذلك شادت صرحاً للأخلاق يهدف إلى حفظ النظام وإشاعة القناعة في نطاق دائرة البيت والحقل ؛ أما الثورة فوجهتها الصناعة وهي في حاجة إلى أخلاق جديدة تتفق مع الحياة الفردية في الحواضر . وقد بقيت الكنفوشية لأن الوصول إلى المناصب السياسية والمهن العلمية كان يتطلب معرفة مبادئها والأخذ بها ؛ أما الآن فنظام الامتحانات قد انقضى عهده وحلت العلوم الطبيعية في المدارس محل الفلسفة الأخلاقية والسياسية ؛ وأصبح الرجل لا يصاغ للحكم بل يصاغ للصناعة ؛ وكانت الكنفوشية محافظة تكبح بحذر الشيوخ مثل الشباب العليا ؛ أما الثورة فروحها من أنفاس الشباب ولا تقبل أن يفرض عليها شيء من هذه القيود ، وهي تسخر من الشيوخ إذا رفعوا عتيرتهم محذرين : « إن الذين يظنون أن الجسور القديمة عديمة النفع ويحطمونها تحطيماً سيصيبهم الدمار ويفرقهم تيار المياه الجارف » (٢٧) .

وقضت الثورة بطبيعة الحال على دين البلاد الرسمي ولم تعد تقرب القرايين الآن من مذبح السماء إلى التّيان الصامت المجرد . وتجزئ الحكومة عبادة الأسلاف ولكن هذه العبادة آخذة هي الأخرى في الانقراض ، وينزع الرجال إلى تركها شيئاً فشيئاً للنساء وقد كانوا يظنونهم من قبل غير خليقات بهذه الطقوس المقدسة . ولقد تلقى نصف زعماء الثورة تعليمهم في المدارس المسيحية ، ولكن الثورة رغم ائتمام جيانج كاي شك إلى الطائفة المسيحية النظامية (Methodism) لا تميل إلى دين يؤمن بخوارق الطبيعة وتصبغ كتبها المدرسية بالصبغة الإلحادية (٢٨) . أما

(*) انظر ص ٦٣ . وتحاول الآن حركة « الحياة الجديدة » التي يترعها جيانج كاي - شك أن تعيد الكنفوشية وقد نجحت في ذلك بعض النجاح .

الدين الجديد الذى يحاول أن يسد الفراغ العاطفى الناشئ من فراق الآلهة فهو دين الوطنية ، كما أن الدين الجديد فى روسيا هو الشيوعية . ولكن هذه العقيدة فى الوقت الحاضر لا ترضى كافة الناس ، ولهذا ترى الكثيرين من صعاليك المدن يعمدون إلى العرافين والمتنبئين والوسطاء ليجدوا عندهم ملجأ من كدح الحياة اليومية الرتيب الذى لا لذة فيه ولا طرافة . ولا يزال القرويون يحدون بعض ما يسليهم عن فقرهم ويفرج عنهم كربهم فى سكون المزارات القديمة . والقانون الأخلاقى القديم الذى كان الناس منذ جيل واحد يظنونونه قانوناً سرمدياً لا يتبدل آخذ فى التفكك والانحلال بسرعة تتضاعف ثم تتضاعف على مدى الأيام بعد أن فقدت حماية الحكومة والدين والحياة الاقتصادية . وأهم ما طرأ على الصين من تبدل فى هذه الأيام ، إذا استثنينا ما أحدثه فيها الغزو الصناعى ، هو تحطيم نظام الأسرة القديمة لتحل محله نزعة فردية تترك كل إنسان حراً يواجه العالم بمفرده ، وقد استبدل الولاء للدولة من الوجهة النظرية بالولاء للأسرة . وإذا كان هذا الولاء الجديد لم ينتقل الآن من طور الأقوال والنظريات إلى طور الأعمال فإن المجتمع الجديد يعوزه الأساس الخلقى الذى يستند إليه . إن الزراعة يلائمها نظام الأسرة لأن الأرض ، قبل انتشار الآلات ، كانت تستغل أحسن استغلال على أيدي جماعة من الناس تربطهم رابطة الدين والسلطة الأبوية . أما الصناعة فتمزق الأسرة لأنها تعطى العمل والجزاء عليه للأفراد لا للجماعات ، ولا تعطىهم هذا الجزاء دائماً فى مكان معين ، ولا تعترف بأن للضعفاء حقاً فى مال الأقوياء ، ولا يجد التعاون والتراحم الطبيعيين القائمين بين الأسرة سنداً من التنافس المرير الذى هو من طبيعة الصناعة والتجارة ؛ وترى الجديد الذى ينفر على الدوام من سلطان الشيوخ يهرع عن عمد إلى المدينة وفردية المصنع ، ولعل سلطان الأب القوى فى الزمن الماضى قد جعل بالانقلاب لأن الرجعية هى التى يرجع إليها على الدوام إسراف المتطرفين . وهكذا انتزعت الصين نفسها من ماضيهما واستأصلت

جدوره ، وما من أحد يدرى هل تستطيع أن تمد لها جذوراً جديدة في وقت
يمكنها من أن تنجى بها حياتها النفاقة .

وكذلك أخذت أساليب الزواج القديم تزول بزوال سلطان الاسرة . نعم
إن معظم الزيجات لاتزال ينظمها الآباء ، ولكن الزواج بالاختيار الحر بين الفتیان
والفتيات أخذ في الانتشار في الحواضر ؛ فالشباب لا يكتفى الآن بأن يرى نفسه
حرّاً في أن يتزوج من يشاء ، بل هو يجرى تجارب في الزواج قد يرتاع لها أبناء
الغرب أنفسهم ، وهذا القول نفسه ينطبق على الفتيات كما ينطبق على الفتيان .
لقد كان نقشه يرى أن آسية على حق فيما تعامل به النساء ، ويرى أن إخضاعهن
لرجال هو العاصم الوحيد من سيطرتهن عليهن سيطرة لا تقف عند حد ، ولكن
آسية قد اختارت أساليب أوربا لا أساليب نقشه في معاملة النساء . وتعدد
الزوجات أخذ في النقصان لأن الزوجة الجديدة تعارض فيه وتعارض في التسرى .
والطلاق قليل غير عادي ، ولكن السبيل إليه أوسع مما كانت في الأيام الماضية^(٣١) .
والتعليم المشترك هو القاعدة المتبعة في الجامعات ، واختلاط الجنسين اختلاطاً حرّاً
أمر عادي في المدن ، وقد سنت النساء لمن قوانينهن الخاصة بهن وأنشأن مدارسهن
الطبية ، بل سرن إلى أبعد من هذا فأنشأن مصرفاً مالياً خاصاً بهن^(٣٢) . واللائي
انضممن إلى الحزب من النساء منحن حق الانتخاب ، وقد وجدت لهن وظائف
في أرقى لجان الحزب والحكومة على السواء^(٣٣) . ولقد نبذن عادة قتل الأطفال

(*) تجيز الثورة الطلاق إذا طلبه الطرفان ، ولكن إذا كان الزوج أقل من ثلاثين
سنة أو الزوجة أقل من خمس وعشرين فإن الطلاق يتطلب رضا الأبوين . ولا نزال الأسباب
القديمة التي كانت تجيز الزوج أن يطلق زوجته معمولاً بها — وهذه الأسباب هي المقم ،
والخيانة الزوجية ، وإهمال الواجب ، والثروة ، والسرقة ، والفيرة ، والأمراض الخطيرة ؛
ولكن هذه الأسباب لا يعمل بها إذا كانت الزوجة قد حزنت ثلاث سنين على والدى زوجها ،
أو لم تكن لها أسرة تعود إليها ، وكانت وفية لزوجها في أثناء ارتفاعه من الفقر إلى
الفقر^(٣٠) .

وأخذن يزاولن عادة تحديد النسل^(٣٢)، ولم يزد عدد السكان زيادة ملحوظة منذ قيام الثورة ولعل تيار السكان الصينيين الجارف قد أخذ الآن يتراجع^(٣٣). ومع هذا فإن خمسين ألف صيني جديد يولدون في كل يوم^(٣٤). وسيكونون في مستقبل أيامهم جُددًا من كل الوجوه، جددًا في تفصيل ملابسهم وترجيل شعرهم، جددًا في تعليمهم وعاداتهم وأخلاقهم ودينهم وفلسفتهم، لقد اختفى ذيل ملابسهم الطويل واختفى معه ما كان في الأيام الخالية من ظرف ورقة، وخشنت أحقاد الثورة روح الأهليين، وأضحى من أصعب الأمور على المتطرفين أن يجاملوا المحافظين^(٣٥). وها هو ذا تيار الصناعة السريع يبدل ما كان يتصف به الشعب الصيني القديم من تواكل وعدم مبالاة إلى صفات أخرى أكثر دلالة على طبيعتهم. إن هذه الوجوه البليدة لتخفى تحتها نفوسا نشيطة سريعة الاحتياج، وإن النزعة السلمية التي أثربتها نفوس الصينيين بعد حروب دامت عدة قرون لآخذة في الزوال من طول تفكيرهم في هزائمهم القومية وتقطيع أوصال بلادهم؛ والمدارس تعد الآن كل طالب لأن يكون جنديًا، وعاد القوم مرة أخرى يرون القائد بطلا.

وتبدل نظام التعليم من أوله إلى آخره فألقت المدارس بكنفوشيوس من النافذة وأحلت العلوم الطبيعية والرياضية محله، وإن لم يكن من الضروري أن تتخلى عنه لتجمل العلوم محله لأن تعاليم كنفوشيوس لا تتعارض مطلقًا مع روح العلم. ولكن التاريخ كله لحته وسداه يتكون في جميع مراحل من غلبة الإحساسات النفسية على العقائد المنطقية. فدراسة الرياضيات والميكانيكا واسعة الانتشار لأنهما يعينان على صناعة الآلات، والآلات تعين على جمع الثروة وعلى صناعة المدافع، والمدافع قد تحفظ الحرية. ودراسة الطب في الصين آخذة في

(*) إن الإعلانات الصريحة عن وسائل مواعج الحمل في 'أذن الأدوية الصينية' لما يوحى إل الله بوسيلة يلجأ إليها لينجو بها من «الخطر الأصفر».

الانتشار ، والفضل في انتشارها راجع معظمه إلى هبات الحسن ركفلر^(*) . وقد تضاعف عدد المدارس الجديدة والمدارس العليا والكليات بسرعة فائقة على الرغم من فقر البلاد ، والصين الحديثة تأمل ألا يمضى إلا القليل من الوقت حتى يستطيع كل طفل أن يتعلم من غير أجر وأن يسودها النظام لدمقراطي بفضل انتشار التعليم . وقد حدث في الأدب الصيني والفلسفة الصينية انقلاب شبيه بما حدث في عهد النهضة . ذلك أن دخول الكتب الغربية كان له من الأثر المنتج ما كان للمخطوطات اليونانية من أثر في عقول الإيطاليين ؛ وكما أن إيطاليا في إبان نهضتها قد هجرت اللغة اللاتينية لتكتب بالإيطالية فكذلك فعلت الصين بزعامة هوشى إذ حولت اللهجة الأرستقراطية القديمة إلى لغة أدبية هي المعروفة بالباى هوا ، وأقدم هوشى على عمل خطير جازف فيه بمصيره الأدبي فكتب بهذه « اللغة البسيطة » تاريخ الفلسفة الصينية في عام ١٩١٩ ؛ وكانت شجاعته سبباً في فوزه العظيم ، فأتخذت خمسمائة صحيفة دورية الباى هوا لغة لها ، ولم يمض إلا وقت قليل حتى كانت لغة الكتابة الرسمية في المدارس . وقامت في الوقت نفسه « حركة الحروف الألف » لإفناص رموز الكتابة الصينية من ٤٠٠٠ رمز وهو العدد الذي كان يستخدمه العلماء في كتاباتهم إلى ١٣٠٠ تكفي للاستعمال العادى . وبهذه الطريقة أخذت لهجة المدرسين تذيب بسرعة في الأقاليم الصينية ، وقد لا ينتهى هذا القرن حتى تكون للصين كلها لغة واحدة وحتى تقترب من الوحدة الثقافية .

والأدب الصيني أخذ في الانتشار مدفوعاً بهذه اللغة الشعبية وبجاسة الأهليين ، وقد أضحى عدد الروايات والقصائد والتمثيلات لا يقل عن عدد الصينيين أنفسهم ، وانتشرت الصحف والمجلات في كل مكان ، وأخذ الصينيون يترجون آداب الغرب

(*) في عام ١٩٣٢ فتحت كلية طب الاتحاد للطلاب والطالبات بفصل الهبة التي قدمها چون . و . ركفلر الصغير والبالغ مقدارها خمسة ملايين من الدولارات ، وتنفق اللجنة الطبية الصينية التي تمدها بالمال مؤسسة ركفلر على تسعة عشر مستشفى وثلاث مدارس للطب وتهب في كل عام خمسا وستين جائزة تعليمية^(٣٦) .

بالجمله ، كما أخذت أشرطة الخيالة الأمريكية ، بشرحها مترجم صيني يقف إلى جانب الشاشة البيضاء ، تبعث البهجة في نفوس الصينيين العلماء منهم والسذج . وكذلك عادت الفلسفة إلى عطاء الفلاسفة الأقدمين الملحدين ، وأخذت تعيد دراستهم وتفسيرهم على نمط جديد بعزيمة واندفاع لا يقلان عن عزيمة أوروبا ونشاطها في القرن السادس عشر ، وكما أن إيطاليا بعد أن تحررت من القيود الكنسية قد راعتها العقلية اليونانية اللادينية وأثارت إعجابها ، كذلك أخذت الصين الجديدة تستمع بشغف ليس كمثله شغف إلى أقوال مفكرى الغرب أمثال جون ديوى وبرتtrand رسل وأمثالهم من العلماء المستقلين في تفكيرهم استقلالاً تاماً عن جميع الأديان ، والذين يعظمون التجارب ويعتقدون أنها وحدها هي المنطق الواجب الاتباع ، والذين تتفق فلسفتهم لهذا السبب مع مزاج أمة تحاول أن تجمع الإصلاح الدينى ، وإحياء العلوم والاستنارة والنهضة والثورة في جيل واحد^(٢٠) . وإذا ما امتدح أحدنا الآن ما لآسية من « قيم روحية » سخر منه هوشى وقال إنه يجد في إصلاح نظم الصناعة والحكم إصلاحاً يعين على استئصال العوز من البلاد فيما أخلاقية أعظم من كل ما في « حكمة الشرق » ، وهو يلقب كنفوشىوس « بالشيخ الطاعن في السن » ويقول إن التفكير الصينى ليظهر على حقيقته إذا ما وضعت مدارس الملحدين التي كانت قائمة في القرن الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد في مكانها الصحيح من تاريخ الصين^(٢١) .

بيد أنه وهو في وسط هذا « التيار الجديد » الجارف وهذه الحركة الفكرية الجديدة التي كان من أنشط زعمائها قد أوتى من الحكمة ما جعله يدرك ما للشيوخ أنفسهم من قيمة ، وقد صاغ مشكلة بلاده أكمل صياغة في الفقرة الآتية :

(*) لقد ضعف في الأيام الأخيرة هذا الميل الشديد إلى تقليد المثل الغربية في الأمور العقلية بتأثير حركة الحياة الجديدة التي يتزعمها جيانج كائى - شك . وأخذت الصين واليابان تخرجان لما أشرطة خيالية خاصة بهما ، وعاد الاستمساك بالقديم يحل تدريجاً محل التطرف ، كما أخذت الصين تميل إلى الانضمام إلى اليابان في الثورة على أفكار أوروبا وأمريكا وآساليهما .

« إن الجنس البشرى بأجمعه لتصيبه أكبر خسارة إذا ما استبدلت الحضارة الجديدة بالحضارة القديمة استبدالا سريعاً مفاجئاً يحجوها من الوجود بدل أن تمتصها البلاد امتصاصاً بطيئاً وتمثلها كما يمثل الغذاء الصالح . وعلى هذا فإن المشكلة التي تواجهها يمكن أن تصاغ على النحو الآتى . كيف نستطيع أن نهضم الحضارة الجديدة ونمثلها بحيث نجعلها متجانسة مؤلفة مع الحضارة التي أنشأناها نحن في أيامنا الحالية ؟ » (٣٠) .

ويخيل إلى كل من يشهد ظواهر الأمور الخارجية السائدة في الصين الآن أنها لن تستطيع حل هذه المشكلة . ذلك أن الإنسان إذا ما فكر فيما يحجم على الحقول الصينية من وحشة ، وما حاق بها من خراب ، وما يتناوبها من جذب تارة وفيضان جارف تارة أخرى ، وما أصاب أشجارها من تقطيع وتدمير ، وفيما أصيب به زراعتها من إنهاك وخمول ، وفي الموت الذى يحصد أطفالها حصداً ، وفي عمالها الذين يكسحون في المصانع كالعبيد كدحاً يضعفهم ويهد قواهم ، وفي مدنها القذرة التي تنفث فيها الأمراض ، وتفرض على بيوتها أفدح الضرائب ، وفي الرشوة المنتشرة في تجارتها ، وفي صناعاتها التي يسيطر الأجانب عليها ، وفي فساد حكومتها ، وضعف وسائل الدفاع عن بلادها ، وفي أهلها الذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً وامتلات قلوبهم غلا وحقدًا ، إذا ما فكر في هذا كله هاله الأمر فلا يدري هل تستطيع الصين أن تستعيد عظمتها الماضية ، وهل في مقدورها أن تمتص مرة أخرى فاتحيتها وتمثلهم في جسمها الضخم ، وتحيا من جديد حياتها النشيطة المبدعة ؟ ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة تدقيق وإمعان رأينا من تحت هذه المظاهر السطحية عوامل النقاها والتجديد فأراضيها الواسعة الرقعة المختلفة الأنواع غنية بمعادنها الكفيلة بأن تجعلها بلاداً صناعياً عظيماً ، وقد لا يكون فيها من الثروة المعدنية ما قدره رختوفن ، ولكن فيها بلا ريب أكثر مما كشفت عنه البحوث التجريبية في هذه الأيام . وإذا ما تسربت للصناعة إلى داخل البلاد فستكشف عن خامات ومواد للوقود لا يتصور الناس

الآن أنها توجد فيها ، كما لم يكن أحد يتصور منذ قرن واحد ما في أمريكا من ثروة معدنية ومن وقود . أما عن قواها المعنوية فإن هذه الأمة التي مرت عليها ثلاثة آلاف عام سمت فيها إلى الجحد تارة وتردت في مهاوى الشقاء تارة أخرى ، وتوالت عليها فترات موت وبموت ، إن هذه الأمة لتظهر فيها اليوم كل دلائل الحيوية للمادية والمعنوية التي تزينها في . كثر عهودها إبداعاً وإنتاجاً . وليس في العالم كله شعب أكثر من هذا الشعب نشاطاً وذكاء ، وليس فيه شعب يمثله في قدرته على التكيف حسب ما يواجهه من الظروف ، وفي مقاومته للأمراض ، وفي انتعاشه بعد الكوارث والآلام ، شعب علمه تاريخه الطويل الصبر على الأرزاء والخروج منها سالماً على مر الأيام . وليس في الخيال أن يتصور ما يحمله المستقبل لحضارة تبرز فيها الموارد المادية والطاقة البشرية والعقلية لهذا الشعب والوسائل والأدوات الفنية التي أوجدتها الصناعة الحديثة .

وأكبر الظن أن الصين ستنتج من الثروة ما لم تنتجها قارة من القارات حتى أمريكا نفسها ، وأن الصين ستزعم العالم في نعيم الحياة وفنما كما تزعمه مراراً في الزمن القديم في التمتع وفي فنون الحياة .

ذلك أن المزايم الحربية واستبداد الأموال الأجنبية مهما قست لا تستطيع أن تكبت إلى مدى طويل روح أمة غنية في مواردها وفي حيويتها ، بل سيخسر المفير عليها ماله وينفذ صبره قبل أن تستنفد البلاد قدرتها على الشكائر ؛ ولن يمضي قرن واحد من الزمان حتى تكون الصين قد امتصت فآتيها وهضبتهم وحضرتهم بحضارتها ، وتملكت جميع الفنون التي سيطلق عليها إلى وقت قصير اسم الصناعة الحديثة . وسوف توحد الطرق وسبل الاتصال أجزائها ، وتمدها أساليب الاقتصاد والادخار بحاجتها من المال ، وستعيد إليها الحكومة القوية السلم والنظام . وبقيننا أن الفوضى مهما اشتدت ليست إلا أمراً عارضاً مصيره إلى الزوال ، ثم يتوازن

الاضطراب آخر الأمر مع الطفيان وبتعادلان ، وحينئذ تُكتسح العوائق القديمة وتنمو البلاد نماءً حُرّاً جديداً . إن الثورة كالموت هي اكتساح الأقدار ، وبتر الذي لا نفع فيه ؛ وهي لا تقوم إلا إذا كان في البلد الذي تقوم به أشياء كثيرة في دور الاحتضار . ولقد ماتت الصين مراراً من قبل ، ثم عادت وولدت من جديد .

(انتهى)

المراجع[†]

الباب الثالث والعشرون

1. I am Indebted for this quotation from the *Book of Rites* to Upton Close. Cf. Gowen and Hall, *Outline History of China*, 60; Hirth, F., *Ancient History of China*, 155.
- 1a. Reichwein, A., *China and Europe: Intellectual and Artistic Contacts in the Eighteenth century*, 92.
2. Ibid., 89f; Voltaire, *Works*, New York, 1927, xii, 19.
3. Keyserling, *Creative Understanding*, 122, 203; *Travel Diary*, ii, 67, 58, 50, 57, 48, 68.
4. Lippert, 91; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 58.
5. Smith, A. H., *Chinese Characteristics*, 98.
6. Giles, H., *Gems of Chinese Literature Prose*, 119.
7. Williams, S. Wells, *Middle Kingdom*, i, 5; Brinkley, Capt. F., *China: Its History, Arts and Literature*, x, 3.
8. Ibid., 2; Hall, J. W., *Eminent Asiaus*, 41.
10. Pitard, 897; Buxton, 158; Granet, *Chinese Civilization*, New York, 1930, 68; Latourette, K. S., *The Chinese: Their History and Culture*, 35-6; *New York Times*, Feb, 15, 1939,
11. Lowie, 182; Fergusson, J., *History of Indian and Eastern Architecture*, ii, 468; Legendre, A. F., *Modern Chinese Civilization*, 234; Granet, 64.
12. Ibid., 215, 280.
13. Gowen and Hall, 26-7.
14. Confucius (?) *Book of History*, rendered and compiled by W. O. Old, 20-1.
15. Giles, *Gems*, 72.
16. Hirth, 40.
17. Ibid., 53-7.
18. Willhelm. R., *Short History of Chinese Civilization*, 124; Granet, 86.
19. Ibid., 87.
20. Confucius, *Analects*, XIV, xviii, 2, in Legge, Jas, *Chinese Classics*, Vol, 1: *Life and Teachings of Confucius*.
21. Legge, 213n
22. Hirth, 107-8, Latourette, i, 57, Gowen and Hall, 64; Schneider, H., ii, 796-8.
23. Cranen, 78.
24. Ibid., 32-3; Hu Shih, *Development of the Logical Method in Ancient China*, 22, Latourette, ii, 52.
25. Ibid, 58-9; Granet, 87-8; Hirth,

(†) سنبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده في هذه القائمة ثم كتبت بعد ذلك

بذكره مختصراً

- 110.
26. Giles, H.A., *History of Chinese Literature*, 5
27. *Book of Odes*, I, x, 8, and xii, 10, in Hu Shih, Pt. I, p. 4.
28. Cranmer-Byng, L., *The Book of Odes*, 51.
29. Tr. by Helen Waddell in Van Dorren, *Anthology of World Poetry*, 1.
30. In Yang Chu's *Garden of Pleasure*, 64.
31. Fenollosa E.F., *Epochs of Chinese and Japanese Art*, 14, Hirth, 59-62; Hu Shih, 28f; Suzuki, D. T., *Brief History of Early Chinese Philosophy*, 14; Murdoch, Jas., *History of Japan*, iii, 108.
32. Hu Shih, 12
33. Legge, 76n.
34. In Hu Shih, 12.
35. *Ibid.*, 13.
36. *Ibid.*, 12.
37. Giles, *History*, 57; Legge, Jas., *The Text of Taoism*, i, 4-5.
38. Giles, *History*, 57, Giles *Gems*, 55.
39. Legge, *Texts of Taoism*, i, 4f.
40. II, lxxxi, 3, I, lxxv, 1-2.
41. In Suzuki, 81.
42. II, lvii, 2-3, lxxx, Parenthetical passages, in this and other quotations, are usually explanatory interpolations, nearly always of the translator.
43. Yang Chu, 16, 19, Schlender, ii, 810; Hu Shih, 14, Wilhelm, *Short History*, 247.
44. I, xvi 1-2.
45. I, xliii, 1; xlix, 2: lxi, 2, lxiii, 1, lxxviii, 1, lxxxi, 1, Giles, *History*, 73.
46. II, lxi, 2.
47. II, lvi, 1-2.
48. Granet, 55.
49. II, lvi, 2.
50. I, xvi, I, II, lvi, 3, Parmelee, 43.
51. Legge, *Texts of Taoism*, 34, *Life and Teachings of Confucius*, 64.
61. Legge, *Texts*, 34.
62. *Ibid.*
63. Szuma Ch'inn in Legge, *Life*, 58n.
64. *Ibid.*
65. Legge, *Life*, 55-8, Wilhelm, R., *Soul of China*, 104.
66. Hirth, 229.
67. *Analects*, VII, xiii.
68. VIII, viii.
69. XV, xv.
70. VII, viii.
71. VII, xii.
72. VI, ii, XI, iii.
73. XVII, xvii, XIV, xvi.
74. Legge, *Life*, 65.
75. *Ibid.*, 79.
76. V, xxvii.
77. VII, xxxii.
78. XIII, x.
79. IX, iv.
80. VII, i.
81. IV, xiv.
82. Legge, *Life*, 67.
83. XII, xi
84. Legge, *Life*, 68.
85. *Ibid.*, 72.
86. *Ibid.*, 75.
87. IX, xvii.
88. Legg, 83.
89. *Ibid.* 82.
90. XV, xviii.
91. II, iv.
92. Legge, 82.
93. Mencius. *Works of*, tr. by Legge, III, 1, iv, 13.

94. Wilhelm, *Short History*, 148,
Legge, *Life*, 16.
95. *Ibid.*, 267, 27, Hu Shih, 4.
96. XV, 40.
97. II, xvii.
98. XIII, iii.
99. III, xiii, 2.
100. IX, xv.
101. Legge, *Life*, 101, Giles, *History*,
83, Suzuki, 20.
102. Legge, 101.
103. XI, xi.
104. VI, 20.
106. VII, 20.
106. Giles, *History*, 69.
107. XV, ii.
108. *Great Learning*, 1,4-5. 'In Legge,
Life, 266. I have ventured to
change "illustrate illustrious
virtue" in Legge's translation,
to "illustrate the highest virtue",
and the words "own selves"
have been substituted for
"Persons," since "the cultivation
of the person" has now a mis-
leading connotation.
109. XIV, xiv.
110. XV, xxxi, II, xiv, XIII, iii, 7.
111. VI, xvi.
112. *Doctrine of the Mean*, XII, 4, in
Legge.
113. *Analects*, II, xii.
114. *Doctrine of the Mean*, XIV, 5.
115. XV, xviii-xx.
116. XIV, xxix, XI, xiii, 3, *D. of M.*,
XXXIII, 2.
117. *Ibid.*, XI, 8.
118. *Li-chi*, XVII, i, 11-2.
119. Spinoza, *Ethics*, Bk. III, Prop.
69.
120. *D. of M.*, XXIX, tr. by Suzuki,
64.
121. Suzuki, 68.
122. *Analects*, XII, ii, V, xvi.
123. XV, xxiii.
124. XIV, xxxvi, 1-2.
- 124a. IV, xvii.
- 124b. XII, vi.
125. XIII, xxiii.
126. *D. of M.*, XIV, 3.
127. IV, xxiv, V, iii, 2, XVII, vi, XV,
xxi.
128. V, xvi, XVI, iii, 5.
129. XVI, 10.
130. I, ii, 2, Legge, *Life*, 106.
131. IV, xviii, *Li-Chi*, XII, '1. 15,
Brown, B., *Story of Confucius*,
183.
132. *Great Learning*, X, 5.
133. *Analects*, XII, vii.
134. XII, xix, II, ii, xx.
135. XII, xxiii, 3.
136. *D. of M.*, XX, 4.
137. *Analects*, XIII, x-xii.
138. *Great Learning*, X, 9.
139. *Analects*, XII, xix, XV, xxxviii.
140. *Li chi*, XVII, i, 28, iii, 23, Brown,
Story of Confucius, 181.
141. *Analects*, XX, iii, 3.
142. *Li-Chi*, XXVII, 33, XXIII, 7-8.
143. *Ibid.*, VII, i, 2-8, quoted in
Dowson, *Ethics of Confucius*,
299, from Chen Heang-chang.
*The Economic Principles of Con-
fucius and School.*
144. Latourette, i, 80-1.
145. Legge, *Life*, 106.
146. *D. of M.*, XXX-XXXI.
147. Hu Shih, 109, f.
148. Hirth, 807.
149. Mencius, VII, i, 26, in Hu Shih,
58.
150. Hu Shih, 72.
151. *Ibid.*, 57, 76, Latourette, i, 78.

152. In Hirth, 281.
153. Hu Shih, 69-70.
154. Thomas, E. D., *Chinese political Thought*, 29-30.
155. Hu Shih, 68.
156. Mencius, *Introd.*, 111.
157. Wilhelm *Short History*, 150, Hu Shih 110.
158. Hu Shih, 62.
159. Mencius, *Introd.*, 93.
160. Yang Chu, 10, 51, Latourette, 1, 80.
161. Mencius, *Introd.*, 95, Yang Chu, 57.
162. Mencius, *Introd.*, 96-8.
163. Hirth, 27-9.
164. Mencius, III, ii, 9.
165. Mencius, *Introd.*, 14-18.
166. *Ibid.*, 42.
167. *Ibid.*, I, ii 3, II, 5: pp. 156, 162.
168. *Ibid.*, 12.
169. VI, 1, 7.
170. I, 1, 7.
171. III, i, 3.
172. I, i, 3.
173. II, 1, 5.
174. Thomas, E.D., 87, Williams, S. Wells, 1, 670.
175. IV, ii, 19.
176. Mencius, *Introd.*, 30-1.
177. VI, ii, 4.
178. VII, ii, 4.
179. Quoted in Thomas, E. D., 87.
180. I, i, 3.
181. II, ii, 4.
182. VII, ii, 14.
183. V, ii, 9, I, ii, 6-8.
184. Mencius., *Introd.*, 84.
185. *Ibid.*, 79-80.
186. *Ibid.*, 86.
187. In Hu Shih, 152.
188. Legge, *Texts of Taoism*, V, 6.
189. *Ibid.*, *Introd.*, 37.
190. XVII, 11.
191. I Thomas, E. D., 100.
192. XI, 1.
193. XVI, 2, IX, 2.
194. XII, 11.
195. XII, 2.
196. II, 2, XX, 7, Giles, *Gems*, 32.
197. II, 7, XXII, 5.
198. VI, 7.
199. In Suzuki, 36.
200. XVII, 4, Hu Shih, 146.
201. XVIII, 6.
202. II, 11, tr. by Giles, *History*, 63.
203. VI, 10, tr. by Suzuki, 181-2.
204. In Giles, *History*, 68.
205. In Reichwein 79f.
206. *Ibid.*
207. *Ibid.*, 84.
208. Wilhelm, *Soul of China*, 233.
209. Thomas, E.D., 25.
210. Voltaire, *Works*, iv, 82.
211. Reichwein, 181, Hirth, xii.

الباب الرابع والعشرون

1. Giles, *Gems*, 33.
2. Granet, 87, Cowen and Hall, 84, Giles, *History*, 78.
3. Granet, 41.
4. Voltaire, *Works*, iv, 82.
5. Granet, 87, 97-8, 101-3, Boulger, D. C., *History of China*, i, 68-70 Wilhelm, *Short History*, 157.
6. Boulger, 1, 71.
7. Granet, 38.

- 8 Ibid.
9. Ibid., 103; Schneider ii, 790;
Wilhelm, *Short History*, 160-1;
Lautourette i, 96.
10. Gowen and Hall, 84f, Giles,
History, 78.
11. Hall J. W., *Emigrant Asians*, 6.
12. Boulger, i, 64.
13. Ibid., 62, Latourette, i, 99.
14. Granet; 38-40, Boulger i, 77.
Giles in (Gowen) & H (all), 92.
15. Boulger, i, 106, Granet, 44.
16. Szuma Ch'ien in Granet, 113.
17. Ibid.
18. Granet, 112-3.
19. Ibid., 118.
20. Fenollosa, i, 77.
21. Walley, Arthur *Introduction to
the Study of Chinese Painting*,
27, O.H. 102.
22. Granet, 113-5.
23. Wilhelm, *Short History*, 186, 194.
24. Lautourette, i, 121.
25. Ibid., 120-2.
26. Ibid., 122.
27. G & H, 118.
28. Ibid., 117-21.
29. Fenollosa, i, 117.
30. Voltaire, *Works*, xiii, 26.
31. Tu Fu, *Poems*, tr. by Edna W.
Underwood, xlii
32. Li-Po, *Works*, done into English
Verse by Shigeyoshi Obata, 91.
33. Tu Fu, xlvii.
34. In Li-Po. 1.
35. In Tu Fu, xii.
36. Murdoch, *History of Japan*, i, 146.
37. Waley, *Chinese Painting*, 142.
38. Ibid., 97.
39. William, *Short History*, 224.
40. Williams, S. Wells, i, 696f.
41. Li-Po, 20.
42. Ibid., 96.
43. Ibid., 30.
44. Williams, S. Wells, i, 697.
45. Li-Po, 31.
46. G & H, 118.
47. Li-Po, 100.
48. Ibid., 84.
49. 138.
50. 191.
51. 71.
52. 55.
53. Ibid., ii.
54. Ibid.,
55. Ibid., 25.
56. Giles, *History*, 50.
57. Translations by Arthur Waley
Amy Lowell and Florence Ayacough,
in Van Deren, *Anthology*,
18-20.
58. Waley, Arthur, 170 *Chinese Poems*,
106-8.
59. Ibid., 126.
60. Ibid., 168.
61. In Van Doren, 24.
62. Giles, *History*, 156; Ayacough,
Florence, *Tu Fu: The Autobiography
of a Chinese Poet.*, 105.
63. Ibid., 75.
64. Tu Fu, *Poems*, 118, 184, 154.
65. Ibid., 96,
66. 30, 7, 132.
67. 137.
68. 72, 133, and introd.
69. Williams, S. Wells, i, 602,
70. Giles, *History*, 276.
71. Ibid., 102.
72. Ibid.
73. Thomas, E. D., 5.
74. Giles, *History*, 224.
75. Ibid., 160.
76. G & H, 156.
77. Wilhelm, *Short History*, 256; Giles,

- History*, 268,
78. William, S. Wells, i, 820;
Latourette, ii, 220.
79. *Ibid.*,
80. William, 141.
81. Pratt, *History of Music*, 82-5.
82. Giles, *Gems*, 117.

الباب الخامس والعشرون

1. O & H, 142.
2. *Ibid.*, 141.
3. *Ibid.*, 140-3 ; Latourette, i, 252-7;
Wilhelm, 237-8 ; Murdoch, iii,
106; Fenollosa, ii, ii, 33, 57.
4. O & H, 133, quoting Walter T.
Swingle, Librarian of the U.S.
Dept. of Agriculture.
5. Carter, *Invention of printing* 2.
6. *Ibid.*, 3.
7. *Ibid.*, 96.
8. Sarton, 369.
9. Carter ; 26.
10. *Ibid.*, 145 ; Sarton, 512.
11. Carter, 41.
12. *Ibid.*, 43, 183.
13. O & H, 183.
14. Carter, 250.
15. *Ibid.*, 178, 171.
16. *Ibid.* 177-8 ; Sarton, 663.
17. *Ibid.*; O & H, 164 ; Giles, *History*
296.
18. Chu Hsi, *Philosophy of Human*
Nature, 75 ; Bryan, J. J , *Litera-*
ture of Japan, 122 ; Latourtte, i,
262-3; Williams, S. Wells, i, 683 ;
Wilhelm, *Short History*, 249-50,
Aston, W.O., *History of Japanese*
Literature, 226-7.
19. Chu Hsi, 68.
20. Wilhelm, 2249-50.
21. Wang Yang-ming, *Philosophy* tr.
by Fredk. G. Henke, 117-8.
22. Armstrong, R.C., *Light from the*
East : Studies in Japanese Confu-
clanism, 121, Brinkley, Cadt. F.,
Japan : Its History, Arts and
Literature, iv, 125.
23. Wang Yang-Ming, 8, 12, 50, 59.
24. Brinkely, *Japan*, iv, 125.
25. Wang Yang - Ming, 106, 52.
26. *Ibid.*, 115-6.
27. Hobson, R. L., *Chinese Art*, 14.
28. *Encyc. Brit.*, xiii, 575.
29. Cf. the imperial marriage table
in Hobson, R.L., Pl. LXXXIII.
30. *Ibid.*, XCI.
31. Illustrated in *Encyc. Brit.*, xlii, f.
p. 576.
32. Ferguson. J. C , *Outlines of*
Chinese Art, 67.
33. Hobson, R. L., LXXXVIII.
34. *Ibid.*, LXXVII, 1.
35. Lorenz, *Round the World Traveler*,
197.
36. *Encyc. Brit.*, xii, 864.
37. Fry, R.E., *Chinese Art*, 31, Oranet,
37, *Encyc. Brit.*, iv, 245.
38. *Chinese Art*, 33.
39. Fischer, Otto, 374.
40. *Encyc. Brit.*, Pl. XIV, f. p. 246,
collection of Mr. Warren E. Cox.
41. *Chinese Art*, 47.
42. Faure, *History, of Art*, ii, 55.
43. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 581.
44. Siren, O , in *Encyc. Brit.*, v. 581,
Chinese Art, 48.
45. Stein, Sir Aurel, *Innermost Asia*,

- Vol. i, Plates VIII, XI, XIX and XXIV.
46. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 586, Plate X, 2, Fischer, 866.
 47. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 584, Pl. VI, 44.
 48. *Ibid.*, f. p. 585, Pl. VIII, 2.
 49. *Ibid.*, f. p. 586. Pl. XI '2 and 3.
 40. Fergusson, Jas., *History of Indian and Eastern Architecture*, ii, 454.
 51. Fergusson, Jas., in Willam, S. Wells, i, 737.
 52. Cf the decorative design reproduced in Stein alr, A., *Innermost Asia*, Vol. iii, Pl. XXV, and the patiently carved and ornamental ceiling shown in Pelliot, Vol. iv Pl CCXXV.
 53. Fergusson, op. cit., ii, 464.
 54. Coomarswamy, *History*, 152.
 55. Williams, S. Wells, i, 744.
 56. Lorenz, 203.
 57. Cook's, *Guide to Peking*, 28, 80.
 58. Fergusson, ii, 481.
 59. Legendre, 79.
 60. *Ibid.*, 166.
 61. Smith, *Chinese Characteristics*, 134.
 62. Waley, *Chinese Painting*, 69-70.
 63. Siren Osvald, *Chinese Paintings in American Collections*, i, 86.
 64. Giles, H. A., *Introduction to the History of Chinese Pictorial Art*, 2.
 65. Wilhelm, *Short History*, 38.
 66. Giles, *Pictorial Art*, 3.
 67. *Ibid.*, Waley, *Chinese Painting*, 32.
 68. Fenollosa, ii, p. xxx.
 69. Wally, *Chinese Painting*, 45.
 70. *Encyc. Brit.*, art. on "Chinese Painting." Pl. II, 6.
 71. Fischer, 325-31.
 72. Waley, 49.
 73. *Ibid.*, 51.
 74. Giles, *Pictorial Art*, 21.
 75. Tu Fu, 97, cf. 175 and 187.
 76. Giles, *Pictorial Art*, 79.
 77. Wilhelm, 244.
 78. Waley, 183.
 79. Fenollosa, i, f. p. 120, Fischer, 490.
 80. *Ibid.* 424.
 81. Giles, 47-8.
 82. *Ibid.*, 50, Binyon. Li, *Flight of the Dragon*, 43.
 83. Giles, 47.
 84. Croce, Bene it i *Esthetic*, 50.
 85. in Waley, 119.
 86. Binyon, 111.
 87. Siren, i, Plates 5-8 *Encys. Brit.*, Chinese Painting," Pl. II, 4.
 88. Fenollosa, ii, 27.
 89. Waley, 177.
 90. O & H, 146.
 91. A Chinese writer in Giles, *Pictorial Art*, 115.
 92. Fischer, 492.
 93. E. g, Fenollosa, ii, 42.
 95. *Ibid.*, 62.
 96. Gulland, W. O., *Chinese Porcelain*, i, 16.
 97. *Chinese Art*, 11.
 98. *Ibid.*, 2.
 99. Hsieh Ho in Coomaraswamy, *Dance of Siva*, 43.
 100. Binyon, 65-8, *China Art*, 47.
 101. In Okakura-Kakuso, *The Book of Tea*, 108.
 102. Gulland, i, 3.
 103. *Encyc Brit.*, xvlii, 861.
 104. *Ibid.*, Legendre, 233.
 105. *Encyc. Brit.*, xviii, 182, Carter, 93.

106. Ibid., I c.
107. Brinkley, *China*, ix, 299.
108. Ibid., 62.
109. Ibid., 87, Gulland, 139.
110. Brinkley, 75.
111. G & H, 165.
112. Brinkley, *China*, ix, 256.
113. *Encyc. Brit.*, viii, 419.
114. Brinkley, *China* in, 210, 215.
115. Ibid., 376, 554, *Encyc., Brit.*, art. "Ceramics".

الباب السادس والعشرون

1. polo, *Travels*, 78, 188.
2. Ibid., v-vii, a perfect introduction, to which the present account is much indebted.
3. Polo, 232-4.
4. 152.
5. 129.
6. G & H, 135f.
7. Giles, *History*, 248-9.
8. Polo, 172.
9. Giles, 147.
10. Polo, 158.
11. Ibid., 125.
12. 149.
13. P, xxiv of Komroff's introduction.
14. G & H, 172.
15. Ibid.
16. Latourette, i, 380, Wilhelm, *Short History*, 260, G & H, 195, Giles, *History*, 291, Gulland, W. G., ii, 288.
17. G & H, 209.
18. Ibid., 227.
19. Quoted in Parmelee, 218, and in Bisland, Elizabeth *Three Wise Men of the East*, 125.
20. Wilhelm, 204, Latourette, i, 208, G & H, 286, Brinkley, *China*, x, 4.
21. Latourette, i, 289.
22. Brinkley, I.c., 12.
23. Williams, S. Wells, i, 770.
24. Ibid., 762.
25. Wilhelm in Keyserling, *Book of Marriage*, 183, Waley, *Chinese Painting*, 165.
26. Legendre, 23.
27. Ibid., 75, Park, No Yong, *Making a New China*, 122.
28. Smith, *Chinese, Characteristics*, 127.
29. Polo, 286.
30. Pitkin. *Short Introduction*, 182.
32. Wilhelm, *Short History*, 64.
33. Mason, *Art of Writing*, 154-76.
34. Legendre, 76, 113.
35. Okakura, 3, 36.
36. Granel, 144-5.
37. Legendre, 114.
38. Wilhelm, *Soul of China*, 389.
40. Smith, *Characteristics*, 21, Park, No Yong, 128, Legendre, 86, Williams, S. Wells, i, 775-80.
41. Latourette, i, 225.
42. Park, 121, Smith, *Characteristics*, 19.
43. Eudy, Sherwood, *Challenge of the East*, 81.
44. Giles, *Gems*, 285.
45. Murdoch, iii, 262.
46. Sarton, 452.
47. National Geographical Magazine, April, 1932, p. 511.
48. Sumner and Keller, iii, 2095.

49. Wilhelm, *Short History*, 134,
Wilhelm, *Soul of China*, 861-2,
G & H, 59.
50. Polo, 236.
51. Peffer, N., *China: the Collapse
of a Civilization*, 25-32, Parmelee,
101, Legendre, 57.
52. Williams, S. Wells, i, 413, Wil-
helm, *Short History*, 11.
53. Park, 85, G & H, 290.
54. Park, 67.
55. Latourette, ii, 206, G & H, 2-3.
56. Renard, 161.
57. Park, 92.
58. Summer, *Folkways*, 153, Latourette,
i, 63.
59. *Ibid.*, 252.
60. Polo, 159, Carter, 77.
61. Carter, 92.
62. Hirth, 1261.
63. *Ibid.*,
64. Darter, 93.
65. Polo, 170n.
66. Legendre, 107-10.
67. Sartou, 871, 876, Schneider, ii,
880.
68. Sartou, 183, 410.
69. Waley, *Chinese Painting*, 30.
70. Schneider, ii, 837.
71. Voltaire, *Works*, iv, 82, Hirth,
119, Wilhelm, *Soul*, 306.
72. Garrison, 73, Schneider, ii, 859,
Sartou, 810, 825, 342.
73. *Ibid.*, 436, 481, Garrison, 73.
74. Latourette, 813, Garrison, 75.
75. Williams, S. Wells, 785, Legen-
dre, 56.
76. Wilhelm *Short History*, 79, 81;
Smith, *Characteristics*, 290, 297;
Spengler, O., *Decline of the West*,
ii, 286, Granet, 163, Latourette,
ii, 168-5.
77. Smith, *Characteristics*, 392, Suzuki,
47, 112, 139, Wilhelm, *Short
History*, 69.
78. Hirth, 81.
79. *Ibid.*, 118, Smith, 164, 331.
80. Oarent, 321.
81. Wilhelm, *Soul*, 125.
82. Legge, *Tests of Taoism*, i, 41.
83. Suzuki, 72, Wilhelm, *Short His-
tory*, 248.
84. Waley, *Chinese Painting*, 28.
85. Potter, Chas. F. *History of Religi-
ion*, 198.
86. Wilhelm, *Soul*, 857, Murnoch,
iii, 104, Waley, 38-4, 79, Sartou,
470, Latourette, i, 171, 1214, ii,
154-5, G & H, 104, Schneider,
ii, 803.
87. Smith, *Characteristics*, 89,
Latourette, ii, 129, Parmelee, 81.
88. Smith, 304, Legendre, 191.
89. Wilhelm, *Short History*, 234,
Lorenz, 202.
90. G & H, 118, 527.
91. Fenollosa, ii, 149.
92. Voltaire. *Works*, xiii, 29.
93. Quoted by Wilhelm in Keyserling-
Book of Marriage, 137.
94. Mencius, IV, I, 26.
95. Latourette, ii, 197, Garnet, 321,
Williams, S. Wells, i, 836,
Legendre, 26.
96. Wilhelm, in Keyserling, 137.
Wilhelm, *Soul*, 22, Wilhelm,
Short History, 104, Smith, 213.
97. Granet, 245, Williams, S. Wells,
i, 836, Westermarck, *Moral
Ideas*, i, 462, Ellis, H., *Studies
in the Psychology of Sex*, vol. ii,
Sexual Inversion, 6f.
98. Briffault, iii, 845.

99. Ibid., Wilhelm in Keyserling, 126.
100. Williams, S. Wells, i, 834.
101. Brinkley, *China*, x, 101.
102. Polo, 184, 152, 235.
108. Parmelee, 182; Briffault, ii, 333.
104. Li-Po, 162.
105. Waley, 170 *Chinese Poems*, 19; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 97.
106. Hirth, 116.
107. Williams, S. Wells, 785.
108. Ibid., 787-90.
109. Wilhelm, in Keyserling, *Book of Marriage*, 184.
110. Briffault, ii, 263.
111. Williams, S. Wells i, 407-8.
112. Park, 133.
113. Wilhelm, *Short History*, 59; Wilhelm, in Keyserling, 123; Briffault, i, 362f.
114. Thomas, E.D., 134; Briffault, i, 368.
115. Granet, 43.
116. Briffault, ii, ii, 331.
117. Granmer - Byng, *The Book of Odes* 11; Gills, *History*, 108, 274.
118. Smith, 194, Sumner and Keller, iii, 1754, Legendre, 18.
119. *Li-Chi*, IX, iii, 7; Smith, 215; Sumner and Keller, ii, 1844.
120. In Briffault, ii, 331.
121. Waley, 170 *Chinese Poems*, 94.
122. Armstrong, 56.
123. Williams, S. Wells, i, 825.
124. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 89. Keyserling, *Travel Diary*, ii, 65, Smith, 192, Legendre, 122.
125. Wilhelm, *Soul*, 309.
126. Voltaire, *Works*, xiii, 19.
127. Brinkley, *China*, x, 37, 44, 49.
128. Smith, 225.
129. Thomas, E. D., 236, Williams, S. Wells, i, 504, Latourette, ii, 46.
130. Garrison, 75.
131. Williams, i, 391-2, Latourette, ii, 46.
132. Williams, ii, 512, Hirth, 125, Wilhelm, *Soul*, 19.
133. Brinkley, i.c., 3.
134. Ibid., 78.
136. Ibid., 92.
137. Williams, i, 544.
138. Legendre, 158, Hall, J. W., *Eminent Asians*, 35.
139. Williams, i, 569.
140. Latourette ii, 21; Brinkley, *China*, x, 86.

الباب السابع والعشرون

1. Latourette, i, 813.
2. Lorenz, 248.
3. Latourette, i, 814.
4. Lorenz, 248, G & H, 233.
5. Norton, H. K., *China and the Powers*, 55, Latourette, i, 367, Poffer, 57,
6. Latourette, i, 376, Norton, 56, 7, Park, 149.
8. Pfeffer, 88f, Latourette, i, 413.
9. G & H, 306.
10. Hall, *Eminent Asians*, 17, Pfeffer, 151.
11. Latourette, i, 411.

12. Hall, 33.
13. Pepper, 98
14. G & H, 314.
15. N.Y. Times, Feb, 11, 1934.
16. Eddy, *Challenge of the East*, 73.
18. Park, 86.
19. Latourette, ii, 93-6.
20. Eddy, 74.
21. Park, 89.
22. Eddy, 89.
23. Pepper, 241.
24. Pepper, 251.
25. *Modern Review*, Calcutta, May 1, 1931.
26. Pepper, 185.
27. Latourette, ii, 174.
29. Ibid., 176.
30. Parmelee 94.
31. Park, 135, Lorenz, 192.
32. Wu, Chao-chu, *The Nationalist Program for China*, 28.
33. Legendre, 240.
34. Park, 114.
35. Close, Upton, *Revolt of Asia*, 245.
36. Lorenz, 250.
38. Hu Shih, 8.
39. Ibid., 7

فهرس الأعلام

* هذه العلامة تدل على أن الاسم في هامش الصفحة
إذا لم يذكر لفظ قبل الميلاد مع التاريخ فعنى هذا أنه بعد الميلاد

(١٦٣٢ - ١٦٧٧) : ٥٨ ، ٣٤ :
أستراليا : ٣٠٦
استر تدبرج ، أوغست ، الأديب والكاتب
المسرحى السويدي (١٨٤٩ - ١٩١٢) :
١٥
الأسرة ، نظامها عند الصينيين : ٢٦٥ ،
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٣١٣
« الأسرة المقدسة » لرفائيل : ٢١٦
الإسكندر الأكبر : ١٠١
الإسلام في الصين : ٢٦٣
آسية وأسيويون : ٩ ، ١٢ ، ١٥٤ ، ٢٢٣ ،
٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٥١ ، ٣١٣ ، ٣١٧
أشتين ، سبر أورل : ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٧٧
أشور : ١١
أصباغ التجميل : ٢٣٣
الأغاني الغربية : ١٤٦
أغسطس ، كيوس قيصر . يوليوس
أكتافيانوس (إمبراطور الرومان) : ٣١
ق.م - ١٤ م) : ٢٠١
أفلاطون : ٢٨٢
الاقباط : ٢٣٦
الإقطاع : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٩٩ ، ١٣٨
٢٧٢
أكبر ، إمبراطور المغول : ١١٠
الأكروبول : ١٨٧

(١)

أپانيشاد : ٨٩ ، ١٦٠
إيسن : ٩٢
أبقراط الطبيب اليوناني (٤٦٠ - ٣٧٥
ق.م) : ٢٥٣ ، ٢٥٥
ابن السماء : ٢١
أبواب الجنة : ١٧٣
اتحادات العمال : ٣٠٩ ، ٣١٠
الأثاث عند الصينيين : ١٦٨ ، ٣١١
أثينة : ١١ ، ٧٠
أجور العمال في الصين : ٣٠٨ ، ٣٠٩
الأحاديث والمحاورات : ٥٠
الأخلاق عند الصينيين : ٢٧٤ وما بعدها
إخوة كرموف : ١٣٦
الأدب الصيني : ٢٤ ، ٢٥ ، ٤٩ ، ٥١ ،
١١٥ - ١٤٦ ، ٣١٦
الأراضي الوطیئة : ٢٠٣
أرستوجتون الوطني الأثيني (حوالى ٥٢٥
ق.م) : ٢١
أرسطو الفيلسوف اليوناني (٣٨٤ - ٣٢٢
ق.م) : ٥٩ ، ١٦٠ ، ٣١١
أرفيه ، أثوريه دورفيه ، الكاتب الفردي
(١٥٦٨ - ١٦٢٦) : ٢١٠
الأزليية ، الثقافة : ١٣٢
أسانيا : ١١ ، ١٧١ ، ٢٥١ ، ٢٨٩
سبنوزا ، بارونج الفيلسوف اليهودي

- أكريناس ، المديس تومس ، الإيطالى :
١٦٠ ، ١٦٤
ألمانيا ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
٣٠٤
الإمبراطورة الوالدة ، دزوتشى ٢٧١ ،
٢٩٩ ، ٣٠٠
الأمتحان للوظائف المدنية ١٤٩ ، ٢٨٢
وما بعدها ، ٣٠٠
أمريكا : ١٠ ، ١٧١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ،
٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،
٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩
أموى : ٢٩٠
أमितها حاكم الجبه عند الصينيين : ٢٦١
أميدا ١٧٣
أزام : ١٠٤ ، ٢٢٩
الانتصار عند الصينيين : ٢٠ ، ٢١
إنجلترا ٢٣٠ ، ٢٤٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
٢٩٧ ، ٣١٠
الإنجليز : ٢٢٠ ، ٢٩٠
أندرسن (جون) ١٣ ، ٢٩٠
أندروز ، روى تشايس : ١٣
إنسان فيكبن : ١٣
الإنسانيات . ١٥٨
الانقلابات فى الحضارة (كتاب) ١٠٩*
آن لو - شان ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
١٢١ ، ١٢٤ ، ١٤٧
أنو : ١٤ ، ٢٠٩
أوربا : ١٠ ، ١١ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٠٨ ،
١١٠ ، ١١١ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ،
١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٧١ ،
١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٤* ،
٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٨٨ ،
٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ،
٣١٤ ، ٣١٧
أورنجريب أو أورنكريب إمبراطور المغول
- ٢٢٩ . (١٦٥٨ - ١٧٠٧)
أوس سورى (هر) . ٢٩١
أوكتن ، دافيل ، الخطيب والسياسى الأيرلندى
(١٧٧٥ - ١٨١٧) : ٦٢
إلى حج : ٢٧ ، ٢٦٠
إيطاليا . ٩٨ ، ١٧٧ ، ٣١٦ ، ٣١٧
إيمالا كيرق : ١٩٢
(ب)
بابل : ٢١١
الباب المسوح . ٢٩٣ ، ٣١٧
الوامير : ٢١٩
بان چاو العالمه الصينيه : ٢٧٢
بان حو أوكو آدم الصينيين : ١٤
بان جو المؤرخ الصينى : (حوالى ١٠٠ م) ،
٢٧٢
بان هو بان العالمه الصينيه . ٢٧٣
باى القائد الصينى (حوالى ٧٠٠ م) ١٩٧
باى هو : ٣١٦ ق.م
بتشيل أوربيجيل ، خليج : ١٢
بحودا : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣
البحر المتوسط : ٧٠
البحر الأسود : ٢٢٧
البحر الأصفر : ١٢
البرتغال والبرتغاليون . ٢٨٩
برسوليس (المدايق) : ١٨٧
بركليز السياسى الأثينى : (٤٩٩ - ٤٢٩
ق م) : ٢٠١ ، ٢٥٢
برلين : ٩٤
برنكلى ، فرانك : ٢٩٦
البرونستنت والبرودنتية : ٢٩١
برودين ، ميخائيل القائد الروسى السوفيتى
٣٠٣ ، ٣٠٩
بروفن ، حوده ، من شعراء العصور
الوسطى (حوالى ١١٩٠ م) ٢٥١
بسنير ، لوى ، العالم الفرنسى (١٨٢٢ -
١٨٩٥) : ٢٥٥

بيان دزاي : ٢٨٩
بيان ليانج (كايفنج) : ٢٥٣
بيجنج انظر بيجنج وبيكنج وبيكين
بيترى ، سيروليم فلدرز ، عالم الآثار : ١٠٩ *
بي شنج المصور الصيني (حوالي ١٠٤٢) :
١٥٧
بي كان : ١٨
بيكن ، روجر : ٢٥٢
بيكن فرييس فيكونت سنت أولبر
الفيلسوف والسياسي الإنجليزي : (١٥٦١-
١٦٢٦) : ٨٦ ، ١٩٣ *

(ت)

التاريخ عند الصينيين . ١٣٧ وما بعدها
تاريخ الفلسفة الصينية : ٨٢١
تاكى زوجة چوسين (حوالي ١١٣٥) : ١٨
تانج ، أسرة : ٩٦ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ *
١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٦٧ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٣ ،
١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢٤١ ،
٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤
تانبوت : ٢١٩
تأئيس الحيوان : ١٥
تاي پنج ، فتية : ١٨٦ ، ٢١٤ ، ٢٩١
٢٩٢
تاي چي ، الحقيقة المطلقة : ١٦١
تاي دزو الإمبراطور (٩٦٠ - ٩٧٦) :
١٤٧
تاي دزونج الإمبراطور (٦٢٨ - ٦٥٠) :
٦٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٨٩ ، ٢٦٤
تاي دزونج الإمبراطور من أسرة سونج
(٩٧٦ - ٩٩٨) : ١٥٩
تاي دزونج إمبراطور كوريا (القرن الخامس
عشر) : ١٥٧
تاي شان ، الجبل المقدس : ٢٦٢

بسطن ، متحف الفن الجميل . ١٧٦
بسكال ، بلز ، الفيلسوف والعالم الرياضي
الفرنسي (١٦٢٣ - ١٦٦٢) : ٧١
بسمرك ، تونهوزن أتودورد ليوپولد ،
الأمير فن بسمرك السياسي البروسي : ٩٨ ، ٨٦
بطرس الأكبر قيصر روسيا (١٦٨٢ -
١٧٢٥) . ١١ ، ٩٤
بلافيه . ٢١٩
بلخ . ٢١٩
بستريينا ، جيوفني بير لويجي دا ، الملحن
الإيطالي (١٥٢٤ - ١٥٩٤) . ١٤٥
البلقان . ١١
بليوت ، ب : ١٧٧
بنارس . ٧٠
بنج هوانج : ١٣١
البندقية . ١١ ، ٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
٢٢٧ ، ٢٣٢
بو ، إدجر ألن ، الأديب الأمريكي (١٨٠٩ -
١٨٤٩) : ١٩٦
بوچوى ، الشاعر السياسي الصيني (٧٢٢ -
٨٤٦) : ١٣٠ ، ١٣٥
بوذا . ٨٩ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٧٧ ،
١٨٠ ، ١٩٦ ، ٢٦٢
البوذية : ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٩ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ،
١٥٨ ، ١٥٨ * ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،
١٨١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣١١
البوصلة البحرية : ٢٥١
بولو ، ماركو ، الرحالة البندقي (١٢٥٤ -
١٣٢٤) . ١٥٦ ، ١٨٣ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ * ، ٢٢٨ ،
٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦٧
چوني ، كانج ده إمبراطور منشوكو وآخر
أباطرة الصين (ولد عام ١٩٠٦) . ٣٠٠
٣٠٤ ، ٣٠١

تشو بنج الشاعر الصيني (المتوفى حوالى ٣٥٠ ق . م) : ٩٦
تشوفو ١٩٣ ، ٤٠٠ *
تشى ، دوق (حوالى ٥٢٠) : ٤٥
تشى ، ولاية : ١٩ ، ٢٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٧ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٩٧ ، ٢٦٧
تشين ، أسرة . ١٠٣
تشين ، الملكة والدة شى هوانج دى . ١٠٠
تشين ، ولاية : ١٩ ، ٨١ ، ٩٧ ، ١٩١ ،
تشين لونج : ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ٢١٤
تعدد الزوجات فى الصين ٢٧٠ - ٢٧١ ،
٣١٤
التعدين فى الصين : ٢٢ ، ٢٥٢
التعذيب فى الصين : ٢٧٩ - ٢٨٠
التعليم الأكبر : ٥١
التعليم فى الصين : ٢٧٢ ، ٢٨٢ وما بعدها ،
٢٩٥ ، ٣٠٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥
التقويم عند الصينيين : ٢٥٣
التمائل الأعظم : ٦٣
التمثيل عند الصينيين : ١٤٢ وما بعدها
تم چوانز : ١٣٧
تنج يو . ٢٩٠
تنج درونج : ٢٢٣
تنج سى سقراط الصين . ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠
تنجوت . ٢١٩
تولستوى ، الكونت ليو يقولايتش
الكاتب والمصاح الروسى (١٨٢٨ -
١٩١٠) : ٩٥
تومس ، إلبرت : ٩٤ *
تونج چو : ١٩١
تونج جى چانج : ١٩٥
تون شاو : ٢٩٦ *
تون هوانج : ١٥٥

النبث : ٢٢٩ ، ٢٨١
التار : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ،
٢٢٦ ، ٢٣٤
التجارة الخارجية الصينية . ٢٤٨ وما بعدها
ترجينف ، إيفان ، الكاتب الروائى
المسرحى الروسى (١٨١٨ - ١٨٥٣) :
٥٨
الترك . ٢١٠
التركستان : ١٤ ، ١٠٤ ، ١٥٥ ، ١٨٠ ،
٢٢٩ ، ٢٤٨
تركيا . ١١٢
تزه تشى ، الإمبراطورة الوالدة : (١٨٣٤ -
١٩٠٨) : ٢٩٤ ، ٢٩٥
تزه كونج تلميذ كنغوشوس ٤٨ ، ٤٩
٥١ ، ٥٣ ، ٥٤
تزه لاي ٩٢
تزه لونج تلميذ كنغوشوس (٥٠٠ ق م)
٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ،
٥٤ ، ٥٤
تسوا المائد الصينى (حوالى ٧٤٠) : ١٣١
تسى ، دوق (انظر تشى)
تسى ، ولاية (انظر تشى)
نسى لونج مخترع البرق (حوالى ١٠٥) :
١٥٣ - ١٥٤
تسين (انظر تشين)
تشانجيان أونشونج آن : ١٥٣ *
تشانج هنج : ٢٥٣
التشريع عند الصينيين : ٢٥٣ ، ٢٥٤
تشنج (انظر أسرة المنشو)
تشنج دار : ١٠ *
تشنج دزو الإمبراطور (١٤٠٣ - ١٤٢٥)
١٨٣
تشنج رانج الإمبراطور : ٢٥١
تشو ملكة : ٩٧

الجبر : ۲۵۲ ، ۲۵۳
 جبن ، إدورد المؤرخ الإنجليزى (۶۷۳۷)
 - (۱۷۹۴) : ۱۳۹
 جرافت ، مارسل . ۱۰۴ *
 جريشام ، قانون . ۲۱۶
 الجزويت اطر اليسوعيين
 الجزيرة أو أروص النهرين . ۱۴
 الجغرافيا عند الصينيين . ۲۵۲
 چف ، ا . السياسى الروسى (المتسوفى
 سة ۱۹۲۸) . ۳۰۲
 چج ، دوقية . ۲۰ ، ۲۹
 چجبر خان أو چنكيز خان الفاتح التتارى
 (۱۱۶۴ - ۱۲۲۷) . ۲۲۳
 چنج دا - چن : ۲۱۰ ، ۲۱۱ ، ۲۱۳ ،
 ۲۹۱
 چج دزه أو ينج تى ، نهر : ۲۹۲
 چنج دى الإمبراطور (۱۴۵۰ - ۱۴۵۷)
 ۲۱۳
 حنذار : ۱۷۷
 چنوى . ۲۱۹
 چو ، أسرة : ۱۸ ، ۲۱ ، ۲۷ ، ۳۹ ،
 ۱۴۲ ، ۱۷۲ ، ۱۹۱ ، ۲۵۳ ، ۳۷۶
 جو ، دوق . ۲۱ ، ۴۵ ، ۷۴ ، ۷۵ ،
 ۸۳ ، ۲۵۱
 جو ، ولاية : ۱۸ ، ۳۸ ، ۷۲ ، ۷۵ ،
 ۹۷ ، ۱۲۵
 حوان حوتج كبير وزراء تشى : ۱۹ ، ۲۰ ،
 ۲۶۷
 جوانج تسو ، الإمبراطور (۱۷۷۵ -
 ۱۹۰۵) . ۲۷۰ ، ۲۹۴ ، ۲۹۵ ، ۳۰۰
 جوانج دزه ، الفيلسوف الصينى (والد حواله
 ۳۷۰ ق . م) : ۳۰ ، ۱۹۶ ، ۲۶۰
 جوان ين ۱۷۴

تيان هو : ۱۲
 فى درونج ۱۴۱۰
 تيلر ، بروت : ۱۳۷ *
 تيعن الأثينى . ۸۹
 تين ، هموليت أدولف ، الناقد الفرنسى
 (۱۸۲۸ - ۱۸۹۳) . ۱۳۹
 تينتسن أو تيتشيس أو تياننتسين : ۲۲۵ ،
 ۲۴۷ ، ۲۹۲

(ث)

ثاى بوجنج ، فينوس الصينيين . ۱۱۶
 الثروة عند الصينيين ۱۱۱ وما بعدها ،
 ۳۱۵ ، ۳۱۹
 الثمانية الخالدون أصحاب الكأس . ۱۱۹
 الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعى . ۲۴۶
 ۲۸۹ ، ۲۸۸ ، ۲۵۲
 الثورة الصينية : ۱۲ ، ۸۳ ، ۲۹۹ -
 ۳۰۱ ، ۳۱۲ ، ۳۱۴ * ، ۳۱۵
 ثورة الملاكين : ۱۵۹ ، ۱۹۱ ، ۲۸۲ * ،
 ۲۰۵
 ثوكبديس ، المؤرخ اليونانى (حوالى
 ۴۷۱ - ۳۹۹ ق . م) ۱۳۹

(ج)

چاواى . ۳۰۵
 جاردنر مجموعة حاردرن فى بسطن : ۱۷۶
 چان بنج السياسى الصينى (حوالى ۵۰۰ ق . م)
 چانج تسانج العالم الرياضى الصينى (المتوفى
 سنة ۱۵۲ ق . م) : ۲۵۲
 چانج چونج ننج : ۲۵۴
 چانج هنج العالم الفلكى الصينى : ۲۵۱
 چانج ين - يوان ، مؤرخ الفن الصينى
 (القرن التاسع بعد الميلاد) : ۱۹۳
 چان سو
 چان يوان فانج الكاتب فى الطب : ۲۵۴

جونی ، صحراء : ۲۱۹ ، ۲۲۳

جوتاما ، انظر بوذا

جوتنبرج ، چوهان ، مخترع « الطباعة

(۱۴۰۰ - ۱۴۶۸) : ۱۵۸

جودزو ، الإمبراطور (۲۰۶ - ۱۹۴

ق.م) ۱۰۳

جودزو ، الإمبراطور (۶۱۵ - ۶۲۷

ق.م) : ۱۰۹

چورج الثالث ملك بريطانيا (۱۷۶۰ -

۱۸۲۰) : ۲۳۰

جورو ۴۲۰

چوسين ، نيرون الصين (۱۱۵۴ -

۱۱۲۳ ق.م) : ۱۸

چوشى الفيلسوف الكنفوشى (۱۱۳۰ -

۱۲۰۰) : ۵۱ ، ۸۳ ، ۱۵۰ ،

۱۶۰ ، ۱۶۱ ، ۱۶۲ ، ۱۶۴ ، ۱۶۵ ،

۱۹۴ ، ۲۶۲

چولى : ۲۱

چون ، الأمير نائب الإمبراطور : ۳۰۰

چونج جو أو الدولة الوسطى : ۱۲ ، ۱۶

چونج دزه ۸۶۰ ، ۸۷ ، ۸۸ ، ۸۹ ،

۹۰ ، ۹۲ ، ۹۳ ، ۹۴

چونج دو : ۴۶

چونج سون لونج الحكيم الصينى (حوالى

۴۲۵ ق.م) : ۷۲

چونج - هوا - مين - چوو الاسم الصينى

لبلاذ الصين : ۱۲

جوو دره إلى القائد الصينى (حوالى ۷۵۵) :

۷۰ ، ۱۲۴

جوو شى المصور الصينى (ولد حوالى ۱۱۰۰)^۱

۱۹۹

جوو كاي چى چه المصور الصينى : ۱۹۲

جوو كى المصور الصينى (حوالى ۳۶۴) :

۱۹۳

جويينج فو : ۲۲۳

چيانج كاي شىك دكتاتور العيين السابق

(۱۸۸۸) : ۳۰۳ وما بعدها ، ۳۰۹ ،

۳۱۲ ، ۳۱۷

چياه تشنج ، الإمبراطور (۱۷۹۶ -

۱۸۲۱) : ۱۷ ، ۷۴ ، ۷۵ ، ۱۸۱

چياه لنج ، نهر : ۱۹۷

چياو چو : ۳۰۴

چيته ، چوهان ولفجانج فن ، الشاعر

والفيلسوف الألمانى (۱۷۴۹ - ۱۸۳۲)

۹۵

چيدورنى ۲۱۶

چيل بلاس : ۱۳۷

جيزل ، ا. ه. : عالم اللغة الصينية (۱۸۴۶

- ۱۹۳۵) : ۱۰ ، ۳۰

جيپول : ۲۹۴

(ح)

الحقائق فى الصين : ۱۲

حديقة شجرة الكثرى : ۱۱۲ ، ۱۴۲

حرب الأفيون الأولى : ۲۹۰ ، ۲۹۱

حرب الأفيون الثانية : ۲۹۲

الحروب الصليبية : ۲۱۰

الحريم عند الصينيين : ۲۶۹ ، ۲۷۰

الحكام الخمسة : ۱۵ ، ۱۶

الحكم الماسية : ۱۵۵

الحكومة فى الصين : ۲۷۷ وما بعدها .

حلم الغرفة الحمراء : ۱۳۶

الحلى عند الصينيين : ۱۶۸ ، ۱۶۹

حوليات الأباطرة : ۱۳۸

حوليات الربيع والحريف أو التشو چنج : ۴۹

حوليات كتب الخيزران أو الغاب : ۱۳۷

(خ)

خراسان : ۲۱۹

الخزف الصينى : ۲۰۷ وما بعدها : ۲۵۱

الخطا : ۲۱۷ انظر أيضاً الصين

الدين عند الصينيين ٢٥٦٠ وما بعدها : ٣١٣
ديو وي چون الفيلسوف الأزيكي : ٣١٧

(ر)

ربرت هارت ٢٨٧٠
رسل ، رتراند ، إيرل : ٣١٧
رفائيل ، ستيزيو المصور الإيطالي (١٤٨٣ - ١٥٢٠) : ٢١٦ ، ٢٠١
الرقص عند الصينيين : ١٤٢ ، ١٤٥
الرقب في الصين : ٢٨
ركفلر ، چون : ٣١٦ ، *
روسو ، چان بياك ، الفيلسوف الفرنسي (١٧١٢ - ١٧٧٨) : ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٢٠٦
الروسيا : ١١ ، ١٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٢ ، ٣١٣
رومة والرومان ١١ ، ٩٨ ، ١٨٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٢
الرياضيات عند الصينيين ٢٥٣ ، ٣١٥

(ز)

الزراعة عند الصينيين : ٢٤٠ وما بعدها : ٢٥٢
الزنا عند الصينيين ٢٦٧
زندو : ٢١٩ ، *
زهاي : ١٢
الزواج عند الصينيين : ٢١٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٣١٤
زوما نشين المؤرخ الصيني (ولد عام ١٤٥ ق . م) : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٩٧ ، ١٠٤
١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩
روما جوانج أوكوانج : ١٣٩ ، ١٥١
زينون : ٧٠

(س)

سان چو وچي يان إي : ١٣٦

الخليج الفارسي : ٢١٩
خو : ٨٧
خونان : ٢١٩
غيان : ٨٢

(د)

دائرة المعارف البريطانية : ١١٢
دارون ، تشارلس ربرت العالم الإنجليزي : (١٨٠٩ - ١٨٨١) : ٩١
الدا - شوه أو التعليم الأكبر : ٥١
داوتشين ، الشاعر الروائي : ١٢٩
دجلة : ٢٠٩
دزانيج - دزي : ٢٧٥
دزو تشونج چي العالم الرياضي الصيني (٤٣٠ - ٥٠١) : ١٢٢ ، ٢٥٢
دزو جوان : ١٣٧ ، ١٤٥
دزونج تسان من تلاميذ كنغوشيو (حوالى ٤٩٠ ق . م) : ٥١
دمشق : ٢٠٩
الدمنيك : ٢٦٤
دنچ دوق لو (حوالى ٥٠٠ ق . م) : ٤٦
الدو والدی : ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٢٥٧
دودي چنج : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٨
دور الكتب في الصين : ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٥٢
دو فو الشاء الصيني (٧١٢ - ٧٧٠) : ١١٨ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٩٣ ، ١٩٤
دو هونج چنج الكتاب الصيني (القرن السادس) : ٢٥٤
الدوية (يكتبها بعضهم الطاوية) : ٣١ ، ٣٠ ، ٦٦ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٦٠ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
ديندرو ، دنش ، العالم الفرنسي (١٧١٣ - ١٧٨٤) : ٩٠

(ش)

- شان ولاية : ٧٤
 شان تونج أو شان دونج : ١٩ ، ١٣٢ ،
 ١٦١ ، ١٧٦ ، ٢٩٣
 شانج أسرة : ١٧ ، ٢٤ ، ٦٠ ، ١٧١ ،
 ٢٣٦ ، ٢٠٩
 شانج ولاية : ٧٥
 شانجان : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧
 شانجتو : ٢١١ ، ٢٢٢
 شانج — قى أى القوة العليا : ٢٥٩
 شانج چو : ٧٤
 شانسى : ١٩ ، ١٧٧
 شباب حديقة شجر الكثرى : ١٤٢
 شتوبريان ، فرنسوا أوجست ، فيكونت
 الأديب الفرنسى (١٧٦٨ — ١٨٤٨) :
 ٢٠٦
 الكى الأدنى : ٢٠٩ ، ٢١٢
 الكى الأقصى : ١ ، ١٩ ، ٦٦ ، ١٢٦ ،
 ١٥٧ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢
 الشمر عند الصينيين : ٢٤ — ٢٦ ،
 ١١٥ — ١٢٨
 الشنج ، أسرة (انظر أيضاً المنشو) : ٢٢٩
 شن تزو قيع إمبراطور الصين : (١٥٧٣ —
 ١٦٢٠) : ٢١١
 شن سى ولاية : ١٩ ، ١٧٧
 شنغهاى : ٢٤٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٩
 شنكيانج : ٢٩٠
 شن نونج ، الإمبراطور (٢٨٣٧ —
 ٢٦٩٧ ق.م) : ١٥
 الشوءات الأربعة : ٢٥٠
 شوان ملك تشى : ٨٢ ، ٨٣

- السترا الماسية ، انظر الحكيم الماسية
 السجل التاريخى . ١٣٨
 سترمن رأى : ٢٠٩
 سنسوان : ١٢٦ ، ١٩٧ ، ٦٠
 السفن وصاعتها فى الصين : ٢٥١
 سقراط الفيلسوف اليونانى : (٤٦٩ — ٣٩٩
 ق.م) ٣٧ ، ٤١
 السكان وعددهم فى الصين : ٢٣٢ ، ٣١٥
 الكوذيون : ١٤
 سليمان الرحالة المسلم : ٢٠٩
 سمرقند : ١١٢
 السنج ، أسرة : ٢٢٨
 سن جيانج أو من كيانج : ٢٨١
 السنسكرىتية ، اللغة : ١٥٤
 سن تونج . ١٥
 السور العظيم : ٣٤٨
 السوس : ١٤
 السوفيت : ٣٠٢
 سومر : ١٣
 سوطرة : ٢٥١
 سون إيوسو : ١٨١
 سونج ، أسرة : ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
 ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،
 ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤
 سونج الرقيب الصينى (حوالى ١٨٠٠) :
 ٢٨١
 سونج ولاية : ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٦
 سونج كالفج داعية السلام الصينى (حوالى
 ٣٢٠ ق.م) : ٨١
 سون شان ، جبل : ١٨١
 سون شو . ٢٥١
 سى آن فو أو سيان فو : ١٠٣
 سيبيريا . ١٣

صناعة الخزف عند الصينيين : ٢٠٧ وما بعدها
صناعة الورق عند الصينيين : ١٥٢ وما بعدها
صولون : ٢٣
صون يات صن أو شون لون رئيس الجمهورية
الصينية السابق (١٨٦٦ - ١٩٢٥) :
٢٩٨ وما بعدها ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ،
الصين ٩٠ - ١٤ ، ١٧ - ١٩ ، ٢٣ ،
٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٧ ،
٧٤ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٣ -
١٠٠ ، ١٠٣ - ١١٢ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٦ ،
١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ،
١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، *
٢٢٠ ، ٢٢٢ - ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،
٢٤٢ - ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،
٢٥٤ - ٢٥٩ ، ٢٦٢ - ٢٦٥ ،
٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ،
٢٨٠ - ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ -
٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،
٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ،
٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩

(ض)

الضرائب في الصين : ١٠٣ ، ٣٠٨ ،
٣١٠ ، ٣١٨

(ط)

الطب عند الصينيين : ٢٥٣ وما بعدها : ٣١٥
الطباعة عند الصينيين : ١٥٢ وما بعدها : ٢٥١
الطبيعة (علم) عند الصينيين : ٢٥٣
طرزون . ٢٢٧
طعام الصينيين : ٢٤٢

شونج : ١٣٧ ، ١٠٠
شونج السياسي الصيني المتطرف (حوالى
٣٠٠ ق.م) : ١٨
شون ، الإمبراطور (٣٢٥٥ - ٢٢٠٥
ق.م) ١٧ ، ٤٤ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ١٨٩ ،
شون دزه ، ٧٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
٨٨
شون دزو رسول الشر (٣٠٥ - ٣٣٥
ق.م) : ٦٨
شى آن دزونج الإمبراطور (٨٠٦ - ٨٢١)
٢٤٩
شى آن فنج إمبراطور الصين (١٨٥١ -
١٨٦٣) : ٢٩٤
شيا هـ ٢٠٣
شى چنج : ١٠٠
شى شه : ٩١ *
شيكسبير . ٨٩ *
شيه حواى : ٢٠٠
شين ، أسرة ٢٤٩
شين دزونج : ٢٤٩
شين لونج : ٢٣٠
شين هوانج دى ، الإمبراطور (٢٢١ -
٢١١ ق.م) : ٦٦ ، ٧٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ،
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،
١٥٣ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ،
٢٥٥

شيو دزاي : ١٠٠

شيونج نو : ١٠٧

(ص)

صقلية . ٢٤٤
صلاح الدين الأيوبي : (١١٣٧ - ١١٩٣)
٢٠٩
الصناعة عند الصينيين : ٢٤٤ وما بعدها :
٢٥٥ ، ٣١٥

الفيلين ، جزائر : ٢٨٩ ، ٢٩٣
 فلتير ، فرنسوا ماري أرويه ده ، الكاتب
 الفرنسى (١٦٠٤ - ١٧٧٨) : ٩٠٩ * ،
 ٧٨ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٧
 الفلسفة الصينية : ٢٦ - ٢٩ ، ٣٠ -
 ٤٠ ، ٤١ - ٤٢ ، ٤٣ * ، ٥٢ -
 ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ -
 ٧٧ ، ٨٠ - ٩٥ ، ١٥٩ - ١٦٥ ،
 ٢٥٦ - ٢٦٣ ، ٣١٦
 الملك عند الصينيين : ٢٥٣
 الفن عند الصينيين : ١٨٨ وما بعدها ٣١١
 فنج دو السياسى الصينى ونصير الطباعة
 (حوالى ٩٣٢ م) ١٥٦ ، ١٥٨
 فنج شيانج ١٤٠
 فنشى ، لورنزو دا ، الفنان الإيطالى
 (١٤٥١ - ١٥١٩) : ٢٠١
 فنولوزا ، إيرنست : ٢٠١
 فوتشو : ٢٩٠
 فوشوان الشاعر الصينى : ٢٧٣
 فوشى ، إمبراطور الصين الأسطورى (٢٨٥٢
 ٢٧٣٧ ق.م ؟) : ١٥ ، ٢٧ ، ١٤٥
 فنج دو السياسى الصينى ونصير الطباعة
 (حوالى ٩٣٢) : ١٥٦ ، ١٥٧
 فيثاغورس ، الفيلسوف اليونانى (القرن
 السادس ق.م) : ٢٤

(ق)

القاعدة الذهبية : ٥٨
 القانئون عند الصينيين : ٢٠ - ٢١ ، ٢٧٩
 القانونيون ، أو المشترعون الصينيون ٦٥-
 ٦٦
 القسطنطينية : ٢٤٤
 قصة ، حواشى الماء : ١٣٦
 قصر الصيف : ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٤٧ ، ٢٩٢
 القمص الصينى : ١٣٥ ، ١٣٦

الطلاق عند الصينيين . ٢٧١ ، ٣١٤ *
 وما بعدها
 الطهو عند الصينيين : ٢٤٢

(ع)

عامور ٢٢٨ ، ٢٩٢
 عبادة الأسلاف عند الصينيين : ٢٥٧ ، ٣١٢
 العرب ، وبلاد العرب : ١٥٣ ، ١٧٠ ،
 ٢٥٠ ، ٢٥١
 العشاء الأخير (دافنشى) : ١٩٦
 العقاب عند الصينيين : ٢٧٩
 عقيدة الوسط أو چونج يونج : ٥١ ، ٦١
 حكا : ٢١٩
 علم الصحة عند الصينيين : ٢٥٤ ، ٢٥٥
 علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين : ١٦٠
 العلوم الطبيعية عند الصينيين : ٢٥٠ -
 ٢٥٥ ، ٣١٥

(غ)

غبرقى ، لورنزو المثل الإيطالى (١٣٧٥ -
 ١٤٥٥) : ١٧٣

(ف)

فارس : ٢٨ ، ١١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ ،
 ٢٤٨
 فرجسون ، المهندس المعمارى الاسكتلندى
 الإخصائى فى الهندسة التاريخية (١٨٠٨
 ١٨٨٦) : ١٨٠
 فردريك الثانى ، الأكبر ملك بروسيا
 (١٧١٢ - ١٧٨٦) : ٩٤
 الفرس : ٢١١
 فرساي : ١١٣
 فرموزا : ٢٨٩ ، ٢٩٣
 فرنسا : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١١
 الفرنسيسكان : ٢٤٦

كرخان ، ليو ، السيامى الروسى ٣٠٢

الكرنك : ١٨٧

كروس ، بندانو : ١٩٧ *

كليافو . ٢١٦

كل الناس إحوة : ١٣٦

كلود لورين ٢٠٦

كبلوك : ٢٢٢ ، ٢٥٠ ، انظر أيضاً بيجنج

كنشكا ملك الكوشان (حوالى ١٢٠) :

٢٦١

كنفوشيوس : ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ،

٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ،

٣٨ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،

٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ،

٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

١٠١ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ،

١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،

٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣١١

٣١٥ ، ٣١٧

الكنفوشية الجديدة : ٦٦

كهف ألف بوذا

كوبلاى خان ، إمبراطور الصين : (١٢٦٩

— ١٢٩٥) : ١٤٢ ، ١٨٣ ، ٢٢٠ ،

٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،

٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ ،

كوريا : ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

٢٢٩ ، ٢٥٠

كولردج ، صمويل تيلر ، الشاعر والناقد

الإنجليزى (١٧٧٢ — ١٨٢٤) : ٢١٩

كوليس المستكشف الإيطالى (١٤٥١ —

١٥٠٦) : ٢٨٩

قصص عجيبة : ١٣٦

القناة العظمى (بين نياتسين ومنج تشاو) :

٢٢٥ ، ٢٤٧

(ك)

الكاتب فى الصين : ١٨٩ *

كاثلى ، انظر الخصاص

الكانوليك : ٢٦٤ *

كارليل : ١٣٩

كاشغار أو قشغر : ٢١٩

كانت عمانويل الفيلسوف الألمانى : (١٧٢٤

١٨٠٥) : ٥٨

كانتون : ٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٥١ ، ٢٨٩ ،

٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،

٣٠٥

كانج شى الإمبراطور (١٦٢٢ — ١٧٢٢)

١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢٢٩٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٦٤ *

كانسو : ٢٠٨

كايا كويد العالم الصينى (القرن الأول

الميلادى) : ٥١

كتاب الاحتفالات : ٢٠ ، ٤١ ، ٢٧٥

كتاب الأناشيد أو الأغاني أو الشى چنج

١٩ ، ٢٤ ، ٤٩ ، ٦٠

كتاب التاريخ أو الشوجنج : ١٦ ، ٥٠ ،

١٣٧

كتاب التغيرات أو الإي چى : ٢٥ ، ٢٧ ،

٢٨ ، ٤٩ ، ١٦١

كتاب الحكم الماسية : ١٥٥

كتاب الطريقة والفصيلة : ٣٠

كتاب الطقوس أو المراسم ، الى چى ،

٤٩

كتاب اليا تزه أو الليه دزه : ٢٩ ، ٥٤

كتاب مئيش : ٥١ ، ٧٧

الكتابة عند الصينيين : ١٨٨ ، ٢٣٧ —

٢٣٩ ، ٢١٦

لو ، ولاية : ٢٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٢٢
 لو دزه الحكيم الصيني (٦٠٤ - ٦٥٧ ق.م) : ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٧٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦١
 لو شي يو فو البطل الصيني (المتوفى عام ١٢٦٠ م) : ٢٢٥
 لوفيج من : ١٧٧
 لون بو : ٥
 لوهان : ١٩٩ ، ٢٦٢
 لويانج : ٢٢ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ١٠٥ ، ١٩١ ، ١٩٦
 لويس الرابع عشر ملك فرنسا : ٢١٣ ، ٢٢٩
 لي اسم لو دزه الحقيقي : ٣٠ ، ١١٥ ، ١١٦
 لي المصورة الأسطورية : ١٨٩
 ليانتيج ، جزيرة : ٢٩٣
 ليانج كاي المصور الصيني (حوال ٧٥٠ ق.م) : ٢٠١
 لينج : ٩٥
 لينتزر ، جتفرايد وليم بارون فن ، الفيلسوف والعالم الرياضي الألماني (١٦٤٦ - ١٧١٦) : ٩٣ ، ٩٤ ، ٢٣٩
 لي يو : ٢٠١
 لي يو الشاعر الصيني (٧٠٤ - ٧٦٢) : ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥
 لي جي أو كتاب المراسم : ١٤٩
 لي وجي أي القانون والمادة : ١٦١
 لي سوشون المصور الصيني (٦٥١ - ٦١٧ ق.م) : ١٩٥

كونج ، أسرة : ٤٠
 كونج جي الحكيم الصيني ، تلميذ كنفوشيوس (حوال ٤٧٠ ق.م) : ٥١
 كونج درفو ، السياسي الصيني (حوال ١٠٣١) : ١٤٢ ، ١٤٣
 كونج شي ، انظر كنفوشيوس .
 كونج فود زه ، انظر كنفوشيوس
 كيتانز : ١٤٢ - ١٤٣
 كيتس ، چون ، الشاعر الإنجليزي (١٧٩٥ - ١٨٢١) : ١٢٩
 كيسر لينج ، كونت هيرمن : ٩
 كي كانج تلميذ كنفوشيوس (حوال ٥٠٠ ق.م) : ٩١
 كي لو تلميذ كنفوشيوس (حوال ٥٠٠ ق.م) : ٥٤
 كيو لو : ١٩٦

(ل)

لا ثورت . ك. س : ٢٨٩
 لاندر ، ولتر ستدج ، الأديب الإنجليزي (١٧٧٥ - ١٨٦٤) .
 لبنان : ٢١٩
 ليج ، جيس ، المستشرق الإنجليزي (١٨١٥ - ١٨٩٧) : ٣٠ ، ٥١
 اللجنة الطبية الصينية : ٣١٧
 اللغة الصينية : ٢٣ ، ٢٣٥ ، ٣٣٩
 اللك وصناعاته : ١٦٨ وما بعدها .
 لن تزه شو : ٢٩٠
 لنج جاو السيدة الصينية البوذية المتصوفة (القرن الثامن) : ٢٠١
 لندن ١٩٠٩ ، ١٩٩
 لو الإمبراطور (١٩٥ - ١٨٠ ق.م) : ٢٧١
 لو والد شي هوانج دي (حوال ٢٢٢ ق.م) : ٩٧

مانجو ، شان المغول الأعظم (١٢٥٠ -

١٢٥٩) : ٢٢٣

ماهايانا . ١٦٢ ، ١٧٧ ، ٢٦١

ماي لان فانج ، الممثل الصيني (القرن

المشرون) : ١٤٤٠

مايوآن ، المصور الصيني (حوالى ١٢٠٠)

٢٠٠

المتحف الأهلى بباريس : ١٧٩

المتحف الإبريطانى : ١٩٣ ، ١٩٦ *

متحف الفن الجميل فى بسطن : ١٩٨ ، ٢٠٠ *

المتحف الفنى بنيويورك : ١٧٧ *

متحف واشنطن : ١٩٣ ، ١٩٦ *

(١٤٤٧ - ١٤٩٢) : ٢١٠

المرأة أو النساء فى الصين : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

٣١٤ ، ٣١٥

مردك ، چيمس : ١١٢

مسكو : ٩٤

المسيح : ١٣٨ ، ٣٧٤ ، ٣٥٠ ، ٢٠٩ *

٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤

المسيحية : ٣٠ ، ٦٧ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ،

٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٢

مصر والمصريون : ١٣ ، ٩٨ ، ١٥٣ ،

٢٠٩ ، ٢١٠ *

المطالب الواحدة والمشرون : ٣٠٤

المغول : ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٧٨ ، ٢١٢ ،

٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٢٤ ،

٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩

المقالات الصينية : ١٣٩ وما بعدها

مكاو : ٢٨٩

المكتبة الأهلية بباريس : ٢٣٠

المكسيك : ١٧١

الملايس- عند الصينيين ٣٣٤ وما بعدها ،

٣١١

الملايو ، شبه جزيرة : ٢٢٧ ، ٢٤٨ ، ٢٨٩

ملتن ، جون ، الشاعر الإنجليزى (١٦٠٨

١٦٨٤) : ١٢٦ ، ١٢٧

لى سيو السياسى الصينى (حوالى ٢١٥

ق.م) : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣

لى شى (انظر كتاب الاحتفالات)

لى لنيج ، أمير يونج (حوالى ٧٥٦) : ١٢٣

١٢٤

لى لونج من ، المصور الصينى (١٠٤٠ -

١١٠٦) : ١٩٩

لين دزو شو ، السياسى الصينى (١٨٣٨) :

٢٩٠

لينان أولين آن (هانج تشاو) : ١٥٢

ليه دزه : ٢٩ ، ١٩٦

لى هو جو ، الإمبراطور (حوالى ٩٧٠) :

٢٣٤

لى هونج جانج السياسى الصينى (١٨٢٣ -

٢٩٠١) : ٢٩٩ ، ١٥٨

ليو : ١٠٧

ليوبولد الأول إمبراطور الدولة الرومانية

المقدسة (١٦٥٨ - ١٧٠٥) : ١٧٠

ليو جاي جى لى : ١٣٦

ليو لنيج : ١١٩

ليوناردو دافنشى : ٢٠١

لى يه لى المصور الصينى (القرن الأول) :

١٩١

لى يو : ١١١

(م)

مافيو : ١٤

ماكارتى ، جورج إيرل ماكارتنى السياسى

البريطانى (١٧٣٧ - ١٨٠٦) :

٢٣٠

ماكارتنى ، بعثة : ٢٣٠ ، ٢٣١

المالية فى الصين : ٢٤٩ ، ٢٥٠

مانج ، أسرة : ٧٧

مانج دزه ، مانج كو ، انظر منشييس

مانج هى السياسى الصينى (حوالى ٥٠٠

ق.م) : ٤٥

ميديشي ، أسرة ٢٠١ ، ٢٧١
ميديشي ، لورنزو سياسي فلورنس وشاعرها
مى فائى المصور الصينى (١٠٥١ - ١١٠٧)
١٩٩
ميكل أنجو ، (لوانارقي) الفنان الإيطالى
(١٤٧٤ - ١٥٦٤) : ٢٠١

(ن)

ناپليون الأول : ٩٨
نارة أو نارا ، مدينة : ١٧٣ ، ٢١٢
نانج : ٢١٢
نانكينج أو نانكينج : ٤٠ ، ١٤٣ ، ١٨٦ ،
١٨٧ ، ٢٢٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٣
نانكينج ، حكومة : ٣٠٣ ، ٣٠٥
نانكينج معاهدة : ٢٩٠ ، ٢٩١
نتشه ، فردريك ولهم الفيلسوف الألماني
(١٨٤١ - ١٩٠٠) : ٧٢ ، ٩٨ ،
١٤٦ ، ٣١٤
النحت عند الصينيين : ١٧٥ ، ١٧٨
النسبورية والنساطرة : ١١٠ ، ٢٤٤ ،
٢٦٤
النسيج عند الصينيين : ٢٤٤ ، ٢٤٥
النظام العشري في الأعداد : ٢٥٢
النقابات : ٢٤٦ ، ٣٠٨
النقد عند الصينيين : ٢٤٩ وما بعدها
النقش في المعادن عند الصينيين : ١٧١ ، ١٧٥
النقش المنخفض عند الصينيين : ١٧٥ ، ١٧٦
النقل عند الصينيين : ٢٤٧ ، ٢٤٨
ننچو : ٢٩٠
ننچ دزونج إمبراطور الصين (حوالى ١٢١٢)
النهر الأصفر (انظر هوانج هو) : ١٢
نوما : ٢٣
نيويورك : ١١١

حلقا ، حزائر : ٢٨٩
المملكة أو الدولة الزاهرة الوسطى : ٢١٢
ملكة السماء أو المملكة السماوية : ٢٨٠ *
ملكة الشعب الزاهرة الوسطى : ١٢
المملكة الوسطى : ٦٩
منت مارتز : ١٩٥
منتج ، أسرة : ٨٣ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ،
١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
٢٢٨ ، ٢٥٤
منتج ليايغ : ١٣١
منتج هوانج ، إمبراطور الصين (٧١٣ -
٧٥٦) : ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢١ ،
١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٩٥ ،
١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٦٧
مندرين (لهجة) : ٣١٦
المنشو (أسرة) : ٦٦ ، ١٧٠ ، ٢١٣ ،
٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،
٢٥٢ ، ٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٣٠١
منشوريا : ١٠٤ ، ٢٢٩ ، ٣٠٠ ،
٣٠٤ ، ٣٠٥
منشوكو (انظر أيضاً منشوريا) : ٢٢٨ ،
٣٠٠ ، ٣٠٤
منشيس الفيلسوف الصينى (٣٧٢ -
٢٨٩ ق.م) : ٢١ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٧٠ ،
٨٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،
٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٥ ،
١٠٠
منفوليا : ١٣ ، ١٤ ، ٢٨١
مونشي ، المصور الصينى (القرن العاشر
الميلادى) : ٢٠١
مودى ، فيلسوف الحب العالمى (حوالى
٤٥٠ ق.م) : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
٨٦ ، ١٥٢
مؤسسة ركفلر للبحوث الطبية : ٣١٦ *
الموسيقى عند الصينيين ١٤٥ وما بعدها ،
٣١١

٢٨٩ ، ٢٦١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ٢٤٨
٢٩٢
المهند الصينيه : ١٠٤ ، ٢٢٩ ، ٢٩٣ .
المهندسة عند الصينيين ٢٥٣ ، ٢٥٢ .
المهندسة النظرية عند الصينيين : ٢٥٢
هنولولو : ٢٩٨
هوادو الكائنب الصينى المتطرف (القرن
الثالث) : ٢٥٤
هوان دوق تشى (٦٨٥ - ٦٤٣ ق.م) :
٢٠
هوانج إى الإمبراطور النانه (٧١٣ -
٧٥٦) : ١١٢
هوانج تونج : ١٤٠
هوانج دى الإمبراطور (٥٦٩٧ -
٢٥٩٧ ق.م) : ١٥ ، ٤٠
هوانج هو ، نهر : ١٢ ، ١٧ ، ١٩٩ * ،
٢٤٣
هو جوان : ٢٩٥
هو چى جانج السياسى الصينى (حوالى
٧٢٥ ، ١١٥
هو دزه الفيلسوف الصينى (القرن الثالث) :
٧٠
هو دزونج ، الإمبراطور (١١٠١ -
١١٢١) : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦
٢٧٦
هوشى الأديب المصلح (١٨٩١) . ٣١٦
٣١٧
الهولنديون : ٢٨٩
هوميروس أو هومر : ١٢٦
الهنون : ٩٨
هون : ١٣٤
هونان : ١٩ ، ١٠٣ * ، ١٢٧ ، ٢٠٨ ،
٢٣٦ ، ٣٠٢
هوانج چانج : ٢٩٤

(٥)

هارت ، بير ربرت ، السياسى الأيدلدى
فى الصين (١٨٣٥ - ١٩١١) * ٢٨٧
هال جامعة : ٩٤
هان ، أسرة : ٦٦ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩
١٣٧ ، ١٧٥ ، ١٩١ ، ٢٠٩ ، ٢٤٨
٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٨٤
هان ، أسرة هان الشرقية : ١٠٣ *
هان ، أسرة هان الغربية : ١٠٣ *
هان ، ولاية ٩٧٠
هانج تشاو : ١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥
٢٤٧ ، ٢٩٧
هانج هى : ٤٥
هان فى الناقد وكاتب المقالات الصينى (توفى
٢٣٣ ق.م : ٣٠ * ، ٧٢
هان كان الفنان الصينى (حوالى ٧٣٠ م)
٢٠٤
هان يوكاتب المقالات الصينى (٧٦٨ -
٨٢٤) : ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،
١٩٤ ، ١٩٦
هاوى : ٢٩٨
هار شى چى أو الفنان الخزاف الصينى
(حوالى ١٦٠٠ م) : ٢١١ ، ٢١٢
هبز ، الفيلسوف الإنجليزى (١٥٨٨ -
١٦٧٩) : ٨٤
هرموديوس الوطنى الأثينى (حوالى ٥٢٥
ق.م) : ٢١
هريوچى هيكل : ١٧٣
هكوجا : ٢٧٤ *
هلل الكاهن اليهودى التلمودى (حوالى
١١٠ ق.م) : ٥٨
هنج كنج : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠
المهند : ١٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١١٠ ، ١٧٠ ،
١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٢٧ ، ٢٤٣

ون تيان شانج العالم الوطنى الصينى (حوالى
١٢٦٠ م) : ٢٢٤

ون دى الإمبراطور (١٧٩ - ١٥٧ ق.م) :
١٠٣

ونلارس : ٢٣٩

ون وانج ، الإمبراطور (حوالى ١٢٢٣
ق.م) : ٢٧

وودائ شان : ١٨١

وودو دزه المصور الصينى (ولد حوالى
١٠٠ م) : ١٩٦ ، ١٩٧

وودى الإمبراطور (١٤٠ - ٥٧ ق.م) :
٢٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢٤٩

ووسونج : ٢٤٧

ووشو العالم الصينى (٩٤٧ - ١٠٠٣ م) :
١٥٩

وولى : ١٧

ووى شان : ١٨١

ويلى آرثر : ١١٢ ، ١١٣ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
ويه دوق : ٨٧

ويه ، نهر : ٢٩

ويه ، ولاية : ٧٤ ، ٧٧

(ى)

اليابان : ٢١ ، ٦٦ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ،

١٧٠ ، ١٧٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٢ ،

٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٨٢ ، ٥٢١٢

٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،

٣٠٨ ، ٣١٧ ،

اليابانى ، واليابانيون : ١١ ، ١٦٨

يانج نجو ، الفيلسوف الصينى الأبيقورى

(حوالى ٣٩٠ ق.م) : ٧٣

يانج جونغج : ١١٣ ، ١٢١

يانج جوى (المتوفى حوالى ٧٥٥) :

١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٤ ،

١٣١

هونج دو ، الإمبراطور (١٣٨٦ -
١٣٩٩) : ٨٣

هونج سيوتشوان رعيم نابينج (توفى عام
١٨٦٤) : ٢٩١

هوى دزونج الإمبراطور (١١٠١ -
١١٢٤ م) : ١٥٢

هيجل : ٣٤

هيرودوت : ١٢٤

هيكال بوذا التام : ١٨٠

هين يانج : ٩٩

هيوم : ٢٠٥

هيونج نو ، انظر زيونج نو

(و)

وانج آن شى السياسى الصينى الاشتراكى
الزعة (حوالى ١١٧٠) : ١٤٧ ، ١٤٨

١٥٠ ، ١٥١

وانج چيه الطابع الصينى (حوالى ٨٦٨) :
١٥٥

وانج شو - هو الكاتب الصينى فى الطب
(حوالى ٣٠٠) : ٢٥٤

وانج شى چى ، الإمبراطور (٥ - ٢٥ م)
١٨٩

وانج مانج الإمبراطور ١٠٦٠ ، ١٠٠٠ ،
١٤٨

وانج ويه أو وى المصور الصينى (٦٩٩ -
٧٥٩) : ١٩٦ ، ١٩٥

وانج يانج منج للفيلسوف الصينى (١٤٧١ -
١٥٢٨) : ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣

١٦٤ ، ١٩٤

وان لى ٢١١ انظر أيضاً شن دزونج

واى شنج : ٢٦٨

وردسورث ، وليم الشاعر الإنجليزى
(١٧٧٠ - ١٨٥٠) : ٢٠٦

ولتر سفليج لاندر الأديب الإنجليزى :
(١٧٧٥ - ١٨٦٤) : ٧٩

يوآن ، أسرة ، انظر المغول ، أسرة ،	يانج دزه (نهر) : ١٢ ، ٢٠٠
٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧	يانج هو : ٧٥
يو آن چوانج ، الرحالة الصينى فى الهند	يان هوى تلميذ كنفوشيوس (حوالى ٥٠٠
(القرن السابع) : ١١٠	ق.م) : ٤٢
يوان شى كائى ، رئيس الجمهورية الصينية	اليانج والين : ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦١ ، ٢٥٣
(١٨٤٥ - ١٩١٦) : ٣٠٤	٢٥٧
يو دزه الفيلسوف الصينى (حوالى ١٢٥٠	اليسوعيون (الجزويت) : ٢٢٩ ، ٢٦٤
ق.م) : ٢٥	ينج چو : ٧٥ ، ٧٦
يوم الحساب ، تصوير ميكلا أنجلو : ١٩٦	ين شى : ٣٠
اليونان ، بلاد : ١١ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ١٣٥ ،	ين لى المصور (القرن السابع الميلادى) : ١٩٠
يونج لو الإمبراطور : ٢٢٨	اليهود ، بلاد : ١١ ، ٢٨
يونج لو ، إمبراطور الصين (١٤٠٣ -	يو الإمبراطورى (٢٣٥٦ - ٢٢٥٥ ق.م) :
١٤٢٥) : ١٥٩	١٦ ، ١٧ ، ٤٤ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٨٨
يون كان : ١٧٧	يو الإمبراطور (٢٢٠٥ - ٢١٩٧ ق.م) :
يون من : ١٧٧	١٧٢ ، ١٧٥

فهرس

الشرق الأقصى

١ - الصين

الموضوع	الصفحة
تاريخ مسلسل للحضارة الصينية	٥
الباب الثالث والعشرون : عصر الفلاسفة	٩
الفصل الأول : نشأة الفلسفة	٩
١ - قدر الصينيين	٩
٢ - الدولة الوسطى الزاهرة	١١
وصف البلاد الجغرافي - الجنس الصيني - ما قبل التاريخ	
٣ - القرون الفائرة المجهولة	١٤
قصة الخلق عند الصينيين - بداية الثقافة - الحر	
وعصى الأكل - الأباطرة الأفاضل - ملك كافر	
٤ - الحضارة الصينية الأولى	١٩
عصر الإقطاع في الصين - وزير قدير - النضال	
بين المادات والقوانين - الثقافة والقوضى -	
أغانى الحب في كتاب الأغاني	
٥ - الفلاسفة قبل كنفوشيوس	٢٦
كتاب التغيرات - ليانج والين - عصر الاستنارة	
الصينية - تنج شى - سقراط الصين	
٦ - المعلم القديم	٣٠
لو ذره - الدو - رجال الفكر في الحكومة	
سخف القوانين - مدينة فاضلة على غرار مدينة روسو	
وقانون أخلاقى على غرار القانون المسيحى - صورة	
للرجل الحكيم - التقاء لو ذره وكنفوشيوس	
الفصل الثانى : كنفوشيوس	٤٠

الموضوع	الصفحة
١ - الحكيم يبحث عن دولة ٤١	٤١
مولده وشبابه - زواجه وطلاق زوجته - تلاميذه	
وطرائفه - مظهره وأخلاقه - السيدة والنمر - تعريف	
الحكومة الصالحة - كنفوشيوس في منصبه - سنو	
التجوال - سلوى الشيمخوخة	
٢ - الكتب التسعة ٤٩	٤٩
٣ - لا أدريه كنفوشيوس ٥٢	٥٢
هتامة في المنطق - الفلاسفة الصينيان - دستور للحكمة	
٤ - طريقة الرجل الأعلى ٥٦	٥٦
صورة أخرى من صور الحكيم - عناصر الأخلاق -	
القاعدة المهيبة	
٥ - سياسة كنفوشيوس ٥٩	٥٩
سيادة الشعب - الحكم بالقنوة - عدم تركيز الثروة -	
الموسيقى والأخلاق - الاشتراكية والثورة	
٦ - أثر كنفوشيوس في الأمة الصينية ٦٤	٦٤
العلماء الكنفوشيون - انتصارهم على القانونيين -	
عيوب الفلسفة الكنفوشية - جذة مبادئ كنفوشيوس	
الفصل الثالث: اشتراكيون وفوضيون ٧٠	٧٠
١ - مودى القيرى ٧٠	٧٠
منطق قديم - مسيحي - وداعيه سلام	
٢ - يانج چو ، أفانى ٧٣	٧٣
جبرى أبيقورى - الدفاع عن الشر	
٣ - منشيس ، مستشار الأمراء ٧٧	٧٧
أم أنموذجية - فيلسوف بين الملوك - هل الناس أخيار	
بالمليقة - الضريبة الفردية - منشيس والتبوعيون -	
باعث الكسب - حق الناس في أن يثوروا	
٤ - شون دزه ؟ واقمى ٨٤	٨٤
النفس البشرية أمارة بالسوء - ضرورة القوانين	
٤ - چونج دزه ؟ مثالى ٨٦	٨٦
الرجوع إلى الطبيعة - المجتمع اللاسكوى - طريقة	
الطبيعة - حدود الذهن - تطور الإنسان - مشكل	
الأزوار - أثر الفلسفة الصينية في أوربا	

الباب الرابع والعشرون : عصر الشعراء

الفصل الأول : بسمرك الصين ٩٧

عهد الدول المتنازعة - انتحار تشو بينج - شي هونج دى -
يوحد الصين - للصور الكبير - إحراق الكتب -
إخضاع سى هونج دى

الفصل الثانى : تحارب فى الاشتراكية ١٠٣

الموضى والفقر - أسرة هان - إصلاحات وو دى -
ضريبة الدخل - مشروعات وانح مانج الاقتصادية -
القضاء عليها - غزوالتتار

الفصل الثالث : مجد تانج ١٠٩

الأسرة المالكة الجديدة - خطة ناي دزونج فى تقايل
الجرانم - عصر رخاء - « الإمبراطور النابه » -
رواية يانج - حوى - فى - ثورة آل لو - شان

الفصل الرابع : الملاك المنفى ١١٥

قصة لى بو - شانه وبسانته وجهه - على القارب الإمبراطورى -
إنجيل الكرم - الحرب - تجوال لى بو - فى السجن - الشعر الخالد

الفصل الخامس : من خصائص الشعر الصينى ١٢٦

التعليم الطليق - التصوير - كل قصيدة صورة
وكل صورة قصيدة - العاطفية - كمال الشكل

الفصل السادس : دو فر ١٢٩

داوتشين - بو - جوى - قصائد اشفاء الملايا - دونو
ولى بو - رؤيا الحرب - أيام الرخاء - الإملاق - الموت

الفصل السابع : النثر ١٣٥

وفرة الآذات الصينية - الروايات الغرامية - التاريخ -
زوماتشين - المقالات - هان - يو على نظام بوذا

الفصل الثامن : المسرح ١٤٢

منزلة الوضيعة فى الصين - منشؤه - المسرحية -
النظارة - الممثلون - الموسيقى

الباب الخامس والعشرون : عصر الفنانين ١٤٨

الفصل الأول : النهضة فى عهد أسرة سونج ١٤٨

١ - اشتراكية وانج آن شى ١٤٨

أسرة سونج - رئيس وزراء متطرف - طريقة فى
هلاج التمثل - تنظيم الصناعة - قوانين الأجور

الصفحة

الموضوع

- والأثمان - تأمين التجارة - مشروعات الدولة للتأمين
من التعمل والفقر والشيخوخة - المناصب العامة
بالامتحان - هزيمة وانج آن شى
- ١٥١ ... ٢ - إحياء العلوم ...
ازدياد عدد العلماء - الورق والحبر في الصين -
خطوات في سبيل اختراع الطباعة - أقدم كتاب
معروف - العملة الورقية - الحروف المتنقلة -
مجموعات الرسائل ، ومعاجم اللغة والموسوعات
- ١٥٩ ... ٣ - بحث الفلسفة ...
جوشى - وانج يانج منج - ما وراء الخير والشر
الفصل الثانى : البرنز واللك واليشب ... ١٦٦
منزلة الفن في الصين - المنسوحات - الأثاث - الحل
المراوح - صنع الملك - قطع حجر اليشب - روائع فنية
في البرنز - النحت الصينى
- ١٧٩ ... الفصل الثالث : المعابد (اليجودات) والقصور ...
العمارة الصينية - برج تانكج الخنزى - بجودا بيچج
اليشى - هيكل كنفوشىوس - هيكل السماء ومذبحه -
قصور كوبلاى خان - بيت صينى - داخل البيت - لونه وشكله
- ١٨٨ ... الفصل الرابع : التصوير ...
١ - أساتذة فن التصوير الصينى ... ١٨٨
جوكاى چيه أعظم مصور وأعظم فكه وأعظم أبه -
صورة هان يو الصنيرة - المدرستان الإتباعية والابتدائية
وانج واى - وو داو دزه - هو دزونج الإمبراطور
الفنان - أساتذة عصر سونج
- ٢٠٢ ... ٢ - خصائص فن التصوير الصينى ..
نبد فن المنظور - الواقعية - الخط أسمى من اللون -
الشكل إيقاع - التصوير بالإيحاء - العرف والقيود -
أمانة الفن الصينى وإخلاصه
- ٢٠٧ ... الفصل الخامس : الخزف الصينى ...
فن الخزف - صنع الخزف - تاريخه القديم - اللون
الأخضر الحائل - الطلاء بالمينا - براعة هاو شى چيو -
تقاسيم الطلاء - عصر كانج شى - عصر تشين لونج

الباب السادس والشرون : الشعب والدولة

الفصل الأول : نبذة تاريخية ٢١٨

١ - ماركو پولو يزور كوبلاي خان ٢١٨

رحالة لا يصدقون - فندق في الصين - جمال

هانجتشان ورخاؤها - قصور بيچنج - فتح

المغول - چنكيز خان - كوبلاي خان -

أخلاقه ومواسمه - نساؤه - ماركو الملايين

٢ - أسرتا منج وچنج ٢٢٧

سقوط المغول - أسرة منج - غزو المنشو - أسرة

جنج - ملك مستنير - شين اونج يأبى قبول الأفكار الغربية

الفصل الثاني : الصينيون ولعهم ٢٣٢

تعداد السكان - مظهرهم الخارجى - ملابسهم -

خصائص اللغة الصينية - خصائص الكتابة الصينية

الفصل الثالث : الحياة العملية ٢٤٠

١ - في الحقول ٢٤٠

قصر الزراع - الوسائل الاقتصادية - المحصولات -

الشاي - الطعام - صبر أهل القرية

٢ - في المتاجر ٢٤٤

الحرف اليدوية - الحرير - المصانع - الطوائف -

الحمالون - الطرق والتقنات - التجار - الاثبات

والعقود - تجارب في العملة المتداولة - التضخم الناشئ من الطباعة

٣ - المخترعات والعلوم ٢٥٠

البارود - الألعاب النارية والحروب - نذرة المخترعات

الصناعية - الجغرافية - الرياضيات - الطبيعة -

فتح شوى - التملك - الطب - تدبير الصحة

الفصل الرابع : دين بلا كنيسة ٢٥٦

الخرافات والتشكك - عبادة الطبيعة - عبادة السماء -

عبادة الأسلاف - الكنفوشية - الدوية - لكسير

الخواود - البوذية - التسامح الدينى والالتصوف -

الإسلام - المسيحية وأسباب إخفاقها في الصين

الفصل الخامس : حكم الأخلاق ٢٦٥

ما للأخلاق من مكانة سامية في المجتمع الصينى - الأمرة -

الأمطال - العقدة - الدعارة - العلاقات الجنسية قبل

الزواج - الزواج والحب - الاختصار على زوجة واحدة

وتعدد الزوجات - التسرى - الطلاق - إمبراطورة
صينية - الحكم الأبوي للذكور - خضوع النساء
للرجال - الخلق الصيغى

الفصل السادس : حكومة بثني عليها فلتير ٢٧٧

الفرد المغمور - الحكم الذاتي - القرية والإقليم - تراخى
القانون - صرامة العقاب - الإمبراطور - الرقيب -
الحال الإداري - الإعداد للمناصب العامة - الترشيح بالتعاين
نظام الامتحانات - عيوبه - وفوائده

الباب السادس والعشرون : الثورة والتجديد ٢٨٨

الفصل الأول : الخطر الأبيض ٢٨٨

النزاع بين آسية وأوربا - البرتغاليون - الأسمان -
المولنديون - الإنجليز - تجارة الأفيون - حروب الأفيون
- فتنة نينج تاي - منج - حرب اليابان - محاولة تمزيق
الصين - « الباب المفتوح » - الإمبراطورة الوالدة -
إصلاحات كوانج شو - عزله - الملاكون - الغرامة الحرية

الفصل الثاني : حضارة تموت ٢٩٧

طلعة الغرامة الحرية - تشر بهم بالحضارة الغربية -
أثرهم في تفكك الوحدة الصينية - عمل المبشرين -
صون يات صن المسيحي - مغامراته في شيايه -
التقاؤه بهونج جانج - تدبيره للثورة - نجاحهما -
يوان شى كاي - موت صون يات صن - الفوضى
والنهب - الشيوعية - الشمال يهدأ - جيانج كاي
شك - اليابان في منشوريا

الفصل الثالث : بداية عهد جديد ٣٠٦

التغير في القرية - وفي المدينة - المصانع - التجارة -
اتحادات العمال - الأجور - الحكومة الجديدة - القومية
واتباع الأساليب الغربية - إزلال كنفوشيوس عن عرشه
مناهضة الدين - المبادئ الخلقية الجديدة - التحول في نظام
الزواج - تحديد النسل - التعليم المشترك بين الذكور
والإناث - « التيار الجديد » في الأدب والفلسفة - لغة الأدب
الجديدة - هو شى - عناصر التدمير - عناصر التجديد .